

الأستاذ الدكتور
محمد صالح ربيع العجيلي

مثلث الرعب العالمي



الجهل

Ignorance



مثلث الرعب العالمي

الجهل

الإرهاب

الجريمة

الجزء الأول

Ignorance الجهل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

صدق الله العظيم

البقرة: الآية 281

الإهداء

إلى زوجتي الغالية
رَحِمَهَا اللهُ

سَتَبَقِينَ عَلَى قَبْدِ الْحَيَاةِ بِأَضْلَعِي
كَمَا كُنْتِ دَوْمًا فِي الْعَيُونِ مُمَجَّدًا
لِمَتْلَاكِ يَدِّخِرِ الرِّجَالَ دَمُوعَهُمْ
لِمَتْلَاكِ تَنَسَابِ الْمَدَامِعِ عَسَجْدًا
وَقُوفًا يَمُوتُونَ الْعِظَامَ كَنَخْلَةٍ
عَلَى قَمَّةِ الدُّنْيَا فَيَنْتَشِرُ النَّدَى
غَرِيبًا بَعْدَكَ صِرْتُ كَمِيلَتِي
أُصَارِعُ أَمْوَاجَ الْبِحَارِ مُقَيَّدًا
غَلَبَ السَّوَادُ فِي قَلْبِي وَهَاجِسِي
وَأَصْبَحْتُ أَرَى الْأَبْيَضَ أَسْوَدًا
وَلَوْ أَمَرَ اللهُ السُّجُودَ لِمُسْلِمٍ
سَجَدْتُ لَكَ وَجَعَلْتُ بَيْتِي مَسْجِدًا

محتويات الجزء الأول

7	الفصل الأول: سمات الجاهلية في القرن الحادي والعشرين
8	أولاً- مفاهيم عامة
15	ثانياً- بعض سمات عصر الجاهلية الأولى
23	ثالثاً- الإسلام والنهوض الحضاري
26	رابعاً- بعض سمات جاهلية القرن الحادي والعشرين
41	خامساً- دوافع الترويج للجهل والشذوذ
	خلاصة الفصل
49	الفصل الثاني: الانحراف الاجتماعي والفكري
50	المبحث الأول: الانحراف الاجتماعي
51	أولاً - مفهوم الانحراف
52	ثانياً-كيف ينحرف الإنسان
53	ثالثاً-دوافع الانحراف
59	رابعاً-نظريات الانحراف الاجتماعي
65	خامساً- نتائج الانحراف وآثاره
66	سادساً- معالجة لانحرافات
67	سابعاً- دور المجتمع في تقليل الانحراف
68	ثامناً- دور الأسرة في تهذيب الانحراف
73	المبحث الثاني: الانحراف الفكري
74	أولاً- مظاهر الانحراف الفكري
76	ثانياً-العوامل المسببة للانحراف الفكري
83	ثالثاً-آثار و مخاطر الانحراف الفكري
88	رابعاً-أهمية الأمن في حياة الأفراد والمجتمعات
88	خامساً-مظاهر الانحراف الفكري في بعض الدول العربية
90	سادساً- أسباب الانحراف الفكري في الدول العربية
92	سابعاً-الوقاية والعلاج من الفكر المنحرف
105	الفصل الثالث : انحدار القيم الأخلاقية للمجتمعات (مجتمع المدينة العربية أنموذجا)
106	أولاً - بعض مفاهيم الأخلاق والقيم الأخلاقية

109	ثانيا- ما هو الانحراف الأخلاقي؟
111	ثالثا- السلوك الإنساني
113	رابعا - الأصالة الإسلامية في القيم الأخلاقية لمجتمع المدينة العربية
115	خامسا : التحضر العربي ومشكلاته الأخلاقية
171	سادسا- شواذ التحضر العربي وتغير القيم الأخلاقية
121	سابعا- سبل الحفاظ على القيم الأخلاقية للمجتمع العربي
124	ثامنا- التربية الإسلامية أساس الحفاظ على الأخلاق
128	تاسعا-الإسلام وتجدد الحياة
135	الفصل الرابع : التخلف وأنواعه
136	أولا- مفهوم التخلف
137	ثانيا- أنواع التخلف
153	ثالثا- وجهات نظر حول التخلف
154	رابعا-التخلف العلمي
178	خامسا- أسباب تخلف العرب
187	سادسا-بعض السبل للخروج من مأزق التخلف
192	الفصل الخامس : الجهل أو تجاهل القيم الدينية
193	أولا: فلسفة الدين والعقل والجهل
203	ثانيا: الإسلام في حياة المجتمع الحضري العربي
221	الفصل السادس:الشدوذ الجنسي المثليين(اللواط والسحاق) ،الزنا
227	المبحث الأول- المثلية الجنسية
243	المبحث الثاني- اللواط
243	أولا- تعريف اللواط
244	ثانيا- الإدمان على الممارسة وكيفيةها
244	ثالثا- من هم الضحايا لممارسة اللواط؟
245	رابعا- أسباب اللواط؟
246	خامسا- الأضرار الناتجة عن ممارسة اللواط
247	سادسا- حكم الشرع الإسلامي في اللواط
247	سابعا-سبل التخلص من هذه الظاهرة
248	ثامنا-حماية الزوجين من الشذوذ الجنسي
249	تاسعا-ممارسة الجنس بالفم

251	المبحث الثالث- السحاق Lesbianism
252	أولا- مصطلحات خاصة بالموضوع
256	ثانيا- مظاهره
257	ثالثا- أسبابه
258	رابعا-السحاق بين الزوج والزوجة
261	خامسا- السحاق حسب رأي علماء النفس
263	سادسا-الأضرار المترتبة عن السحاق
263	سابعا- الحكم الشرعي عن السحاق
265	ثامنا-الوقاية والعلاج
266	المبحث الرابع - الزنا
266	أولا- تعريف الزنا
266	ثانيا- أضرار الزنا
268	ثالثا- عقوبة الزنا في الشرع
269	رابعا- زنا المحارم
272	خامسا- الأمراض الناتجة عن الزنا
277	الفصل السابع: الانتحار Suicide
280	أولا- تحليل دوافع وأسباب الانتحار
284	ثانيا-أسباب الانتحار لدى المراهقين
289	ثالثا- العمليات الانتحارية
290	رابعا-ملاحظات على الانتحار
290	خامسا-الانتحار في رأي الديانات
291	سادسا- توزيع وتحليل حالات الانتحار في العالم
301	سابعا-علاج ظاهرة الانتحار
301	ثامنا-المخدرات والانتحار Drugs & Suicide
304	تاسعا-الانتحار والاكتئاب Suicide Depression
305	عاشرا-الاكتئاب Depression
309	حادي عشر- طرق علاج الاكتئاب

مقدمة:

تتغير الأزمان وتغير معها الإنسان وتغيران معهما جميع مفردات الحضارة وجزئياتها من فنون وآداب وفلسفة وتشريع وقيم وعادات وأفكار ، فالزمن كفيل بتغيير كل شيء ، فانعدمت عندنا الأخلاق الحسنة وسادت محلها الرذيلة وسوء الخلق، وتغيرت عندنا عفة النساء والحياء إلى الخيانة والجهر بالسوء، وحل الجهل محل العلم رغم كثرة سبل الوصول إليه على عكس ما كان في الماضي، وترسخت الكراهية بدلا من المحبة التي أوصت بها جميع الأديان، وكثر القتل والهرج والمرج بدلا من التسامح والتعاون بين الناس، ومات العدل والعدل بين الخلق تماما وحل محله الفرقة والتعدي على أموال الآخرين، وساد الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه أفرأيتم أن تأتي أقواماً يرون المعروف منكراً والمنكر معروفا قالوا أهو كائن يارسول الله ؟ قال بل أكثر من ذلك! قال ﷺ أرايتم أن تأتي أقواما ينهون عن المعروف ويأمرون بالمنكر قالوا أهو كائن يارسول الله ؟ قال بل أكثر من ذلك! وهناك نوعان من التغيير حدثا على مر التاريخ أولاهما: ايجابي رافق عصور الأنبياء وما يدعون إليه بإيعاز من رب العزة، وثانيهما سلبي رافق البشرية بعد أن انتقلت رسلهم إلى رفيقهم الأعلى، فانقلبوا إلى ما دعوا إليه ، وهكذا دواليك إلى إن جاء عصر النبي الخاتم ﷺ فغير وجه التاريخ باتجاه الإصلاح والبناء إلى حين نزل قول الحق جلا وعلا : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾ (المائدة : الآية 3) ولكن بعد ذلك ابتعد الناس رويداً رويداً ومنهم المسلمين ابتعدوا عن دينهم ، ووصل الابتعاد ذروته في عصرنا الحالي الذي يستحق تسمية عصر الجاهلية ، لأنه يفوق بهمجيته وبشاعته العصور السالفة التي كانت لديها الكثير من القيم والأعراف والتقاليد شكّلت في حينها ركيزة حضارية فذة رغم أنها عاشت قبل الإسلام.

ولا غرابة في ذلك بعد أن وصف رب العالمين الإنسان بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** ﴾ (الأحزاب : الآية 72) وهو وصف صريح بجهالة الإنسان وظلمه وتعسفه حتى على نفسه بعضيان ربه.

وإذا كان الغرب يتبجح بتقدمه وتطوره حضارياً فان ذلك هو تقدم مادي فقط، فما هو تعريفه لهذا التقدم المبني على دماء الشعوب وإقصاءهم وتهميشهم ، وكيف يسمى تطور وقد سرق مادته وأدواته من شعوب بائسة مقهورة!! وما شكل حضارته المضيئة وقد اطفأت سراج البشرية ليعيشوا بظلام دامس!! حضارة قامت لتنتج لنا العولمة ذلك الفخ الذي أسقطت فيه شعوب الأرض بقيمهم وتقاليدهم ، حضارة أنتجت لنا القرية الكونية التي استباححت أخلاق الناس وحولتهم إلى قطيع

يسير خلف الركب! بعد أن سلب منهم كل شيء، حضارة أنتجت اليورانيوم المنضب والقنابل النووية، حضارة قائمة على حق الفيتو في مجلس الأمن الدولي لنصرة الباطل على الحق، حضارة تشرع القوانين لتنظيم حياة المثليين وتشجيع اللواط والسحاق والدعارة وما يتولد منها من جرائم، حضارة تولد عنها تشرد الشعب الفلسطيني وشعب عراقي مشرد وأيتام وأرامل وجوع وحرمان ومرض!! وما يتولد عن ذلك من مطالبة بالحق تصل إلى حد حمل السلاح ليتوج بعدها بتهمة الإرهاب! إنها حقاً الجهالة! وليست الحضارة تلك التي عرفناها في بغداد إبان عزها ومجدها والتي أنارت العالم واحتضنت العلماء وأفشت السلام بين الناس، فشتان بين حضارة الأمس وحضارة اليوم.

يعيش العالم اليوم في مخاض عسير غامض النتائج، تلفة مصائب جمة حلولها مبهمة وتكاد أن تكون بلا حلول، بعد أن اختلت الموازين وانعدمت العدالة سواء في توزيع الثروات أو احترام إرادة الشعوب، وبعد أن احتكرت الدول الغاشمة لنفسها الحرية والديمقراطية ومنعتها عن الشعوب الأخرى، وكأن حال لسان الدول المتقدمة يقول لا غيرنا يستحق الحياة! وبالتالي سادت الفوضى التي نراها اليوم وانتشر الإرهاب وازدادت الجريمة، وهذه الظواهر إنما تبرز حينما يشعر مجتمع ما أو الفرد أن لا عدالة على سطح الأرض، وحينما تُسلب الحقوق وتهان الكرامة وتسرق الثروات ويقتل كل من يطالب بهذه الحقوق.

ترى ما درجة الجهل الذي وصلنا إليه؟ وما سماته؟ وما اختلافه عن عصور سابقة جاهلة؟ وما انعكاساته على البشرية؟ والى أي درجة يشكل جريمة على الآخرين؟ وما صفات الجرم لكل تصرف جاهل ينتج عنه؟ وما أنواع الجرائم؟ وما أنواع التخلف الذي يولد جرائم جديدة؟ وما العلاقة بين الجهل والجريمة والإرهاب؟ هذه التساؤلات وغيرها دفعتنا للخوض في هذا الموضوع المعقد والشائك محاولين أن نوضح ما غمض منه والكشف عن ما خبيء فيه من عادات وتقاليد وقيم مع إمكانية الإرشاد إلى إمكانية تجنب أضراره وسيئاته على البشرية وبخاصة من هم بعيدين عن صناعته، ويقدر ما نحصل عليه من معلومات وبيانات تساعدنا في ذلك محاولين جهد الإمكان سبر أغوار عوالم الجهل والجريمة والإرهاب وتوزيعها على مناطق العالم ومركزين بشكل كبير على البلدان العربية قدر تعلق الأمر بأممنا طالبين من العزيز القوي أن يمدنا بعون منه ورحمة لخدمة جيل يكاد أن يضيع في زحمة الشعارات الزائفة .

والله من وراء القصد

المؤلف

2012

الفصل الأول

سمات الجاهلية في القرن الحادي والعشرين

أولاً- مفاهيم عامة

1- القيم

تؤدي القيم في حياة الإنسان دوراً مهماً وأساسياً لأنها موجهة لسلوكه ومنظمة لِرغباته ومحققه لاحتياجاته وطالما وجدت قيم وأصبحت شائعة في الأنشطة اليومية فقد أصبحت تمثل شريعة الحياة في المجتمع ومؤشراً إلى أن سلوك الإنسان مرتبط بهذه القيم ولا يستطيع الخروج من دائرتها. وللقيم أهميتها في إحداث التوازن في المجتمع بين المادة والروح خاصة في القرن الحالي الذي طغت فيه المادة على الروح وتخلّى الفرد عن قيمه أو بعضها في مقابل المادة مما أدى إلى تفكك المجتمع وعدم رقيه والنهوض به.

تعتبر القيم الأخلاقية في هذا القرن من أعظم الغايات التي تسعى كلاً من الأسرة والمدرسة وجميع مؤسسات التنشئة الاجتماعية للعمل على غرسها وتنميتها عند كل طفل ولعل هذا الاهتمام لم يكن وليد الصدفة بل دعت إليه الحاجة وهذا ما يؤكد الكثير من الباحثين حيث يرون أن معظم مشكلات مجتمعاتنا الراهنة هي مشكلات أخلاقية⁽¹⁾، والقيم الأخلاقية تمتد لتشمل الصدق ، الأمانة ، الوفاء ، العدل ، والرحمة الخ. هناك قيم أخلاقية إيجابية وقيم أخلاقية سلبية.

- القيم الأخلاقية الإيجابية وتشمل :

أ- الإيمان بالله

يعنى التسلم من جانب الإنسان بأن هناك إلها واحدا للكون واليقين الصادق بوجوده وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقضاء والقدر، شريطة أن يعمل بهما قولاً وفعلاً.

ب- الحب

هو عاطفة تفيض بالمشاعر الخيرة نحو إسعاد الناس والعمل على كل شئ يفيدهم. والحب هو ليس علاقة عاطفية بين شخصين كما هو شائع، بل الحب يعنى العطاء والاستجابة والتضحية، ولعل أوثق علاقة حب هي حينما تكون بين العبد وربه.

ج- التواضع

هو الحرص على معاملة الناس معاملة طيبة وكريمه وحسنه وذلك بغض النظر عن المركز أو الثروة أو الاسره على اعتبار أن الناس سواسية، والتواضع هو عكس التكبر.

- القيم الأخلاقية السلبية والتي منها:

أ- الشرك بالله

يعنى عدم الإيمان بالله تعالى إلهًا واحدًا واتخاذ أشكال متعددة للعبادة من دون الله سبحانه وتعالى أو رفض وجود الله وهذا هو الإلحاد والكفر.

ب- الكراهية

شعور سلبي تجاه الأفراد وتمني الفرد أن تزول النعمة عن غيره مع كراهية النفع بها، وهذه تقود إلى البغضاء والتناحر وهي من الأمراض الخطيرة في المجتمع.

ج- الغرور

نظرة الفرد للآخرين على أنهم دون المستوى اللائق به نظراً لمركزه الأسرى أو الوطني أو الوظيفي فيسيء معاملتهم ويظهر أنه متميز عنهم.

أصبح الاهتمام بالقيم الدينية في العصر الحالي أمراً ضرورياً، وأضحى من الصعوبة بمكان مواجهة المشكلات التي يتعرض لها المجتمع الحديث إلا إذا أدركت المؤسسات التربوية والاجتماعية وفي مقدمتها وسائل الإعلام بمختلف أنواعها أهمية القيم الدينية.

كان الدين ولا يزال من عوامل تحريك السلوك الإنساني ووضع في صيغة معينة، ويجمع دارسوا السلوك الإنساني على أن الدين يعد من أقوى الركائز التي تقوم عليها أخلاق الناس وتعاملهم وسلوكياتهم وبخاصة المراهقين، وقد اخطأ الذين زعموا إنه من الممكن أن تقوم أخلاق بغير دين وحتى إذا قامت فإنها تكون أخلاقاً سطحية وجوفاء.

الواقع إن الدين يتصل أكثر ما يتصل بصلب شخصيه الإنسان وخاصة الشباب، ولذا فإن الأخلاق التي تقوم على الدين هي أخلاق متصلة بالشخصية وترتبط بمحور كيانها على اعتبار أن الدين عقيدة وشعور وسلوك، وبناء على ذلك نجد أن الأسرة التي تهتم بالدين والتي تنشأ فيها الروح الدينية الحقيقية أكثر الأسر قدرة على تنشئه صالحة قويمه.

تعد القيم المعرفية والثقافية قيمة إنسانية واجتماعية لا تقدر بثمن، فكيف إذا افتقدت، أو تجدها كسيحة، وهي تترجم حالات عقيمه، ومضامين خاطئه، لقد هزلت المعرفة العربية تماماً على أيدي أناس أخذوا يتطفلون على مجال العلم وهم بلا تخصص وبلا منهج وبلا أسلوب وبلا فكر، بل تجد بعضهم بلا أية أخلاق عندما يريد فرض وصاياه على المختصين والعلماء الأكاديميين الحقيقيين⁽²⁾، إننا نعيش اليوم انحداراً معرفياً لم تشهده حياتنا كالتى تربينا على مناهجها في القرن العشرين، بل نشهد اليوم فوضى عارمة في الكتابة والنشر والتأليف في كل التخصصات ، وفي مجمل التصانيف.

لقد غابت القيم المعرفية والأخلاقية والمنهجية عن مجتمعاتنا وضاعت معها العادات والتقاليد الأصيلة، وضاع التمييز بين الغث والسمين، وأخذ الجيل الجديد يفرض أجندته السياسية والعقائدية على المعرفة، وسجنت كل الإبداعات، وتم تقييدها بالأغلال ليس من قبل الأنظمة السياسية، كما كان في الماضي، بل أمست اليوم مقيدة من قبل الأنظمة

الاجتماعية التي تسودها الفوضى وفقر الأخلاق، أصبحت موضوعات خطيرة يعبت بها طفيليون لا يقيمون للمعرفة وزناً، ولا للمناهج قدرًا، ولا لأصحاب التخصص من العلماء قيمة، وإذا ما انتقدوا على أخطائهم، فهم يردون بحماقة ردودًا سيئة ومن دون أية أخلاق، إذ لا حجة عندهم، ولا رأى لديهم، بل ينحدرون إلى مستوياتهم الضحلة كي يشتمون ويسبون، إذ ليس لديهم أي سلاح إلا البذاءات التي تعبر عن انحطاط تربيتهم، وقلة أدبهم، وسوء أخلاقهم، ورعونة تصرفاتهم!

انشغلت مجتمعاتنا بالمستحدثات الجديدة التي نقلت الحياة من طور إلى آخر، وكان ذلك على حساب القيم التي كان المجتمع يقدرها حق قدرها، فالمعرفة كان لها أصحابها من العلماء والمختصين الحقيقيين، المؤهلين لها، والذين لا يمكنهم أن يجازفوا بمعالجة أي موضوع إن لم يتمكنوا منه، فهما ودقة ومنهجا وأسلوبًا، كانوا يميزون بين المعلومة وحيثياتها وبين الرأي وصنوفه، وعندما يواجهون نقدًا معينًا، فهم يتقبلون تصويب المعلومات، ولكنهم يجادلون في الرأي والرأي الآخر، وبأخلاقية عالية وثقافة واسعة، ولا يصدرن أحكامًا، إلا بعد التأكد من مراجعة مصادر الموضوع ومقارنة مراجعه، فهم يميزون بين المصدر والمرجع، ويدركون العمل بالنقد الباطني السلبي والإيجابي والمقارن فضلاً عن قياس الظواهر والعلل والمعلومات، وعندما يكتبون، وبأساليب رائعة، يعرفون أن غاياتهم سامية ونزيهة وعلمية محضة، دون تسويق بضاعتهم لأغراض سياسية الهوى، وسيئة الأهداف، وقميئة النوايا، وكان الكتاب لا يتجاسرون على أساتذة الموضوع ولا يسيئون إلى العلماء ولا يجعلون من أنفسهم أندادًا لمن صرف حياته في إثراء تخصصه لامتلاكه المعرفة.

وسواء قلنا إن الحداثة هي الخروج عن السائد المستهلك، أو أنها وعي المتكلم المبدع والمتقف بخصوصيات عصره ولغة خطابه الثقافي وتركيبته المعقدة الراهنة، أو هي . كما يراها المنطق الغربي . العدا للتراث والاحتكام للعلم المادي والعقل وخصوصيات الحاضر . فالحداثة ليست حتمية تاريخية كما يراها المنطق الغربي بطروفه وتركيباته الفكرية والنفسية، على جميع الشعوب أن تتجه نحوها، بل هي مرحلة من مراحل التاريخ الغربي وتصور خاص عن قيمة ثقافية عالمية من الممكن أن تصاغ وفق عدة تصورات مع الحفاظ على جوهر الحداثة ومبادئها، ومن الممكن أن يبرز الإسلام نظريته تجاه هذه الظاهرة بطريقة تغاير تلك النظرية الغربية التي عادت بإنتاج أزمت أخلاقية ونزعة الهيمنة والاستغلال للشعوب المستضعفة المتطلعة.

نستطيع القول بأن الحداثة . وفق المنظور الإسلامي . هي ليست رفعا لشعار الحرية والعلم والتقدم وحقوق الإنسان، وليست تليفياً بين الإسلام وهذه الأشياء، بل هي صيغة معاصرة

لتفعيل هذه المبادئ الموجودة أساساً في منظومة الفكر الإسلامي بما يتلاءم مع الخصوصيات العلمية والثقافية للواقع الراهن⁽³⁾.

2- الحضارة والحضارة

هي الإقامة في الحضرة، والحضرة خلاف البادية، وهي المدن والقرى والأرياف، سميت بذلك لان أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار وعمران، بخلاف الباد الذي هو في البادية فهو في تنقل دائم يبحث عن الكأ والماء، لا يعرف القرار ولا العمران.

أما اصطلاحاً: فالحضارة هي عبارة عن مجموع المفاهيم، والقيم، والتصورات، والعقائد، والقوانين، والمبادئ، والعادات التي تشكل سلوكاً معيناً ومحدداً عند الإنسان، وتحدد له طريقة معينة في الحكم، والعيش، والحياة، والتعامل مع الآخرين، فالصدق مثلاً: خلق ومفهوم وقيمة حضارية يهدي إلى البر، ويترتب عليه سلوك إيجابي متحضر على مستوى الفرد والمجتمع، بخلاف الكذب: فهو خلق مذموم غير حضاري، لأنه يهدي إلى الفجور والفساد ويشكل سلوكيات سلبية متخلفة مدمرة تسيء للفرد والمجتمع سواء⁽⁴⁾.

والحضارة مرتبطة بالجهد المنظم والإبداع الذي يخدم هذا الجهد ويجعله مفيداً، فالمدني الذي يهتم بالتعليم هو صانع الحضارة فكراً و تخطيطاً وتصميماً، وتجدر هذا الإبداع ظاهراً في مختلف جوانب حياته فهو يهتم بالآداب والفنون، والعلوم العملية من هندسة وطب وغيرها. بينما يعيش الريفي حالة طبيعية حيث يحصر همه في تحصيل المال من أي سبيل، وتنمية القوة الهمجية للسيطرة على الآخرين وعلى ممتلكاتهم ضمن تكوينه الاجتماعي العشائري القبلي، الذي يعتبر كل من هو خارج العشيرة والقبيلة غنيمة مباحة، فيمكن له قتله ونهبه. وهي ثقافة كان لها أكبر الأثر في الصراع المستمر بين الريف والمدنية، وهو صراع شهد حوادث مروعة من النهب والسلب والاعتصاب الذي مارسه الريفيون ضد المدن وأهلها في صفحات دامية ومخجلة في التاريخ القريب والبعيد.

وعندما نقول أهل المدن، فإننا نعني بهم أولئك الذين قطعوا علاقتهم بالأرياف، وعصبيتها العشائرية، وأنماط عيش أهلها منذ أجيال فأصبحوا مدنيين تماماً، إذ أن هناك في المدن قبائل وعشائر وريفيون وثيقي الصلة بمجتمعاتهم الأصلية، وعاداتها وتقاليدها، وأساليب تفكيرها وسلوكها، وهؤلاء ليسوا من أهل المدن بطبيعة الحال وان عاشوا فيها كما هو حال مدننا اليوم. وهذا المقال ليس في ذم البدو وأهل الأرياف والقبائل، وإنما هو توصيف للواقع سيختلف معه الكثيرون، إما تعصبا، وإما بتأثير النزعة الرومانسية التي بالغت في مدح الهجري والهمجية (روسو)، أو بالغت في مدح مجتمعات الفلاحين (تولستوي) الخ.. ومن ثم بتأثير من تأثر بالرومانسية من الكاتبيين بالعربية.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن كلا البيئتين (المدينة والقرية) حالات فردية تخالف التوصيف العام إلا أن هذا من الاستثناء الذي يؤكد القاعدة ولا ينفىها، فما نصفه هنا يتناول الغالب الأعم.

فالمديني يسكن في منزل يتميز بالنظافة، بغض النظر عن الفقر والغنى، بينما يعيش الريفي مع حيواناته في نفس المنزل في أغلب الأحيان، وبينما يهتم المديني برائحة المنزل واستخدام العطور والبخور، يستمتع الريفي بروائح أرواث وأبوال الحيوانات التي تعيش معه، ويهتم المديني بنظافته الشخصية، بعكس الريفي الذي لا يهتم كثيراً بهذا الأمر من حيث الملابس على الأقل.

وتجد طعام المديني متنوعاً ومعقد الإعداد إلى درجة التفنن، بينما يفضل الريفي اللحوم المسلوقة أو المشوية، والخبز غير المخمر، وفي تناول الطعام تجد المديني متأقفاً فلا يكرع ولا يتحشأ، وبظهر ضبطاً للنفس فلا يظهر جوعه خلال تناول الطعام، ويراعي آداب المائدة، بعكس الريفي.

ويتناسب الرقي في السلوك طردياً مع الوضع الاجتماعي للمديني، حيث تكون الطبقات المتعلمة أكثر رقياً في سلوكها من فئات التجار والصناع والعمال الأقل تعليماً، وفي السلوك تجد لدى المديني أصولاً للحديث والتصرف مع الآخرين يعتبر من يخرج عنها قليل الأدب حتى إذا تعرض للاستفزاز، بينما يقوم الريفي بقول كل ما يخطر على باله، ولا تردعه إلا فوارق القوة التي قد ترد عليه تصرفه بأذى مباشر في التو واللحظة، وهو ميال باستمرار لحل خلافه مع الآخر بالقوة العارية والصوت العالي والشتائم.

وفي تربية الأطفال تكثر الموانع والحدود لدى أهل المدن، فيكثر قول لا، ولا يجوز، وعيب، بينما يترك أهل الأرياف أطفالهم ينمون ويتصرفون على سجية غرائزهم ونوازعهم الحيوانية البدائية.

وفي الغايات والأهداف يركز المديني على التعلم واكتساب المعرفة، بينما يهتم الريفي بالمال والسلاح كمظهر للقوة والرقي الاجتماعيين، ووسيلة لتحسين ظروفه ومستواه الاجتماعي، ويستخدمهما دون تردد ضد الآخرين، ولا يمنعه عن ذلك وازع ديني أو أخلاقي.

ومن الواضح أنه كلما ازداد المجتمع رقياً وحضارة كان التفاوت في السلوك بين أهل مدنه وأهل مدن المجتمع المتخلف كبيراً. ومع ذلك فإن الحضارة ذات طابع مادي أي أنها تتقدم وتنتكس نتيجة للظروف التي تطرأ على المجتمعات البشرية. ولكن الذين اكتسبوا قدراً من التحضر ينقلون ذلك إلى الأجيال اللاحقة.

فنجد مجتمعات أفريقية وأسيوية فقيرة يتميز أهلها بقدر كبير من الرقي والتعقيد في أوجه سلوكهم. وقد نجد مجتمعات مدنية غنية الآن، بفعل صدفة نفطية مثلاً، يعيش أهل مدنها

الهمجية بأوضح مظاهرها، على الرغم مما يحيط بهم من أسباب الترف، وذلك لأن الرقى في السلوك يتطلب أزمانا من التعليم والتحضر، ولكن عند ما تنزع هذه المجتمعات إلى الانعزال وعدم الاختلاط بالأمم المتحضرة لأسباب أيديولوجية أو عنصرية، فإن عملية الانتقال من الهمجية إلى التحضر تطول وتتأخر.

صحيح أن الريفي يتمتع بخصال إيجابية كالنجدة والشجاعة والنخوة والتعاون مع نظرائه عند الملمات، ولكن هذه الصفات إنما هي نتيجة واقعة الاجتماعى العشائري والقبلي، الذي يفرض أنواعا من التكافل الاجتماعى لا بد له من القيام بها كثمن للحصول على رضا الجماعة والقبول به من قبلها وتقديرها له.

3- الهمجية

الهمجية حالة حيوانية أو قريبة من الحيوانية، يعيشها الأفراد، وتعيشها المجتمعات وتتميز بالبساطة والعفوية، والخضوع التام للغرائز الطبيعية البدائية للنفس البشرية فتطبع سلوك الهمجي بطابعها في كل ما يفعل ويدع.

لقد ارتقى الإنسان من حال الهمجية التي تشبه الحالة الحيوانية عبر قرون متطاولة من الجهد والإبداع الإنساني والقيادة الرشيدة⁽⁵⁾ (الرشد حالة تتعلق بمستوى التحضر الذي بلغته البيئة التي ينتمي إليها الفرد الرشيد) ، ولما كان الجهد والإبداع الإنساني أمران ميسران لكل البشر بحكم تساويهم في الخلق والإمكانات الذهنية والبدنية مع فروق طفيفة، فإن القيادة الرشيدة هي في رأينا أهم أسباب التقدم كما أن القيادة غير الرشيدة أهم أسباب ديمومة التخلف، هذا مع ندرة القيادات الرشيدة في عالمنا الحالي، بدليل انه بعد أحداث تونس ومصر وليبيا واليمن انبرى اغلب الحكام العرب بالتواضع والتذلل لمجتمعاتهم ومحاولة إرضاءهم بالمال والوعود، فلماذا لم تقوموا بذلك قبل هذه الأحداث لو إنكم كنتم فعلا على هدى ورشاد.

4- الجاهلية

عندما نذكر لفظ الجاهلية فإن أول ما يتبادر للعقول البسيطة هو صورة مدة زمنية كانت قبيل البعثة النبوية تتمثل بأشخاص يعبدون أصناما فقط وأن ما غير ذلك لا يعتبر جاهلية ، وهذه النظرة لا ريب هي صورة من صور الجاهلية وحسب ، ولذلك فإنه يجب على المسلم أن يعرف الجاهلية وصورها حتى لا يكون جاهلا من دون أن يعلم ، ولذلك قال عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- كلمته الخالدة: " تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية " ، والمشكلة الأعظم أنه قد ولد في عصر الإسلام من لا يعرف الجاهلية!.

إن لفظ الجاهلية في الإسلام لفظ واسع ينطبق على: "كل ما يخالف شرع الإسلام في أي زمان ومكان" وهذا ما يوجب استحالة إحصاء صور الجاهلية لأنها في تطور دائم، إلا أنه

يمكن للباحث أن يذكر أشهر تقسيم للجاهلية المتمثل بستة أقسام، تندرج تحتها صور كثيرة ،
وسنسقط هذه الأقسام على واقعنا لنعلم هل نحن نعيش في جاهلية بالرغم من دخولنا بالقرن
الحادي والعشرين أم لا؟! وأشهر تقسيم هو:-

أ- الجاهلية العقائدية: ومن صورها ما صرح به القرآن الكريم عند قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ
الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (آل عمران: الآية 154) وهو مجرد الظن أن الإسلام لن تقوم له
قائمة ، والجاهلية العقائدية تشمل كل انحراف عقائدي عن الإسلام أيا كان ، سواء كان
انحراف ملة كأهل الكتاب، أو انحراف فكر كالليبرالية، أو انحراف هوى كرفض الحاكمية .
والانحرافات قد يفسق مرتكبها فسقا أكبر فيخرج من الملة الإسلامية وقد يفسق فسقا أصغر
فلا يخرج من الملة، وكل ذلك يكون على حسب نوع الانحراف، وكله جاهلية.

ب- الجاهلية التشريعية: وهي ما صرح بها القرآن الكريم عند قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ
يَبْغُونَ﴾ (المائدة: الآية 50)، وهذه الجاهلية تنطبق على كل القوانين الوضعية وعلى
مُشرعيها والمتحكمين لها، وتصل هذه الجاهلية لدرجة إخراج من وقع فيها من الملة لأن الله
عز وجل قال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: الآية 47) ،
ولقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ (النساء:
الآية 60) وكل القوانين الوضعية تتمثل بصورة الطاغوت الذي يجب على الشخص أن يكفر
به وإلا فهو كافر لأن الطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله- عز وجل-، وبالتالي فإن
النتيجة المنطقية أن من لم يكفر بما يعبد من دون الله -عز وجل- فهو كافر بالله.

ج- الجاهلية السياسية: ومن صورها الحالية النظام القائم على توارث السلطة وعبودية الأمة لها
مع سعي الكثير من أبنائها لإسقاط الشرعية عن تلك السلطة وباسم الدين، فأى دين هو ذلك
الدين الذي يقر الذل والتبعية لطبقة معينة، ويدخل ضمن الجهل السياسي الديمقراطيات
المریفة القائمة على الأكثرية مع إذلال الأقلية أو ما نسميها بديمقراطية الإذلال.

د- الجاهلية الاجتماعية: ومنها قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ
الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (الفتح: الآية 26) وهذه الجاهلية تتمثل بأمور، منها الطبقة بين الناس سواء
كانت بالحسب أو النسب أو المال أو الوظيفة أو الجنسية، ولعل الجاهلية الاجتماعية في
وقتنا ينظمها القانون كتفريقه بين الجنسية الأولى وغيرها، مع الأخذ بعين الاعتبار أن
الذاتير تتناقض ذلك بنصها على مبدأ المساواة.

ه- الجاهلية الاقتصادية: ومن أشهرها الربا، ولعلنا نتلمس ذلك في بنوك الكثير بل جميع الدول
الإسلامية مع الأخذ بعين الاعتبار أن السلطات التي تدعي اسم الدولة الإسلامية هي التي

تنظم تلك البنوك، فأى أسلام هو ذاك الإسلام الكاذب الذي ينظم للجاهلية باسم دولة الإسلام؟! هذا ناهيك عن الجشع واكل مال اليتيم وابخاس الناس في أشيائهم وما إلى ذلك.

و- الجاهلية الأخلاقية: ومن صورها قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ (الأحزاب : الآية 33) والتبرج قبل البعثة كان مجرد خروج المرأة بشيء من التطيب أو التجميل، ولعل من يخرج في وقتنا لأقرب سوق استهلاكي يدرك أن الجاهلية الأخلاقية اليوم أشنع بكثير من جاهلية قبيل البعثة!.

5- الثقافة: أنها حصيلة التقاليد والإنجازات والتصورات والأفكار، التي تؤطر معرفيا مجتمعا من المجتمعات. ومعنى ذلك، أن الثقافة هي بالنتيجة الوسط الذي يمد الفكر بخصائص معينة، تحدد نظرتة للأشياء وتوجه رؤيته إلى وجهة ما، وعلى هذا الأساس، تختلف الثقافة من وسط لآخر، بتعدد الأوساط والبيئات نزولا إلى الكيانات الصغرى، كالمجتمع أو العشيرة أو الأسرة، وصعودا نحو الكيانات الكبرى، كالقطر، والأمة، والجامع بين هذه كلها، رؤية الإنسان الثابتة بما هو إنسان، التي هي مناط عالميته، فتقافة العالم، تستند إلى هذه الدائرة، ثقافة الإنسان الذي ينزع في فردانيته نزوعا يشارك فيه بني جنسه. فحينما أفكر كإنسان، فأنا أفكر عالميا، غير أن العالمية هي مفهوم كلي، لأننا واقعا نحن أمام تكوينات اجتماعية أو حضارية، تعيش متفاعلة مع أوساطها، وتتكيف مع أوضاعها، وهي بذلك تخلق عناصر تميزها وخصوصيتها. فالخصوصية هي ضرورة وجود وبقاء، فإذا سلمنا باختلاف التاريخ والجغرافيا، فإننا سنسلم اضطرابا باختلاف الثقافة التي هي حصيلة تفاعل الإنسان الواحد مع عوامل مختلفة. وقبل أن نمضي في معالجة الشطر الثاني من الإشكالية، لابد من المكوث مليا عند الثقافة الإسلامية التي هي حصيلة التصورات والرموز والتقاليد والأعراف والإنجازات، التي تشكل التراث الإسلامي. وهي ما يشكل ويحدد اتجاهات الرأي والنظر عند كافة المسلمين. والحال أن الثقافة الإسلامية تعاني من مشكلتين: الأولى، كونها ثقافة متنوعة ومختلفة بحسب اختلاف الجغرافيا الطبيعية والبشرية، وهذا طبيعي مادام الإسلام قدم نفسه عالميا. والثانية تتعلق بكونها ثقافة تحددت وتجهزت في فترات تاريخية ما، وهي اليوم عاجزة عن التفاعل بالشكل المطلوب مع واقع الأمة الإسلامية.

وبعد أن استعرضنا أشهر أقسام الجاهلية وبعض صورها فإنه لا بد للعاقل أن يدرك أن الأمة اليوم تعيش في جاهلية فاقت بعض صور جاهليتها ما قبل البعثة النبوية الشريفة، لكن السؤال المطروح: هل ما زال البعض يشكك بوجود جاهلية لأننا بالقرن الحادي والعشرين؟! هذا ما يحاول هذا الفصل الإجابة عليه.

ثانياً- بعض سمات عصر الجاهلية الأولى

ظهر مصطلح الجاهلية مع ظهور الإسلام ، يشار فيه إلى المدة التي سبقت الإسلام وترابطها بالجهل من الناحية الدينية، أما من الناحية الحضارية والفكرية قبل الإسلام، فإن الواقع العربي على سبيل المثال في تلك الحقبة شهد تنوعاً فكرياً إبداعياً وحضارياً تثبته الآثار والمخلفات الأدبية العديدة في منطقة شبه الجزيرة العربية، ومن الأمثلة على ذلك نذكر سد مأرب في اليمن كدليل على التقدم العلمي والعمرائي، والقصائد العديدة والمؤلفات ومن أشهرها المعلقات السبع كدليل على التقدم الفكري والثقافي، والعادات والتقاليد العربية الأصيلة كالكرم كما هو حال حاتم الطائي، والشجاعة والنبيل كما هو حال عنترة بن شداد، والعلاقات العاطفية العفيفة كما في قصة قيس بن الملوح مع ليلى العامرية وهكذا.

والإسلام حينما أطلق مصطلح الجاهلية على حياة العرب قبل أن تهبط إلى أرضهم رسالة الوحي بعبادة الله ، ورسالة الإخلاص ، ودعوة التغيير والبناء الإنساني الجديد ، إنما أطلقه ليشرح طبيعة هذه المرحلة العقائدية ، وليضعها في صف أحواتها من جاهليات الأمم والشعوب ، باعتبارها إحدى مصاديق الجاهلية الأممية التي ظهرت في مختلف أدوار تاريخ البشرية ، وفي شتى مراحل حياتها ، بل سماهم جاهليين لصدق انطباق المفهوم الجاهلي في عرف الإسلام عليهم ، لذلك حكى القرآن عن أمم تمتعت بأسباب العلم والمدنية ، وامتكت وسائل التطور والرفاه الاقتصادي والاجتماعي ، فوصفها بالضلال ، والتهيه ، والانحراف ، كما وصف أمة العرب ، بالضلال ، والتهيه ، والضياع وهي تغط في ظلام الجهل والتخلف لبعدها عن هدي الإسلام وشريعته البيضاء كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِثِيًا ، قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ * إِمَّا الْعَذَابَ * وَإِمَّا السَّاعَةَ * فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ (مريم: الآية 74 . 75).

ولغرض الكشف عن حضارة هذا العصر بكل جوانبها تم تبويبها كما يأتي:

- من الناحية الدينية

كانت الوثنية هي السائدة في الجزيرة العربية، والوثنية هي عبادة الأصنام والأوثان، وكانت الأصنام على أشكال متنوعة، منها ما هو على صورة إنسان أو حيوان أو طير، ومن أشهرها (ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرا، واللات والعزى، ومناة، وهبل..) وقد كان عدد من القبائل يعبدون بعض الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والنجوم والكواكب، ومنهم من كان يعبد (الشعري).

وكانوا يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى لاعتقادهم أن الله عظيم ويجب أن يكون هناك واسطة بين العبد وربّه، فإذا كان الأولون يعترفون لله بالإلهية والربوبية الكبرى، كان الآخرون

يشركون آلهتهم مع الله ويعتقدون فيهم قدرة ذاتية على الخير والشر والنفع والضرر والإيجاد والإفناء مع معنى غير واضح عن الله كإله أعظم ورب الأرباب⁽⁶⁾.

ووجد إلى جانب الديانات السالفة الذكر أديان أخرى كالمسيحية واليهودية، حيث كانت الجزيرة العربية منذ أقدم الأزمنة معبراً للقوافل وعلى اتصال وثيق بجيرانها، فانتقلت إليها الأديان، الأمر الذي كان له أثر كبير في التلون الاعتقادي في شبه الجزيرة، وقد تجلى هذا التأثير في اعتناق بعض أبناء الجزيرة للمسيحية واليهودية إلى جانب الحنفية، وسنلقي نظرة على خصائص هاتين الديانتين:

المسيحية:

انتشرت الديانة المسيحية في بادئ الأمر في المناطق التي عاش فيها العرب جنباً إلى جنب مع عناصر يونانية أو رومانية، ومن الواضح أن جذور المسيحية لم تستطع أن تمتد بعمق في قلب الجزيرة العربية، واقتصرت على الأطراف، حيث يرجع انتشارها في تلك المناطق إلى التأثيرات التي مارستها ثلاث مراكز مسيحية مجاورة لبلاد العرب (الشام، العراق، الحبشة). وانتشرت المسيحية في بلاد الشام عن طريق الغساسنة، ووصلت إلى أدنى الفرات وعبرت دجلة ومنها وصلت إلى البحرين وعمان عن طريق البعثات التبشيرية، وهكذا انتشرت المسيحية أيضاً في الحيرة التي تحولت قسم من عربها إلى المسيحية وعرفوا بالعباد، وانتشرت عن طريق الحبشة في اليمن والحجاز، ولكن تدين أهل هذه البلاد على ما يبدو كان ظاهرياً ومشوباً بالكثير من المعتقدات الوثنية.

اليهودية:

انتشرت اليهودية على وجه الخصوص في اليمن عن طريق اتصال ملوك حمير بيهود يثرب، وتذكر المصادر أن جماعات منهم هاجرت إلى بلاد العرب الشمالية والحجاز بعد أن دمر الرومان أورشليم "القدس" عام 70 للهجرة، واستقرت في يثرب ووادي القرى وخيبر وفدك وتيماء. وبالرغم من اختلاط هؤلاء اليهود بالعرب وتعايشهم معهم واحتكارهم لبعض الصناعات والحرف كالتجارة والصناعة والحدادة وصناعة الأسلحة القديمة والصيرفة وتعريضهم بحكم احتكاكهم بالعرب وتجاورهم، إلا أنهم لم ينجحوا في نشر اليهودية بين العرب لأسباب منها عدم اهتمامهم بالتبشير، لاعتقادهم بأنهم "شعب الله المختار" الذي يتميز. حسب زعمهم. عن باقي الشعوب وبالتالي هم لا يريدون أن يختلط بديانتهم من أجناس أخرى، ومنها احتقار العرب لهم باعتبارهم عملاء للفرس في اليمن، فضلاً عن ما عرفوا به من صفات ذميمة منها نقض العهود، وإتباع أساليب الغدر، والتهافت على جمع المال وخاصة عن طريق الربا وما إلى ذلك.

الحنفية:

هي دين النبي إبراهيم (عليه السلام) القائم على التوحيد، والأشخاص الذين كانوا على الحنفية، كما تشير إليهم المصادر، كانوا خليطاً عجيباً من أمم مختلفة، بعضهم عرب وبعضهم شعوب أخرى، وكان أصحاب الحنفية جماعة من عقلاء العرب سمت نفوسهم عن عبادة الأوثان ولم ينجحوا إلى اليهودية والنصرانية، وإنما آمنوا بوحداية الله وكانوا يسمون "الأحناف" (أو الحنفاء أو المتحنفين)، وهي جمع حنيف وهي صفة النبي إبراهيم (ع) كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: الآية 67).

كان المتحنفون يشكون الناس في الديانات الوثنية، ويصرفونهم عن التفكير في عبادتهم إلى التوحيد وعبادة الله خالق السموات والأرض، وقد ساحوا في الأرض بحثاً عن الدين الصحيح، وزهدوا من المجتمعات الوثنية، واعتزلوا عن الناس في كهف للتأمل والعبادة، واعتقدوا بوحداية الله تعالى، كالوحداية التي نادى بها النبي إبراهيم (عليه السلام) دون أن يشركوا فيها أحداً، وكان لهذه الأفكار أعظم الأثر في تقريض الوثنية في شبه الجزيرة العربية، فأخذت الأفكار الوثنية تتداعى أمام هذه الأفكار.

- من الناحية التاريخية

يطلق اصطلاح العهد الجاهلي على حال العرب قبل الإسلام تمييزاً وتفريقاً عن العهد بعد البعثة النبوية وظهور الإسلام والذي يمتد من حيث عامل الزمن إلى أبو البشرية آدم (عليه السلام)، ويختلف ذلك العصر عن العصر الإسلامي الذي يليه من جميع النواحي دينياً واجتماعياً واقتصادياً وفكرياً، فمن عبادة الأوثان إلى عبادة الله الواحد الأحد، وكان يسود النظام القبلي، فقد كانت القبائل تقاوم بعضها بعضاً من أجل العيش في حالة فوضوية يرثى لها، حتى جاء الرسول محمد (صلى الله عليه واله وسلم) برسالة الإسلام وانتشل العرب من هذه الحالة إلى حالة الوئام والالتئام والإخوة والتعاون والمحبة، إذن الدين الإسلامي وفق ذلك يعتبر فاصلاً تاريخياً بين حقبتين، حقبة تدين للأصنام والأزلام دينياً وفوضى اجتماعية عارمة وأسس اقتصادية هزيلة لا تقوم على التخطيط والتنمية، تليها حقبة الإسلام التي يدعو فيها هذا الدين إلى عبادة اله واحد لا اله غيره والى تنظيم اجتماعي فاق في آليته حد الوصف، واس اقتصادية متينة قائمة على الفهم المنهجي والتخطيطي للتعامل الاقتصادي والإنتاج المبرمج وفق آليات صحيحة، لا تزال تعتمد حتى من قبل الدول غير المسلمة.

من الناحية الاجتماعية

اعتمدت حياة العرب على الطابع القبلي الأقل استقراراً من الحياة المدنية حيث يمكن للحروب أن تنشب بين القبائل بشكل مستمر لمختلف الأسباب سواء كانت اقتصادية مثل داحس والغبراء وحرب حليمة، أو للحماية من اللصوص كيوم السلان، أو للشرف أو لدفع الظلم، مما يولد حروباً مستمرة توقدها نار الثأر، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان في المجتمع الجاهلي صفات النبيل كالكرم والإجارة وغيض البصر والغزل العفيف كما ذُكرت أمثلة عن ذلك في الصفحات الماضية. كانت العصبية القبلية والدموية شديدة جامحة، وكان أساسها جاهلياً تمتلئه الجملة المأثورة عن العرب: "انصر أخاك ظالماً كان أو مظلوماً"⁽⁷⁾ فكانوا يتناصرون ظالمين أو مظلومين (رغم إن معناها حسب قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حينما سأله قالوا: يارسول الله ننصر أخانا مظلوماً، فكيف ننصره وهو ظالماً قال (صلى الله عليه وسلم): أي قوموه أي انصحوه)، وكانت في المجتمع العربي طبقات وبيوت ترى لنفسها فضلاً على غيرها، وامتنيازاً، فتتفرد على الناس ولا تشاركهم في عادات كثيرة حتى في بعض مناسك الحج، فلا تقف بعرفات وتتقدم على الناس في الإفاضة و الإجازة وتتسأ الأشهر الحرم كما ورد قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، (البقرة: الآية 199) وكان النفوذ والمناصب العليا والنسب متوارثاً، يتوارثه الأبناء عن الآباء، وكانت طبقات مسخرة وطبقات سوقة وعوام، فكان التفاوت الطبقي من مسلمات المجتمع العربي.

أما المرأة فكان مهضوماً حقها في الجاهلية إذ كانوا يحرمونها من الميراث الذي هو حق شرعي لها، وكانوا يرغمونها على الزواج من فلان بعينه دون أن يعطونها حق الاختيار، وأيضاً كان سائداً لديهم بأن الفتاة قد تجلب العار لأهلها فكانت تمثل شرف العائلة والقبيلة لذلك كانت تؤد وتدفن وهي حية كما وصفها القرآن بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (التكوير: الآية 98).

كان وضع المرأة قبل الإسلام لا يعدو كونها سلعة، وتتفق في هذه الحال الأمم المتمدنة وغير المتمدنة، مع فارق نسبي لا يغير من جوهر الأمر شيئاً، فقد كانت حياة النساء في الأمم والقبائل الوحشية بالنسبة إلى حياة الرجال، كحياة الحيوانات الأهلية من الأنعام وغيرها بالنسبة إلى حياة الإنسان، فليس للمرأة من حقوق الحياة إلا ما رآه الرجل المالك لها، كذلك كانت حياة الإنسان عند الرجال في هذه الأمم والقبائل حياة تبعية، وكانت النساء عندهم مخلوقات خلقت (لأجل الرجل). وكان الرجل يبتاع المرأة ممن يشاء وله أن يهبها لغيره، وكان له أن يفرضها لمن يستقرضها وكان له أن يقتلها، ويرتق بلحمها كالبهيمة، وخاصة أيام المجاعة أوفي المآدب.

أما بالنسبة للأمم المتقدمة، فقد كانت المرأة عندهم تفتقد الاستقلال والحرية، سواء في أرادتها أو في أعمالها، وكانت تحت الولاية والقيومة، ولا تتجز شيئاً بنفسها، ولم يكن لها الحق في الشؤون الاجتماعية، من حكومة، أو قضاء، أو غيرهما.

وهذه الحضارة الإغريقية تعتبر المرأة أكبر منشأ للأزمة والانهييار، وتُشبهها بالشجرة المسمومة، أما الحضارة الصينية، فتصف المرأة بالمياه المؤلمة التي تغسل السعادة والمال، وكان بإمكان الرجل دائماً، ومتى شاء، أن يسلب شخصية زوجته ويبيعها كالجارية، وعندما تترمل المرأة تصبح جزءاً من الثروة المتعلقة بعائلة زوجها، ولم يكن لها أي حق في التزوج مرة ثانية، ومع هذا كله كانت كالرقيق ليس لها حق التصرف بنفسها. وكان للزوج حق بدفنها وهي حية! وحتى سنة 1937 كان يوجد في الصين حوالي ثلاثة ملايين جارية!

أما الحضارة الهندية، فتذهب إلى أن المرأة ليست إلا تجسيداً للأرواح الخبيثة الشريرة، التي ولدت على هيئة امرأة، وفي نظر البوذيين، أن جميع النساء كالمصيدة، وضعن لإغواء الرجال وفتنتهم، وأن هذه القوة تجسدت بأخطر الأشكال في أصل المرأة، بحيث يغوون الرجال، وهذا الإغواء هو الذي يعمي أفكار العالم.

والغريب أن هذه النظرة الدونية للمرأة، لم تكن مقتصرة على الحضارات الجاهلية فحسب، وإنما انسحبت إلى النصوص الدينية المحرّفة، كما حصل للتوراة والإنجيل، فطبقاً للنصوص العبرية، في الكتب الدينية اليهودية، نلاحظ أن المرأة أصبحت ملعونة لعناً أبدياً من قبل الآلهة، لأنهم يقولون: "لقد بدأ الذنب من طرف المرأة، وأن المرأة هي التي توجب موتنا"، (كما لو تمثلت شخصية عزرائيل في جسد المرأة). واعتماداً على هذه العقيدة؛ نرى أن اليهود يعتبرون المرأة مسؤولة عما يفعله الرجل من أعمال لا أخلاقية! ومن هنا نرى أن مقام المرأة في المجتمع اليهودي، قد تنزل منزلاً بحيث لا يعتبرون لها أي اعتبار وشأن، كما يعتقدون أيضاً أن المرأة كالحَيوان في البيت، وكذلك عندما تبئلى المرأة بمرض من الأمراض النسائية، يجب عليها أن تقعد في البيت كالمسجونة لا يسمح لها بلمس أي صحن، أو أي وعاء لكي لا يتجس!

النصارى يعتمدون - بدورهم - اعتماداً كاملاً على أصل الذنب، ويعتبرون المرأة هي المسؤولة عن الذنب والجريمة، وقد جاء في الكتاب المقدس: "قال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت".

وتذهب النظرة المسيحية، إلى أن التي ارتكبت الجريمة في بادئ الأمر هي حواء وسببت سقوط آدم وانهياره، وعلى هذا فإنها - بزعمهم - هي المسؤولة عن ذنوب البشر، واضطر الإله إلى أن يبعث (ولده) الفريد باسم عيسى المسيح حتى يُصَلب ويغسل ذنوب البشرية بدمه. ويتضح لكل متتبع مدى المهانة التي كانت تلحق بالمرأة، إنها مذنبية، بل وليست من الجنس البشري. وهذا ترتولين المقدس يوجه خطابه للنساء قائلاً: "هل تعلمن بأن كل واحدة منكن حواء

بالذات!..؟ يستمر لحد اليوم توبيخ الله لَكُنْ وِلِجَسَّكُنْ عامة، وعلى هذا يجب أن يبقى في نَسَلَكُنْ الشرر والحقد، أنْتُنْ أَيْتَهَا النساء مدخل للشيطان، أنْتُنْ اللواتي قطفتن من ثمار تلك الشجرة الممنوعة، أنْتُنْ اللواتي حطمتن القانون الرباني، أنتن اللواتي خدعتن آدم قبل أن يبدأ الشيطان حملته! أنْتُنْ اللواتي أضعتن سيماء الله بسهولة كاملة من طبيعة البشر! إن شقاء الموت يرجع لعملكن القبيح، وحتى موت ابن الله يرجع لعملكن الشنيع".

وفيما كان سدنة الكنيسة المسيحية يحترزون على المرأة احترازاً كاملاً، وينعتونها بأنها الشيطان، كانت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية تتكر وجود أي روح في جسد المرأة، وقد صرح أحد القساوسة الكبار ذات مرة، في مجلس ماكون (Macon) بأن: "المرأة لا تتعلق ولا ترتبط بالنوع البشري". المرأة كانت تعتبر عنصراً قذراً، وهذا العمل أدى بالكنيسة إلى إصدار قرار ممنوعة الزواج الذي هو من القوانين الاجتماعية المهمة.

وهذه عادة قضى عليها الإسلام، إذ كَرَّمَ المرأة ورفع مكانتها وشرفها فأصبحت تترث وتختار زوجها بمحض إرادتها، وأمرها بالاحتشام ونهاها عن التبرج والسفور صونا لعفافها، وحفاظاً لشرفها.

- من الناحية الأدبية

اهتم العرب بالأدب كثيراً، إذ كان لكل قبيلة شاعراً أو أكثر يتغنى بأمجادها، وكان لكل قبيلة خطيباً أو أكثر، وكانوا يقدمون أدبهم في أسواقهم، ومنهم من عرضه على أستار الكعبة. وعبر العرب في العهد الجاهلي بشعرهم عن بعض الصفات الحميدة والتي اشتهر بها العرب أكثر من غيرهم من الشعوب والأمم في ذلك الوقت، كالكرم والشهامة والفروسية والنخوة، وكان الشعر من أبرز سمات العصر الجاهلي حتى سُمي ديوان العرب. ومن أسواق العرب الأدبية في الجاهلية سوق عكاظ (حول الحوية شرق الطائف) وذي المجاز وذي المجنة وكانوا كذلك يستغلون موسم الحج للشعر والخطابة، وكان هناك حكام بين الشعراء كدلالة على الانتظام في تسيير أمور الشعر والشعراء.

- خلاصة منطق الجاهلية

كانت الجاهلية تحب النبي محمداً ﷺ، تحبه وهو لا يعكف على أصنامهم، ولا يشهد مشاهدتهم، ولا يستقسم بأزلامهم، تحبه وهو يتعبد للليالي ذوات العدد في غار حراء، والدليل على حبهم له إنهم رضوا بحكمه حينما اختلفوا على وضع الحجر الأسود وحينها كانوا يلقبونه بالأمين، وحين قال لهم ﷺ (ني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) "قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) سبَّوه وآذوه وفي الشَّعْبِ حاصروه، ثم أخرجوه وقتلوه.

والنبي صالح عليه السلام يناديه قومه ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ (هود: الآيات 62) ومعلوم أن صالحا . عليه السلام - لم يكن مرجوا لمشاكلته قومه وإنما لحسن سيرته بينهم ، أحبوا صدقه وأمانته وحسن فعاله ، وحين تكلم بالرسالة راح رجاءهم وجاء تهديدهم وتكذيبهم له.

و النبي موسى عليه السلام تزى في قصر فرعون ، وبالطبع لم يكن على دين فرعون ، وما آذاه فرعون ولا سعى في قتله حتى تكلم بالرسالة فكان ما كان.

وهكذا حال الأنبياء جميعهم ، فالصحيح عند أهل العلم أن العصمة ثابتة لأنبياء الله قبل وبعد البعثة النبوية ، ومع ذلك لم تبدأ العداوة بين نبي وقومه إلا بعد أن بدأ يتحرك لتغيير واقع الجاهلية.

فالجاهلية إذن ما كانت تعبا بشخص صالح ، وإنما بشخص مُصلح ، بل هي تقرح بالصالحين المنشغلين بأنفسهم ، تنتظر إليهم بعين الاحترام والتوقير، ترجوهم وتتسبب اليهم أرفع الألقاب - الصدق والأمانة مثلا - أما حين يتحركون لتغيير الأوضاع في المجتمع حينها تشتد الجاهلية وتنتكر لكل معروف عندها قبل غيرها ، وتبذل كل جهدها في الحفاظ على مجتمعها.

فمنطق الجاهلية مع كل الحركات الإصلاحية الجادة : (لنخرجكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) هذا هو قول جميعهم كما يحكيه ربنا تبارك وتعالى على لسان كل الجاهليات من يوم كانوا إلى حين نزول القرآن بقوله **جَل وَعَلَا** ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ (إبراهيم: الآية 13) .

إذن هذا المنطق يقوم على أساس الآتي:

أن الجاهلية مجتمع ذو عادات وسلوك ، وهي تحافظ على مجتمعها وسلوكها ضد كل محاولات التغيير ، وهي تنتكر لكل الأعراف والقوانين التي سنتها هي لتسير عليها حين ترى في الأفق بشائر التغيير ، وفي هذا إشارة واضحة إلى أنه لا بد من المواجهة بين الجاهلية وكل حركات التغيير الجادة ، وأن (القنوات الشرعية) ضيقة مسدودة لا يمكن الوصول منها إلى المجتمع الصالح الذي يريده الله ورسوله . فالجاهلية تقف غير بعيد تخاطب السائرين في (القنوات الشرعية) وغير (الشرعية) بما قالتها كل الجاهليات من قبل (لنخرجكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) وحينها إما أن تسييس حركات (الدعوة السلمية) التي تسيير في قنوات الجاهلية الشرعية وبالتالي تسلك السبل التي تضلها عن الصراط المستقيم فتتبنى خطابا مَدَنِيًّا ، وتراعي حق (الآخر) الذي لا يرضى أبدا أن يكون مواطنا من (الدرجة الثانية) كما أمر الله ورسوله ، والذي يطالب بمساحة واسعة من حرية إقامة الكنائس و (التبشير) بكفره بين أظهر المسلمين، وإما أن تتصادم مع الجاهلية وتقف في وجهها ، هذا هو ما يقوله تاريخ الصراع بين الحق والباطل منذ تحرك ركب الإيمان ، من نوح إلى نبينا الأعظم محمد عليهما الصلاة والسلام.

ثالثاً - الإسلام والنهوض الحضاري

قدمت الحضارة الإسلامية للمجتمع البشري من قيم ومبادئ، وقواعد ترفع من شأنه، وتمكنه من التقدم في الجانب المادي وتيسر الحياة للإنسان، وتوجهت نحو الفرد باعتباره يمثل اللبنة الأولى في بناء المجتمع، وإذا صلح صلح المجتمع كله، وأصبح قادراً على أن يحمل مشعل الحضارة، ويبلغها للعالمين، ومن أجل ذلك جاء الإسلام بتعاليم ومبادئ تُصلح هذا الفرد، وتجعل حياته هادئة مستقرة، وأعطاه من المبادئ ما يصلح كيانه وروحه وعقله وجسده، و مع إصلاح الفرد يتوجه الإسلام بالخطاب إلى المجتمع الذي يتكون من الأفراد، ويحثهم على الترابط والتعاون والبر والتقوى، وعلى كل خير؛ لتعمير هذه الأرض، واستخراج ما بها من خيرات، وتسخيرها لخدمة الإنسان وسعادته، وقد كان آباؤنا على قدر المسؤولية، فحملوا هذه الحضارة، وانطلقوا بها يعلمون العالم كله ويوجهونه⁽⁸⁾.

حقيقة أن أعظم وأجل وأرقى مفهوم حضاري على الإطلاق هو مفهوم التوحيد؛ الذي يحمل المرء على أن يُفرد الخالق - سبحانه وتعالى - بالعبادة، والقصد، والطاعة، والمحبة، والتحاكم، وبالتالي فإن أسوأ وأخنع وأقبح مفهوم حضاري على الإطلاق هو الشرك؛ الذي يُعبد العبد للعبيد، والذي يحمل المرء على أن يتخذ أنداداً وشركاء يعبدهم ويطيعهم، ويحتكم إليهم، ويضحي في سبيلهم من دون الله - عز وجل - وعلى هذا المفهوم الحضاري دار الخلاف والصراع . على مدار التاريخ كله بين أهل التوحيد من جهة، وبين أهل الشرك والباطل بكل أطياهم وتجمعاتهم ومسمياتهم من جهة أخرى⁽⁹⁾.

هذا الخلاف حول هذا المفهوم الحضاري (التوحيد) أدى إلى خلاف حول مفاهيم حضارية أخرى مرتبطة به؛ كمفهوم " الحرية " مثلاً؛ هل هي مطلقة أم مقيدة، وما هي المساحة المسموح بها، والمساحة الممنوعة، ومن هي الجهة التي تحدد نسبة هذه الحرية، وكذلك مفهوم السيادة العليا في الأرض لمن تكون؛ من الحاكم، من له الأمر فيطاع، من له خاصية التشريع والتحليل والتحرير، والتحسين والتقبيح؛ للخالق أم للمخلوق - لله تعالى وحده أم لعبيد الله - وكذلك القيم الحضارية ذات العلاقة بتحديد خصوصيات وحقوق الخالق - سبحانه وتعالى - وخصوصيات وصلاحيات الإنسان، وحقوقه وواجباته ، فهذا النوع من القيم هي محطة تنازع واختلاف بين أمة الإسلام أو الحضارة الإسلامية، والحضارات الأخرى بكل مسمياتها وصورها .

فإن علم هذا الذي تقدم يُقال: عندما يتصرف المرء بطريقة صحيحة راقية أخلاقية ومسؤولة ، يُقال عنه هذا إنسان متحضر ، وإذا تصرف بطريقة خاطئة، متخلفة، غير أخلاقية ولا مسؤولة ، يُقال عنه هذا إنسان متخلف - همجي - غير متحضر .

فالسُّلوك الإنساني - أيّاً كان نوعه - وكانت نتائجه - ليس هو الحضارة - وإنما هو عبارة عن نتاج المفاهيم والتصورات الحضارية التي ينتمي إليها هذا الإنسان ويعتقد بها - والتي أفرزت عنده هذا السلوك - فإن كان سلوكاً إيجابياً ممدوحاً فهذا دليل على وجود قيم حضارية إيجابية وممدوحة ، وإن كان سلوكاً سلبياً مذموماً فيكون ذلك دليلاً على عدم وجود قيم حضارية إيجابية معتبرة عند هذا الإنسان ، وإنما يكون دليلاً على وجود قيم وأخلاقيات متخلفة غير متحضرة ولا راقية ، فالسلوك الإنساني . أيّاً كان نوعه . هو التعبير الصادق عن نوعية ومدى جودة تلك القيم الحضارية التي ينتمي إليها الإنسان . يقول الخليفة الراشد أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) (وجدنا الكرم في التقوى ، والغنى في اليقين ، ووجدنا الشرف في التواضع) هذه دلالة على الحُضن الإسلامي - الحضاري الذي وفّر أجواء إيمانية كانت سبباً رئيساً في صنع حضارة إسلامية عريقة.

ويعتبر الإسلام بان الإنجاز العلمي التجريبي . قديماً وحديثاً . يشترك فيه جميع بني البشر ، وأسبابه مبذولة للجميع ، وبالتالي فهو ليس دليلاً ولا مقياساً على تحضر أو حضارة شعب من الشعوب ، وإنما هو دليل على وجود جزء من تلك المفاهيم والقيم الحضارية التي ينتمي إليها ذلك الشعب أو غيره ، ألا وهي قيمة الاهتمام والحرص على العلم التجريبي التطبيقي.

وكذلك الآلة المصنّعة ، مهما كانت ضخمة وهامة ومتطورة ، ليست هي الحضارة ، وإنما المفاهيم والقيم والتصورات ، التي كانت سبباً في وجود هذه الآلة ، والتي تحكّم وتحدد الطريقة التي تُستخدم بها هذه الآلة ، هي الحضارة ، ومن خلالها يُحكّم على صاحبها بالتحضر أم لا ، أو كم هي نسبة التحضر التي يتحلّى بها!

فالذي يصنع سلاحاً متطوراً وفتاكاً مدمراً ، لكي يستخدمه لأغراض الشر والفساد والتخريب والدمار في الأرض ، ولأغراضه الشخصية الذاتية أو الحزبية الضيقة ، فهذا رغم امتلاكه لهذا السلاح الفتاك وتصنيعه له ، فهو إنسان غير متحضر ، لا يُمكن أن يُنسب إلى الحضارة والتحضر في شيء ، ولو نُسب مجازاً فهو يُنسب إلى حضارة متخلفة همجية غير راقية ، ولا إنسانية! لأنه ركز جل اهتمامه على التخريب بالمادة لا الإصلاح بأسلوب حضاري راقٍ.

فهذا الذي يصنّع قنبلة ضخمة فتاكة ، ليقْتل بها الأطفال والنساء ، وغيرهم من الأمنيين ممن صان الشرع حرّماتهم ، وليدمر البيوت على رؤوسهم ، فهذا رغم تصنيعه لهذه القنبلة الضخمة لا يُمكن أن يُصنّف بأنه إنسانٌ متحضر أو يُوصَف فعله هذا بالتحضر والراقي ، أو أنه ينتمي إلى قيم حضارية راقية معتبرة! الإنسان الذي ينتهج مبدأ الغايات تبرر الوسائل؛ مهما كانت هذه الوسائل قذرة وسيئة ومنحطة،

لا يُمكن أن يُعتبر متحضراً ولا راقياً مهماً كان متقدماً في الصناعات والتطاول في البنيان وال عمران!

نقول ذلك لأن كثيراً من الباحثين فضلاً عن غيرهم يقيسون الحضارة والتحضر بمدى الإنجاز والتطور العلمي، ويظنون أن آلات التصنيع المتقدمة ، والتطاول في العمران ، التي يتمتع بها مجتمع من المجتمعات هي الحضارة ذاتها ،وهي دليل على تحضر ورقي ساكني هذه المجتمعات ، وهذا خطأ فاحش شائع لا بد من تصحيحه وتداركه!

المجتمع النبوي الأول في المدينة المنورة لم يكن يعرف التطاول في العمران والبنيان، ولا الصناعات الضخمة والمتطورة ، ومع ذلك فهو أعظم المجتمعات رقياً وتحضراً عرفها التاريخ من قبل وإلى يوم القيامة؛ لأنه كان قائماً على مجموعة من المفاهيم والقيم الحضارية الراقية النبيلة التي لا توازئها قيم ومفاهيم حضارية أخرى في أي موضع أو زمانٍ آخر، سرعان ما أعطت نتائجها، وانعكست آثارها الإيجابية على العالم أجمع، وفي سنوات معدودات ،فغيرت وجه التاريخ من أظلم صورة يُمكن أن تُعرَف إلى أشرق وأعدل وأعظم صورة.

إذن البشرية أوجدت منذ أكثر من 1433 عاماً قاعدة حضارية متكاملة بمجرد الركون إليها فإنها تحقق لتابعيها غاياتهم وأهدافهم المبتغاة .

ويحدد الإسلام التقدم العلمي والتقني في مجتمع من المجتمعات بمخزون المعرفة المتاحة لهذا المجتمع في وقت معين، وبقدرة ذلك المجتمع على توظيف مخزونه العلمي وقدراته التقنية في عملية تنمية شاملة تحقق العمارة المادية للحياة بمستوى العصر، مع القدرة على تحسين وتطوير هذا المستوى، والنهوض المستمر بالمعرفة العلمية،وبالتقنيات المتاحة، فان ذلك يتسع في الإسلام ليشمل النمو الإنساني بجميع أبعاده حتى يصل إلى مقام التكريم الذي وصفه الحق - تبارك وتعالى - بقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: الآية 70).

وإذا كان مفهوم التقدم العلمي والتقني اليوم قد حدد بحدود ضيقة لا تتسع إلا لعدد من المفاهيم المادية الصرفة التي يقتصر مردودها على التقدم الاقتصادي والعمراني والسياسي والعسكري البحت، وما يرتبط بذلك كله من نشاط عمليات التصنيع، والزراعة وزيادة الإنتاج، والسيطرة على الأرض والاستفادة بثرواتها، ومحاولة التحكم في بيئاتها، فانه في الإسلام يشمل ذلك كله بالإضافة إلى التركيز على جميع أبعاد النمو بالإنسان أفراداً وأسرراً ومجتمعات نمواً متكاملأً لمختلف المواهب والملكات ابتداءً بالقدرة على توفير الاحتياجات المادية التي تمكنه من القيام بواجب الاستخلاف في الأرض، وعمارة الحياة على سطحها، وانتهاءً بتطلعاته الروحية والفكرية والأخلاقية والسلوكية والعقيدية التي تربطه بخالقه وتعينه على تحقيق ذاته عبداً لذلك الخالق العظيم وعلى فهم حقيقة رسالة الإنسان في هذه الحياة.

فالمسلم لا يرى في البحث العلمي مجرد جري وراء الكشف عن أسرار الكون، وقوانين الله فيه لتطبيق تلك الكشوف والقوانين في استثمار ثروات الأرض وأحكام السيطرة عليها فقط بل يرى فيه - فوق ذلك - طريق المستكيف إلى الله تعالى، ووسيلته للتعرف على شيء من صفات خالقه العظيم من خلال التعرف على بديع صنعه في الأنفس والآفاق⁽¹⁰⁾.
لقد اكتسب الفكر الإسلامي هوية تنتسب إلى الفروع الوسيطة، بسبب أن المسائل المعاصرة مسائل متعددة الأصول، وتكرس في ارتباط متقابل مع سائر فروع البحث الديني، فهذه الفروع في الوقت التالي نحتت للفكر مسائل جديدة، ساعدت من ناحية أخرى على إثرائه بأدوات وأسس جديدة.

إن الهوية الفكرية المتشابكة مع باقي العلوم تؤدي فضلاً عن تخصص المفكر الإسلامي في فهم النصوص الدينية، إلى إلمامه بعلوم الفيزياء والمعرفة والأخلاق والأساطير والاجتماع والنفس و...الخ، مما يمكنه من صياغة الفكر على أساس تحاور وتبادل لوجهات النظر مع باقي العلماء، فكيف يتسنى للمفكر بدون الاطلاع على باقي العلوم أن يطلق آراء واضحة حول التدين وأشكاله ومصادره وظروفه، تقع موقع القبول في الذهنيات العارفة بمعطيات العلوم المختلفة؟
إن دراسة الفروع العلمية المختلفة تعد من أهم مقومات الفكر الإسلامي المعاصر ذات التأثير في تشكيل الهندسة المعرفية له، فهذا التوجه ندخل في الحساب مناهج متنوعة ومباني مختلفة ولغات عصرية مؤثرة⁽¹¹⁾.

لقد اكتسب المفكر الإسلامي اليوم أدوات ومقدمات جديدة توغلت في جميع شؤونه المعرفية لفهم وشرح تعاليم الدين، وتقديم الإيمان الديني، وإثبات صحة الطروحات الدينية وغير ذلك، فهو يتحرك أحياناً بخطى ظاهراتية، وتارة يتحدث بلهجة تاريخية، وفي أحيان أخرى بنقد التحليلات النفسية بأدوات عصرية، ويشيد في النهاية من كل هذا نظاماً معرفياً جديداً، فالمشكلة هي ذاتها، تتمثل في مدى قدرة الفكر التغييري على الاستفادة من منظومة الفكر الإسلامي لتأسيس نهضة حديثة في كافة المجالات، لا أن نتباكى من أجل تأسيس ثقافة حديثة تختلف في ماهيتها عن الغرب والسلفية.

رابعاً- بعض سمات جاهلية القرن الحادي والعشرين

تعاني المجتمعات المعاصرة الكثير من المشكلات والصعوبات الناجمة عن تغير القيم، فقد تغيرت القيم الأصيلة وظهرت بدلاً منها قيم أخرى بعيدة كل البعد عن كل ما كان المجتمع يتمتع به، فالصدق أصبح كذباً والامانة أصبحت سرقة والاتفاق أصبح مجاملة، والمنافق أصبح مؤمناً، والمراوغ أصبح مستقيماً، والقتل صار تضحية، وفي هذا الصدد يرى الكثيرون إننا لن نكون مبالغين إذا قلنا إن كثير من مشكلات مجتمعنا الراهنة هي مشكلات أخلاقيه في صميمها وما

يدور حول الحديث على كل لسان الآن من تملق الكثيرين من الناس ومظاهر الإهمال والتسيب واللامبالاة واستغلال الانحراف إنها هي جميعها تعبر عن أزمة خلقه وعن قصور في نموها الخلقى.

ومن مظاهر تضائل القيم الأخلاقية في الجيل الناشئ عدم احترام أراء الآخرين وعدم احترام ملكية الغير وحقوقهم والتكرار لحقوق الوالدين واللامبالاة بالنظم والقوانين وأصبح المجتمع أكثر عنفاً وأقل انضباطاً وأكثر تساهلاً ولعل هذا الانهيار أدى إلى جعل شباب اليوم أكثر سوءاً في طباعهم وأكثر استخداماً للغة البذاءة، ومعايير السلوك لديهم انحدرت إلى أدنى درجاتها.

إن مجتمعاتنا اليوم أمام منعطف خطير جداً في تاريخ القرن الحادي والعشرين، لقد انشغلت الأجيال الثلاثة السابقة في القرن العشرين بهمومها النهضوية والاستقلالية والوطنية والقومية والفكرية والأيدولوجية، كانت تحت الخطى نحو التقدم، ولكن لاحتها الهزائم العسكرية والنفسية وقمع السلطات وجور الحكومات، فعاشت تناقضات متنوعة، ولكن بقيت الانقسامات السياسية والفكرية، أما الأجيال التي ستحيى في القرن الحادي والعشرين، فإنها ستحيى تناقضات من أنواع أخرى، أن جيل اليوم وهو عند بدايات قرن جديد لا يفكر تفكيراً عقلياً أو رومانسياً أو جدلياً أو نضالياً أو تقدمياً، إنه منشغل اليوم بالأوهام و الانقسامات والكراهية وعبادة الذات ونشر الانتماءات، وقد غلبت الذات على الموضوع، والأوهام على الحقائق، والكراهية على التسامح، مسخت الثقافات الجديدة والفكر الحر إلى أفضى وأزقة وانغلاقات، تحولت الأوطان إلى سلعة من الدرجة الخامسة وغلبت النزاعات العرقية والطائفية على التفكير بالمصير المشترك، بحيث نجد الأب لا يكره أي شعب أو أي مجتمع، ولكن ابنه مشبع بكرهية هذا الشعب أو ذلك العرق أو هذه الطائفة أو تلك الملة!! لابد من تغيير السياسات وتحديث الأنظمة والقوانين، لابد من تجديد الأفكار وتغيير المناهج بإصلاح الإعلام والتربية والتعليم، لابد من تطوير الجامعات ومضامينها وعناصرها، مجتمعاتنا إن بقيت على حالها، فهي ستدفع أثمناً باهظة في المستقبل. ينبغي التفكير بتأسيس إستراتيجية جديدة لتغيير مجتمعاتنا نحو الأفضل⁽¹²⁾، إن أجيال الأمس سترحل في غضون 10-20 سنة، وليس أمام الأجيال الجديدة إلا مشكلات الدواخل وأزمات ميراث صعب إزاء عالم يتقدم بسرعة مذهلة، فهل آن الأوان لاستيعاب ما حصل؟ ولكي يتم فهم وإدراك ما تقدم يمكن توزيعه حسب الحالات وكالاتي:

من الناحية الدينية:

لعل من أشد مظاهر الفساد الأخلاقي التي بدأت تنخر في مجتمعاتنا بشكل مريب هي **عدم الخوف من الله والجهر بالسوء**، وعدم التفكير بالآخرة وبالتالي كثرة الذنوب وإعلان المعصية، وإظهارها، بل والتباهي بها جهاراً نهاراً عياناً بياناً من دون مراعاة لمشاعر أو التزام

بآداب! وهذا ما كان يوجد في العصر الذي سبق الإسلام. والجهر بالسوء مخالفة واضحة لتعاليم المصطفى (صلى الله عليه واله وسلم) حينما قال "كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشفه عنه " متفق عليه.

وهذا من فضل الله تعالى في أن كل الخطاءون يُعَفَوْنَ من ذنوبهم بشرط توبتهم باستثناء المجاهرين منهم لجهرهم بالمعصية وما أكثرهم اليوم، لا بل وصل الأمر في أن قنوات فضائية كثيرة تبث المعاصي بيعاً للناس ليلاً ونهاراً. إن هذا المجاهر بالمعصية فقد حياءه من ربه ومن رسوله ومن المسلمين والناس جميعاً، وقد المبالاة بالقول والفعل "وهذا معنى المجانة" قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور: الآية 19). ولعل اخطر ما في الذنوب أنها تحرم صاحبها من العلم (قراءة القرآن) وتقلل من رزقه وتنزل عليه النقم وتزيل منه النعم، والمتتبع لعالم اليوم يرى إن نسبة الفقر بين الناس كبيرة والنعم شحيحة وسطوة الحكام أضحت كبيرة على رقاب الناس وما كان ذلك ليحدث إلا بكثرة الذنوب.

وتأتي ظاهرة فقدان الحياء بالمرتبة الثانية التي مَقَّتْهَا الإسلام ومقتتها العرب قبل الإسلام، وقد لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء، لأن هؤلاء يشوهون صورة المسلم الحق النظيف في أقواله وأفعاله وسلوكه، وهؤلاء النسوة والفتيات ملعونات، لأنهن يمزقن ثوب الحياء الذي هو زينة الفتاة والمرأة المسلمة، ملعونات، لأنهن من جنود إبليس، فهن سبب في فساد الشباب المسلم وتجربه على انتهاك حرمت الله، واللواتي شملهن حديث النبي ﷺ صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا "رواه مسلم. وتمثل القنوات الفضائية وأجهزة الانترنت بما جبلت عليه من مواقع إباحية إضافة إلى مواقع ما تسمى بالتواصل الاجتماعي الفيس بوك والتويتر وغيرها من أشنع ما شهدته البشرية من انفساخ الأخلاق وانحلال للقيم وانعدام الحياء للنساء والرجال وهو ما يسمونه بالتطور الإلكتروني والتقدم الحضاري، هذا فضلا من أن النبي الكريم ﷺ قد لعن الكثير من الذين يشوهون صورة الإسلام والمسلمين وهم كثر في يومنا هذا!

وتعد ظاهرة الزنا بالمحارم من أخبث الظواهر التي يشهدها هذا القرن، والتي انتشرت حتى بين المسلمين، ففي إحدى مدارس مدينة عربية استغاثت إحدى الطالبات ذات الـ 11 ربيعاً بمدربتها تشكو من تناوب أبيها وأخيها على اغتصابها، وكشفت والدتها الطفلة إن الأمر نفسه وقع مع بناتها الأخريات قبل تزويجهن. والأمر نفسه يتكرر مع رجل عربي مسلم آخر حينما حاول إجراء

عملية قيصرية لابنته التي حملت منه لاستخراج الجنين وتوفيت الفتاة على أثرها! واعترف الجاني انه كان يمارس الجنس مع ابنته منذ خمسة سنوات وزوجته كانت على علم بالأمر. وإذا كان هذا حال البلدان المسلمة فما بالك بغيرها، فهذا الرجل الخبيث الكولومبي الذي اغتصب ابنته لمدة 20 سنة وأنجب منها ثمانية أطفال ،وبدأ التحرش بها وعمرها خمسة سنوات وأنجبت طفلها الأول وعمرها 12 سنة، فيما احتجز رجل نمساوي ابنته لمدة 24 سنة مغتصباً لها وأنجب منها سبعة أولاد (13) وهناك الكثير مما لا يمكن إحصاءه من على هذه الشاكلة والعياذ بالله . وأضحت ظاهرة الزواج المثلي والسحاقي من الظواهر المعترف بها في كثير من الدول فقد ذكرت وكالة رويترز للأخبار في 2008/6/17 أن في سان فرانسيسكو أقامت ولاية كاليفورنيا أول حفل زفاف رسمي للمثليين من الجنسين في الولاية وفتحت أبوابها أمام الأزواج من اللوطيين والسحاقيات من مختلف أنحاء البلاد في تحرك يحتمل أن يشكل تحدياً لولايات أخرى تعترف الزواج بأنه رباط بين (رجل وامرأة) ، وضمن السياق نفسه قضت المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان بأن فرنسا تصرفت بشكل غير قانوني بمنعها امرأة سحاكية من تبني طفل وأمرت الدولة بدفع 10 آلاف يورو (14420 دولاراً) تعويضاً لها!!!.

وذكرت صحيفة الرياض بتاريخ 2008/9/29: أن وزيرة الخزانة البريطانية (أنجيلا إيغيل 47 عاماً) هي أول وزيرة تعقد زواجها على عشيقتها التي كانت على علاقة معها منذ 18 سنة، تعمل عشيقتها ماريا إيكسول مهندسة في شركة الاتصالات الحكومية البريطانية، وكانت الوزيرة قد عقدت قرانهما في مكتب ساوثارك جنوب لندن، هذا غيظ من فيض انقلاب الناس على تعاليم أديانهم وتدني أخلاقهم وتجاهلهم للقيم الإنسانية السائدة المتعارف عليها.

من الناحية السياسية:

الظاهرة الملفتة للنظر انه في بلدان العالم المتخلف وبخاصة بلداننا العربية هي سيطرة السلوك الهنجري على مقاليد الحكم على عكس ما يحدث في مناطق أخرى من العالم، ولذلك ارتباط بعملية التحضر، إذ عن طريق التمدن ينتقل أهل الأرياف إلى المدن في ظاهرة اجتماعية متنامية ، ولكن ما يحدث في العالم العربي يشير إلى عملية عكسية يتم من خلالها تريف المدن بدلا من تحضير الأرياف، وقد أدى تمكن الريفيين من السيطرة على مراكز القيادة العليا في المجتمع إلى استبعاد العناصر المدنية المتحضرة لصالح العناصر الهمجية، التي عملت على طبع المدينة بطابعها أولاً، ومن ثم المجتمع كله، لتقوده إلى طريق خطر من التمزق السياسي والعنصري والمناطقى والقبلي العشائري، ويلاحظ في اغلب البلدان العربية عملية هجرة أو تهجير منظمة للعناصر المتحضرة من البلد، والتي لا تستطيع التلاؤم مع همجية الريفيين المسيطرين على مفاصل القوة والثروة فيه، فيبدأ المجتمع بخسارة أكثر عناصره قدرة وتحضراً وعلماً وتقع كل

خطط التطوير والتحديث والتنمية، حتى تلك التي يدفع إليها المجتمع الدولي في الفشل نتيجة لطبيعة الممسكين بالسلطة. فالريفي يتعامل مع ثروة المجتمع وممتلكات الدولة بنفس الطريقة التي يتعامل بها مع ممتلكات العشيرة أو القبيلة الأخرى، أي أنها تكون في نظره صالحة للنهب والاستباحة! ويصبح التعذيب والقتل واستخدام القوة العسكرية هي السبل المفضلة لمعالجة المشكلات والتباينات الاجتماعية، وتصبح السيطرة الشخصية والعائلية على مؤسسات القوة الأمنية والعسكرية وأجهزتها المختلفة هدفاً رئيساً لدى القادة الريفيين الذي يحملون ثقافة حل المشكلات مع الآخر بالعنف⁽¹⁴⁾.

إن قيادة نخبة متحضرة لبلدانها عامل رئيس في انعتاق البلد من التخلف، والسير في طريق التحضر والرقى، أي إننا لا يمكن أن نتوقع من همجي بعيد عن التحضر أن يقود أي مجتمع إلى الرقي والتحضر، بل إنه على العكس من ذلك يتكفل بالقضاء على بؤر التحضر في المجتمع ويعيده إلى الخلف أشواطاً بعيدة في اتجاه الهمجية.

عندما يتولى الريفي مسؤولية أي موقع رسمي، فإنه يسارع إلى التصرف من وحي ثقافته العشائرية، ويسعى إلى ملء المرفق أو الوزارة التي يرأسها بأفراد عشيرته وأقربائه، وفي سبيل ذلك يشرع بمحاربه الكفاءات التي يعتقد أنها تقف عقبة أمام مطامعه الخاصة، وتبدأ سياسات التهميش (والتهجير) تمارس بكل قوة، لتفرغ المرفق أو الوزارة من الكفاءات والقوى المتحضرة لصالح المزيد والمزيد من سيطرة التخلف والهمجية.

إما الحريات التي يطلقها الحكام في دول العالم المتخلف والتي هي حرية مزيفة وغير شرعية لأنها تخضع لكل أشكال الضغط والتدخل والقهر والقسر التي تفرض على الآخرين تحت ستار تمكينهم من تحقيق قدراتهم تحت ظروف الملائمة التي يهيئها هؤلاء الآخرون، وكما يقول محمد عابد الجابري أن مأساتنا في الوطن العربي الراهن تكمن في أننا لا نملك الكلمة، بل أننا محرومون من حق طلب الكلمة، ودون هذا الحق يفقد الإنسان هويته كإنسان، ولن يكون (حيواناً ناطقاً بل سيبقى أنساناً)⁽¹⁵⁾، ولعل ما حدث مؤخراً في تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا إلا دليلاً على حرمان الناس من حق الكلمة والحرية المفقودة.

تجدر الإشارة إلى أن الكلام عن الريفيين لا يشمل من هم ذا أخلاق وقيم ومثل عليا، إذ يوجد الكثير من أهل الريف ممن هم يقتدى بهم من حيث ما يحملونه من قيم تمثل أساس متين لحياة عصرية، ويحملون أفكار رائدة في عملية التطور والتقدم، إذ أن المقصود بالأمثلة التي وردت هم من شواذ الريفيين وليس جميعهم، فالكلام ليس عاما لكن الأكثرية من هؤلاء يفتقدون إلى الأسس الحضارية التي يجب أن تكون وفق ما تحمله الحضارية من معنى، وللأسف أن هؤلاء الشواذ استطاعوا الوصول إلى مقاليد الحكم والسيطرة على مقدرات الناس في كثير من بلدان العالم الثالث.

من الناحية الاجتماعية:

ومن مظاهر جاهلية هذا القرن كثرة حالات الانتحار الذي ترجع أسبابه إلى الفشل والإحباط سواء في العمل أو التجارة أو الفقر الشديد ولكنه في النهاية يصنف على أنه فشل في تركيبية الشخص لسوء تربيته ، وضعف إيمانه وتدريبه على مواجهة الحياة ، وانفصاله عن الدين مما يستوجب الاهتمام بالأجيال القادمة والنشء بتعليمهم الصبر والقوة والتحمل والارتباط بالدين وتعاليمه لأنها جريمة أمام الله ، فإذا كان القانون لا يعاقب على الشروع في الانتحار فإن الإنسان مكلف من الله أن يعمر هذه الأرض ويرعى نفسه وغيره .

ويؤكد الدكتور محمد عبد الظاهر الطيب . أستاذ الدراسات النفسية عميد تربية طنطا سابقاً واستناداً إلى تقرير أعده مجلس الوزراء المصري في 2009 بمناسبة ظاهرة الانتحار الأخيرة عن طريق الحرق ، وجاء فيه أن نحو 42 ألفاً من مختلف المحافظات حاولوا الانتحار بوسائل مختلفة على رأسها المبيدات الحشرية وقتل الأسرة والنفس في الوقت ذاته ، إضافة لحالات الانتحار بالقفز من أعلى المباني أو في الترع ونهر النيل⁽¹⁶⁾.

ويعتقد الدكتور عبد العظيم العمري رئيس حركة الإصلاح بصنعاء ، ومختص بعلم النفس ، أن مدى قيمة حياة الإنسان عند مجتمع ما ، يقاس بالمشكلات التي تهدد تلك الحياة باعتبارها ظاهرة ، أو أنها لازالت مشكلة ، وقال " في المجتمعات الغربية وتحديداً في الولايات المتحدة أطلقوا وصف " ظاهرة " على مشكلة أودت بحياة أربعة أشخاص فقط ، بينما في اليمن 500 حالة انتحار مثلاً في عام 2002 ، ولا نطلق عليها ظاهرة لأن قيمة حياة الإنسان عندنا ما زالت رخيصة!!

وقد بلغت حالات الانتحار في اليمن في السنوات الأربع ما بين سنتي 2000-2004 حوالي 1470 حالة ، منها 316 حالة انتحار خلال المدة من الأول من كانون أول (يناير) ، وحتى نهاية تشرين ثاني (نوفمبر) من عام 2004 فقط.

ومن الظواهر الاجتماعية الأخرى وفي حملة مشتركة تحاول ثلاث من الدول وهي كوستاريكا وبينين وبوتان، الترويج لأكل الحشرات، فحتى في المطاعم الفاخرة يجب أن تضم قائمة الوجبات الديدان والعناكب الكبيرة المعروفة بعناكب الطيور. أما في الصين فبعد أكل الكلاب والقطط يجنح الشعب الصيني إلى التهام الفئران! وذهب العالم إلى أبعد من ذلك في جنونهم وخرافاتهم حينما اعتمدوا على الثيران في تنبؤاتهم ، إذ تنبأت الثيران الملكية في كمبوديا بأسوأ حصاد في البلاد منذ عقد من الزمان بعد طقوس احتفالية للحرث، وقبلها اعتمد العالم على تنبؤات الإخطبوط في ألعاب كرة القدم ، وبالتالي يمكن القول إن هذه الخزعبلات ما كانت تحدث في أي عصر بغض النظر عن مستواه الحضاري.

وقد كثرة في الآونة الأخيرة ظاهرة الطلاق وختان المرأة وعدم احترامها ومنعها من المشاركة السياسية، ولأسباب تعود إلى الجهل والتخلف وعدم إدراك المسؤولية وواجبات الزوجية، وللانحدار الذي وصلت إليه المجتمعات لضعف الاطلاع وقلّة الثقافة واللامبالاة والسبب الرئيس تجاهل تعاليم الدين وضوابطه، وعن رسول الله ﷺ قال: "أوصاني جبرئيل بالمرأة، حتّى ظننتُ أنّه لا ينبغي طلاقها إلّا من فاحشة مبيّنة"، وما أكبر جريمة الإنسان لو أنّه أهمل رعاية أسرته وتسبّب في أذاهم، لذا فالنبيّ ﷺ يقول: "ملعون ملعون من ضيّع من يعول". واستمراراً لهذا النهج، فإنّ رسول الله ﷺ قد جعل من نمط سلوك الإنسان في بيته ومعاملته لزوجته، وعموم أهله، معياراً لشخصية الإنسان وميزاناً لمقدار الخير الذي تحمله، ممّا يدلّ على أنّ الإنسان إنّما يُختبر في نفسه ويُمْتَحَن في دينه ويُفاضل في شخصيته ابتداءً في طريقة تعامله مع نسائه وأهل بيته، ومدى رأفته ورحمته، ومقدار الخير الذي يوصله إليهنّ وإليهم، لذا فإنّ رسول الله ﷺ يؤكّد: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي" (صدق رسول الله صلى الله عليه واله وسلم).

فقد حظيت المرأة باهتمام القرآن، والحديث عنها نال مساحة واسعة منه، كما في سورة النساء وسورة البقرة وسورة المائدة، والنور، والأحزاب، والمجادلة، والممتحنة، والتحريم، والطلاق. بل والأكثر من ذلك نرى القرآن الكريم قد خصص سورة كاملة للحديث عن النساء وسميت بسورة (النساء) المذكورة آنفاً لاشتمالها على كثير من المفاهيم والأحكام الشرعية المتعلقة بالنساء.

والقرآن الكريم عالج وأصلح الكثير من أخطاء العصور الغابرة والحضارات القديمة في كل أمة من الأمم، فالعصور القديمة كانت قائمة على تركيز الفواصل بين الرجل والمرأة مع التأكيد على إثارة النقاط السلبية لدى المرأة بشكل غير واقعي، فقد كان الحديث يدور لدى بعض الفلاسفة حول ما إذا كانت المرأة ذات روح أم لا، وكان عقلها موضع شك، وكانت إنسانيتها موضع إهمال، فلم ينظر إليها من موقع التكامل الذاتي الذي يجمع الروح والعقل في الإطار الإنساني، بل كل ما هناك أنهم نظروا إليها كأنثى وكأداة للمتعة فحسب، ولما كان هذا الجانب من شخصيتها يوحي بالعار فيما يعيشه الناس من قيم مختلفة كان الموقف منها موقفاً سلبياً يتمثل بالأسى والألم والشعور بالنقص كما حدثنا القرآن الكريم عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل: الآية 58 و59)

نشاهد العصر الحديث انه قد تجاوز هذه النظرة إلى النظرة الإنسانية إلا أنه لم يعمل التوازن في حركة الشخصية الإنسانية في داخل المرأة، فقد بدأ التفكير يتحرك في اتجاه فكرة المساواة بينها وبين الرجل على أساس فكرة الحريات، فقالوا بأن المرأة إنسانة مستعبدة، ومقهورة، ومظلومة في البيت وفي العمل وفي العلاقات الحياتية، فلا بد لها أن تأخذ حريتها كجزء من حركة الحرية

في حياة الإنسان، فبدأ السير باتجاه الخطأ من هذا الموقع، فساهموا في إلغاء خصوصية كل من الرجل والمرأة وأبعدوهما عن دورهما الخاص.

أما الإسلام فقد أراد للمرأة أن تكون إنسانة وامرأة، كما أراد للرجل أن يكون أنساناً ورجلاً، تبعاً لطبيعة وفسلفة كل من الجنسين، وقد تناول القرآن ذلك بشكله العام. ففي القرآن نوعان من الأحكام، فهناك أحكام عامة تشمل الرجل والمرأة معاً، كما في قضايا الكفر والإيمان، والأخلاق والمعاملات المالية والعلاقات الحياتية، وجوانب التربية والسياسة فيما يدخل في عمق المسؤولية العامة للإنسان. وبذلك كانت حركة المسؤولية ممتدة في شخصية المرأة وحياتها، وفي مثل هذا المجال نرى القرآن يتحدث عن الثواب الذي ينتظر المؤمنين والمؤمنات في الآخرة، وعن العقاب الذي ينتظر الكافرين والكافرات، والزانيين والزانيات، والسارقين والسارقات، والمنافقين والمنافقات، في الدنيا والآخرة من دون فرق بين الرجل والمرأة في خصوصيات العقاب والثواب مما يوحي بأن وعي المسؤولية لديهما واحد كما في قوله تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَاللَّهُمَّ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (التوبة: الآية 67 و 68).

فقد بدأت هذه الآيات بالنداء الذي يستثير الإيمان في نفوس المؤمنين للإيحاء بأن الالتزام بهذه التشريعات من فروض الإيمان، وذلك ضمن عدة نقاط:

1- "لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً..".

قيل في بعض التفاسير: إن ذلك إشارة إلى ما كان يحدث من انتقال المرأة بالإرث إلى الولد الأكبر في تقاليد الجاهلية، فجاءت هذه الآية بمثابة النهي عن ذلك.

2- "وعاشروهن بالمعروف..".

وهنا يبيّن القرآن الكريم خط علاقة الرجل بزوجته من حيث المعاملة وهي (المعاشرة بالمعروف) وهي تتمثل في احترام المرأة في مشاعرها وعواطفها وشخصيتها المستقلة كإنسانة محترمة في إرادتها.

3- "فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً..".

في هذه الآية لفظة قرآنية توحى للأزواج بالابتعاد عن الاستسلام للمشاعر الطارئة السلبية فيما تفرضه بعض الأوضاع والأعمال تجاه زوجاتهم.

4- "وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً..". في هاتين

الآيتين تأكيد على وجوب احترام الحقوق المادية للزوجة من قبل الزوج مهما كانت الظروف والحالات الطارئة.

ولشدة حرص القرآن على المرأة واهتمامه بها نراه ينتقل بنا ليطلعنا على مرحلة أخرى من مراحل المرأة وهي مرحلة الأمومة ومدى ما تملكه الأم من عاطفة تجاه أطفالها والتي زودها بها الله سبحانه وخصها دون الرجال فكانت هي السبب الذي ساعدها في تحمل مصاعب التربية في البيت ولذلك جعل الله تعالى كرامة خاصة للأم دون الأب حيث ورد في الحديث النبوي: (الجنة تحت أقدام الأمهات) وتحدث القرآن الكريم عن الأمومة وعاطفتها في أكثر من مورد ومن هذه الموارد، قصة أم موسى حيث قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لِتُبَدِّي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ.. ﴾ ثم تنتقل بنا الآيات إلى قوله تعالى ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ.. ﴾ (القصص: الآية 13-10).

وتطبيقاً لمشية الله تعالى بقوله: ﴿ وَإِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (الإسراء: الآية 58) جاءت عقوبة الله تعالى لهذا القرن الجاهلي والذي قبله بمرض الايدز، وهو أفتك وباء عرفه التاريخ، إذ يواصل الايدز انتشاره في العالم بعد ارتفاع عدد الوفيات إلى أكثر من 25 مليون شخص منذ التعرف عليه سنة 1981 بينها ثلاثة ملايين خلال 2005، ومع وجود 40 مليون إنسان على الأقل يحملون الفيروس هناك أكثر من عشرة ملايين منهم بين سن 15 و24 سنة، ويصاب كل يوم 14 ألف شخص بالايديز بينهم نحو ألفي طفل دون الخامسة عشرة وذلك وفق التقرير الأخير لبرنامج الأمم المتحدة ومنظمة الصحة العالمية، ويؤكد التقرير إن الايدز يعد أحد الأوبئة الأكثر تدميراً في التاريخ. وفي السعودية قال مصدر في وزارة الصحة انه تم إحصاء 10924 حالة إصابة بمرض فقدان المناعة المكتسبة (الايديز) في المملكة منذ اكتشاف أول حالة في 1984 بالمملكة مضيها إن ثلث هؤلاء المصابين قد توفوا، وأوضح أن المصابين يتوزعون بين 2005 مصابين سعوديين و8919 أجنبياً مشيراً إلى إن ثلث الإصابات سجلت بين النساء. تجدر الإشارة إلى أن أعلى نسب الزيادة لهذا المرض سجلت في أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى والشرقية، ولكن أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى تبقى المنطقة الأكثر معاناة حيث يوجد 64% من الحاملين الجدد للفيروس، هذا فضلا عن الفيضانات والعواصف والثلوج والأعاصير والإمطار المدمرة والجفاف، كلها جنود الله في الأرض لمعاقبة المخربين على الناس دينهم وعقائدهم وطمانينتهم.

وما يتعلق بواد البنات كشفت دراسة قام بها مكتب تابع للأمم المتحدة في الهند، عن استمرار عادة وأد البنات في أوساط الهندوس على نطاق واسع، وأكدت المسؤولية بمكتب الأمم المتحدة أن

أعداد الإناث قد تضاعلت بشدة لتصل إلى أدنى المعدلات في العالم. وذكر موقع الأمم المتحدة على الإنترنت أن نسب الإناث إلى الذكور 927 أنثى مقابل 1000 ذكر في معظم ولايات الهند، أما في ولايات البنجاب وجو جارات وبراديش فتصل النسبة إلى أقل من 800 أنثى مقابل 1000 ذكر .

وأظهرت دراسات هندية أن العار والفقر هما الشعور الذي يدفع الهندوس إلى التخلص من بناتهم؛ لأن من يعطي بنتا يعتبر أقل من مستوى الذي يأخذها، إلى جانب النفقات الباهظة وخصوصا في صورة (الجهاز والأثاث) الذي يجب أن تحمله العروس إلى بيت عريسها وهو يكون عموما أكثر من مستوى أسرتها المالي، بل ويُملى أهل العريس القائمة الطويلة للهدايا والبضائع التي يجب عليها إحضارها معها ، بل وتظل هذه القائمة تتوسع حتى في السنوات التالية للزواج، ويضطر أهل العروس إلى الوفاء بمطالب زوجها وأسرته ، وجزاؤها القتل حرقا إن فشل أهلها في تلبية المطالب اللانهائية!!

وقد تدخل العلم الحديث الآن لتسهيل هذه الجرائم وتميرها بسهولة، ففي العصور السالفة كان قتل الأنثى يتم بواسطة إعطائها طعاما لا يليق بمعدتها أو إعطائها السم أو جرعة قوية من الأفيون أو وضع مخدة 'وسادة' على وجهها أو خنقها أو وضع رأسها في الماء حتى تموت؛ وهذه الأساليب لا تزال متبعة في القرى النائية وفي الأسر الفقيرة؛ أما أهل المدن وخصوصا الأثرياء فيستعينون بأجهزة الطب المتقدمة مثل جهاز 'السونوغرافي' الذي يحدد جنس الجنين ولو كان الجنين أنثى فيتم إجهاضه، وهناك قانون هندي أمده مائة عام يحرم قتل الأنثى، إلا أنه ليست هناك رغبة في تنفيذ هذا القانون، فالكل مصاب بهذا الداء الذي يعم الهند، إلا أن هناك ولايات أسوأ من غيرها في ارتكاب هذه الجريمة مثل ولايتي تاميل نادو الجنوبية وولاية راجستهان الشمالية الغربية؛ فقد شهدت مديرية دهارمابوري بولاية تاميل نادو قتل 105 أنثى شهريا على مدار سنة 1997 حسب أرقام رسمية .

وهناك الكثير من القرى التي لم تشهد حفل زواج منذ عقود؛ حيث من عادة الهنود حضور العريس على رأس جماعة من أهله وأصدقائه إلى بيت العروس حيث تجرى مراسم الزواج بصخب ثم يعود العريس ومعه زوجته، وتكون هذه المناسبة بمثابة أكبر فرح في القرية حيث يُدعى الكل إلى الولائم، وهناك أسر في راجستهان - مثل عشيرة بهاتي من الراجبوت التي تعتبر نفسها أرفع من غيرها - لم تولد بها أنثى منذ قرون حيث لا يطيقون أن يعطوا ابنتهم لأسرة أدنى منهم وبذلك يتحملون العار للأبد، كما لا يجوز في شريعتهم تزويج البنت داخل العشيرة وبالتالي وجب قتلها .

ورغم أن الكل يعرف هذه الحقائق إلا أن الهند الرسمية والشعبية تفضل السكوت عليها، ولا تثيرها عموما إلا بعض المنظمات النسائية؛ ولكن صوتها يغيب في صخب مجتمع جشع يعتبر

الأنتى عيبا وعارا لأهلها من جهة، ووسيلة للكسب والإثراء غير المشروع للعريس من جهة أخرى.

أما **ختان المرأة** الذي يعد بحق جريمة العصر واعتداءً صارخاً على حرية المرأة وكرامتها وشخصيتها وأنوثتها، لا زالت سائدة في مناطق كثيرة من العالم المتخلف، وفي إحدى قرى ناحية قلعة دزة في العراق، حيث تمتهن امرأة مسنة ممارسة الختان في بيتها، دخلت طفلة ذات الأعوام الأربعة وهي تحتضن لعبة بلاستيكية إلى الغرفة دون أن تعرف ما ينتظرها، فأمسكت بها والدتها بعد أن أجلستها على بطانية قديمة، وما هي إلا لحظات حتى أخرجت المرأة المسنة موساً للحلاقة وقطعت جزءاً صغيراً من جهاز الطفلة التناسلي (البظر). وقامت المرأة برش الجزء المصاب بالرماد "بغية التئام الجرح بسرعة ولكي تتخثر الدماء ولا تتعرض الطفلة للنزيف"، مؤكدة أن الألم "لا يستمر سوى يوم واحد"، وأوصت والدة الطفلة "بغسلها بالماء والصابون لثلاثة أيام وترطيبها بمرهم للعيون". ويتم تطهير الموس على أن يتم استخدامه مرة أخرى وتقول المرأة "تعلمت المهنة منذ 20 عاماً، ونصحتني طبيبة بالانتباه لدى قطع البظر حتى لا يؤثر ذلك سلباً في إحساسها الجنسي ولتفادي النزيف".

وتضيف إن "القطع يجب أن يكون حسب السنة النبوية فقط، فهذا التقليد ورثناه قديماً وهو موجود في الإسلام، هذا مع تأكيد علماء الدين على نفي وجود مثل هذا الختان في الإسلام .

وتقول إحدى السيدات لو كالة فرانس برس، ، إن "ختان الطفلة متوقف على نموها الجسدي، فقد يحدث ذلك عند البعض في سن الثالثة أو الرابعة لكنه لا يظهر قبل السابعة لدى الأخريات". ويؤكد احد علماء الدين إن "ختان النساء ليس واجباً في الشريعة الإسلامية، ولا يوجد نص قرآني أو حديث نبوي إنما المسألة متروكة للعرف، فإذا رأى الناس إن هذا الأمر جيد يفعلونه. وإذا اعتبروه مضرراً فلا يفعلون". وتسعى حكومة إقليم كردستان إلى القضاء على هذه العادة، وتعتبرها نوعاً من "العنف" الذي يمارس ضد النساء، لكن المرأة تقول أنها تمارس الختان "بمعرفة الوالدين وموافقتهم". وتضيف "أنا غير مستعدة لأن أعرض نفسي للمساءلة القانونية إذا لم تكن عائلة الطفلة موافقة كلياً".

وتؤكد دراسات وتقارير نشرتها منظمات دولية انتشار ختان الإناث في شمال العراق أكثر مما كان يُعتقد في السابق وبالتالي فإن هذا الانتهاك الصارخ الذي تتعرض له المرأة يتعارض مع النمو والتطور الاجتماعي الذي يتميز به الإقليم مقارنة مع بقية أنحاء العراق بسبب حالة الاستقرار الأمني النسبي الذي يشهده الإقليم منذ تسعينيات القرن الماضي. و تعود جذور هذه الظاهرة إلى عصور ما قبل الإسلام وإلى عادات بعض القبائل الإفريقية، وتشير بعض الدراسات إلى انتشار ختان الإناث في البلدان الأفريقية وبلدان أخرى في آسيا والشرق الأوسط. أما في العراق وبالأخص في إقليم كردستان العراق فإن هذه الممارسة مازالت موجودة لحد الآن وتنتشر

بصورة كبيرة في القرى النائية حيث التقاليد القبلية والعشائرية وعادات اجتماعية متخلفة وغير إنسانية مازالت سائدة. وتستند بعض هذه التقاليد إلى قول البعض أنها من تعاليم الإسلام في حين رفض عدد كبير من رجال الدين هذه الظاهرة وعقدت مؤتمرات عديدة رفضت ربط هذه الظاهرة بالدين والإسلام واعتبرت ختان الإناث ليس واجبا شرعيا. من جانبه اعتبر الشيخ (احمد عبد الوهاب البنجويني) خطيب جامع حاج جمال في محافظة أربيل وعضو مجلس النواب العراقي سابقا أن هذه الظاهرة من مخلفات العادات والتقاليد القديمة وان الشرع الإسلامي بعيد عنها.

وأكدت الأمم المتحدة في بيانات عديدة أن ختان الإناث ينتهك حق النساء والفتيات في الصحة والحماية بل وحتى في الحياة، وأشارت المنظمة الدولية إلى أن ظاهرة ختان الإناث تظل واسعة الانتشار بالرغم مما تقوم به كل الجهات للتقليل من هذه الظاهرة. وقالت الأمم المتحدة أن عدد النساء اللاتي خضعن للختان يتراوح ما بين مائة ومائة وأربعين مليون امرأة وفتاة على مستوى العالم، في حين يقدر عدد اللواتي يواجهن خطر الخضوع للختان بنحو ثلاثة ملايين فتاة سنويا. وتعهدت عشر وكالات تابعة للأمم المتحدة بدعم الحكومات والمجتمعات والنساء والفتيات للتخلي عن ممارسة ختان الإناث وصولا إلى خفض معدل الممارسة بنسبة كبيرة بحلول عام ألفين وخمسة عشر، وهو العام المحدد لتنفيذ أهداف الألفية الإنمائية.

وأكدت بعثة الأمم المتحدة لمساعدة العراق (يونامي) وبمناسبة اليوم العالمي لمناهضة العنف ضد المرأة إن استمرار العنف ضد النساء يقوّض الأسرة العراقية والمجتمع العراقي وتدفع المرأة والفتيات العراقيات ثمنا باهظا بسبب هذا العنف، ودعا الممثل الخاص للأمين العام في العراق ستافان دي مستورا، إلى وضع إطار قانوني وطني بشكل عاجل يضمن حماية المرأة في العراق، وأضاف أن وضع المرأة غير مرضٍ كثيرا، وأضاف المبعوث الدولي أن المرأة العراقية تعاني من الترميل والعنف والتمييز والقمع وعدم توفر التعليم والعناية الصحية وزيادة في العنف المنزلي، وعبر عن أمله بان توضع سلسلة من الإجراءات الملموسة وزيادة الوعي العام فيما يخص تعزيز حماية حقوق المرأة في كافة نواحي المجتمع العراقي.

من الناحية العلمية:

لقد تراجع الدور العربي كثيراً لدرجة أن هذه البقعة الغنية بالحضارة والتاريخ والثروات تعيش الآن خارج إطار العصر الحديث بكل معطياته وتدايعياته وإنجازاته وتطلعاته، بعيداً عن طموحات الإنسان العربي البسيط الذي يلهث وراء قوت يومه بعد أن عجز عن اللحاق بكرامته وحرية وآماله وأحلامه، قرون طويلة من التنوير والعلم والمعرفة والعطاء والإنتاج لم تكن لتشفع لهذا الوطن العربي ليحتل مكانة مرموقة تليق بسمعته وتاريخه.

أسباب كثيرة جداً أدت لهذا التراجع الكبير للدور العربي ليقى حبيساً لذاكرة الأمس البعيد، تُشير الدراسات والتقارير الصادرة عن المؤسسات والمنظمات إلى التدني الخطير لمستوى التعليم في معظم الدول العربية، لاسيما التي تترجح تحت خط الفقر، وما أكثرها ، حيث لا تزيد نسبة المتحقين بالتعليم الجامعي في كل الدول العربية عن 22%، بينما يصل في كوريا الجنوبية إلى 91%، وأستراليا 72%، وإسرائيل 58%. أما على مستوى كفاية عدد أساتذة الجامعات العربية إلى عدد الطلاب فإن هناك أستاذا جامعياً واحداً لكل 24 طالباً، بينما في اليابان أستاذ لكل 8 طلاب، وفي أمريكا أستاذاً لكل 13 طالباً.

يمر عالمنا العربي اليوم بأزمة كبيرة على مستوى عدد القراء من سكانه من حيث القراءة والمتابعة العلمية والاطلاع على ما يكتب وينشر ، حيث يصدق علينا بكل أسف عبارة "أمة اقرأ لا تقرأ" ، حيث إن معدل قراءة المواطن العربي لا يزيد عن ربع صفحة في السنة، بينما يقرأ الأمريكي أكثر من 11 كتاباً، والبريطاني 7 كتب في العام الواحد.

المعدلات المنخفضة جداً لرغبة العربي في القراءة جعلت منه محل تنذر ودفعت المؤسسات والمنظمات العالمية لكي تُبدع في شكل تلك الإحصائيات والمعدلات، فتُشير إحداها إلى أن العربي يقرأ لمدة 6 دقائق فقط في العام الكامل، بينما الغربي يتجاوز الـ36 ساعة، وبذلك فإن معدل القراءة في الوطن العربي لا يزيد عن 4% من معدل القراءة في إنجلترا. مقارنات هزلية ولكنها في حقيقة الأمر مؤلمة ومفجعة، ولكنها قد تبدو "مفهومة" إذا ما علمنا بأن نسبة الأمية المطلقة في الوطن العربي تزيد عن 50%، وهي نسبة معيبة لأبناء لغة الضاد!

وأخيراً وليس آخراً أزمة البحث العلمي في الوطن العربي كأحد أهم الأسباب الرئيسة للتخلف العربي عن ركب الحضارة والنهضة العلمية، هناك تقديرات تُشير إلى أن 95% من علماء العالم ينحسرون في أمريكا وأوروبا واليابان، وبذلك يكون نصيب الدول النامية وعلى رأسها الدول العربية 5% فقط، ولعل هذا التفاوت الكبير يُسهّم في تفسير الغياب الخطير للبحث العلمي العربي، وبمقارنة أخرى فإن هناك 318 باحثاً عربياً لكل مليون نسمة من سكان الوطن العربي، مقارنة بـ3600 باحث لكل مليون من الدول المتقدمة، ويؤكد العالم المصري أحمد زويل الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء عام 1999 في مقابلة تلفزيونية أن ما يُصرف على البحث العلمي في اليابان 110 أضعاف ما يُصرف عربياً على البحوث العلمية. ووفقاً لمعهد المعلومات العلمية، بلغ مجموع الأوراق العلمية التي نشرت في كل أنحاء العالم خلال السنوات الخمس الأخيرة 3.5 مليون ورقة، نال الاتحاد الأوروبي 37% منها والولايات المتحدة 34% ودول آسيا والمحيط الهادي 21% والهند 2% وإسرائيل 2.3% أما مساهمة العالم العربي الذي يبلغ مجموع سكانه 320 مليون نسمة فهي تتراوح بين صفر و 0.03% (17).

إن اخطر ما يعيق النهوض العلمي هو عدم تفهّم المجتمع للعائد الحضاري الضخم من استثمار العلم والتقنية، وهذا هو الذي قاد إلى نتيجة الموقع البائس للعرب على مستوى أمم الأرض من حيث الإسهام في مجال البحث العلمي الذي ذكر آنفاً. إذ إن الإبداع في مجال البحث العلمي بحاجة إلى احتضان رسمي وشعبي وكلاهما مفقودان في البلدان العربية حتى وصلت بنا الحالة إلى التفنن في قتل العلماء والمبدعين أو إبعادهم على اقل تقدير!

أما من حيث الإعلام في الوطن العربي يكفي أن نشير إلى إن هناك أكثر من 300 قناة عربية 80% منها غير موجهة سلوكياً وهي أخذت بتلابيب عقول الشباب وانجرارهم نحو الهوى الرخيص لتبعدهم عن الأخلاق الحميدة للعربي المسلم، لا بل تساهم مساهمة فعالة في إضاعة الوقت للناس والهائم ليس إلا، هذا فضلاً عن دور المسلسلات والأفلام الرخيصة المكررة والمنقولة من الفن الغربي المبتذل والتي أخذت مساحة واسعة من وقت الأسرة العربية.

ولعل اخطر ما ظهر مؤخراً وعلى لسان أكاديميين عرب هو تخليص الجامعات من الأمية، وبخاصة أمية الأساتذة، وهل فعلاً أن أساتذة الجامعات أضحوا أميين؟ نعم بعد أن كثرة شهادات التزوير أو القبول في الدراسات العليا عن طريق الوساطة والمحسوبية والرشاوى فدخل إلى الجامعات من هم لا ناقة لهم فيها ولا جمل⁽¹⁸⁾! وتأن جامعاتنا اليوم من برائن التدخلات غير المحسوبة في شؤونها من قبل مسؤولين في الدولة، وهذا ما جعل مراتب الجامعات العربية في أسفل السلم على مستوى جامعات العالم.

من الناحية الاقتصادية:

مشكلات كثيرة تستحق الإشارة إليها هنا منها العلاقات التجارية العربية البينية، وما يمثله العرب في الميزان التجاري الدولي، وطبيعة الصادرات والواردات وغير ذلك كثير، ولكن حسبنا أن نشير هنا إلى ما يختصر كثيراً من الكلام وهو ما كشف عنه تقرير التنمية البشرية عام 2008 الذي بين أن الناتج المحلي الإجمالي لكل الدول العربية و هي 22 دولة بلغ في سنة 1999 (531) مليار دولار أمريكي فقط بما فيه النفط الذي يمثل نحو 70%، ولكن في الوقت ذاته ومن طرف آخر نجد أن أقل دولة أوروبية في ناتجها المحلي وهي إسبانيا تفوق الدخل القومي العربي كله مجتمعاً إذ بلغ الناتج القومي الإسباني 595.5 مليار دولار وهي التي لا يزيد عدد سكانها عن 40 مليون نسمة، فيما كان عدد سكان الوطن العربي 280 مليون، وفي الوقت ذاته لا تعد إسبانيا من الدول المتقدمة كثيراً في الغرب، وفي حين أن إسبانيا لا تحتل مكاناً متقدماً بين الدول الأوروبية نجد أن الناتج القومي الإجمالي للدول الأوروبية الإحدى عشر المنتمية لاتفاقيات اليورو تمثل مجتمعةً 80% من الناتج الوطني الإجمالي الأمريكي، فكم يمثل مجمل الناتج القومي العربي من الناتج القومي الأمريكي؟ ولذلك لا

عجب في أن نجد أن موقع العالم العربي من ناحية البنية الاقتصادية موقعا يدعو للأسى والحسرة والأسف.

ومن جانب آخر بلغت الديون العربية، من دون الطفرات والطوارئ، في عام 2008 نحو (262) مليار دولار، ولكنها في حقيقة الأمر زادت عليه بنحو الضعف، وبلغت قيمة خدمة الديون العربية أكثر من (151.4) مليار دولار⁽¹⁹⁾.

تجدر الإشارة إلى أن الوطن العربي يعد ضمن المناطق الغنية في العالم بفضل موقعه الاستراتيجي لتوسطه العالم وما يحيط به من مسطحات مائية تمثل ممراً مثالياً للنقل على مستوى العالم، وموارده الاقتصادية الكثيرة وخاصة النفط، وعدد سكانه الكبير وما يتمخض عنه من الأيدي العاملة، وما تختزنه أرضه من معادن ثمينة، إلا أنه بالمقابل يحتل مراتب متقدمة من حيث الفساد المالي والإداري، الأمر الذي أدى إلى تبديد هذه الثروات وضياعها دون أن يستفيد منها مواطنوه، وهذا الفساد ذا علاقة متينة بالتحلل الأخلاقي والانحراف الديني والبعد عن الله وعدم الخوف منه، وإلا لكان المواطن العربي اليوم لا يختلف شأناً عن غيره من الأوروبيين لا بل الهنود!

وإذا كانت هذه عوامل داخلية فلا ننسى دواعي العولمة والنظام العالمي الجديد وقبله الاستعمار وما رافقها من مؤامرات على الدول الفقيرة والغنية من حيث سلب أموالها وسرقتها كما حدث لأموال العراق قبل وبعد عام 2003، وما أفريقيا عنا ببعيدة، تلك القارة الغنية التي سلبت موادها الأولية عن بكرة أبيها من قبل الاستعمار الغربي في القرنين الأخيرين، إذن الدول المتخلفة تقع تحت تأثيرين أولهما تجاهل الحكام، وثانيهما تجاهل العالم المتقدم لحقوقها.

من الناحية الفكرية

إن التفكير والتدبير وإعلاء كلمة العقل، منحى أنساني، عرفه العقل الراجح، وليس حكراً على فكر غربي أو شرقي، وقد صلح به المجتمع، ويمكن أن يصلح به أي مجتمع يتبناه ويؤكده ويؤطره، والذي لا جدال فيه إن بدايات التفكير الصحيح تقوم على إن المرء عندما يعمل فكره يخاصم من يقرأ لهم أو يستمع إليهم، مخاصمة في الحق، فما هو معقول يؤكد الحس والتجربة والخبرة، وما هو غير ذلك يُشك فيهِ ويمحص، وهناك الكثير من الطرق التي يستخدمها بعضهم للتأثير في مسار العقل والتفكير الصحيح، ومنها اللغة التي يستخدمها الكاتب في مقاله أو دراسته، أو الخطيب في حديثه للجمهور. الغريب في الأمر أنه في عصر ما قبل الإسلام كانت قريش تبعث بابناءها إلى الصحراء لتعلمهم اللغة والمنطق وقوة البدن والفرسية ومنهم نبينا الأكرم (صلى الله عليه واله وسلم)، إذن صحة التفكير والتدبير كان حينئذ أفضل من اليوم، مقارنة بمدارسنا في الوطن العربي⁽²⁰⁾، إذ إلى حد الوقت الحاضر لا يوجد حصة في كافة

المدارس والجامعات تعلم الطلبة عن كيفية التفكير قط!! وبالتالي حينما تسال أي عربي عن طريقة التفكير وتعلمه وماهيته وطرقه تحصل على النفي بالاجابة! لقد غلبت على مقالاتنا وخطبنا وفي أحاديث الناس في ما بينهم التفكير الانفعالي، فان ثارت قضية ما، وانقسم بشأنها الناس، وجدنا الكثير من الشحنات الانفعالية لدى هذا الفريق أو ذاك، إذ أن كتابات الانفعال تثير حماساً ولا تثير عقلاً.

لقد غرقت مؤسساتنا التعليمية في برامج التعليم بالتلقين وليس التعليم بالتفاعل، فقد نجحت مجتمعات في تعليم مبادئ التفكير العلمي لطلابها كموضوع خاص أو كجزء من مواد عامة، إلا أن عملية التفكير عملية بطيئة وتراكمية، تبدأ بالتراكم المعرفي، فمن لا يعرف لا يستطيع أن يفكر، وأدوات المعرفة عديدة متشعبة كلها غير مدرجة على جدول أعمال القياديين العرب اليوم بما فيهم الأكاديميين، غير أبيهين بان مهارة التفكير العلمي هي في الحقيقة عملية علمية تصب في مجرى التغيير الاجتماعي الهادف إلى تطوير المجتمعات، فهي ليس مزية عقلية يتحلى بها الأفراد، لكنها مع التراكم تصبح سمة للمجتمع ككل، فهل هذا جهل في قيادة المجتمع من قبل حكام جهلة أم تجاهل هؤلاء الحكام ليبقى المجتمع يأن تحت وطأة الجهل؟

خامساً - دوافع الترويج للجهل والشذوذ

هناك من يروج للشذوذ سواء كان الشذوذ الأخلاقي أم للشذوذ الجنسي أو للانحراف السلوكي العام أو غيره لكي يوقع الشعوب في متاهات وجهالة قد يحتاجها لأمر ما حسب تصوره، واليهود هم وراء اغلب هذه الرذائل المنتشرة حول العالم يروجون لها عن طريق نفوذهم العالمي وشبكاتهم الإعلامية الضخمة، فالمتأمل في ملكية وسائل الإعلام ذات التأثير في الولايات المتحدة وأوروبا، هي ذات ملكية يهودية مثل روبرت ميردوخ الذي يملك شبكات كاملة من الصحف والقنوات الفضائية من خلال مجموعته "نيوز كورب" التي تملك الـ"نيويورك تايمز" والـ"هيرالد تريبيون"، وإيان روبرت ماكسويل الذي كان يملك صحيفة "ذي إندبندنت" اليومية البريطانية والـ"ديلي نيوز" النيويوركية، والأخير قتله الموساد الإسرائيلي بعد تهديده بكشف تاريخ تعامله مع المخابرات الإسرائيلية وخططها في هذا المجال من خلال إمبراطوريته الإعلامية.

فقد جاء في بروتوكولاتهم الآتي⁽²¹⁾ :

لابد من إغراق الأمم في الرذائل بتدبيرها عن طريق مَنْ نهيتهم لذلك أساتذة وخدم وحاضنات ونساء الملاهي.

- سنتقدم إلى الشعوب الفقيرة والمظلومة كمحررين ومنقذين إياها من الظلم وندعوها إلى الانضمام إلى صفوف جنودنا من الاشتراكيين والفوضويين والماسونيين ،وبفضل الجوع سنتحكم في الجماهير ونستخدم سواعدهم لسحق كل من يعترض سبيلنا.

- لابد من أن نهدم دولة الإيمان في قلوب الشعوب وننزع من عقولهم فكرة وجود الله ونحل محلها قوانين رياضية مادية لان الشعب يحيا سعيداً هانئاً تحت رعاية دولة الإيمان ،ولكي لا ندع للناس فرصة المراجعة يجب أن نشغلهم بشتى الوسائل وبذلك لا يفتنوا لعدوهم المبين في الصراع العالمي.

فانتشرت المناهج الهدامة في العالم كله ساعية للتحرر من ضوابط الدين،فالعلمانية الآن تسعى وخاصة في الشرق الأوسط إلى التحرر من الضوابط الشرعية للدين الإسلامي وأسلمة الأفكار الغربية لتتوافق مع مبادئ حركتهم الفكرية الآخذة في الانتشار شرقاً وغرباً،لم يسلم منها احد،فرضت على رقاب الناس بواسطة حكام ماجورين لا دين لهم ووسط سكوت أفواه المتدينين . كان اليهود وراء جهل الإلحاد، وفساد الأخلاق ، وفساد التنصر والتكفير ، وفساد الأفكار ، وفساد القوميات والعصبيات ، وفساد الاقتصاد ، وفساد الأسر والبيوت ، وفساد الصحافة والإعلام ولذلك أطلق القرآن وصفه لهم بالسعي في الأرض فساداً ،ولم يخص من الفساد نوعاً معيناً ، ونبه بإطلاقه على أنهم وراء كل فساد، لذلك اخبرنا القرءان عن فساد اليهود في الأرض بآيات قرآنية عديدة نذكر منها:

اليهود وقتل الأنبياء :﴿وَقَتَلَهُمُ الْآنِبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ﴾ (آل عمران: الآية 181).
اليهود وخيانة الوعد:﴿ أَوْكَلَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ (البقرة: الآية100)
اليهود والفساد في الأرض:﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ (المائدة: الآية33)
اليهود وبث الفتنة بين الدول:﴿ كَلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ (المائدة: الآية64)
اليهود وسوء الأخلاق:﴿: كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِاسًا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة: الآية79).

تاريخ اليهود منذ أن كانوا إبان أنبيائهم من موسى إلى هارون إلى من قبله، وإلى من بعده، نجدهم سفكوا الدم الحرام، ونشروا الفساد بكل أنواعه، زنا وريا، وطغيانا وتجبرا، ونشرا لجميع خلائق السوء، إلى أن أصبح ذلك جزءا لا يتجزأ من كيانهم وحياتهم .

يقول عبد الوهاب المسيري⁽²²⁾ أن رئيس أول جماعة عالمية للشواذ جنسياً من الذكور هو ماجنوس هير شفيدل(1868-1935) ومساعدته كورت هيلر (1885-1972)،وكلاهما كانا ألمانين يهوديان، وكان هيلر أول من طالب باعتبار الشواذ جنسياً أقلية لا بد من حماية حقوقها،ويقول أيضا "وقد بدأت المؤسسات الدينية اليهودية تلحق بالركب ،فاليهودية الإصلاحية

والمحافظة لا تُحرمان الشذوذ الجنسي وقد أسست أيضا معابد يهودية للشواذ جنسياً، ورسم حاخامات شواذ من الجنسين".

ويقول أيضا "في عام 1988 اصدر الكنيست قانوناً بإلغاء القانون الذي يجرم العلاقات الجنسية الشاذة، وتوجد في إسرائيل جماعة تسمى جماعة الدفاع عن الحقوق الشخصية أسست عام 1975، وبعد عام 1988 ظهرت مجلات للشواذ جنسياً في إسرائيل باللغتين العبرية والانكليزية، وفي يونيو 1991 عُقد في تل ابيب المؤتمر الدولي الثالث للشواذ جنسياً من الذكور والاناث والمخنثين".

الفكرة الرئيسية عند اليهود هو الانحراف الأخلاقي والاجتماعي، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. (البقرة: الآية 275) وباستثناء الشرك والكفر وبعض الكبائر مثل الزنا وعقوق الوالدين؛ لم ينزل الله تعالى في كتابه العزيز آيات على هذه الشاكلة من التحريم والذم المغلطين كما أنزل في الربا.

ويأتي ذلك انطلاقاً من العديد من الأمور، أولاً أن اليهود أحلوا الربا وافتروا على الله تعالى في ذلك، كما انه يعتبر أحد صور أكل حقوق المستضعفين، وهي أمور لم يبسط الله تعالى فيها الأحكام، صيانةً لها، باعتبار أن المساس بحقوق الله تعالى من جانب الكافرين والعصاة لا ينقص من الله تعالى ولا من ملكه شيئاً، أمّا المستضعفين فهم أولى بالحماية، لذلك جاء الدم مغظاً في الربا، وتقابل في عقوبتها عقوبة المنافقين والكفار والمشركين، وهي الخلود في النار.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: الآية 33)

هذه هي تعاليم الإسلام، التي هي تتفق مع الفطرة الإنسانية، ولا تعتبر لائحة فقط بالمسلمين أو متوافقة مع عقيدتهم؛ حيث الخمر تضر المسلم وغير المسلم، والربا أكلٌ لحقوق المسلم وغير المسلم، والفواحش تضر المجتمعات المسلمة وغير المسلمة، وذلك لان كلام الله المتين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه جاء لجميع خلقه.

ولا يقتصر (النشاط) اليهودي في هذا الأمر على الفساد والإفساد الاجتماعي وعلى الربا؛ حيث يؤدي اليهود الدور الأساسي في نشر مختلف ألوان الرذيلة مثل الزنا واللواط وإدمان المخدرات وشرب الخمر، والذي يقرأ البروتوكولات، وهي ثلاثة المصادر الأساسية للعقيدة اليهودية المحرفة بعد التوراة والتلمود؛ يرى عجباً في هذا الأمر؛ حيث تدعو البروتوكولات إلى

نشر الأفكار الإباحية والانحلال الأخلاقي لتحقيق هدف **تحلُّل المجتمعات**، ونشر قيم الاستبداد، كما يعترف اليهود بأنهم كانوا وراء ظهور العديد من النظريات والفلسفات الهدامة التي تخالف سنن الخلق الإلهي للكون، مثل نظرية النشوء والارتقاء للعالم البريطاني اليهودي تشارلز داروين، وفلسفة نيتشه التي كانت وراء ظهور نظام أدولف هتلر الألماني، والتي دفعته إلى خوض الحرب العالمية الثانية.

ولعل أخطر ما يرددونه من تعاليم في هذا الجانب " :إن منع نكاح المحرمات من الأمهات والأخوات والبنات، بل والأبناء، ليس إلا من مَخلفات الإنسان البدائي الذي احتاج إلى إجراء معاهداتٍ واتفاقياتٍ خارج نطاق الأسرة، فقام عند ذلك بمنع نكاح المحارم، وبما أن ذلك لم يعد له أية أهمية، فإن هذا المنع يُصبح أمرًا عفى عليه الزمن."

لكن ومن جهة أخرى إن الله سبحانه وتعالى خلق من كل زوجين اثنين، فالخير والشر وجدا في الجنة وصية الله لأبونا آدم وصية خير، في ما يعتبر تغيير الشيطان لهما بأنها إرادة شر، لكن الله أعطانا العقل لكي نتدبر أمورنا باتخاذ طريق الصلاح والابتعاد عن الشر، فما بال المسلمين الوقوع في شرك الكفر من أول وهلة، ولماذا دائما ننشر غسيلنا على حبال الغير وكأنه تبرير رخيص لأفعالنا المشينة، هل وصل الجهل إلى إننا لا نفرق بين ما هو ضار وما هو نافع؟ إذن إن كنا نعرف الخطأ ونتجاهله فتلك مصيبة !وأن كنا لا نعرفه فالمصيبة أعظم وأشد!

إذ إن لنا (نحن المسلمون) آذان صاغية للأسف وعيون شاخصة لهذه الأعمال الشاذة وقلوب ملهوفة لرؤية أو سماع أخبار هؤلاء، وكأن الأمر لا يعنيننا ونحن نُسلم أطفالنا وشبابنا لقمة صائغة لهؤلاء القوم .، إذن نحن بشكل أو بآخر لا نعفي أنفسنا أبداً من المشاركة" أي كان نوعها" في شيوع الرذيلة أو على الأقل السكوت عنها في مجتمعاتنا المسلمة، والساكت عن الحق شيطان أخرس.

خلاصة الفصل

قمة الجاهلية حينما لا يفرق المرء بين ما ينفعه وما يضره! خاصة ونحن نعيش في قرن كثرة فيه قنوات العلوم ومجالات المعرفة وسبل الرشاد للذي يريد أن يتزود بها، فلا مجال للحجج بعدم وجود ما يُعرف وما لا يُعرف، لا بل كل ظاهرة في الكون باتت معروفة للجميع، إذن الذي يحدث هو تحامل على إرادة الكون الصحيحة، وتجاهل مقصود بمعرفة مسبقة! وهذه هي الميزة الرئيسية التي يتميز بها هذا القرن عن القرون السابقة، والذي يتحمل فيها الإنسان وزر ما يفعله ، وبالتالي فانه من الضرورة بمكان التفريق بين الجاهل والمتجاهل، ويمكن القول إن عدد الجهلة اليوم بات قليلاً جداً بينما المتجاهلين يشكلون الأكثرية !

وبهذا الصدد يقسم الناس إلى ثلاثة أصناف، أولاهما؛الذي يفعل المنكرات وبشذ عن القاعدة السوية بسلوك منحرف مرفوض من قبل المجتمعات الفاضلة وكأنه يبارز الله في خلقه، بقصد

مسبق ومييت والتي هي أساس صفة الجهالة كاليهود مثلاً لأجل تحلل المجتمعات من خلال شيوع الرذيلة بينها، وصنف يعمل الجهالات مدفوعاً ومسيراً من قبل الصنف الأول أما لأجل المال أو الفقر أو أن السلوك الشاذ هو جزء من شخصيته وتركيبته ،أما الصنف الأخير الذي يرى الصنفان الأولان ولا يرضى عن سلوكهما ولكن يغض النظر عنهما ،فهو يشاركهما الإثم حسب الشريعة الإسلامية بقول رسولنا الأكرم ﷺ من رأى منكم مُنكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"وتشمل هذه عامة الناس إلا من هدى الله، لا بل كثير من الناس لم يعد يصل إلى اضعف الإيمان وتلك هي مصيبة الأمة!

هناك فرق كبير بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة من حيث فعل الرذيلة ومحاولة شيوعها بين الناس وبالتالي يمكن الحكم من خلال ذلك على نسبة الجهلة بينهما (على اعتبار إن معيار الجهل هو الإيمان بالله والخوف منه) وقد اتخذ هذا المعيار على أساس المثال الآتي: إذا خيرت رجل بين دارين بحاجة إلى ترميم لكلاهما لكي يكونا صالحين للعيش ،وتقول له إن الدار رقم واحد إن رمتها فانك ستعيش فيها يوم واحد والدار الثاني إن رمتها فانك ستعيش فيها زمناً طويلاً ،فما بالك بهذا الرجل إذا اختار ترميم الدار الأولى!! ألم يوصف حينئذ بأنه جاهلاً؟ ،وهي تعني اهتمامه بالحياة الدنيا وترك الدار الثاني التي هي دار القرار . فالشعوب المسلمة وان انحرفت عن مسار الإسلام الصحيح إلا أنها تبقى محافظة على بذرة الإيمان في داخلها ،بمعنى إن المسلم يعيش في إطار اجتماعي وأخلاقي وأحضان إيمانية لا تسمح بالانحراف العلني أو أن المنحرف فيها مبتذل ومرفوض من قبل مجتمعه وهذا يقلل من انفلاته واندفاعه على عمل المنكرات ،على العكس من المجتمعات غير المسلمة إذ لا رادع أخلاقي ولا مانع اجتماعي ولا قيود شخصية ولا حياء أو خجل من فعل المنكرات .

إذن وفق المعيار أعلاه ما شان الشعب الياباني والصيني المتمثل بانضباطه العالي وثقافته الكبيرة أو حكومة سنغافورة التي لجأت إلى تجريم البصاق في الشوارع، والقاء العلكة وأعقاب السجائر في الشوارع، واتبعت معايير صارمة في مراقبة السلوك العام للفرد، بغرض مساعدته على التخلص من همجيته، ونقله إلى مدارج التقدم والرقي، حتى أنها وضعت خطأً وتنظيمات لمنع استمرار تزواج القطاعات المتخلفة والهمجية ببعضها، وعملت على تشجيع الزيجات التي تجمع المتحضر بالهمجي لتعديل سلوكه وقيمه ، هذه البلدان لا يمكن درجهما ضمن المجتمعات المتحضرة ،ذلك لأن هذه الخصائص وغيرها تعبر عن حضارة راقية مادية تخلو من أي مظهر روحي أو معنوي يمكن أن يفيد العباد في آخرتهم،بعبارة أخرى ما فائدة هذه الحضارة لمدة وجيزة لا تتعدى يوماً واحداً عند الله،لكن بالمقابل لا يمكن نكرانها أبداً لا بل نحن بحاجة ماسة إليها تضاف إلى خصائص مجتمعاتنا ليندمجا معاً ، فحينما يجتمع العنصر الروحي مع المادي

يتكاملان ليشكلا حضارة راقية يشار إليها ، وبفقدان أحد العنصرين تبقى الحضارة ذا ثلمه لا ترقع إلا بتوافر العنصر الثاني! ويندر توفر مجتمع يحمل كلا الصنفين معاً!

المجتمعات المسلمة الآن مصابة بوهن وفق ما تقدم، وهذا الوهن لا يعني الموت، بل توقف قد يدوم وقد يواجه بصحة إيمانية، وبالإمكان علاجه فيما استمسكت الأمة المسلمة بتلابيب الحضارة المادية أولاً، واستكملت جوانب حضارتها الإيمانية التي ابتعدت كثيراً عن قيم الإسلام الحقيقية، فالأمة العربية أمة حية مثلما هو ماضيها المشع بحضارة عجزت عن تأتي مثلها الأمم، ونرى على ما يبدو إنها كُبلت بحراس غير أمناء على مصيرها بحيث انحدروا بها إلى هذا المستوى من الجهل والتخلف .

إذن نحن بحاجة إلى من يحرك فينا بذرة الإيمان لكي تورق منها شجرة وارفة الظلال تبعد عنا نواميس الفتن والانجرار وراء ما يغضب الله ويسيء إلى الآخرين ، وهذه الحركة الإيمانية ممكنة بمجرد الوقوف مع النفس برهة من الزمن لمحاسبتها وتذكيرها بأيام الله واليوم الآخر وان هذه الحياة فانية لا محال وحسب القول المأثور " دوام الحال مُحال".

مصادر ومراجع الفصل الأول:

- 1- عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، 1983، ص. 177.
- 2- سيّار الجميل، انحدار قيم المعرفة والعلم في دولنا ومجتمعاتنا، راجع الرابط الآتي: www.sayyaraljamil.com
- 3- محمد اسفندياري، بيليوغرافيا وصفية للكلام الجديد، مجلة نقد ونظر، العدد 2، 1995، ص 248.211.
- 4- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط5، بيروت- دار القلم، 1984، ص475.
- 5- مجدي عبد الله أبو عويمر، التطرف والعنف في الفكر اليهودي - دراسة مقارنة-، القاهرة، مركز الإعلام العربي، سلسلة رسائل علمية، الكتاب رقم 4، الطبعة الأولى، 2008، ص221.
- 6- عبد العزيز سالم، تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1998، ص 90.
- 7- ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه المشهور " فتح الباري" نقلا عن المفضل الضبي أن أول من قالها جندب بن عنبر في الجاهلية.
- 8- ابن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، الطبعة الثالثة، دمشق، دار الفكر، 1986، ص27.
- 9- إبراهيم النعمة، رضينا بالإسلام ديناً، ط1، الموصل، الزهراء الحديثة، 1983، ص.59.
- 10- انظر زغلول النجار، المفهوم الإسلامي للتقدم العلمي والتقني على الرابط الآتي: www.balagh.com
- 11- رولف هود، التجربة الدينية، علم نفس الدين والإلهيات، ترجمة أحمد قراملكي، مجلة قبسات، 1998.
- 12- سيّار الجميل، مصدر سابق.
- 13- مجلة النهار اللبنانية في 2009./3/30
- 14- محمد صالح ربيع العجيلي، الإشكالية بين التحضر والخصوصية الحضرية في الوطن العربي، مجلة كلية التربية -العدد الثاني، 2002، ص89.
- 15- محمد عابد الجابري، هل يظل تطبيق الحدود مقصوراً على المستضعفين؟ نقلاً من مجلة العربي، العدد 505، كانون الثاني (ديسمبر) 2000، ص 162.
- 16- أذيع التقرير عن طريق وسائل الإعلام المرئية (القنوات الفضائية) بتاريخ 2009./7/2

- 17- سليمان إبراهيم العسكري ،مئثلث عربي بلا أضلاع،مجلة العربي ،العدد566،كانون الثاني
(يناير) 2006،ص.12
- 18- محمد صالح ربيع العجيلي،واقع الدراسات العليا في الجامعات العراقية- دراسة مقارنة بين
منهج الإسلام وتحقيق التنمية الشاملة،منشور في عدد خاص لكلية التربية ضمن وقائع
المؤتمر ال16 لكلية لعام 2009،ص.189
- 19- محمد صالح ربيع العجيلي، المكانة الحضارية للوطن العربي على المسرح الدولي،محاضرة
أقيت على أساتذة قسم الجغرافية في الجامعة المستنصرية ضمن النشاط العلمي السنوي
للقسم عام .2010
- 20- محمد صالح ربيع العجيلي،طرائق التفكير العلمي ،الطبعة الأولى،بغداد ،دار الكتاب
،2009،ص.21
- 21- عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، الطبعة الأولى ،القاهرة، دار
الشروق ، 1998،ص181.
- 22- المصدر نفسه ،ص192.

الفصل الثاني

الانحراف الاجتماعي والفكري

المبحث الأول: الانحراف الاجتماعي Social Deviance

يستعمل هذا الاصطلاح في توضيح السلوك الذي لا يتماشى مع القيم والمقاييس والعادات والتقاليد الاجتماعية التي يعتمدها المجتمع في تحديد سلوكية أفرادها، والدراسات النظرية للانحراف تهتم دائماً بالسلوك غير الوظيفي والسلوك الشاذ الذي يتناقض مع الأحكام الاجتماعية والعرفية الضرورية لعملية التماسك الاجتماعي في النظام أو الجماعة، والسلوك المنحرف حسب آراء العالم كلنا رد am.Klnaerd هو السلوك الذي يجلب السخط الاجتماعي من لدن أفراد المجتمع لتحديه العرف والتقاليد الاجتماعية.

إن الدراسات النظرية الأصلية التي قام بها توماس هوبز وسكmond فرويد حول السلوك المنحرف تؤكد على أن السلوك المنحرف ما هو إلا صراع بين رغبات وطموحات ودوافع الفرد من جهة ووسائل الضبط الاجتماعي والسلوكي التي يعتمدها المجتمع أو الجماعة من جهة أخرى. وما الانحراف إلا نتيجة لفشل وسائل الضبط الاجتماعي في السيطرة على الدوافع الطبيعية الكامنة عند الإنسان، غير أننا من جهة ثانية نشاهد بأن النظرية الاجتماعية الحديثة التي عبر عنها روبرت ميرتن في كتابه (النظرية الاجتماعية والتركيب الاجتماعي) تذكر بأن السلوك المنحرف ما هو إلا وليد التفاعلات التي تقع بين مؤسسات المجتمع المختلفة. يقول ميرتن بأن هناك عنصرين رئيسيين في التركيب الاجتماعي هما: الأهداف والمكافآت، والتي دائماً ما تعمل على تشجيع الأفراد على العمل والاجتهاد، فتحدد منازلهم ومراكزهم الاجتماعية وتملي عليهم الوسائل التي يفتنونها بغية تحقيق الأهداف والحصول على المكافآت. إن المراكز التي يحتلها الأفراد تؤدي الدور القيادي في تحقيق أهدافهم لكن احتلال المراكز يعتمد على درجة نجاح الأفراد في أعمالهم، وعادة لا توزع الأعمال على الأفراد بصورة عادلة وشرعية أي لا تعطي لهم الفرصة المتساوية في تحقيق الأهداف والحصول على المكافآت، لهذا ترتفع نسب السلوك المنحرف بين الأفراد الذين لا يعطيهم المجتمع الفرص الكافية والظروف المساعدة على تحقيق أهدافهم وطموحاتهم خصوصاً عندما يطلب منهم الوصول إلى الأهداف الاجتماعية العليا التي يثمنها المجتمع.

نشاهد في جميع المجتمعات وجود نظام معقد ومتدرج من المكافآت والأهداف، فالفرد الذي يناضل من أجل النجاح ونضاله هذا يعتمد على الطرق الشرعية التي يقرها المجتمع يشجعه على الاستمرار بهذا العمل طالما أن المجتمع يحترم ويقدر تقدمه هذا، لكن التأكيد المتزايد على تحقيق أهداف معينة كالحصول على الرواتب والأجور العالية بغية الحصول على السمعة والاحترام قد يدفع إلى ظهور حالة لا تستطيع فيها العادات والعرف الاجتماعي ضبط سلوك الفرد، كما هي الحالة في لجوء بعض الأفراد إلى الأساليب اللاأخلاقية للحصول على المادة كقيام بعض الأفراد

بالسرقة أو اختلاس الأموال، هذه الأعمال التي تشير إلى السلوك المنحرف الذي لا ينسجم مع أخلاق وعادات المجتمع السوية.

إلا أن النظام الاجتماعي الذي توجد فيه درجة عالية من المنافسة بين الأفراد يقود حتماً إلى ظهور حالات مختلفة من السلوك المنحرف أشهرها حالة الجنوح الاجتماعي، لكن العالم ميرتن يميز ثلاثة حالات يندفع الفرد من خلالها إلى تقليل وتخفيض حدة خيبة أمله التي يسببها له نظامه الاجتماعي خصوصاً إذا كان الفرد مضطهداً اجتماعياً، وهذه الحالات الثلاث هي: حالة التمسك بالطوقس أي الالتزام المطلق بالأحكام الاجتماعية والتقيّد بأهداف المجتمع، وحالة التراجع أي رفض الأهداف الحضارية وطرق الوصول إليها وأخيراً حالة الثورة أي الردة على المجتمع وتحدي قيمه ومقاييسه.

أولاً - مفهوم الانحراف

يعرف الانحراف لغة على أنه "كل ابتعاد عن الخط المستقيم"، إلا أننا عندما نتحدث عن السلوك الاجتماعي لا يمكننا أن نطبق هذا التعريف بحذافيره نظراً لصعوبة تحديد ما يمكن أن نصطلح عليه بالخط المستقيم⁽¹⁾.

فمظاهر الانحرافات السلوكية تتعدد وتختلف من مجتمع لآخر ومن حضارة لأخرى نتيجة اختلاف المعايير والقوانين والثقافات وكذلك نتيجة التطور الطبيعي في أساليب المعيشة، فما قد يُعتبر انحرافاً في أحد المجتمعات قد لا يعتبر كذلك في مجتمع آخر، إلا أن هناك مجموعة من السلوكيات التي لا يختلف مجتمع عن الآخر ولا تشريع عن غيره في اعتبارها انحرافاً عن المناهج والنظريات التربوية والاجتماعية المتبعة. من هذه السلوكيات على سبيل المثال لا الحصر السرقة والجريمة والإدمان والشذوذ الجنسي وما شابه ذلك من مظاهر.

ورغم تصنيف هذه المظاهر على أنها سلوكيات منحرفة في كافة المجتمعات الإسلامية كانت أو غير إسلامية إلا أنه لدواعٍ سياسية بحتة عمدت بعض المجتمعات الحديثة إلى إحاطتها بمساحة من الغموض وعدم الوضوح وخلط بعض المفاهيم مع بعضها الآخر كمارسة الشذوذ الجنسي العلني والتعري في الشوارع والأماكن العامة مثلاً تحت مسمى الحرية الشخصية.

أما الانحراف في الشريعة: فهو مجانبة الفطرة السليمة وإتباع الطريق الخاطئ المنهي عنه دينياً، أو الخضوع والاستسلام للغريزة الإنسانية دون قيود. والشخصية المنحرفة في نظر الشارع المقدس: هي من يقوم صاحبها بعمل يفسد النظام ويحول دون تطبيقه على واقع الحياة مما يلحق الضرر بالمصلحة الفردية أو الاجتماعية أو كليهما. وإن كل الظواهر السلوكية الخاطئة هي ثمرة الجهود المبذولة لتحطيم الإنسان وسلب عقله وفكره وفطرته للسيطرة على إنسانيته.

يقول رب العزة في كتابه الكريم: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝﴾ (الإنسان: الآية 2-3).

خلق الله الإنسان من نطفة أمشاج (خلائط)، فخلقه من المادة والروح، وأعطاه إرادة الصلاح والفساد (أي القدرة عليهما)، وجعله ممتحناً مبتلى، وبارادته يختار الخير أو الشر، يختار الاستقامة أو الانحراف.

والأصل في الفطرة الإنسانية الاستقامة وليس الانحراف، والصلاح وليس الفساد، فالإنسان بفطرته يميل إلى الاستقامة والصلاح، وبغريزته ينشد إلى الشهوات، واختياره الفطرة أو الغريزة منوط بإرادته..

والانحراف مخالف للفطرة والعقل ولكنه ليس مخالفاً للإرادة والطبيعة الإنسانية، وبالانحراف يخلد الإنسان إلى الأرض، وبالاستقامة يملك قدرة العروج إلى درجات الملائكة، ويأخذ به السمو الروحي والإيماني إلى أعلى الدرجات، وتلك هي فطرة الله التي فطر الناس عليها. ولعل أبرز مظاهر الانحرافات السلوكية في مجتمع اليوم هي⁽²⁾:

- 1- الجريمة بكافة أنواعها.
- 2- الانحرافات الجنسية وجرائم الاغتصاب.
- 3- الإدمان على الكحول والمواد المخدرة.
- 4- ظاهرة الانتحار.

ولا يعني ذلك عدم وجود مظاهر أخرى وإنما فقط كما أشرنا، هذه هي المظاهر الأبرز والأكثر شيوعاً.

ويختلف مفهوم الانحراف عن مفهوم الجريمة إلا أن مفهوم الانحراف أوسع وأعم من مفهوم الجريمة؛ فالانحراف هو كل أساليب السلوك التي لا تلتزم بالمعايير، أما الجريمة فهي تشير إلى السلوك الذي يخالف المعايير ويعاقب عليه القانون؛ مثلاً القتل جريمة لأن القانون يعاقب عليها، أما عقوق الوالدين فإنه انحراف لأنه سلوك لا يلتزم بالمعايير ولا يعاقب عليه القانون، ومن هنا يمكن القول بأن كل جريمة هي انحراف ولكن كل انحراف ليس جريمة.

ثانياً- كيف ينحرف الإنسان

- 1- عندما لا يجد الإنسان التربية السليمة سواء في الأسرة أو المدرسة.
- 2- عندما يكون الإنسان في بيئة غير صالحة أو في محيط فاسد، وكل ما يستدعي انتشار الرذيلة والموبقات كالخمر والزنا والمخدرات وانتشار الثقافات الهدامة، والاحتكار... الخ.
- 3- سيادة القوانين الوضعية غير العادلة.

4- إحاطة الفرد بظروف الحياة الصعبة مثل: الفقر، الحروب، تناقضات المجتمع وتنازعاته، شيوع الظلم، الانعزال أو العزلة، ظواهر الانحراف بسبب التمييز في الدين أو المذهب أو اللون أو العرق.. الخ.

5- سيطرة الاستعمار والحكومات غير الشرعية التي تتحكم بالبلاد والعباد دون وجه حق.

6- بسبب الفراغ والبطالة.

ثالثاً-دوافع الانحراف

1- النفس الأمارة بالسوء

قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (الشمس: الآية 7-10).

وقوله تعالى على لسان النبي يوسف (عليه السلام): ﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (يوسف: الآية 53).

تؤدي النفس دوراً بالغاً في تحديد سلوك الإنسان واستجابته للمؤثرات، مما يجعل قوة الشخصية في إتباعها لنور العقل والفضيلة، وضعفها عندما تستسلم للطبيعة الإنسانية والشهوات، ففي رواية عن سعيد بن هلال قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾، وقف ثم قال: اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكها فأنت خير من زكاها.. وقد جاء في تفسير الشيخ الطبرسي (مجمع البيان ج 10 ص 755) في تفسير الآية: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ أي عرفها الفجور والتقوى وزهداها في الفجور ورغبها في التقوى.. وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: قيل علمها الطاعة والمعصية لتفعل الطاعة وتذر المعصية، وتجتني الخير وتجتنب الشر..

وجاء في الحديث: إن النفس لجملة ثمينة، من صانها رفعها، ومن ابتذلها وضعها. وفي مناجاة الشاكرين نجد علي بن الحسين (عليه السلام) يقول: (إلهي إليك أشكو نفساً بالسوء أمارة، وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة العلل، طويلة الأمل، إن مسها الشر تجزع، وإن مسها الخير تمنع، ميالة إلى اللعب واللهو، مملوءة بالغفلة والسهو، تسرع بي إلى الحوبة، وتسوفني بالتوبة).

فالنفس تشكل قوة ضاغطة لجر الإنسان في متهاتات لا حصر لها، وهي العدو الأول الذي يواجهه الإنسان ويجد الضغوط الكبيرة منه على نفسه للانحراف، وتكون الطامة الكبرى عندما يتجرد الإنسان من نور العقل، فتكون هذه النفس عامل إضرار وهدم لا نفع وبناء، ولذا فلا خيار أمام الشخصية السوية سوى مواجهة النفس بقوة الإرادة، والوقوف أمامها لتهديبها وتزكيتها، وبذل الجهد للانتصار عليها، والعزوف عن الدنيا.

2- أتباع الشهوات

التعريف اللغوي للشهوة: هي الرغبة الشديدة والقوة النفسانية التائقة للملذات المادية، وتأتي الشهوة حيناً بمعنى: الهوى، وحيناً آخر بمعنى: اللذة، وكلاهما يؤدي إلى نفس المعنى، فإتباع الشهوات يؤدي إلى انحراف الشخصية، لأن الشخصية المريضة العاجزة عن إخماد هيجان النفس واندفاعاتها، تبقى ضعيفة حبيسة بين أشراك النفس حتى تستسلم لضغط الهوى بسبب ضعف الإرادة، وانعدام الضمير اليقظ، مما يجر الشخصية للانحراف.

قال الله عز وجل: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ (الجنات: الآية 23). وقال عز وجل: ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (آل عمران: الآية 14).

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (النازعات: الآية 40-41). وجاء في الأحاديث الشريفة:

(الهوى قرين مُهلك) و (الهوى أعظم العدوين) و (من تسرع إلى الشهوات تسرعت إليه الآفات) و (الشهوات سمومات قاتلات) و (أوصيكم بمجانبة الهوى، فإن الهوى يدعو إلى العمى، وهو الضلال في الآخرة والدنيا) و (إنك إن أطعت هواك أصمك وأعماك وأفسد منقلبك وأرداك). وعن الإمام علي (عليه السلام) قال: (رحم الله امرءاً نزع عن شهوته، وقمع هوى نفسه، فإن هذه النفس أبعد شيء منزعاً، وإنها لا تزال تنزل إلى معصية في هوى). وعنه (عليه السلام) أيضاً: (رحم الله امرءاً كابد هواه، وكذب مناه). وجاء في الحديث: (أوحى الله إلى موسى بن عمران: أذكر أنك ساكن القبر فيمنعك ذلك عن كثير من الشهوات)، ويقول الإمام علي (عليه السلام): (أذكر مع كل لذة زوالها، ومع كل نعمة أنقالتها، ومع كل بلية كشفها، فإن ذلك أبقى للنعمة، وأتقى للشهوة، وأذهب للبطر، وأقرب للفرج، وأجدر بكشف الغمة، ودرك المأمول).

3- الخضوع لنداء الشيطان

إن المفهوم القرآني للعلاقة مع الشيطان هي العداوة ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (فاطر: الآية 6)، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (يوسف: الآية 5)، وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (الإسراء: الآية 53).

يواجه الإنسان ضغط النفس ومحاولة ميلها عن جادة الصواب، وانزلاقها إلى الطريق المنحرف، فيزداد ويشد ضغط الغرائز عليها فيخضع الإنسان للاستجابة، فيتبع الهوى ثم يأتي دور الشيطان

ليزداد الضغط ويبقى الإنسان في طريق الانحراف والغواية، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (الحج: الآية 4).

إن الحقيقة الواضحة هي إن الشيطان يبذل كل ما في وسعه لإضلال الإنسان وإذلاله وإسقاطه في وحل الخطيئة بسبب عداوته له، يقول الله عز وجل: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: الآية 16-17).

إن مهمة الشيطان الوحيدة هي إغواء البشر عن الصراط المستقيم وإضلالهم عن معرفة نور الحق، ورصد كل خطوات الإنسان للمكر به وإبعاده عن هدى الاستقامة، فهو يصور الباطل حقاً، ويزين القبيح من الأعمال، ويلبس الحق بالباطل فيصح الأعمال الخاطئة ويخطئ الأعمال الصحيحة، ويفلسف الأشياء بأسلوب ملتوٍ من أجل غواية البشر.

إن حركة الشيطان فاعلة، تتفاعل في أذهان البشر وفي خواطرهم وأعمالهم، وتحوم حولهم ولا تزول عنهم حتى تراهم ساقطين في بحر الخطايا، لكن الشيطان ليس قادراً على الإنسان لا يمكن قهره، فبالإرادة والصمود في مواجهة النفس وكبح الشهوات واستخدام العقل، سلامة من كيد الشيطان، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل: الآية 99).

وقال رسول الله ﷺ (ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان عنكم كما تباعد المشرق عن المغرب؟). قالوا بلى يا رسول الله.. فقال ﷺ الصوم يسود وجهه، والصدقة تكسر ظهره، والحب في الله والمؤازرة على العمل الصالح يقطع دابره، والاستغفار يقطع وتينه).. وجاء في الروايات: (إن إبليس قال خمسة ليس لي فيهم حيلة وسائر الناس في قبضتي: أ- من اعتصم بالله عن نية صادقة وانكل عليه في جميع أموره.

ب- ومن كثر تسبيحه في ليله ونهاره.

ج- ومن رضي لأخيه المؤمن ما يرضاه لنفسه.

د- ومن لم يجزع على المصيبة حتى تصيبه.

هـ- ومن رضي بما قسم الله له ولم يهتم برزقه.

4-العوامل الوراثية

من علماء الإجماع من يرى بأن عوامل الانحراف ترجع إلى عوامل الوراثة والاستعدادات التي ولد الشخص مزوداً بجذورها الأولى ، فهناك من تكون ظروفه الأسرية والاجتماعية والاقتصادية جيدة لكنه ينزع إلى الانحراف والخروج عن المألوف ، غير أن هذه حالات قليلة ونادرة ، أما

الأغلبية الساحقة فإنها محصلة للتفاعل بين هذه العوامل، فالإنسان يولد باستعداد معين والظروف البيئية هي التي تشكل هذا الاستعداد⁽³⁾.

5- الفقر

مما لا شك فيه، أن للفقر باعتباره الحالة التي لا يكفي فيها دخل الأسرة لإشباع حاجاتها الأساسية المتغيرة للمحافظة على بنائها المادي والنفسي والاجتماعي، آثاراً سلبية خطيرة على الجوانب الصحية والثقافية من حيث نوع الثقافة السائدة في حياة الأسرة ومدى توفر فرص التعليم. والفقر قبل كل شيء هو الذي يُحرم الأسرة من المشاركة الاجتماعية في جميع المجالات الحياتية. سياسية- اقتصادية أو اجتماعية.

إن تأثير الفقر ليس منفصلاً عن بقية العوامل النفسية والاجتماعية إذ أنه يؤثر ويتأثر بمستوى الطموح لدى الأسرة وبالوضع الطبقي والثقافة السائدة في المجتمع، كما يؤثر تأثيراً ملحوظاً في عملية الاتزان النفسي وفي علاقة الفرد بالأسرة والبيئة المحيطة.

لقد أثبتت مجموعة من الدراسات أن الفقر أحد الأسباب الرئيسة لجميع أنواع الانحرافات الاجتماعية كانحراف الأحداث والاتجاه نحو السرقة والإجرام والانحرافات الجنسية بمختلف أشكالها وأنواعها وإدمان الخمر والمخدرات والانتحار، وما إلى ذلك من أنماط الانحرافات. وأن الفقر يؤثر بصورة ظاهرة على الفرد مما يجعل بعض المجتمعات لا تكثر لحالة هذا الفرد، إلا أنه في حقيقته يحمل بالغ الأثر على المجتمع والبيئة المحيطة به.

6- سوء التربية الأسرية

تعتبر الأسرة أول وأهم وسط في عملية التنشئة، وأسرة الشاب من خلال بيئتها الاجتماعية والنفسية وما تقدمه لأبنائها من فرص النمو الشامل ودورها في الضبط الاجتماعي والتربية السليمة كل ذلك يقي الشباب من الانحراف، ولما كانت الأسرة هي أول جماعة ذات تأثير مباشر على الفرد⁽⁴⁾ فإن تأثيرها السلبي يكون قوياً وعميقاً على شخصية الشاب وتوافقته النفسي والاجتماعي فسوء العلاقات الأسرية والخلافات فيها وغياب دور الأب غالباً ما تنعكس سلباً على الأبناء الذين يتعلمون عن طريق محاكاة النماذج السلوكية أكثر مما يتعلمون عن طريق التلقين.

كما أن غياب الأب بصفة دائمة أو عدم قيامه بالدور المتوقع منه كأب أو سوء معاملته أو قسوته وتسلمه في معاملة أبنائه قد يكون سبباً من أسباب انحرافهم نتيجة لمعاناتهم من الضغوط النفسية والاجتماعية.

7- المسكن

يعتبر علماء الاجتماع المسكن السيئ سبباً من أسباب الانحراف الاجتماعي إلا أن الغالبية العظمى يعتبرونه من أهم أسباب السلوك المنحرف.

لقد تبين من خلال الدراسة والملاحظة أن المساكن الرديئة عامل هام وفعال في كل مظاهر الانحرافات الاجتماعية، وبالأخص انحراف الأحداث. وقد بيّنت هذه الدراسات العلاقة بين المسكن والجنح في الآتي:

أ- تزداد نسبة الانحرافات في المناطق المختلفة التي تتقصها المرافق المادية، وحيث يكثر التجمع السكاني وترتفع درجة التزاحم إلى جانب انتشار حلقات المقامرة والحانات وبيوت الدعارة... وما إلى ذلك.

ب- نتيجة للازدحام الشديد في الأسرة يشترك صغار الأولاد والبنات في نفس المكان مع الكبار، وأحياناً مع غير أعضاء الأسرة، وكذلك قد يشترك المراهقون من الجنسين في نفس الغرفة مما يحرك غرائز الجنسين فيدفعهم . تبعاً للوازع النفسي والديني . إما للكبت وبالتالي اعتلال الشخصية أو للانخراط في خط الانحرافات الجنسية وغيرها.

ج- المسكن الضيق أو المشترك يدفع بالطفل إلى الهروب من المنزل كلما سنحت الفرصة والتجمع في الشارع كنتيجة لما يشعر به من توترات وضغوط، مما يدفعه للالتقاء مع غيره من الأحداث وتكوين العصابات ومزاولة أنماط السلوك المنحرف بشتى أشكالها بغية تحقيق الهروب النفسي من الواقع المؤلم الذي يعيشه هذا الطفل.

8- فشل المدرسة في عملية التنشئة الاجتماعية

من العوامل المؤدية إلى انحراف الشباب فشل مؤسسات التعليم في تربية النشء فالمدرسة تعدّ المتعلم اجتماعياً ومعرفياً للقيام بأدواره الاجتماعية المتوقعة منه، فبالإضافة إلى الخبرات المعرفية والمهارات التي يكتسبها المتعلم من المدرسة يتعلم أيضاً مجموعة من القيم والاتجاهات والأنماط السلوكية وأساليب تحقيق الأهداف المشروعة اجتماعياً والتي تساعد على النجاح في الحياة.

وفشل المدرسة في أداء هذا الدور يؤدي بالمتعلم إلى الفشل الذي يؤدي بدوره إلى الإحباط والقلق وعدم القدرة على التحصيل وتحقيق الأهداف بالأساليب مما يعرض الشاب للانحرافات السلوكية والجنوح نحو الإجرام ويلاحظ أن كثرة الأعداد وكثافة التلاميذ في الفصول يضعف قدرة المدرسة على توجيه سلوك طلابها وتعوددهم على الالتزام وتمكينهم من التحصيل ، والشيء الذي لا يمكن إنكاره أن مدارسنا تعاني من قلة المدرسين وضعف تأهيلهم وانحطاط مستواهم العلمي والمهني وقلة المباني والملاعب وانحطاط معدلات النشاط الرياضي

والاجتماعي والثقافي و الترويجي وكل هذا يقلل من الدور الذي تؤديه المدرسة في تربية النشء.

أما إذا نظرنا إلى تعليمنا الجامعي لوجدنا انه وصل إلى حد يصعب معه تحقيق رسالة الجامعات في إعداد الأجيال الصاعدة إعداداً وطنياً وروحياً وخلقياً وعلمياً واجتماعياً ومهنياً وقد يرجع ذلك إلى عدة عوامل لا يتسع المجال لذكرها.

فالطالب الجامعي يعاني من الكثير من المشكلات كانتشار مبدأ الوساطة والمجاملات عند القبول وارتفاع الرسوم الدراسية وأسعار الكتب وتشدد بعض الأساتذة وإهمال آخرين، وباختصار فان وجود عناصر سيئة في الأوساط المدرسية والجامعية يؤدي إلى انحراف الكثير من التلاميذ يساعد على ذلك غياب الدور التوجيهي الذي يضطلع به المسجد كمؤسسة دينية تربية.

9-ميزانية الأسرة

تتمثل ميزانية الأسرة في أبسط صورها في قيام الأسرة بتقدير الدخل الذي تحصل عليه ومحاولة توزيعه بين أوجه الإنفاق أو بين السلع والخدمات التي يتضمنها الاستهلاك بصورة تحقق أقصى منفعة ممكنة وبأقل نفقة ممكنة.

ولكن الأسرة كثيراً ما تقع في مشكلات مادية لا ترجع إلى عدم كفاية الدخل أو عدم تناسبه مع مطالب الأسرة بل إلى أن الأسرة تعتمد إلى زيادة نفقاتها فوق حدود مواردها وتتحدى قلة الدخل النسبي بأساليب سلبية كالاقتراض مثلاً بدلاً من الإنفاق في حدود الدخل أو العمل على زيادة إنتاجها واستغلال الطاقات المعطلة فيها . ويستثنى من ذلك الفئات العاجزة عن تدبير الحد الأدنى الضروري للمعيشة.

وعندما تفشل الأسرة في تحقيق الاستقرار الاقتصادي يؤدي بها الموقف إلى نوع من الصراع يقوم بين أعضائها من جانب وبين البيئة الخارجية من جانب آخر . وهذا الصراع يولد أربعة أنواع من التصرفات هي على التوالي:

أ - العدوان: وهو في جوهره يعبر عن حاجة الأسرة إلى القيام بفعل معين في ظروف غير ملائمة، ويستهدف هذا السلوك مقاومة هذه الظروف وتجنبها أو محاولة قهرها والتغلب عليها. ومن مظاهر وجود الاتجاهات العدوانية في الأسرة، ازدياد الشجار والخلافات بين أفرادها أو النقد المتطرف لرب الأسرة، أو ازدياد الاحتكاك بين الأسرة وجيرانها، أو ترديد الشكوى المستمرة... الخ.

ب- النكوص: وهو اللجوء إلى حل المشكلات بطرق سلبية تزيد من إغراق الأسرة في المشاكل طويلة الأمد. ومن أهم مظاهر هذا السلوك الاعتماد على الاقتراض والإسراف في المطالب دون تقدير لموارد الدخل، أو الاعتماد على الأقارب والجيران والشعور بالغيرة الشديدة والحسد للأسر التي تتمتع ببعض المزايا الاقتصادية... الخ.

ج- الجمود: وهو استمرار الأسرة في أتباع نوع معين من التصرفات وأسلوب المعيشة وعدم القدرة على إيجاد حلول إيجابية للمشكلة، وفي الوقت نفسه عدم التخلي عن العادات والتقاليد التي تدعو إلى الإسراف والاهتمام ببعض المظاهر الاجتماعية لتقليد الآخرين.

د- القنوط: وهو الإحساس الذي يراود أفراد الأسرة بعد مرور مدة من الزمن على المشكلات الاقتصادية دون حل أو تحسين، ويتحول هذا الإحساس تدريجياً إلى حالة من الكراهية تنصب على الأسرة ذاتها وتزعزع ثقة الأسرة بنفسها فتنتهي إلى الانطواء أو في بعض الأحيان إلى التفكك الأسري.

10- عدم استغلال أوقات الفراغ

استغلال أوقات الفراغ في الأنشطة النافعة المرتبطة بميول الفرد واهتماماته من خلال الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام والأندية بأنواعها ينمي لدى الفرد المواهب والهوايات ليحقق ذاته من خلالها كما توجهه إلى تقدير قيمة الوقت وأهمية استغلاله وهذا بدوره يقلل من الفرص التي قد تدفع إلى الانحراف كما تجنبه السلبية والكسل وعدم المبالاة، لذا فإن علماء النفس والتربية يقرون بان الشاب إذا اختلى بنفسه وقت فراغه ترد عليه الأفكار الحاملة والهواجس السارحة والتخيلات الجنسية المثيرة فلا يجد نفسه إلا وقد تحركت شهوته وهاجت غريزته أمام هذه الموجه من التأملات والخواطر لا يجد بدأً من ممارسة بعض الانحرافات السلوكية والعادات المشينة.

11- الرفقة السيئة

إن انتماء الشاب إلى جماعة منحرفة سلوكياً عادة ما تعطي فرصة لمحاكاتهم فيما يقومون به من أفعال يؤدي إلى التأثير المباشر عليه وهنا يقوم بالسلوك الانحرافي من خلال التعلم وارتباطه مع المنحرفين من جماعات ورفاق وتحت تأثير الأصدقاء ولمجرد التقليد، فمرافقة ومخالطة قرناء السوء ورفقاء الشر يجعل الشباب يكتسبون الكثير من هذه الانحرافات فكما قال ﷺ (المرء على دين خليله فلينظر أحداً من يخال) وكما قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

12- الدور السلبي لوسائل الإعلام

من عوامل انحراف الشباب التي تدفعهم إلى الشقاوة وارتكاب الجريمة ما يشاهدونه في وسائل الأعلام من روايات بوليسية وأفلام خلاعة وما يقرؤونه من مجلات ماجنة وقصص مثيرة تشجع على الانحراف والأجرام وتفسد أخلاق الكبار فكيف بالشباب والمراهقين . إن لوسائل الأعلام غزواً فكرياً وثقافياً يستهدف هز عقيدته وزلزلة قيمه الدينية وروابطه الأخلاقية.

وأمام هذا الموج المتلاطم من المد الإعلامي الأجنبي الذي لا يخضع لأية رقابة فان وسائلنا الإعلامية المحلية لا تقدم ما يخدم الأغراض الوطنية بقدر ما تقدم ما يشعل نار العنف والقوة وأحيانا ما يثير الغرائز والشهوات التي تخدش الحياء ولا تنمّي الذوق العام والاحترام الاجتماعي لدى الشباب.

ولا يفوتنا الإشارة إلى أن هناك طوفاناً رهيباً متمثلاً في كتب الجنس التي يصدرها تجار الجنس ورواد الفاحشة بهدف الحصول على الثروة السهلة والجنس هو نقطة الضعف التي يمكن للشيطان أن يتسلق من خلالها ليخرب عقول الشباب ويعطل رسالتهم الاجتماعية السامية.

رابعاً-نظريات الانحراف الاجتماعي

1- نظرية الانحراف الانتقالي

تعتقد نظرية الانحراف الانتقالي أن "الانحراف سلوك مكتسب"، حيث يتعلم الفرد الانحراف كما يتعلم فرد آخر السلوك الصحيح الذي يرضيه المجتمع، ويستند اعتقاد هذه النظرية على الفكرة القائلة بأن "مستوى الجرائم الحاصلة في مكان ما تبقى لسنوات عديدة مستقرة ضمن نسبتها المئوية"⁽⁵⁾.

أي أن الانحراف إذا ظهر في بيئة اجتماعية معينة فلا بد له من الاستمرار في تلك البيئة، حيث يتعمق ذلك الانحراف في التركيبة الثقافية والاجتماعية لذلك المكان وينتقل الطابع الانحرافي من فرد لآخر ثم من جيل لآخر دون أن يتغير الدافع الذي يؤدي إلى ارتكاب الجريمة لدى هؤلاء الأفراد.

وبموجب هذه النظرية فإن هذا الطابع الإجرامي لمجموعة من الأفراد المنحرفين يساهم في اتساع دائرة الانحراف والإجرام عن طريق استقطاب أفراد جدد، حيث يشبه رواد هذه النظرية ظاهرة الانحراف بالمغناطيس الذي يجذب إليه نشارة الحديد فحسب، فيما تبقى نشارة الخشب وذرات التراب في مكانها.

فعندما يدخل الفرد المؤهل للانحراف ضمن هذه الدائرة، توزن نظرتة الشخصية للقيم الاجتماعية التي يؤمن بها من قبل أفراد هذه المجموعة المنحرفة وتقييم، ثم توضع تحت

الاختبار، وبعدها يصبح سلوكه الاجتماعي مرهوناً بالقبول من قبل المنحرفين. وعندما يتم ذلك تتقلب الموازين الاجتماعية في تصوراته الجديدة، فيصبح الانحراف اعتدالاً والاعتدال انحرافاً. وتتركز هذه النظرية على التأثيرات البيئية التي يعيش فيها الفرد حيث تسلسل العوامل التي تساعد الفرد على تكوين شخصيته الإجرامية. ويؤخذ على هذه النظرية عدة مآخذ، أبرزها أنها تعجز عن تفسير عدد من الظواهر الطبيعية، منها:

أ- أن الكثير من الشباب الذين ينشأون في مجتمع إجرامي لا يتعلمون الإجرام من ذلك المحيط، ولا تتبلور في نفوسهم الشخصية الإجرامية، رغم وجود المنحرفين (المعلمين).

ب- أن بعض الانحرافات تحدث نتيجة عدم إشباع الحاجات الأساسية وليس الدافع هو وجود الحالة الإجرامية في المجتمع المحيط.

ج- هناك بعض أفراد الطبقة الغنية (الرأسمالية) ممن لا تربطهم علاقة بالمنحرفين ولكنهم يتجهون إلى الانحراف. وينشأون نشأة إجرامية.

د- الانحراف لا يحتاج إلى معلم أو مدرب، وإنما تبعث عليه الغريزة، فالسارق الجائع تدفعه غريزة الجوع، والقاتل المنتقم تدفعه غريزة الانتقام.. وهكذا.

وملخص القول في نقد هذه النظرية هو أنها تحاول صب جهودها في تفسير وسائل الانحراف كتعلم الطرق الفنية للانحراف وتقليد المنحرفين والاختلاط بهم في حين تفشل في تحليل دوافع الانحراف وكشف أسباب نشوء الجريمة.

2- نظرية القهر الاجتماعي

يرى أصحاب هذه النظرية أن "الانحراف هو ظاهرة اجتماعية ناتجة عن القهر والتسلط الاجتماعي الذي يمارسه بعض الأفراد تجاه البعض الآخر"، فالفقر مرتع خصب للجريمة، والفقراء يولدون ضغطاً ضد التركيبة الاجتماعية للنظام مما يؤدي إلى انحراف الأفراد. بمعنى أن الفقر باعتباره انعكاساً صارخاً لانعدام العدالة الاجتماعية بين الطبقات، يولد رفضاً للقيم والأخلاق الاجتماعية التي تؤمن بها الشريحة الكبرى من المجتمع. فإذا ما اختل توازن القيم الاجتماعية سادت حالة الفوضى والاضطراب وبرزت مظاهر الانحرافات السلوكية.

فالانحراف إذن بموجب هذه النظرية يُعزى إلى عدم التوازن بين الهدف الذي يبتغيه الفرد في حياته والوسيلة التي يستخدمها لتحقيق ذلك الهدف في النظام الاجتماعي، فإذا كان الفارق بين الأهداف الطموحة والوسائل المشروعة التي يستخدمها الأفراد كبيراً، أصبح الاختلال الأخلاقي لسلوك الفرد أمراً واضحاً.

ومع أن نظرية القهر الاجتماعي تقدم تحليلاً وجيهاً لمنشأ الانحراف ذلك أنها أعمق من النظريات الأخرى في معالجة أسباب الانحراف، إلا أنها تتجاهل الانحراف الناتج عن الاضطرابات العقلية والأمراض النفسية. كما أنها تفشل في الإجابة على عدد من الأسئلة من قبيل:

أ- لماذا يميل بعض أفراد الطبقة الرأسمالية الغنية إلى الانحراف، في حين أنهم يملكون كل وسائل الثروة والمنزلة الاجتماعية؟

ب- لماذا يستخدم بعض الأغنياء طرق الرشوة والاحتيال مثلاً لجمع أقصى ما يمكن جمعه من الأموال مع أنهم لا يعانون من القهر الاجتماعي؟

ج- لماذا يقبل بعض الفقراء القهر الاجتماعي، في حين يرفضه البعض الآخر فيتجهون إلى الانحراف؟

د- من الذي يحدد الانحراف والاستقامة في النظام الاجتماعي؟

3- نظرية الضبط الاجتماعي

تعتقد هذه النظرية أن "الانحراف عبارة عن ظاهرة ناتجة عن فشل السيطرة الاجتماعية على الأفراد"، حيث تطرح هذا السؤال: كيف لا ينحرف أفراد المجتمع وأمامهم كل هذه المغريات؟ وترى هذه النظرية أن أصل سلوك الأفراد المعتدل في النظام الاجتماعي إنما ينشأ من سيطرة المجتمع عن طريق القانون على تعاملهم مع الآخرين، ولو أُلغى القانون الهادف إلى تنظيم حياة الناس لما حصل هذا الاعتدال الاجتماعي في السلوك، ولانحرف أفراد المجتمع بسبب الرغبات والشهوات الشخصية.

فهذه النظرية إذن، ترى أن الانحراف يتناسب تناسباً عكسياً مع العلاقة الاجتماعية بين الأفراد. فالمجتمع المتماسك والمتحاب والذي تسوده الرحمة والمودة تتضاءل فيه نسبة الانحراف، فيما ترتفع هذه النسبة في المجتمع المنحل.

ولو درسنا حالات الانتحار في المجتمع الإنساني مثلاً، للاحظنا أنها أكثر انتشاراً في المجتمعات التي لا تقيم لصلة الرحم وزناً، والتي لا تهتم بعلاقات القرى والعشيرة.

ويرى أصحاب هذه النظرية أنه من أجل منع الانحراف السلوكي لا بد من اجتماع أربعة عناصر، هي:

أ- الرحم والقرابة: حيث أن شعور الأفراد بصلاتهم الاجتماعية المتينة يقلل من فرص انحرافهم.

ب- الانشغال الاجتماعي: وهو انغماس الفرد في نشاطات اجتماعية سليمة تستهلك طاقته الفكرية والجسدية، كالخطابة والكتابة وممارسة الهوايات البدنية والانضمام للجمعيات الخيرية.

ج- الالتزام والمتعلقات: وهو استثمار الأفراد أموالهم عن طريق شراء وتملك العقارات والمنافع والمصالح التجارية.

د- الاعتقاد: حيث أن الأديان عموماً تدعوا معتقياً إلى الالتزام بالقيم والمبادئ الخلقية ولا شك أن هذه النظرية تعد من أقرب النظريات الرأسمالية للواقع الاجتماعي، وأفضلها على الإطلاق من تحليل الرابط الاجتماعي ودوره في تقليل الجريمة، إلا أنها رغم ذلك تعاني من بعض القصور والذي يتمثل في:

- لا تتعرض هذه النظرية إلى الانحراف بين أفراد الطبقة الرأسمالية الغنية التي تتوفر بين أفرادها جميع عناصر منع الانحراف، حيث التمتع بالصلات العائلية الجيدة وممارسة أفضل الهوايات البدنية والفكرية، واستثمار أموالهم المتركمة في العقارات والمصانع وغيرها، ويعتقدون بدين معين كالنصرانية أو اليهودية الشائعة في المجتمعات الغربية، ومع ذلك ينحرف بعض أفراد هذه الطبقة فيرتكبون جرائم الاغتصاب والسرقه والمخدرات والقتل والتآمر.. الخ. فأين التكامل مع النظام الاجتماعي من هذا الانحراف؟ وكيف تفسر هذه النظرية هذا السلوك؟

- كيف يمكن تفسير انحراف بعض الأثرياء لا لشيء سوى لزيادة ثروتهم والسيطرة على مقدرات النظام الاجتماعي؟

- ألا يعد خرق القوانين الاقتصادية والسياسية المقررة من قبل النظام الاجتماعي انحرافاً عن الخط العام للمجتمع؟

4- نظرية الإصاق الاجتماعي

تبنى هذه النظرية رأياً على فكرة مهمة لم تتطرق لها النظريات السابقة وهي أن "الانحراف الاجتماعي ناتج عن نجاح مجموعة من الأفراد في الإشارة إلى أفراد آخرين بأنهم منحرفون"، فإذا ألصقت الطبقة الرأسمالية المسيطرة في أوروبا مثلاً فكرة (التخلف) بالأفارقة، وكرروها في وسائلهم الإعلامية أصبح الأفارقة متخلفين في المرآة الاجتماعية الأوروبية. وإذا ألصقت الطبقة نفسه صفة (التحضر) في الشعب الأمريكي، أصبح الأمريكيان متحضرين في نفس المرآة الاجتماعية الأوروبية حتى ولو كان الواقع عكس ذلك.

وتقسم هذه النظرية الانحراف إلى نوعين:

1- الانحراف المستور: وهو الانحراف الذي يرتكبه أغلب الأفراد في فترة من فترات حياتهم، ويبقى مستورا دون أن يكتشفه أحد.

2- الانحراف الظاهر: فعندما يتهم نفس هؤلاء الأفراد بالانحراف علناً، يتبدل الوضع النفسي والاجتماعي للمتهمين تبديلاً جذرياً، فإذا ألصقت تهمة السرقة بشخص ما شعر بالإهانة

والذل لأن الآثار المترتبة على انحرافه تعني:

أ- إنزال العقوبات التي أقرها النظام الاجتماعي به.

ب- افتضاح أمره أمام الناس.

ج- انعكاس ذلك الافتضاح على معاملة بقية الأفراد له.

لذلك فإن هذه الصفات القاسية التي يستخدمها النظام ضد الفرد كصفة السرقة والزندقة والاحتتيال وغيرها إنما وضعها في الواقع النظام الاجتماعي والسياسي وألصقها بهؤلاء الأفراد، وعلى هذا الأساس يتصرف الفرد بقبوله التعريف الاجتماعي فيكون منحرفا، ولولا أن المجتمع لم يعترف بهذا الإلصاق لما أصبح المنحرف منحرفا.

وما ينبغي الالتفات إليه هنا هو أن هذه النظرية تتناول قضية مهمة وخطيرة وهي أن الفرد يصبح منحرفا في سلوكه عندما يتهمة الآخرون في النظام الاجتماعي بالانحراف، ورغم أن هذا الرأي وجيه جدا، إلا أنه أبرز المآخذ على هذا التحليل هو أن هذه النظرية تبرر "الانحراف المستور"، في حين أن السارق يبقى سارقا وإن لم يفتضح أمره، والمحتال يبقى محتالا ألصقت به التهمة أم لم تلتصق.

5- النظرية الإسلامية في تفسير ظاهرة الانحراف

لا تقتصر النظرية الإسلامية على تحليل أسباب ودوافع الانحراف فحسب، بل تقدم علاجا من موقعها لمشكلة الانحرافات السلوكية في المجتمع الإنساني يختلف اختلافا جوهريا عن العلاقات التي قدمتها النظريات الغربية الأربعة، فنظرية "الانتقال الانحرافي" تفشل في معالجة الانحراف بسبب إيمانها بأن الانحراف ليس إلا ظاهرة اجتماعية طبيعية يصعب السيطرة عليها وضبطها. ونظرية "القهر الاجتماعي" تفشل هي الأخرى في معالجة أسباب الانحراف لأنها تعزیه إلى انعدام العدالة الاجتماعية دون أن تقدم علاجا واضحا يضمن إنشاء مجتمع نظيف وعادل قائم على أساس احترام الإنسان، بالإضافة إلى تجاهل هذه النظرية لانحراف أبناء الطبقات الغنية يجعلها أكثر بعدا عن تحليل الواقع الاجتماعي العملي. أما نظرية "الضبط الاجتماعي" فإنها رغم ما نادت به من علاقة الرحم والقربة والانغماس في العمل الاجتماعي لم يؤت ثماره في ضبط المنحرفين لقصور النظام الجنائي الرأسمالي وعدم إحاطته بدقائق النفس الإنسانية. وأخيرا نظرية "الإلصاق الاجتماعي" التي فشلت في تفسير ظاهرة الانحراف المستور الذي يتحقق دون إلصاق تهمة معينة بالمنحرف.

ونلاحظ أن النظرية الإسلامية قد صنفت الانحرافات السلوكية إلى أربعة أصناف مع

العلاج:

أ- جرائم الاعتداء على النفس وما دونها: وفيها القصاص أو الدية مع الشروط.

ب- جرائم ضد الملكية: وفيها القطع والمقاصة ووجوب رد المغصوب.

ج- الجرائم الأخلاقية: وفيها الرجم والقتل والجلد.

د- جرائم ضد النظام الاجتماعي: كالمحاربة والاحتكار ونحوها وفيها التعزير والغرامة.

خامسا - نتائج الانحراف وآثاره

لانحراف الشباب ، الذي يمثل بداية الانزلاق نحو الهاوية ، والابتعاد عن الخط الصحيح ، آثاره السلبية ونتائجه الوخيمة التي لو نظر إليها الشاب والفتاة نظرة متفحّصة لرأفوا بأنفسهم وخافوا عليها وثابوا إلى رشدهم وما فضلوا على الاستقامة والاعتدال شيئاً . فمن بين النتائج التي يفرزها الانحراف⁽⁶⁾:

1 . الاسترسال والمضي في طريق الانحراف أشواطاً أخرى

فليس المدمن هو الذي أدمن تعاطي المخدرات أو الخمر أو التدخين فقط ، فالذي يدمن التحرش الجنسي ، والألفاظ البذيئة ، والتهاون في العبادات ، والتساهل في أحكام الشريعة ، هو مدمن من نوع آخر ، أي أنّ هذه الأمور تصبح . مع الإصرار والمداومة . صفات ملازمة ولصيقة ومتحكّمة بالشباب أو الفتاة ، مما يشكل فاتحة لعهد الانحراف الذي إذا لم تغلق بابه مبكراً دخلت منه الشرور كلّها .

2 . الانحراف عن طريق معيّن قد يؤدي إلى الانحراف عن طريق آخر

كما لو أنّ الشاب أو الفتاة انحرفا ابتداءً بإقامة علاقات غير مدروسة مع قرناء السوء ، فإنّ الانحرافات التي تستتبع ذلك ستكون نتائج حتمية للانحراف الأوّل ، ولو تتبعنا انحرافات بعض الشبان لرأيت إنّها ابتدأت بانحراف واحد ، ثمّ أهمل فتطوّر فجَرَ إلى انحرافات أخرى .

3 . الأمراض والاضطرابات النفسية التي تنجم عن الانحراف

إنّ الانحراف عن خطّ السير يجزّ إلى انحراف في الصّحة سواء البدنية أو النفسية أو الروحية أو العقلية أو السلوكية العملية ، فالسارق قد لا تبدو عليه علائم الانحراف بديناً لكن سرقته ستترك أثرها في نفسيته وقد يعيش حالة التأنيب الداخلي ، ولكنّ المدمن على المخدرات يعاني من اضطرابات كثيرة بدنية وعقلية ونفسية وروحية وسلوكية . إنّ الكثير من حالات الكآبة والقلق والأرق والتشاؤم واليأس والإحباط والشعور بالعجز وتأنيب الضمير ، والإعراض عن الطعام والهزال والانطواء ، هي ثمار للعديد من الانحرافات التي يبتلى بها الشباب ، وقد يدفع بعضها إلى البرم والتوتر وضيق الصدر بالآخرين ، وإلى الملل والسأم السريعين ، والاستمناء ، والرغبة بالانتقام ، والحدق ، والميل إلى الأفكار السلبية ومنها الانتحار .

4 . التدهور الإيماني

إنّ ضعف الإيمان أو الوازع الديني الذي اعتبرناه عاملاً من عوامل الانحراف ، هو سبب ونتيجة أيضاً ، فالمنحرف إذا تعايش مع انحرافه واستفحل لديه ازداد تدهوره القيمي والديني والأخلاقي فلا يعود يقيم وزناً للعفة والطهارة والنزاهة والاستقامة ونبل الشخصية ومكانتها بين

الناس ، ولا يعود يأبه بالالتزامات العبادية حيث تبدأ مؤشرات الانحراف عنده بالشعور بعدم جدواها أولاً ، ثم بالتقصير في أدائها ثانياً ، ثم ينتهي إلى إهمالها تماماً .

5 . ضعف الأداء العملي

ففي الكثير من الحالات ، لا يبقى المنحرف مواظباً على تقديم نفس المستوى من النشاط والفعالية والجدية والتجاوب مع الأفكار الإيجابية والإبداع ، فكما يضعف التزامه الديني يضعف كذلك مستواه الدراسي والثقافي والأخلاقي والاجتماعي ، أي أن انعكاسات الانحراف لا تقف عند حد واحد ، فالسارق يلجأ إلى السرقة الدراسية فيغش ، ويرى أن لا حاجة للتحصيل العلمي طالما انه يمكن أن يؤمن احتياجاته بالسرقة ، كما انه يشعر بالاستغناء عن أسرته باستقلاله المالي وهكذا يضعف ارتباطه بأسرته ، وهذه كلّها انحذارات وانحرافات متلاحقة تضعف الأداء في مختلف المجالات .

6 . النفور الاجتماعي

أي أنّ الشاب المنحرف أو الفتاة المنحرفة سيجدان إعراضاً وصدوداً وجفاء بل امتعاضاً من الناس والمجتمع الذي يعيشان فيه خاصة إذا كان للمجتمع تقاليده وأعرافه والتزاماته التي يُراعيها . وإذا أمعن أحدهما في الانحراف فإن ذلك قد يؤدي إلى مقاطعته تماماً حتى يجد نفسه بعد حين منبوذاً مما يخلق له متاعب كان في غنى عنها ، فلا يجد مَنْ يؤويه أو يوظفه أو يزوجه بل لا يجد مَنْ يصادقه مخافة أن يُتهم به ، اللهم إلاّ النفر الضالّ الذي يماثله في انحرافه على طريقة «شبيه الشيء منجذب إليه» . وبالتالي فإن أجواء الانحراف التي ستحتضنه ستوقعه في المزيد من الارتكاس والتردي في مهاوي الانحراف والضياع .

7 . ضعف الإرادة وانحلالها وفقدان السيطرة على النفس

وهي أيضاً سبب ونتيجة ، فالإرادة الواهية تقود إلى الانحراف ، والانحراف يزيد في ضعفها وانحلالها حتى ليغدو الشاب المنحرف كالمريض الضعيف البنية يسهل على الجراثيم والميكروبات والفيروسات افتراسه فيصاب لأدنى عارض ، أي أن قابليته على الإصابة تزداد بسبب نقص المناعة أو اندثارها .

سادساً - معالجة لانحرافات

للتعامل مع الواقع المعاش على أساس شيوع الانحراف في المجتمع بشكل عام، لابد من إجراء مجموعة من الخطوات الفعلية أهمها:

1- تصحيح الأوضاع المعيشية ورفع مستوى دخل الأسرة.

2- إعادة النظر في المناهج التربوية التي يتبناها التربويون أو الآباء داخل أسرهم، ومحاولة التخلص من الأساليب غير السليمة.

- 3- تعزيز دور الإرشاد النفسي والاجتماعي والمهني في المجتمع.
 - 4- تحقيق العدالة الاجتماعية.
 - 5- إيجاد المراكز المتخصصة لإعادة تأهيل المنحرفين.
 - 6- تعزيز الوازع الديني والوعي الثقافي من خلال تكثيف الحملات الإعلامية سواء الرسمية أو الأهلية لمواجهة أخطار الانحراف.
 - 7- جذب الشباب من الجنسين للعمل التطوعي لما له من آثار إيجابية في مجابهة الانحراف.
 - 8- تقليص حجم البطالة ووضع الضوابط التي تضمن عدم عودتها أو تضخمها بما يمكن أن يشكل ظاهرة اجتماعية خطيرة.
- هذا، ويجب التأكيد على أهمية إدماج من دخلوا في خط الانحراف وقرروا الرجوع عن هذا الخط، بشكل سليم في المجتمع، وعدم التعامل معهم على أساس غير إنساني، واضعين نصب أعيننا قوله ﷺ: (كل ابن آدم خطاء، وخير الخطاءين التوابون).

سابعاً- دور المجتمع في تقليل الانحراف

إن المجتمع المريض الذي يحول دون إشباع حاجات أفرادهِ والذي يفيض بأنواع الحرمان والاحباطات والصراعات والذي يشعر فيه الفرد بنقص الأمن وبعدم الأمان. كما أن التنافس الشديد بين الناس وعدم المساواة والاضطهاد والاستغلال وعدم إشباع حاجات الفرد فضلاً عن وسائل الأعلام الخاطئة غير الموجهة والتي تؤثر تأثيراً سيئاً في عملية التنشئة الاجتماعية.

كل هذه الأسباب إلى جانب أسباب أخرى تدفع الفرد الذي يعيش في مثل هذا المجتمع المريض إلى سوء التوافق الاجتماعي بحيث يكون السلوك المريض والشيخوخة المبكرة وغير السوية، النتائج المتوقع لهذه المساوئ.

إن المجتمع مطالب بأن يرفع عقول الشباب وفكرهم وأن يعدهم بالصورة المطلوبة ولا يدخر في ذلك جهداً أو مالاً وهناك الكثير من المظاهر و الإجراءات التي يجب على المجتمع القيام بها حتى نبتد شبابنا من الانحراف، ومن هذه الإجراءات نذكر (7):

- 1 - القضاء على كافة مظاهر الفساد الإداري والاجتماعي سواء كانت كبيرة أم صغيرة لأنها تؤثر في شخصية الشباب بحكم قلة خبرتهم الواقعية.
- 2 - بث روح الواقعية في أذهان الشباب وخاصة أصحاب الطموحات الكبيرة المصحوبة بالتهور.
- 3 - الحد من تزمت الآباء والأمهات والكبار عامة في تعاملهم مع الشباب وخاصة رجال الإدارة الذين ينظرون إلى الشباب نظرة علو وتكبر.

- 4 - إزالة مشاعر الفشل والإحباط لدى الشباب و إشعارهم بأهميتهم الاجتماعية ومنحهم حقوقهم المشروعة.
- 5 - مساعدة الشباب على تحقيق أهدافه وطموحة بطرق مشروعة حتى لا يتخذ من الانحراف وسيلة للظهور والنجاح
- 6 - تفعيل قانون الصحافة والمطبوعات ومراقبة وسائل الإعلام التي تدعو إلى العنف الجنسي وتنشيط الشباب عن القراءة النافعة وتغرس في نفوسهم الشعور بالتمرد وعدم الرضا وفقدان الثقة بالوطن وقادته.
- 7 - الحد من حالات الفشل الدراسي والإحباط الذاتي وتوسيع التعليم والثورة ضد الأمية حيث يجمع علماء النفس أن العنف والانحراف هما رد فعل الفشل والإحباط.
- 8 - غرس التعاليم الدينية في الأطفال منذ الصغر وبيان روح التسامح ومبادئ الرحمة والعدل والعفة والشرف والأمانة والبعد عن العنف والجريمة والانحراف.
- 9 - تشكيل لجان دائمة لدراسة مشكلات الشباب على أن تجمع هذه اللجان بين علماء دين ونفس وتربية واجتماع ورجال القانون وآباء وأمهات.
- 10 - العمل على القضاء على كافة مظاهر البطالة حتى لا يقع الشباب فريسة لها فيشعرون بالندم والسخط ويلجئون إلى الانحراف، وكذا العمل على الحد من الصراعات الأسرية وحالات لانفصال والتفكك الأسري.

ثامنا - دور الأسرة في تهذيب الانحراف

- شهدت المجتمعات تغيرات بنائية هائلة ليس فقط من جراء التحديث والثقافة الوافدة ولكن بفعل بعض العوامل الداخلية (كالمدينة وما تبعها من تغيرات اقتصادية) وطبيعي أن تؤثر هذه التغيرات على الأسرة بشكل أو بآخر.
- أ- أهم الظواهر الأسرية السلبية
- انشغال الأب وتخليه عن تربية الأبناء " الأب الغائب".
 - انعدام القدوة الحسنة للأبناء .
 - الطلاق وتصدع بنية الأسرة.
 - ضعف الوازع الديني.
 - قسوة الأب أو سوء معاملة الأبوين للأبناء.
 - الفراغ.

- الخطة الفاسدة ورفاق سوء.
- النزاع والشقاق المستمرين بين الزوجين.
- الشعور بالحرمان من عطف الأم أو الأب.
- شعور بعض الأبناء بعدم عدل الوالدين بالمشاعر وانحيازهم للبعض الآخر.
- غياب الحوار الأسري وعدم مجالسة الوالدين لأبنائهما.

ب-العوامل المؤثرة في بناء الأسرة واستقرارها

1. عوامل من داخل الأسرة

أساليب التنشئة التي تتبعها الأسرة لها علاقة وثيقة بالسلوك الانحرافي للأبناء فالسلوكيات المنحرفة التي تصدر عن بعض الأبناء تعد نتاج للقصور في التنشئة السوية للأبناء وكثيرا ما يؤدي عدم اتفاق الوالدين على أسلوب معين للتنشئة إلى انحراف الأبناء كما تؤثر طموحات الآباء الزائدة على مستقبل أبنائهم ومن أهم مظاهر سوء التنشئة داخل الأسرة وآثارها السلبية على الأبناء هي (8) :

- النزاع والشقاق بين الآباء والأمهات والخلافات والمشاجرات المستمرة تؤدي إلى سوء تكيف الصغار وإلى كثير من ألوان السلوك الخاطيء ودفعهم للبحث عن رفاق خارج البيت.
- الطلاق وما يصاحبه من تشرد وضياع، وتشتت و فراق وفقدان الأبناء لحنان ورعاية الأسرة فلا شك أن الأسرة المتهرئة المفككة القائمة بين أب وأم أحدهما غائب أو كلاهما أو دائمي الخصام والنكد تلقى بظلال قاتمة على سلوك ومستقبل الأبناء.
- سوء استثمار الوالدين لوقت فراغ الأبناء وعدم استثمار طاقاتهم من العوامل الأساسية التي تؤدي غالباً إلى انحراف الشباب .
- سوء معاملة الوالدين لأبناء مثل : المعاملة القاسية، والضرب الشديد، والتوبيخ القارع، والسخرية، لها ردود فعل سيئة في سلوك وخلق الأبناء ، وتزرع فيهم مشاعر الخوف والانكماش وترك المنزل وغالبا ما يكونون عرضة لتيارات الانحراف والتشرد والجريمة.
- مشاهدة أفلام الجريمة والعنف والجنس في دور السينما وعلى شاشات التلفاز من روايات بوليسية، ومواد مثيرة، تشجع على الانحراف والإجرام والرذيلة والفساد.
- تهاون الأبوين وتخليهم أحيانا عن التربية الصحيحة للأبناء فإن تقصير الأم في واجبها التربوي لانشغالها مع معارفها أو صديقاتها وخروجها من بيتها، وإهمال الأب مسؤولية التوجيه والتربية نحو أولاده لانشغاله بمطالب الحياة أو غيابه المستمر عن المنزل ،كل ذلك يؤدي إلى تشرد الأبناء وانحرافهم.
- التفكك الأسري وغياب القدوة وانعدام الرقابة هي أهم أسباب تعاطي الأبناء للمخدرات فالأسرة مسؤولة عن تكوين أخلاقيات الفرد وتغذيته بالأمن والطمأنينة، وتجنبيه عوامل القلق

والاضطراب، وتمكنه من الحصول على حاجاته أما الأسرة التي يغيب فيها دور البيت، وتضيع فيها السلطة الأبوية بفقدان الأبوين أو أحدهما بالموت أو السجن أو المرض أو الطلاق، كثيراً ما يؤدي إلى نتائج سيئة تهيئ للانحراف والإدمان. كما يعد الانحراف الخلقي في الأسرة في مقدمة العوامل البيئية التي تدفع إلى الإدمان لاسيما انحراف الوالدين أو أحدهما، وانعدام القيم الخلقية، وفقدان المثل العليا كما إن إغراق الأبناء بالمال والسماح لهم بالسفر للخارج بمفردهم أو بصحبة رفاق سوء من الأسباب التي تجر الأبناء إلى تعاطي المخدرات.

- الغلو في الدين (التطرف): فقد دعا الإسلام إلى الوسطية وهي من أبرز خصائص الإسلام. قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: الآية 143).

- افتقاد الأبناء للاهتمام الأسري : حيث بينت الدراسات أن فقد الطفل لرعاية واهتمام أبويه له آثار بالغة على شخصية الطفل مثل: (الجوع الوجداني - الشخصية عديمة المودة ذات الميول العدوانية- الانطوائية والاكنتاب) وقد توصلت الدراسات إلى أن الحرمان الشديد الطويل الذي يبدأ مبكراً في السنة الأولى من العمر والذي يستمر لمدة تصل إلى ثلاث سنوات يؤدي إلى نقص شديد في الجوانب العقلية وجوانب الشخصية المختلفة كما يكون الطفل أقل قدرة على تحمل نتائج الانفصال بين أبويه قبل بلوغه سن الخامسة.

- استخدام الوالدين لأساليب: (القسوة والحرمان والإهمال والتدليل ..الخ)، وانخفاض الوعي الثقافي للوالدين بما قد تحدثه هذه الأساليب في سلوكيات الأبناء من آثار غير سوية ، ولعل هناك علاقة وثيقة بين الأسلوب الذي نشأ عليه الأب وطريقته في تنشئة الأبناء ، حيث أن معظم أرباب الأسر يربون أبنائهم بنفس الأساليب التي نشئوا عليها ، كما أن البعض يرفضون ذلك إما لشعورهم بعدم الرضا عن تلك الأساليب ، أو لإدراكهم أنها أصبحت لا تتلاءم مع الحياة المعاصرة .

ويتبين ذلك من بعض الأنماط التربوية الخاطئة مثل:

- التنشئة القاسية مثل: التهديد والضرب والطرده من المنزل ، وعدم إدراك الأسر لآثار تلك الأساليب علي شخصيات الأبناء

- الإهمال وعدم محاسبتهم على السلوكيات غير المرغوب فيها وعدم متابعتهم أو عدم التدخل في اختيارهم لأصدقائهم سواء بالرقابة أو التوجيه ويؤدي ذلك إلي تعرض الأبناء للانحراف .

- العقاب بأسلوب الزجر والتهديد وتوجيه الشتائم البذيئة وممارسة العقاب البدني والضرب البدني وطرده الابن من المنزل في حالة صدور أفعال غير سوية من الأبناء .

- أتباع أسلوب الحرمان في تنشئة الأبناء كعدم إشباع احتياجاتهم الأساسية مما يؤدي إلى العديد من الاضطرابات في شخصية الأبناء والتي تظهر في صورة أفعال منحرفة كالسرقة والاعتداء علي الآخرين أو الهروب من المدرسة.

- تعرض بعض الآباء لأساليب تنشئة قاسية مما يدعوهم إلى استخدام أسلوب التدليل في تنشئة الأبناء فيترتب عليه نمو شخصيات الأبناء ضعيفة لا تعتمد على نفسها ، ولا تقوي على تحمل المسؤولية.

- التفرقة في المعاملة بين الأبناء (كتفضيل الذكور على الإناث أو تفضيل الإناث علي الذكور ، أو التفرقة بين أفراد الجنس الواحد) تؤدي إلى العديد من الأنماط المنحرفة.

- عدم الاتفاق على أسلوب معين في تنشئة الأبناء ، كإثابة الأبناء من قبل الأم وعقابهم من قبل الأب في ذات الموقف ، أو تعرض الأبناء للقسوة من جانب الأب وتدليله لهم دون توجيه أو تصحيح الخطأ في نفس الموقف ، فأن ذلك يؤدي إلى أن تنمو شخصيات الأبناء غير متوافقة اجتماعياً ، وتعرضهم للعديد من مظاهر الانحراف كالفشل الدراسي وارتكاب أفعال انحرافية يعاقب عليها القانون.

2. عوامل من خارج الأسرة

من الثابت لدى الدارسين والباحثين في العلوم الإنسانية والاجتماعية أن الأسرة المعاصرة قد فقدت كثيراً من وظائفها وآثارها وذلك حسب درجة تطور المجتمع، وهي لم تفقد وظائفها جملة واحدة بل كان ذلك على مراحل متعددة وبشكل تدريجي، كما أن هذا فقدان لم يحدث بدرجة واحدة في جميع الأمم والشعوب بل اختلفت أشكاله وأدواره باختلاف الأمم والشعوب في ثقافتها وعقائدها بعدما كانت الأسرة في الماضي أهم مؤسسات التوجيه والتربية، أما اليوم فتتافسها بقوة العديد من مؤسسات المجتمع مثل : (المدرسة والجامعة والإعلام بوسائله المختلفة من إذاعة وفضائيات مفتوحة وصحف ومجلات ومراكز البحوث والدراسات .. الخ) في توجيه الأبناء وأصبحت ربما أكثر وأخطر تأثيراً.

وفي الربع الأخير من القرن العشرين ظهرت مجموعة من المعوقات المؤثرة في وجود الأسرة وقيامها بدورها بعض هذه العوامل مرتبط بتطور النهضة الصناعية وضغوط الحياة المعاصرة وبعضها مرتبط بانتشار العديد من الانحرافات الاجتماعية التي انتقلت إلى المجتمعات المحافظة لاسيما بعد انفتاح العالم شرقه على غربه وغربه على شرقه وانتشار وسائل الاتصال العالمية واتجاه العالم نحو مفاهيم العولمة والعالم الواحد أو " القرية الصغيرة " وانتشار النزعات الفردية والمادية وضعف الرغبة في تكوين أسرة، كما أدت الثقافات الواردة مع العمالة الوافدة، دوراً كبيراً في تغيير الثقافة الاجتماعية والأسرية في مختلف الأقطار العربية والإسلامية حيث تتعرض لكثير من المؤثرات الخارجية، التي أثرت على المعايير والقيم الاجتماعية، والعادات والتقاليد

وبالتالي على سلوك الأفراد والجماعات بما في ذلك الأسرة، ولعل أبرز العوامل المؤثرة في بناء الأسرة واستقرارها (من خارج الأسرة) هي:

- وسائل الاتصال الحديثة

لعقود طويلة ظلت الأسرة تؤدي دوراً أساسياً في تكوين مدارك الإنسان وثقافته، وتساهم في تشكيل منظومة القيم التي يتمسك بها بما فيها علاقات الآباء بالأبناء، أما اليوم فقد انتقل جزء كبير من هذا الدور إلى شبكات الإنترنت والهواتف النقالة والألعاب الإلكترونية، الأمر الذي فتح الباب أمام أنماط من التواصل الافتراضي الذي حل محل الحوار والمحادثة بين أفراد الأسرة الواحدة مما ساهم في توسيع الفجوة وتكريس الصراع بين جيلي الآباء والأبناء فضلاً عن ظاهرة الاستخدام السيئ لتلك التكنولوجيا والتي وصل في كثير من الحالات إلى ممارسات غير أخلاقية.

- انتشار البطالة

فالأب العاطل الذي لا يعمل ولا يجد من المال ما يسد به حاجة الأسرة، ويؤمن لهم حاجاتهم الضرورية، سيُعرض الأسرة بلا شك بأفرادها إلى الضياع والانحراف ، وربما دفع ذلك أفراد الأسرة إلى التفكير في الحصول على المال بأيّة وسيلة غير شريفة أو مشروعة كالسرقة والرشوة على سبيل المثال لا الحصر.

المبحث الثاني: الانحراف الفكري

لم تذق الأمة ويلات ومصائب مثلما ذاقته بسبب بعض الأفكار الشاذة التي تبناها بعض أفرادها وأرادوا تعميمها على جميع الأمة ، فكم خسرت من أرواح وأموال وثرورات هي أحوج ما تكون إليها ! بل أكبر من ذلك كم خسرت من مبادئ وقيم ! وكم تسببت تلك الأفكار في ضعف مكانة الأمة وهوانها بين الأمم!

عن أنس - رضي الله عنه - قال : جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي (صلى الله عليه واله وسلم) قال أحدهم : أما أنا فأقيم الليلَ ولا أنام ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهرَ ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال : " أنتم الذي قلتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله واتقاكم له ؛ لكني أصوم وافطر ، واصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغبَ عن سنتي فليس مني " متفق عليه.

يتضح لنا بجلاء كيف أن الفكر الشاذ يبدأ سهلاً وبسيطاً ومجرد فكرة طرأت ببال أحدهم أو بعضهم ومرت على خاطرهم ، فأرادوا تأصيلها ، فلما لم يقتنعوا بما سمعوا أو رأوا ؛ أخذوا يبررون لأنفسهم شذوذهم بمبرر قد يكون مقبولاً عندهم فقالوا (وأين نحن من رسول الله) ولم يكتفوا بما وجدوا ، وهكذا كل فكر شاذ إذا لم يقتنع بحال معينه فإنه يخلق لنفسه ما يبرر به شذوذه ، ومن مصائب الفكر الشاذ - كما نلاحظ في الحديث السابق - أنه يدعي الكمال ويستعين بمن حوله مهما كان شأنهم ،فكرة شاذة ظاهرها الكمال أو السعي للكمال ، وطلب الكمال كمال ، لكن لما يكن من طريق شاذ فإنه يصبح نقصاً وعبياً وإن كانت حقيقته كمالاً ، فطلب القرب من الله والتعبد له كمال ، لكن لما جاء من غير هدي النبي (صلى الله عليه وسلم) وبوسيلة مناقضة للفطرة والواقعية أصبح شاذاً وخروجاً عن جادة الصواب .

الانحراف الفكري لم يضع له تعريف و مصطلحات محدده حتى الآن و ذلك لأسباب عديدة منها إن الانحراف الفكري أصبحت له مرادفات كثيرة منها التطرف والتشدد و التجمد و الإرهاب . و أيضا له جوانب كثيرة فهناك انحراف فكري ديني و انحراف فكري سياسي و انحراف فكري إعلامي ، و لكن مع كثرة الاختلافات و عدم التحديد لكن مظاهره و آثاره واضحة ، و من دراسة المظاهر و الآثار يمكن القول إن الانحراف الفكري هو :الفكر الذي لا يلتزم بالقواعد الدينية والتقاليد والأعراف والنظم الاجتماعية السائدة والملزمة لأفراد المجتمع. أو انه العدول عن الصواب لتردد القلب في شبهة غير شرعية مضررة ضرراً متعدياً بصاحبها المخطئ أو الخاطئ، فقولنا (العدول عن الصواب) أي الميل عن الحق ، وهو احتراز عن الأمن الفكري الذي يتضمن معنى الأمانة وانتفاء الخيانة بحصول التصديق الشرعي للفعل . وقولنا (لتردد القلب) اللام سببية أي أن سبب الانحراف هو تردد القلب واضطرابه وشكه ، وهو احتراز عن العقيدة

لأن العقيدة أمر لا تردد فيه ولا شك ، بل يعقده صاحبه في قلبه عقداً لا ينفك ولا يتزعزع ، وهو مرادف للتوحيد وأصول الدين ، بخلاف الفكر الذي يعني تردد القلب وإعمال النظر في الشيء وقلونا (في شبهة) احتراز عن الشهوة .وينشأ الانحراف عن أحد أمرين لا ثالث لهما :

أ - إما الشهوة كإتباع الهوى مع العلم بالخطأ ومعرفة الصواب وذلك كحال شاربي الخمر ومتعاطيي المخدرات ومقارفي الزنا .

ب - وإما الشبهة وهي أخطر من الشهوة ؛ إذ إن صاحبها يكون على ضلال ويطن الحق باطلاً والباطل حقاً فلا يتراجع عن شبهته إلا بعلم دافع للشبهة ، ومثاله شبهة إبليس في عدم سجوده لآدم لما أمره الله بذلك ؛ بقوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (الأعراف : الآية 12).

يتساءل البعض لماذا نهتم بدراسة الأفكار عند الأفراد طالما أن الهدف النهائي هو السلوك والفعل؟ والجواب: هو أن تغيير الأفكار والآراء والاتجاهات يزداد معه احتمال تغيير السلوك. و تعتبر الأفكار بداية للسلوك فالشخص الذي لديه اتجاهات إيجابية و صحيحة و تم تربيته على الصحيح فإننا نعتقد أن هذا الشخص سوف يسلك التريث الصحيح إذا توافرت لديه الظروف المناسبة لهذه المواقف، وبالمقابل فالشخص الذي يحمل أفكاراً سلبية عن الآخرين، وتم التغير به ليسلك اتجاهات عدائية نحوهم، فإنه قد يسلك سلوكاً مؤذياً نحوهم، وللانحراف الفكري أشكال ومظاهر واضحة يمكننا رؤيتها و التحقق منها، ومنها ما هو غامض لا يمكن معرفته واكتشافه، ومنها على عكس ذلك .

أولاً- مظاهر الانحراف الفكري

و من أهم مظاهر الانحراف الفكري هي:

1- القدرة على التضليل و الخداع

إن الزعماء و بعض الرموز الفكرية المنحرفة تضلل و تخدع صغار السن و الجهلاء من العامة و تغرر بهم باستعمال اللغة الانفعالية في التأثير عليهم و تغييرهم و يحرصون أن يربونهم و يعلمونهم من صغرهم على خلق الاقتناع في نفوسهم بأن ما يقوله هذا الشيخ أو هذا الزعيم من المسلمات و غير قابل للنقاش . وخلال الدراسات النفسية و التحقيقات لبعض المغرر لهم و باعترافاتهم الشخصية اتضح أنهم تربوا على أن يطيعوا هذا الزعيم الروحي كرموز دينية بدون التأكد من صحة المعلومات و تعلموا أن ما يقوله من الأفكار كأوامر و أهداف لا نقاش فيها .

2- تشويه الحقائق

الفكر المنحرف يتسم دائماً بقدرته على قلب المفاهيم وتشويه الحقائق وطمسها، وتقديم أدلة وبراهين غير كافية أو مناقضة للواقع، واستعمال الكلمات بمعان مُبهمّة غير محددة أو بمعان متقلبة ومختلفة .

3- تبرير الغايات

يتحقق التصور الشرعي من التكليف بامتثال أوامر الشارع واجتناب نواهيه، و لكنهم في خلاف ذلك تراهم يقدمون النصح لقادتهم أو أتباعهم باستخدام أي وسيلة متاحة في الصراع على السلطة و يبررون لهم سفك الدماء على انه جهاد في سبيل الله أو يكفرون الناس ليستحلوا دمائهم و أعراضهم و العياذ بالله.

4. التبسيط المختل

المنحرف يعالج الأمور والأشياء بنظرة غير متوازنة، فينظر إلى توافه الأمور نظرة جدية و صرامة ويرى عظام الأحداث بسطحية وتسفيه. وكدليل على هذا التبسيط ، ما رواه الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن ابن أبي نعيم قال: جاء رجل إلى أبي عمر وأنا جالس، فسأله عن دم البعوض؟ فقال له: من أنت؟ قال من أهل العراق. قال: ها ! انظروا إلى هذا، يسأل عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن رسول الله ﷺ (يعني الحسين عليه السلام) وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: "هما ريحانتي في الدنيا". ويقصد بهما الحسن والحسين سيديا شباب أهل الجنة(عليهما السلام). والتاريخ يزخر بالكثير من الأمثلة .. كما ورد في سلوك الخوارج اتصفوا بالغلظة و الجلف على المسلمين و احلوا الدماء، و يترحمون أعداء الإسلام وعبدت الأوثان و فيه أمثلة كثيرة لا يوجد متسع لذكرها⁽⁹⁾ .

5- الميل إلى الخلاف والصراع

اقتضت حكمة الله تعالى أن تختلف آراء الناس وأفكارهم في أمور الحياة، وسبب ذلك أنهم خلقوا أساساً مختلفين في الأمزجة والميول والرغبات، وهذه حقيقة لا يدركها إلا أصحاب العقول السليمة. إن الفكر السوي يُسلم بتعدد الأبعاد والرؤى ويعمل على التواصل مع الآخرين والانفتاح على العالم، والإفادة من خبراته وأفكاره دون صراع أو تسفيه، في الوقت الذي ينزع فيه الفكر المنحرف إلى الخلاف والصدام مع الآخرين عند ظهور طيف أي خلاف، وفيه أمثلة كثيرة مثل الفكر الماركسي.

6- التناقض الفكري - السلوكي

المنحرفون فكراً يتصفون بان أسنتهم و فكرهم الذي ينشرونه يقول شيئاً و أفعالهم تقول شيئاً آخر مختلف و مناقض تماماً ، و هذا من سمات المنافقين بعدم الثبات في الفكر والسلوك مثل إخفاء مشاعر الكراهية للمسلمين وإظهار الإيمان إذا وجدوا بينهم و يقولون أنهم يتبعون أوامر الشرع و يطبقونها و لكنهم ينتهكون المحارم و يفعلون الجرائم .

وهو ما عبر عنه حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) " لأعلمن أقواما من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضا، فجعلها الله هباء منثورا " قال ثوبان: يا رسول الله، صفهم لنا، جلهم لنا أن نكون منهم ونحن لا نعلم. " أما أنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذونه ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها".

ثانيا-العوامل المسببة للانحراف الفكري

1-الغلو والتطرف

والتطرف أو الغلو هو مجاوزة الحد في كل شيء، فإذا كانت في السعر فهي غلاء، وإذا كانت في المكانة فهي غلو، وإذا كان في الفكر فهي انحراف. السؤال هو كيف يكون الغلو والتطرف سببا في انحراف الفكر عن الحق والصواب؟. والجواب: هو أن الغلو والتطرف يدفع إلى عدم الاعتراف بالرأي الآخر وبحقه في الخلاف فضلا عن مصادرة اجتهاداته في المسائل، أو القضايا الخلافية والمحتلمة. فترى الكثيرين يتهمونك بالابتداع، أو الاستهتار بالدين و يمكن أن يصل إلى حد التكفير و الخروج عن الدين. فترى طرف يؤدي إلى انحراف فكري و يدفع هذا الغلو في التفكير إلى مسالك متعددة منها: سوء الظن بالآخرين والحكم السلبي المسبق والحاد على ما يحملونه من أفكار أو آراء، وتجاوز الحدود في الإنكار على المختلف معه، ومجانبة التدرج المنطقي في الأمور، والوقوف على ما يمكن تجاوزه، والميل إلى أصعب الحلول وأبعدها مع وجود الأسهل والأقرب. و أيضا يؤدي إلى انحراف فكري عقائدي فقد وجد انحراف في فهم النصوص الشرعية عند بعض الفئات من أبناء الأمة الإسلامية الذين اشتطوا في فهم النصوص الشرعية ففسروها على غير وجهها الصحيح. والأمثلة كثيرة بدأت بقتل عثمان بن عفان و علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، و ما زالت مستمرة إلى الآن .

الدين الإسلامي مبني على الوحي؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ (الأنبياء: الآية 45)، وقال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء: الآية 113).

وفرض الله على الناس إتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فقد دل القرآن على أن من أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو مطيع لله؛ كما قال تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (النساء: الآية 80) وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (آل عمران: الآية 31). فإقامة الدين على الوجه المطلوب شرعا لا تحصل إلا بالعلم بكتاب الله، وسنة

رسوله ﷺ. قال أبو حمزة البزاز: " من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلا متابعة الرسول في أقواله، وأفعاله، وأحواله" ولذلك أمر المولى تبارك وتعالى بطلب العلم؛ فقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (محمد: الآية 19)، وندب المؤمنين إلى التفقه في الدين؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: الآية 122)، وليس التفقه في الدين إلا علم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقال ﷺ: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ).

وللعلم بالكتاب والسنة طرق، وآلات، من يسرها الله له، وأراد به خيرا فقهه في دين الله، ومن تتكبد تلك الطرق، وحرمت آلات العلم، لم يعرف دينه؛ ومن لم يعرف دينه، لا يكون فقيها، ولا طالب فقه.

فمن طرق اكتساب العلم، التعلم؛ قال صلى الله عليه وسلم: (إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه). فالعلم بكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم سبيله بذل الجهد في طلبه، والأخذ من أفواه العلماء الريانيين؛ المشهورين بالديانة، المعروفين بالستر والصيانة؛ الذين قد ارتقت في العلم درجاتهم، وعلت فيه منزلتهم. ولا يكون العالم رانيا إلا إذا عمل بعلمه؛ قال ابن الأعرابي: " إذا كان الرجل عالما، عاملا، معلما، قيل له راني، فإن خرم خصلة منها، لم يقل له راني " وكذلك يؤخذ العلم عن الأكابر؛ فقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: " لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابره، فإذا أخذوه من أصغارهم وشرارهم هلكوا" ولا يؤخذ عن مبتدع، ولا كذاب، ولا سفيه؛ كما قال الإمام مالك: "لا يؤخذ العلم عن أربعة: سفيه يعلن السفه، وإن كان أروى الناس، وصاحب بدعة يدعو إلى هواه، ومن يكذب في حديث الناس، وإن كنت لا أتهمه في الحديث، وصالح عابد فاضل إذا كان لا يحفظ ما يحدث به ".

ومن آلات العلم، الذكاء، وسرعة الفهم؛ فإن الإنسان إذا رزقه الله تعالى الذكاء، سهل عليه طلب العلم، وعقل مسائله؛ وإذا لم يكن كذلك لا يستطيع أن يحقق بغيته. قال ابن المعتز: "كما لا ينبت المطر الكثير الصخر، كذلك لا ينفع البليد كثرة التعليم" وبهذا نعلم أن قلة الفقه في الدين تحصل بسبب نقص الآلة، وعدم التفقه في نصوص الوحي، وسنة الرسول ﷺ بالطرق المعتبرة. فالإنسان إذا طلب العلم ممن لم ترسخ في العلم قدمه، أو كان صاحب هوى وبدعة، أو استقل بنفسه في الطلب، واكتفى بمطالعة الكتب، كان حريا ألا يصل إلى مرتبة الفقه في دين الله. روى الخطيب البغدادي عن سليمان بن موسى قال: "لا تقرأ القرآن على المصحفين، ولا تأخذوا العلم من الصحفيين" وروى عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: سألت أبي عن الرجل تكون عنده الكتب المصنفة، فيها قول رسول الله ﷺ، واختلاف الصحابة والتابعين، وليس للرجل بصر بالحديث الضعيف المتروك، وبالإسناد القوي من الضعيف، فيجوز له أن يعمل بما شاء، ويتخير

ما أحب منها؛ يفتي به ويعمل به ؟ قال: لا يعمل حتى يسأل ما يؤخذ به منها، فيكون يعمل على أمر صحيح، يسأل عن ذلك أهل العلم ."

إن الإسلام دين يدان به الله عز وجل، وهذا الدين لا يتم إلا بعلم مستقى من مشكاة النبوة؛ ولذلك فإن من الواجب على الإنسان أن يجتهد في اختيار من يأخذ عنه العلم؛ كما قال الإمام مالك: " إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم ."

2- سوء التنشئة الاجتماعية

وتعتبر الأساليب الأبوية السلبية مهياً للاضطرابات النفسية والانحرافات السلوكية والفكرية لدى الأبناء ، ولعل من أخطر الأساليب الأبوية السلبية الرفض والقسوة والتدليل الزائد حيث ضيق صدر الآباء والأمهات من أبنائهم ، ومعاملتهم كالغرباء، ونقد الوالدين الدائم لتصرفات أبنائهم والعقاب لأتفه الأسباب وعدم التغافل عن الأخطاء مما يحدث شروخاً وشقوقاً وضعفاً في جوانب شخصية الأبناء يظهر انعكاسها في الفكر والسلوك ، فترى أن الابن عندما يفقد النموذج الأبوي و البيئة الأسرية الآمنة فإنه سيبحث عن نموذج أو بيئة أخرى في الخارج.

3- هامشية المؤسسات الاجتماعية

مثل المدارس و المساجد والأندية الاجتماعية ، فترى المعلم لا يهتم بتنمية الفكر الصحيح لدى الطالب يرمي عليه فقط المنهج المقرر بدون شرح أو تمحيص و كذلك سوء المعاملة التي يتعرض لها كثير من الطلاب و يؤدي تساهل المدرسة نحو غياب الطلاب أو ضعف العلاقة بين البيت والمدرسة دوراً كبيراً في انحراف الطلاب ودفعهم إلى السلوك العدواني مثل التخريب والسرقة والعنف.

ومن جانب آخر عدم تفعيل دور المسجد يسهم في تنمية الفكر المنحرف ، و أيضاً اهتمام الأئمة و الخطباء بالمسائل الشكلية و طغى الخطاب الانفعالي على حساب الجانب العلمي العقلي و دائماً ما يركزون على حلاوة الماضي و سوء الحاضر ، و لم ينتبهوا إلى أن النشء الذي يستقي منهم سوف ينظر إلى المستقبل بإحباط و يأس، فيتجه إلى التغيير بطرق بائسة و منحرفة . (وهذا في أكثر الأحيان يتم بدون قصد من الدعاة و العلماء) .

4- بيئات التوتر والصراع

لكل شيء مقومات يقوم عليها، وبيئة ينمو فيها، ومناخ ينشأ عليه ويعيش فيه.وقد تكون هذه البيئات جماعات أو مناطق أو كيانات دولية مستقلة.و في التاريخ الإسلامي فإن مذاهب التشدد في الالتزام بالنصوص ومذاهب إطلاق حرية الرأي والاجتهاد لم تبرز إلا تلبية لواقع اجتماعي معين ساد في بيئة و مجارة لأحداث معينة ، واختلف في بيئة أخرى وكمثال أماننا العراق ويسبب عدم الاستقرار السياسي بعد سقوط النظام السابق ، كثرت الصراعات السياسية، والطائفية فظهرت هناك موائد الذبح وحمامات الدم وجز الأعناق وتلغيم

المركبات، وأصبحت هذه البيئة مهيأة لكل انحراف في الفكر والسلوك فأخذت كل جماعة وطائفة وتنظيم يصدر الفتاوى والبيانات، والمنشورات المكفّرة والمهددة للأطراف الأخرى.

5- الجهل، حيث يشكل الجهل المحيط المثالي لبروز الانحراف، وانتشاره، وليس المقصود بالجهل هنا التخلف التام والابتعاد الكامل عن المسائل العلمية، أو مواكبة العصر، بل أعني بالجهل هنا (عدم المعرفة)، ولو ببعض جوانب أو خلفيات المسائل، مما يؤدي إلى عدم دخول هذه العوامل والجوانب المجهولة في حسابات الشخص، ومن ثمّ تخسر حساباته وتأملاته عنصراً أو أكثر من عناصر تركيبية الواقع الخارجي، وعندها لن تتطابق النتائج الذهنية، والمتبنيات الفكرية التي سيصل إليها مع الحقيقة ؛ لأن نتائج هذه ستكون عبارة عن صورة هوجاء أو ناقصة، لا تمثل تمام الحقيقة، بسبب فقدانها للعوامل التي كان يجهلها الشخص المتأمل. والفكرة التي سيحملها هذا الشخص ستكون أشبه بالدواء الذي يفقد بعض عناصر تركيبه الضرورية، وهو في هذه الحالة أقرب للسم منه للدواء.

وبهذا الصدد يقسم العلماء الجهل إلى بسيط ومركب:

وقصدوا بالجهل البسيط ذلك الجهل الذي يعرف صاحبه أنه متلبس بهذا الجهل، فالجاهل في حالة الجهل البسيط يجهل المسألة، ولكن يعلم أنه جاهل، والإنسان العادي يجهل عدد حبات الرمل في الصحراء، ويجهل عدد الشجر في الغابات وعدد النجوم في السماء و... وفي نفس الوقت يعلم أنه جاهل بها، فيكون جهله هذا جهلاً بسيطاً، لأنه ليس إلا جهلاً واحداً، ومن وراءه علم بهذا الجهل، أي علم بوجوده وحدوده، وهذا الجهل أشبه بالجرثومة المعروفة، والموضوعة في حجر صحي خاص.

الجهل المركب

وهو الجهل الذي لا يدري صاحبه عنه شيئاً، وبالتالي فهذا الإنسان عنده نوعين من الجهل مركبين، جهل بالموضوع، و جهل بأنه جاهل، وعندها ستأخذ جرثومة الجهل مجالها في الانتشار والتأثير على فكر الشخص من دون أن يعرف، لأن الجاهل بالجهل المركب يظن نفسه من أهل المعرفة، الذين انكشفت لهم الحقيقة كاملة.

خطورة الجهل المركب

يقولون أن الألم نعمة من الله سبحانه وتعالى لأنه يكشف للإنسان عن مواطن الضعف والمرض وأن أخطر الأمراض تلك التي تستشري بصمت ومن دون أن تلفت إليها الأنظار. والجاهل بالجهل المركب مصاب بنوع من الغرور، والاعتماد الزائد على الذات، ولا يدري أنه يتكئ على معلومات عرجاء وناقصة تُعده للوقوع في مهاوي الانحراف الفكري. وهنا يكمن الخطر الحقيقي، فعادةً ما تجد في حالات الانحراف الفكري جهلاً مركباً. فالجهل المركب . من هذه

الجهة . يشبه النخر والفراغ في العصا المجوفة التي أكلتها الأرضة، فإذا اتكأ عليها صاحبها (بتصور أنها سليمة وستعينه على المشي) أسقطه، وقعدت به عن بلوغ هدفه.

6- قوة الجماعة المرجعية

دائماً يتأثر الفرد بالأفراد الآخرين بطرق و درجات مختلفة و هؤلاء الأفراد (القبائل ،العائلات أو المنظمات سواء كانت منظمات رئيسية أو اجتماعية أو سياسية) يعتبرون مرجعاً للفرد في الأفكار و القيم و هو ما يسمى بالجماعة المرجعية⁽¹⁰⁾ .

تحدد الجماعات المرجعية أنواعاً من السلوك لأفرادها أو طريقة استخدامهم لدواتهم أو أنشطتهم، كما تقدم لهم معتقدات، وأفكاراً ينبغي الإيمان بها والدفاع عنها وقد تكون هذه الأفكار ناقصة أو مشوهة أو عدائية نحو الأفراد والمجتمع.

وتستمد الجماعة المرجعية قوة تأثيرها من خمسة جوانب للقوة (حسب الدراسات النفسية) و هي كالآتي:

أ- قوة المعلومات : و تعني قدرة الجماعة على تقديم معلومات للفرد تقنعه بان التغيير إلى الأفضل و لصالح المجتمع ، ويتم هذا خاصة عندما يتم إقناع أعضاؤها بقلب الحكم و الاستيلاء عليه هو تغيير في صالح الدين أو الحزب .

ب- قوة الشرعية: تعني تقبل الافرد لشرعية الجماعة و صواب أفكارها و معتقداتها ، فيدافع عنها بحياته ، وهذا ما يغرسه أصحاب الفكر التكفيري في عقول التابعين لهم بأنهم على حق وأن قلوبا ، وإن الحكومات والأنظمة غير شرعية وإن قوانينها وضعية. لذلك من الواجب مواجهتها والثورة عليها من أجل تغييرها.

ج- قوة الخبير : تعني أن الجماعة تنتشر بان قائدها لديه الكثير من المعرفة العالية والخبرة والقدرة الكبيرة مما يحيطه بهالة و قوة لدى الأفراد المغرر بهم .

د- قوة القهر : وهي قدرة الجماعة على توقيع العقاب على الشخص الذي يفشل في الانصياع لتأثيرها.

هـ- قوة الثواب : و هو أنهم يوزعون المال و الألقاب و تخليد الاسم للذي يخدمهم ، و كذلك تقديم الإغراءات بتمية شعور البطولة و الحماسة و التضحية و منها أنهم يعطون الفرد التابع لهم مكانة ليست له أو أطلق اسم البطل أو المجاهد عليه وهذا حال اغلب الدول المتخلفة حينما تمجد قياديينها بذلك.

6-المنهج التعليمي الخفي

و هذا أن المتعلمين يتعلمون أشياء لا تدرس فعليا في المناهج الرسمية المعلنة التي تخضع للسيطرة من قبل الجهات الحكومية و هي أشياء تأتي من الخروج من قبل المعلم عن النصوص المكتوبة عن طريق أفعال أو ملاحظات تمثل فهما و قناعات خاصة ، أو قيم و

توجهات تظهر في النشاطات و الممارسات للمؤسسة . و يمكن من خلال الجوائز و الحوافز التي تنقل الفكر المنحرف و المتطرف إلى الطالب الذي يأخذ أي شي من قذوته.

7- اليأس والإحباط

الفرد في حالة اليأس والإحباط يغلب عليه التشاؤم والشعور بالمرارة ونقص الكفاءة والفعالية ومبالغة في علل العالم وأوضاعه، كما وتنخفض عنده مستوى الروح المعنوية، وينعدم الأمل في المستقبل إضافة إلى نزعة إلى الشعور بالذنب والدونية والانتقاص من قدرة الذات. وجميع هذه المشاعر سلبية تجعل صاحبها فريسة سهلة للتأثر بأفكار ومعتقدات مشوهة ومتطرفة من أجل تغيير الواقع، فهو بسبب يأسه وإحباطه يتقبلها دون مناقشة أو نقد أو تمحيص.

8- وسائل الإعلام

تؤدي وسائل الإعلام دوراً لا يستهان به في تكوين الاتجاهات والأفكار والتطرف فهي تؤثر بما تقدمه من برامج وأفلام وأخبار عن الأشخاص والأحداث. وتتمى بعض وسائل الإعلام مشاعر الكراهية والعدوانية التي تولد بدورها أفكاراً تبرر العنف وتكفر الآخر وتحرض على الانتقام، وذلك عندما تستفز بعض تلك الوسائل المشاعر الدينية للأمة بتجاوز الثوابت العقدية والاستهانة بالأحكام الفقهية الراسخة أو تزييف وتحريف النصوص الشرعية لغايات معينة وكذلك استهداف الأشخاص باتهام النوايا والتهكم والسخرية. ومن جانب آخر، ساعدت شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) كوسيلة إعلامية عالمية في نشر الأفكار الأيديولوجيات المتطرفة والمنحرفة من خلال بروز فقه جديد عبر هذه الشبكة وهو ما يسمى فقه الإنترنت بما يحتويه من فتاوى فردية مشحونة بالانفعال والكراهية والتحريض على العنف، حتى انه وصل إلى حد تجنيد الشباب صغار السن و التغرير بهم بدون علم أهلهم و بطرق كثيرة .

9- الإعجاب بالرأي

يؤمن بعض الناس بأفكار ليس عليها دليل، ويدافعون عنها دون مناقشة منطقية أو حجج وبراهين قاطعة حتى تصبح عقائد راسخة يصعب تغييرها، يدفعهم بذلك الغرور بالنفس والإعجاب بالرأي حتى لو تبين لهم الحق، و لدينا أدله كثيرة على هذا .
وتستبقي الجماعات المتطرفة أتباعها والمتعاطفين معها بطرق عدة منها:
أ- إيهام الأتباع بأنهم على حق ، وأنهم كالرسل وأصحابهم.
ب- عدم اطلاع الأتباع على الخطأ المتراجع عنه خوفاً من أن يردّهم ذلك عن التمسك بمنهج الجماعة أو النفور منها.

ج-الانتقائية في القراءات والمشاهدات والتي تُقدّم باعتبارها صادقة وموثقة وشرعية، فهم يعزلون أفرادهم و أتباعهم إعلامياً فلا يسمعون أو يروا ما يحصل خارج التنظيم، فالمسموح فقط هو المقابلات الخاصة بقيادة التنظيم وخطبهم والفتاوى المؤيدة لفكرهم ، وكتب التحريض والتفكير التي يرجعون إليها في فتاواهم ومبرراتهم وهي غالباً تهاجم وتكفر الحاكم والدولة.

هـ-العزل النفسي والاجتماعي للأتباع عن الأسرة والمجتمع، وقطع أواصر العلاقة بينهم وبين أسرهم وأقاربهم.

و-الزهد في العلماء بعدم التزام فهمهم والاستقلال بالفهم دونهم، وإسقاط منزلتهم والطعن في فقههم، وعقائدهم ومنهجهم، خاصة عندما يتعارض مع مصالح الجماعة أو التنظيم.

ح- تشيخ المتعلمين ومن ليسوا بأهل علم ، ورفعهم إلى مصاف العلماء وجعلهم قادة وأئمة وإطلاق الألقاب الكبيرة عليهم ترويجاً لفكرهم وفتاواهم ، وكذلك تصدرهم للفتيان ونصب أنفسهم لها من غير مشورة من أهل العلم ولا استئذان.

10- التمسك بالأفكار القديمة

التمسك بالأفكار والمعتقدات القديمة دون مناقشة أو تمييز بين الخطأ والصواب الذي تحمله، أو الحق والباطل الذي تدعو إليه بسبب جمود التفكير وإلغاء دوره العظيم في التأمل والتفكير، ومن الغريب ارتباط تلك الأفكار القديمة بمصالح ومنافع وأهواء قادة التنظيم الذي ينتمي إليه هؤلاء الأفراد.

11- التعصب والتحيز

ويعتبر البعض أن التعصب مشابه للظلم في غايته، فكما إن الإنسان الظالم لنفسه ينصر هواه وشهوته وظلمه وعدوانه ويقاوم من أجلها، فإن المتعصب لشخص يواليه أو قوم أو حزب أو جماعة أو فكرة قديمة سوف يدافع لما يتعصب له ولو ظهر له أن الحق في غير الجهة التي يناصرها، وفي غمرة التعصب الأعمى يندفع الإنسان نحو ما يراه صحيحاً اندفاع من حجب بصره إلا من زاوية الرؤية التي هو فيها. والتعصب والتميز يأتي عادة بسبب تأثر الإنسان بميوله ودوافعه وانفعالاته وعواطفه والتي تؤثر بشكل مباشر في تفكيره وإدراكه.

12- التقليد الأعمى

يشير بعض الباحثين إلى أن التقليد هو مظهر من مظاهر الانحراف الفكري والسلوكي ، إلا أننا نرى: بأنه سبب للانحرافات الفكرية والسلوكية أكثر من أن يكون مظهراً، ومما يدل على أن التقليد هو تقليد من مكانة العقل وانحرافه عن استخدامه لما خلق له ، ذلك ما جاء في القرآن من تنديد بالتقليد الأعمى والسير على خطى الآباء دون تفكير أو إرادة أو وعي ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْنًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: الآية 170)

والتقليد الأعمى ينشأ عادة عن التعصب ، والثقة المطلقة بالشخص الذي يقلدونه ، وبمنهجه وطريقة اجتهاده ، وحياته، فالتابع على سبيل المثال، الذي يقلد إمامه دون بصيرة في كل خطوة يخطوها ، يقع في كل الأخطاء التي يقع فيها إمامه تلقائياً.

13- التعميم والتسرع في الأحكام

إن الإنسان صاحب التفكير العقلاني المستقيم هو الذي لا يصدر أحكاماً، أو يبدي رأياً دون أن تكون لديه البيانات الكافية والمعلومات الضرورية المتعلقة بالموضوع الذي يفكر فيه، حيث إن تجمع البراهين والأدلة والمعلومات الوافية من شأنها أن تدعم رأيه، وتؤيد صحة ما يصل إليه من نتيجة . ولذلك فإن العلماء والحكماء من الناس وأصحاب الرأي والفتنة السليمة يتخرجون أشد الحرج في إبداء الرأي أو إصدار الأحكام دون أن تكون لديهم الأدلة الواضحة البينة التي يستندون إليها فيما يصدر من آراء أو أحكام. إلا إن بعض الناس يتعجلون في إبداء الرأي في الأمور دون بيانات كافية أو حجج منطقية فنشأت آراؤهم وأفكارهم منحرفة عن منهج التفكير السليم. والانسحاق وراء الظنون هو أسلوب خاطئ في التفكير ومنهج غير مأمون العواقب ولا يضمن الوصول إلى الحقيقة إضافة إلى أنه منزلق نحو التفكير المنحرف لاحتماله تحريف الأفكار وتشويه الحقائق.

ثالثاً-آثار و مخاطر الانحراف الفكري

1- أثر الانحراف الفكري على الأمن الاجتماعي

أ- إثارة الفتن

التفكير المنحرف والأعوج هو تفكير يتميز بالشر والمكيدة ويقوم على إثارة الأكاذيب والمكر والوقيعه بين الناس، وغالبا ما يسعى الفكر المنحرف إلى إثارة الجدل والفتن بما يحويه ويطرحة من مسائل خلافية جدلية لم يستقر عليها رأي ولم يتفق عليها اتجاه، فتنسج دائرة الخلاف وتضيق دائرة الاتفاق بين الأفراد والجماعات، وينعكس كل ذلك على استقرار المجتمع وأمنه.

ب - التضليل والتغريب بالنشء

من مخاطر الانحراف الفكري على الأمن الاجتماعي، استهداف أصحاب الفكر المنحرف في الدين للشباب واستغلال حماسهم وطاقتهم في تحقيق مآرب غير شرعية، فمن الملاحظ أن كثيراً من الذين يقومون ببعض أعمال العنف والإرهاب هم شباب صغار السن، لم تنضج عقولهم ولم تكتمل ملكاتهم الفكرية أو تجاربهم، وكل ما يمتلكونه من رصيد هو مجرد عواطف جياشة، وحماسة واندفاع لخدمة الدين، فلا يوفقون للتعبير عن ذلك، أو السير به في المسار الصحيح، إذ تصبح حماسه متقدمه كثيراً على تحصيله العلمي والشرعي فيقع

في أخطاء فكرية ومنهجية وقد يجدون من يغرر بهم، ويستغل قلة علمهم، فينترس بهم، ويقامر بحياتهم⁽¹¹⁾. ويبدأ التضليل والتغريب بالشباب واستغلالهم من قبل بعض الجماعات المنحرفة لتحويلهم إلى أدوات تستخدم ضد المجتمع عبر المراحل الآتية:

- مرحلة اصطياذ الضحية عن طريق شخص مدرب لهذا العمل .
- مرحلة الحصار النفسي والاجتماعي على الضحية من خلال ملاحقته في الزمان والمكان بالأفراد الذين يقومون بدور العزل حيث يمنعونه من التعامل مع الآخرين غيرهم
- مرحلة التأثير من خلال نقاط الضعف التي تنتوع مع الشخص (فقر شديد، تعليم منخفض ، اضطراب نفسي) .
- مرحلة غسيل المخ وزراعة الأفكار التخريبية داخلهم وذلك من خلال عوامل ضغوط الجماعة على الفرد حيث يتم إقناعه قسراً بمجموعة من الأفكار المدمرة التي يتوجه بها الأفراد داخل المجتمع .

-مرحلة التوجيه للتورط في عمليات الانحراف والإرهاب
وفي تلك المرحلة يكون الفرد قد تشبع فكراً واجتماعياً وتوحد كلياً مع تلك الجماعة التي أصبح يعتمد عليها اعتماداً كلياً في حياته النفسية والاجتماعية ، بحيث يصعب عليه أن يرفض أي طلب يطلب منه ، وهؤلاء بالفعل يمثلون الأدوات الحقيقية للإرهاب ويعملون دائماً تحت إمرة قيادتهم.

- سيادة العنف
من أنواع السلوك المنحرف ما يُعرف بالسلوك المضاد، أو المدمر للمجتمع، يمكن وصفه بأنه: أي فعل يصدر ضد فرد آخر أو مجموعة أفراد آخرين أو ضد المجتمع لأغراض سياسية أو غير سياسية عن طريق استعمال العنف بأشكاله المادية، أو غير المادية للتأثير على الأفراد أو الجماعات أو الحكومات وخلق مناخ من الاضطراب وعدم الأمن بغية تحقيق هدف معين.

- شيوع الجريمة
إن استخدام العقل في أعمال الشر والضرر للآخرين يُعد انحرافاً فكرياً عن طريق الخير والعدل والحق، وفيه أضرار خطيرة على أمن الإنسان والدولة، فمثلاً يستخدم بعض الأفراد الخداع والغش والكذب والكيد لتحقيق أغراضهم والحصول على منفعة عن طريق تشويه الحقائق وتحريفها، مثل جرائم النصب والاحتيال والتزوير واستخدام ثغرات القانون.

- انتهاك الحقوق
ويتمثل هذا الانتهاك لحقوق الغير بالاعتداء على ممتلكاتهم، أو حرياتهم، أو ذواتهم بدون سبب قانوني. وقد يكون التعدي على الغير باسم القانون والذي قد يخضع (يتأثر) بدوره

لأفكار ومعتقدات المطبق له. فإذا كانت تلك الأفكار عدوانية مشحونة بالتعصب والكرهية فإن القانون وتطبيقه سينحرف بانحراف هذه الأفكار فيسوء استخدامه ويسوء بالتالي استغلاله، و يمكن أن أخذ الموظف للرشوة انتهاك لحقوق الغير.

2- أثر الانحراف الفكري على الأمن الفكري والعقائدي

كلمة الأمن لغة يطلق على أصليين متقاربين في المعنى : أحدهما : الأمانة وهي ضد الخيانة ومعناها سكون القلب والنفس فهي ضد الخوف ، فمن ائتمنته على شيء فقد سكن قلبك ونفسك إليه وأمنت من خيانتة .

المعنى الثاني للأمن : التصديق ومنه الإيمان وفيه معنى الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة ، ويقال فلان أمين : إذا كان قوي الثقة ؛ ويقال : أعطيته من آمن مالي : أي من خالصه وشريفه .

أ- إثارة الشبهات

تجد أصحاب الفكر المنحرف يفتحون الأمور الدينية بجرأة دون رسوخ علم أو بيئة جلية، فيوسعون دائرة المنكرات والمحرمات ويحكمون على الآخرين أحكاما خطيرة في أنفسهم وعقائدهم، ويثيرون شبهات دون أدلة واعتبارات.

ب- إخراج النصوص الشرعية عن سياقها

يختلف العلماء في تفسير النصوص الشرعية وبيان مدلولاتها باختلاف طبيعة ونوعية الأصول التي يستند إليها أصحاب كل اتجاه. " إن تفسير النصوص الشرعية يتجاذبه عادة اتجاهان : اتجاه يقف عند ألفاظ النصوص وحرفيتها مكتفيا بما يعطيه ظاهرها، واتجاه يتحرى مقاصد الخطاب ومراميه "، وقد ظهر الانحراف الفكري الديني عند بعض الأفراد والجماعات من خلال نقص الإلمام بأصول وقواعد التفسير واعتمادهم على منهج حرفي في فهم وتفسير النصوص وانتقاء آيات وأحاديث معينة، والتمسك المطلق بحرفيتها دون التفات إلى المقاصد العامة للشريعة أو معرفة بأسباب النزول وأدوات الاستدلال الفقهية واللغوية، وزعمهم بأنهم يتصلون مباشرة بالقرآن دون حاجة للاستئناس بأراء الفقهاء، فضلا عن افتقارهم لشروط الاجتهاد ومحدودية وعيهم بالتراث والتاريخ والواقع المعاصر بظروفه وملايساته إضافة إلى عدم فهم القياس أو استخدامه وتجاهل العلة والحكمة من التشريع .
ف هناك من يقرأ النصوص الشرعية قراءة سطحية ممن يعوزه إتقان الربط بين المتشابه والمحكم ، وبين الجزئي والكلي، والظني والقطعي في الدلالة ، والتعارض والترجيح مما يوصله إلى فهم جزئي غير دقيق لهذه النصوص ، و من الجهل تكفير الحاكم استنادا إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: الآية 47) و ما

شابهها من الآيات مع أن بعض العلماء قالوا أنها نزلت في أهل الكتاب الذين حرفوا و بدلوا
و من العلماء من قال بأن معنى الآية من لم يحكم بما أنزل الله جاحدا به فهو كافر .

ج-عدم تقدير المصلحة ودرء المفسدة

اتفق علماء المسلمين على أن تحصيل المصالح أصل من أصول الشريعة الإسلامية، إذ
أن الشريعة إنما نزلت لتحصيل مصالح العباد الدينية والدنيوية ودفْع المفسد عنهم.
والواقع بان الدماء المهدورة ، والمعارك الطاحنة لم تجلب مصلحة تذكر بل ترتب عليها
عشرات المفسد ، فالدماء المسالة والنفوس المزهقة من أبناء دين واحد فضلا عن النشرات
والأحقاد التي ملأت النفوس، فقد استغل الأعداء هذه الفتنة والدماء التي سالت بين أشياعه
لكي يشوهوا صورته ويصنفوه بالدموية والإرهاب، حتى صار المسلم في الخارج رمزا للإرهاب
والدموية.

إن المراقب يرى أن ما يحدث من صراع بين الجماعات المتطرفة وبين رجال الأمن فيه
خسارة لمسلمي هذا البلد من الطرفين وإن هناك أطرافاً عديدة توظف هذه الأحداث
لمصلحته، أو عن طريق التحريض والتهييج أو مساندة أحد الطرفين.

د- إبتاع المتشابهات والإعراض عن المحكمات

من الشبهات التي يقوم عليها أصحاب الانحراف الفكري الديني شبهة إبتاع المتشابهات من
النصوص، وترك المحكمات البيئات، معرضين عن المحكمات وهي التي منها القول
الفصل، والحكم العدل، فهم يعتمدون على المتشابهات في تحديد كثير من المفاهيم الكبيرة
التي يترتب عليها نتائج خطيرة في الحكم على الأفراد والجماعات، وتقويم وتكييف العلاقة
بهم من حيث الولاء والعداء، والحب والبغض، واعتبارهم مؤمنين أو كفار . وهذه الشبهة
تعبير عن سلوك لا يصدر من راسخ في العلم، وإنما هو شأن الذين في قلوبهم زيغ والذين
يبتغون الفتنة للناس والتشويش عليهم، فيبتغون المتشابه. وقد حذر الله تعالى من هذا الصنف
من الناس فقال عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ
الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ
وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ (آل عمران: الآية 7) وهؤلاء هم الذين حذر منهم كذلك النبي ﷺ بقوله:
"إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَأَحْذَرَهُمْ"

هـ-الفهم الخاطئ لمفهوم الوطنية

إن حب الوطن أمر فطري في الإنسان، إلا أن مفهوم الوطنية بوضوح وأهميته كركيزة
أساسية في النمو النفسي والاجتماعي والتربوي للفرد لم يتوافق مع سياق ونسق القيم والأفكار
التي يؤمن بها بعض ذوي الانحراف الفكري الديني.

فالوطنية لديهم شبيهة من الشبهات التي يجب درؤها والتنزه منها، فجاءت كتاباتهم وفتاواهم مليئة بتشويه هذا المفهوم ومن يؤمن به، فهي في نظرهم: مفهوم جاهلي، وثني خطير فيه دعوته إلى الانصهار في بوتقة الوطن واعتباره رابطاً قومياً يعلو فوق كل الروابط الأخرى، وهو لا يخرج عن كونه صنماً أو إلهاً يعبد من دون الله وأن الناس سيتخلفون عن مبادئهم الإسلامية باسم الوطنية، والواقع أن ولاء المسلم لدينه وانتماءه لأمتة لا يتعارض مع الوطنية بل إن العلاقة بينهما علاقة وئام وامتزاج وارتباط حتى إن الدين لا يقوم إلا على أرض ووطن .

و- تحريف المفاهيم والمعتقدات

أن الفهم الخاطئ للشريعة الإسلامية ومقاصدها السامية هو انحراف فكري عن المنهج العقلي السليم⁽¹²⁾. وتتضح آثار هذا الفهم الخاطئ في التباس المفاهيم وقلب المقاصد وتحريف النصوص. إن آثار الانحراف الفكري على الأمن الفكري كما يظهر في قلب المفاهيم والمعتقدات تكمن في الحروب الكلامية بين أفراد المجتمع نحو الاتفاق على معاني واحدة وواضحة للقضايا الاجتماعية والدينية التي يتعرض لها المجتمع مثل: قضايا الولاء والبراء، والشرك، والتوسل، والولاية والجماعة، والتكفير والغلو، والموقف من الصحابة، إضافة إلى مفاهيم وقضايا الدعوة، والحسبة والجهاد والإرهاب، وقضايا الشباب والمرأة والحجاب والحوار والإصلاح والوعولمة. فترى كل فريق و كل جماعه تقول أنها التي تحارب من أجل الحق و لكن بمفهومين مختلفين .

ز- الإفتاء بغير علم شرعي

من مخاطر الانحراف الفكري على الأمن العقائدي بشكل خاص، التجرؤ على أحكام الدين بإصدار فتاوى التكفير والتبديع والتحليل والتحریم، والخوض جهلاً في مسائل العهد والأمان والذمة وأحكام الجهاد والحرب والسلام دون معرفة كافية لمراتب الأحكام أو مراتب الناس، فيظهر تعسيف النصوص والاجتهادات المخالفة لما أجمعت عليه الأمة.

ح- تكفير المجتمع

يؤمن أصحاب الفكر المنحرف بامتلاكهم للحقيقة المطلقة وتعذرهم في التعايش مع الآخرين، وتضييق صدورهم بالرأي المخالف إلى الحد الذي قد يدعوهم إلى استبعاد صاحبه وتصفيته. وفي مواجهة ذلك يقف الفكر الديني المتسامح بالوسطية والذي لا يجد أصحابه تعارضاً بين يقين ديني يؤمنون به أو يدعو إليه، وبين الآخرين في اعتناق ما يرونه من عقائد دينية يؤمنون بها ويدعون إليها فهم يمثلون لقول الله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة: الآية 256) من أخطر آثار الانحراف الفكري هو السقوط في هاوية تكفير الآخرين واستباحة دمائهم وأموالهم، وهو ما وقع فيه الخوارج في

فجر الإسلام الذين كانوا أشد الناس تمسكا بالعبادة حيث وصفهم النبي صلى الله عليه واله وسلم بقوله: "يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم" ومن الآثار الخطيرة الأخرى للتكفير صرف اهتمام المسلمين عن أمور الحياة الهامة، واستتفار جهدهم في صراعات دينية وفكرية يزيد معها الأعداء ويقل معها الأخوة والأصدقاء، فتصبح المعركة بين المسلمين أنفسهم بطوائفهم وفئاتهم ومذاهبهم بدل من استتفار الجهود في العمل الصالح والنافع للدين وجمع شمل الأمة على منهج رباني واحد.

ومن جانب آخر ، فقد يؤدي التكفير في ظل الانفعال الحاد والكراهية العميقة إلى سلوك العنف الذي يتمثل في العدوان الجسماني على أعضاء الجماعة موضوع الكراهية أو الإبادة (الإفناء) وهي المرحلة النهائية للانحراف الفكري المتطرف بين الجماعات وتشمل الإبادة الجماعية أو الإعدام دون محاكمة قانونية⁽¹³⁾.

رابعا- أهمية الأمن في حياة الأفراد والمجتمعات

إن نِعَمَ الله على عباده لا تعد ولا تحصى وإن من جملة هذه النعم ومن أعظمها : نعمة الأمن والأمان ، والدليل على ذلك :-

- 1- يقول الله سبحانه وتعالى ممتناً على أهل مكة بنعمة الأمان : ﴿ فليعبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (قريش : الآية 3 -4)
- 2- وكان من جملة دعاء إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (إبراهيم : الآية 35) وذلك لعلمه عليه السلام بأهمية الأمان وإدراكه بأن نعمة الأمن من نفائس نعم الله على العباد .
- 3- وقد سمى الله تعالى نفسه بالسلام والمؤمن والسلام من معانيه الأمان والمؤمن هو خالق الأمن وواهب الأمن والطمأنينة في القلوب وهو الصمد الذي تلجأ إليه المخلوقات جميعها في كل حوائجها فهو الذي يدفع عنهم البلايا والنقم وهو المغيث والمعين فهو ملاذ الراغبين ومُعِيذ الخائفين ولا ملجأ منه إلا إليه سبحانه وتعالى .
- 4- وكان عليه الصلاة والسلام يسأل ربه العافية والأمان ويأمر أصحابه بذلك .

خامسا- مظاهر الانحراف الفكري في بعض الدول العربية

تتفاوت مظاهر الانحراف الفكري في الدول العربية من دولة إلى أخرى ، فبعض الدول يظهر فيها ويجلاء آثار الانحراف الفكري من تقجير وتخريب واعتداء على الكفار الذميين أو المستأمنين أو المعاهدين ، ومن الدول ما يظهر فيها آثار الانحراف الفكري بقلّة ، وذلك كدولة

قطر ومملكة البحرين . ومن الدول العربية ما يخفى فيه آثار الانحراف الفكري ويندر حصوله ولا يكاد يُذكر ، وذلك كسلطنة عُمان ودولة الإمارات العربية المتحدة⁽¹⁴⁾ .

وسنذكر بعض المظاهر الجلية للانحراف الفكري في الدول العربية وهي :-

1- تكفير الحكام المسلمين ونزع يد الطاعة منهم وعدم الاعتراف ببيعتهم ، وذلك بشبهة الحكم بغير ما أنزل الله ، وهذا المظهر الموبوء منقشٍ لدى فئات من الناس في كل دولة من الدول العربية وبخاصة في دول الخليج العربية .

2- تكفير عامة الناس وخصوصاً موظفي الدولة كرجال الأمن وموظفي الوزارات واستباحة دمائهم بحجة أنهم أعوان للحكام - كما يقولون - ، بل اعتبروا المجتمعات المسلمة مجتمعات جاهلية واعتبروا مساجد المسلمين معابد الجاهلية ونادوا بالاعتزال عن المجتمع واتخاذ بيوت أتباعهم مساجد .

3- المناداة بالإمامة وعدم الاعتراف ببيعة الحاكم الذي لا تتطبق فيه الشروط الكمالية للإمامة ، وتتصيب أمراء في كافة مناطق البلد بغير إذن ولي أمر ذلك البلد ، واعتبار معسكر السلطان معسكر كفر .

4- اتهام العلماء الربانيين بأنهم عملاء للحكومة ، وتلقيبهم بألقاب لا تليق بمقامهم الذي ارتضاه الله لهم ، وذلك إذا أفتى هؤلاء العلماء بعدم إثارة الفتن وضرورة الدعاء لولي الأمر وطاعته ، مما يخالف أهواء أصحاب الأفكار المنحرفة ، والعجيب أن كثيراً منهم يتستر بانتمائهم إلى هؤلاء العلماء الأجلاء.

5- الدعاء على وفاة الأمور ، وإن لم يكن تصريحاً وإنما تلميحاً كما هو حال بعض الخطباء هداهم الله ، وإذا طُلب منه الدعاء لولي الأمر امتنع ، وإذا سمعته يدعو على ولي الأمر فكأنما يدعو على كافر ميثوس منه مثل قولهم الباطل (اللهم جمد الدماء في عروقهم) ، بل بعضهم يحذر من الصلاة أو حضور الخطبة خلف من يدعو لولي الأمر .

6- المناداة بالجهاد الإسلامي من غير علم بشروطه وضوابطه وأحكامه ، وكثير منهم يدعي الجهاد ويسافر إلى بلدان أخرى للجهاد من غير رضا والديه ، بل من غير إذن ولي أمره وحاكم بلده .

7- تنظيم المظاهرات والمسيرات ، كوسيلة من وسائل الشجب والإنكار ، علماً بأن عادة المظاهرات لم تكن موجودة إطلاقاً في كثير من الدول العربية !!! بل ولا في العالم الإسلامي وإنما حدثت لدى الغرب ابتداءً . وحتى المظاهرات التي تسمى بالسلمية ينبغي عدم السماح لها لما لها من آثار سلبية مستقبلية ، وهي خلاف الأدب في النصيحة .

- 8- التعرض بالإيذاء أو القتل للكفار الأجانب المعصومين الدماء سواء كانوا مستأمنين أم ذميين أم معاهدين بسبب الجهل وقلة فقه التعامل مع الآخرين وعدم التسامح بسماحة الدين وعدم الاهتداء بحكمة الدين ، بل هي من صفات الخائبيين الغادرين .
- 9- القيام بالتفجير والتخريب وتنفيذ العمليات الإجرامية مما يعني ترويع الأمنيين وقتل الأبرياء المعصومين وإهدار الأموال والمنشآت التنموية الصالحة وتشويه سمعة البلاد الآمنة الطيبة ، بل وتشويه سمعة الإسلام والمسلمين .

سادسا- أسباب الانحراف الفكري في الدول العربية

إن أسباب الانحراف الفكري كثيرة نذكر بعضها :

- 1- يعتبر الجهل وقلة الفقه في الدين من أكثر الأسباب تأثيرا في الانحراف الفكري، فالعلم عصمة من الزلل والانحراف، والعلم مفتاح كل خير ، فلا عبادة ولا إيمان ولا جهاد مقبول إلا بالعلم الصحيح النافع ، وما منشأ الشبهات ولا الأفكار المنحرفة إلا الجهل في الدين ، وإن مجرد صلاح النية لا تشفع لصاحبها في الأفعال الإجرامية يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف: الآية 103) .

- وتجد أن أكثر منفعدي الجرائم الناتجة عن الانحراف الفكري ممن لا علم لهم ولا اهتمام لهم بالعلم . والكلام عن فضل العلم وأهميته ووجوب طلبه كلام طويل لا يسعه هذا البحث فالعلم خير علاج للجهل ويقول النبي ﷺ من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين).أخرجه البخاري
- 2- عدم توفيق الشاب للمرجعية الصحيحة في الفقه في الدين : فيتعلم الفقه والعقيدة ولكن للأسف يتعلمه على الوجه الباطل المنحرف ؛ لانحراف فكر شيخه فيرشده إلى كتب وكتيبات ومنشورات وأشرطة تحمل تلك الأفكار الخاطئة ، فتلتصق الشبهات في عقل الشاب ولا يجتهد في إزالتها ودرئها عن نفسه ، فما أعظم جناية الإضلال . وعامة من ينقلون مثل هذه الأفكار المنحرفة من خارج بلاد العرب . يقول النبي ﷺ: (حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا) .

- 3- اتهام العلماء الراسخين في العلم بالخيانة وعدم الأمانة أو تكفيرهم والتقليل من شأنهم ومنزلتهم التي رفعها الله في كتابه . فكلما قام عالم بفتوى لا يوافق هوى صاحب الفكر المنحرف حذر من العالم وطعن فيه ، أو يقول مثلما سمعت بعضهم يقول : (آخذ من الشيخ الفلاني أحكام الطهارة والصلاة والبيوع ولا آخذ منه الأحكام السياسية ؛ لأنه لا يفقه الواقع)، فهذه تهمة للعالم بالغباء وعدم تصور المسائل⁽¹⁵⁾.

فينبغي إكرام العلماء وتوقيرهم وحسن الظن بهم فالظن فيهم طعن في الدين لأنهم نقلة الدين والمبلغون عن رب العالمين . وقد صدق ابن عساكر إذ يقول :

(إن لحوم العلماء مسمومة وعادة الله في منتقصيهما معلومة)

4- الحماس والعاطفة غير المنضبطة بضوابط الشرع : فالعاطفة تنقلب إلى عاصفة إذا لم تضبط بضوابط الشرع ، ومنشأ الحماس هو وجود خطباء ومتكلمين محمسين ، وكذلك ما يتأثر به الإنسان من مرئيات ومسموعات من مشاهد تعذيب للمسلمين .

فينبغي عدم القيام بفعل وعدم القول بشيء إلا بعد سؤال أهل الذكر الذين شابت لحاهم في طلب العلم ، لا بالرجوع إلى مجرد الخطباء أو أئمة المساجد ؛ إذ لا يلزم أن يكونوا علماء إلا من عُرف منهم بالفقه الصحيح والالتزام بالوقار والحماس المنضبط لا بإثارة الفتن وتهيج الدهماء .

5- وبعضهم يثير الفتن ويهيج الناس على ولاية الأمور ؛ لأغراض سياسية كالطمع في تولي المناصب أو الوصول إلى زعامة قيادية ، أو لكسب الأموال وقضاء الشهوات الجنسية ، فهذا علاجه في تقوى الله والخوف منه سبحانه وتعالى وبالترقيق والوعظ والتذكير بزوال الدنيا وبقاء الآخرة . يقول الله تعالى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (الأعلى : الآية 16 - 17) .

6- ضعف الالتزام بالأخلاق والآداب الإسلامية ، فالإسلام يدعو إلى السلام وحفظ الأمن ومحبة الناس ونشر المودة والإخاء والابتسام في وجه الآخرين وإفشاء السلام والإحسان إلى الآخرين ومراعاة حقوق الجيران ولو كانوا من الكافرين فالنبي ﷺ تعايش في المدينة مع اليهود وجاورهم وأحسن في المعاملة إليهم رغم إيدائهم له ولنا فيه الأسوة الحسنة .

بل إن كتاب رب العالمين فيه أعظم الهداية والنور والدعوة إلى السماحة والتسامح وفيه كل خير والنهي عن كل ضير بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء : الآية 9)

7- ومن أسباب الانحراف الفكري وجود ديانات غير إسلامية وأحزاب وجماعات عديدة تنتمي للإسلام .

والإسلام دين واحد ينبذ التفرق والاختلاف والتحزب ويدعو إلى التوحيد والوحدة ، يقول الله جل وعلا: ﴿ إِنَّ الدِّينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَأَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (الأنعام : الآية 159) ومع تعدد الديانات والمذاهب والجماعات في الدول العربية ، إلا أنها كانت تتعايش معايشة سلمية وبأمان .

ولضرورة العلم في علاج الانحراف الفكري لا بد من فهم الفكر الصحيح والرد على شبّهات الأفكار المنحرفة مستدلين بكتاب الله العظيم وسنة رسوله الأمين وبآثار السلف الصالحين ، للوصول إلى فناعة ، بوهن تلك الأفكار الخاطئة .

سابعاً-الوقاية والعلاج من الفكر المنحرف

إن تعديل الاتجاهات وتصحيح المعتقدات والمفاهيم الخاطئة وتعديل الفكر المنحرف للوصول إلى الوسطية والاعتدال يحتاج إلى مهارات عالية في الفهم والإدراك . وسوف نستعرض في هذا المجال أهم الأساليب الوقائية والطرق العلاجية التي يمكن استخدامها مع أصحاب الانحراف الفكري وذلك لتصحيح انحرافه وتقويمه والوقاية من أخطاره على الفرد والمجتمع.

1- أساليب وقائية من الفكر المنحرف

أ- البيت

لا يختلف اثنان على أهمية دور الأسرة في معالجة الانحرافات السلوكية والفكرية في المجتمع وخاصة تلك المتعلقة بالأبناء ، فهي تشكل عنصراً مهماً مع عناصر ومرتكزات أخرى في أمن المجتمع واستقراره ، أول مساهمات الأسرة في الوقاية من مشكلة الانحراف الفكري هي أن تكون أفكار الوالدين في الأساس أفكاراً سوية وعقلانية وموضوعية نحو الأفراد والأشياء في المجتمع، وأن يكون الوالدان قدوة مثالية في التعامل مع أنفسهم ومع الآخرين مما يساعد على تهيئة بيئة آمنة وهادئة يجد فيها الأولاد التوافق الأسري والحوار الهادف والاحترام المتبادل، والمراقبة الواعية للأبناء حتى لا يتعرض أبناؤها إلى طائفة من الأفكار الغربية التي لم تكن متاحة من قبل ، فدخل القنوات الفضائية وشبكة "الإنترنت" إلى البيوت شكلاً تدخلاً سافراً في خصوصية الأسرة وخاصة المسلمة، ومع إيماننا بأهمية هذه العناصر وفائدتها إلا أنها تمثل من الوهلة الأولى أنها سلاح ذو حدين ولا بد من تكريس المزيد من الوقت لمتابعة نشاطات الأبناء، والحرص على عدم انجرافهم مع التيارات المنحرفة والمشبوهة . ومن البيت يبدأ الوالدان في مساعدة الأبناء على حسن اختيار الصحبة والبعد عن رفقاء السوء.

ب- التعليم وصياغة الشخصية السوية

يجب أن تتحمل المدرسة الدور المناط بها في تزويد المتعلمين الأفكار السليمة عن المجتمع، ويمكن الاستفادة من دور المدرسة في التنمية الشخصية والاجتماعية من خلال مراعاة ما يأتي:

- ربط المدرسة بالمجتمع المحلي وتفعيل دورها في حماية أمن المجتمع المحلي وعدم قصر نشاطها داخل أروقة المدرسة فقط.

- يمكن إضافة مناهج جديدة حول الوقاية من الجريمة والانحراف توضح: كيف يمكن للشباب تحصين أنفسهم من الجريمة، ومعرفة السبل الناجحة للابتعاد عن مهاوي الرذيلة والانحراف.

- وضع خطة إستراتيجية للإرشاد النفسي الجماعي للوقاية من الاضطرابات النفسية توجه على الأخص نحو الوقاية من التورط في التطرف والإرهاب بين تلاميذ وطلاب المدارس والجامعة.

- ضرورة انتقاء الأساتذة الذين يقومون بالتدريس بكل دقة وحذر، بحيث يتصفون بالفطنة والذكاء والقدرة على إيصال المعلومة الصحيحة للطالب بالإضافة إلى المقدرة الشخصية التي تمكنهم من استيعاب المتغيرات الحضارية التي يعيشونها وعكسها في المناهج الدراسية بشكل مشوق، وأن يكونوا قدوات يحتذي بهم علماً وخلقاً وسلوكاً.

- تعليم التلاميذ مهارات التفكير السليم والفعال وحل المشكلات ، وإتاحة المجال لهم للتعبير عما يجول في خاطرهم ونقد أفكار الآخرين وأرائهم بما يفيد الجميع ، مع تقبل النقد من الآخرين أيضاً.

- استخدام التقنية الحديثة وتفعيلها في المدارس في المجالات والعلوم المختلفة تحقيقاً للأهداف المرجوة.

ج- وسائل الإعلام

تؤدي وسائل الإعلام دوراً كبيراً في الوقاية من الانحراف الفكري، فعليه أن يكون لدينا وعي كبير في التعامل معها وكيفية استخدامها، وأن تشارك وسائل الإعلام من تلفة و انترنت في توعية الأفراد و توضيح الحقائق عن الفكر المنحرف ووضع الإعلام المضاد عن طريق تدفق مستمر وواع للمعلومات، والحقائق عن ظاهرة الانحراف الفكري، والسلوك الإرهابي وآثارها وما يستجد فيهما في الوقت المناسب بما يوضح الصورة جلية أمام الجميع.

د- تفعيل دور المؤسسات الاجتماعية (المسجد كنموذج)

أصبحت المساجد عبارة عن دور للعبادة فقط، مما يتطلب من الجهات المعنية دراسة هذه الظاهرة ومحاولة إيجاد الحلول التي تعود بالمسجد تدريجياً إلى دوره التاريخي في بناء المجتمع، ولا شك أن للمسجد إسهامات مؤثرة في خدمة المجتمع، فعلى سبيل المثال، من تلك الإسهامات الوقاية من الانحرافات السلوكية من خلال حث أفراد المجتمع على تلمس حاجات الفقراء والمساكين في المجتمع ، ومواساتهم وإعانتهم بالزكاة والصدقات لوقايتهم من ارتكاب الجريمة والاعتداء على حقوق وممتلكات الآخرين.ويمكن تشبيه المسجد بجهاز إنذار مبكر ينذر المجتمع بشرور وأخطار تهدد الأمن الفكري والعقائدي. فالكثير من

الخطباء والأئمة بحكم ارتباطهم القوي بحياة المجتمع يستطيعون الكشف مبكراً عن أي انحراف عقائدي أو فكري.

ولصلاة وخطبة الجمعة أثر كبير في توعية المواطنين من أخطار المخدرات والمسكرات والانحرافات السلوكية والفكرية، كما ترجع أهمية خطبة الجمعة باعتبارها نمطا من أنماط الاتصال المباشر بين المتحدث (الخطيب) والجمهور (المصلين) ومهما تتنافر الأفكار والآراء والمعتقدات والولايات بين الناس فإنها تكاد تجمع على أهمية وضرورة حضور خطبة الجمعة والاستماع إليها وأداء صلاتها جماعة في المسجد، ومن هنا بدت مشروعية مراجعة خطبة الجمعة ودورها الكبير في مواجهة العنف والإرهاب والتطرف وفق منظومة إستراتيجية يؤسسها المجتمع بكياناته المتعددة لتكون رسالة المجتمع من خلال خطبة الجمعة رسالة دينية ووطنية صحيحة لا مجال فيها لاجتهاد الأفراد، ولعل من الأساليب الوقائية لحماية المساجد من وباء الفكر المنحرف هو التزام المساجد بمنع استغلالها من بعض العناصر الضالة عن طريق اصطیاد الشباب وغيرهم من المتحمسين الذين تم تحويلهم إلى قنابل بشرية قابلة للانفجار في أية لحظة.

هـ- الواقعية في الخطاب الإسلامي

يجب على الحركات والأحزاب والتجمعات الإسلامية أن تعلن رفضاً صريحاً للآليات والوسائل الدموية التي استخدمتها الحركات المنحرفة في مواجهتها مع السلطات الأمنية.

و- البحث عن النماذج المؤثرة (العلماء كنموذج)

إن مسؤولية رعاية الشباب مسؤولية تقع على جميع المسلمين وفي طليعتهم الحكام الممسكون بزمام الأمور والقادرون على اتخاذ القرارات، كما أن المسؤولية تقع بالدرجة نفسها على العلماء والمفكرين المؤهلين بعلمهم وبصيرتهم، وحرية رأيهم على العمل الإسلامي باعتبارهم الأئمة الحاملين لأمانة الرسالة، وبراهين الحق والذين بإمكانهم رعاية الشباب من الانحلال والانحراف.

إن هؤلاء العلماء هم قادة الخير ورواد الإصلاح وهم المكلفون ببيان الحق للناس وهدايتهم إليه وتلك مسؤولية كبرى تقع على أهل العلم والفقهاء والمعرفة، فإن الله جل وعلا حملهم مسؤولية عظيمة هي: هداية البشرية، ونشر العلم، وبذل النصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإبلاغ الحق، وتعليم الجاهل، وتنبية الغافل، ولطالما ورثوا وظيفة التبليغ والإرشاد فعليهم أن يرشدوا ويعلموا، وأن يتولوا القيادة الروحية والفكرية للمجتمع ويسدوا الذرائع أمام الفتن وحماية الشباب من استغلال المستغلين المتاجرين بالدين. فمتى ما أهمل العلماء هذه المسؤولية العظيمة فإن البلدان تخرب، والقلوب تظلم، والنفوس تتيه، والأفكار تزيع، والباطل يصول، والضلال يجول.

فعلى العلماء اليوم أن يستعملوا زيادة عن الخطب المنبرية، الأساليب التي يستعملها غيرهم من أصحاب المذاهب والاتجاهات مثل: المقالة الناقدة والرواية الحكيمة، وعن طريق الوسائل السمعية والبصرية، وعقد الندوات والمؤتمرات التي تعين على إبلاغ كلمة الحق وتبصير الشباب لنشر الفضيلة ومقاومة الرذيلة . ومن الخير كذلك أن يعمل العلماء على فتح أبوابهم للشباب وعامة المجتمع، وأن يخصص كل واحد منهم وقتاً يومياً أو أسبوعياً، يستقبل فيه الناس ويحاورهم، ويخصص للشباب المنفذ وقتاً يحاورهم ويرفق بهم ويرشدهم.

ز- توحيد المرجعيات

تتعدد المرجعيات التي يرجع إليها الإنسان في حياته، فهناك مرجعية دينية ومرجعية قانونية وأخرى اجتماعية. ولكن تبقى المرجعية الدينية من أهم وأخطر المرجعيات على مر العصور، ففيها تثبيت للنظام السياسي القائم ، وعادة ما تستعين الدول بالمرجعيات الدينية لاسيما في الأزمات و الكوارث الكبرى، وهم صمام أمن وأمان للأمن الاجتماعي والفكري لكل مجتمع ، فهي تفتي الناس وتحقق من تأهيل من يتصدون للإفتاء في أمور الناس المختلفة.

وإذا اختلفت المرجعيات وتصارعت فان حياة الناس الاجتماعية تختل وتضطرب، ولذلك فإن المهم على الدولة توحيد المرجعيات الدينية المتعددة في إدارة أو هيئة رسمية واحدة، واعتماد رأيها الشرعي والأخذ به، ومنع الفتاوى الفردية في أمور جماعية لما لها من تأثير سلبي على المجتمع إذا لم تكن مؤهلة، والأخذ بالفتوى الجماعية في قضايا الفقه بشكل خاص وعند حدوث اختلاف فانه ينبغي حسمه بالتصويت بين العلماء. وحتى في الحقوق الإنسانية من المهم وجود مرجعية رسمية معتمدة، تهتم بهذا الجانب وتتكلم فيه.

ح- المشاركة السياسية الشعبية

من الأساليب الوقائية لدرء خطر الأفكار المنحرفة التي تحيى على الكبت والقمع والكرهية ، هو فتح النوافذ لنسيم الحرية وتشجيع روح النقد والنصيحة و الاستجابة للرجبة الشعبية في المشاركة السياسية والتي هي من مقومات الأمن السياسي حيث تكتسب السلطة الحاكمة شرعيتها، وعدم استئثارها بالحكم، وفي جو الحرية تظهر الأفكار في النور ، فيمكن لأهل العلم مناقشتها، وتسليط الضوء عليها ، فنتثبت وتبقى ، أو تختفي وتذهب ، أو تعدل وتهذب ، بدل أن تظل في السراديب التحتية، تلقن بلا مناقشة ، وتطرح بلا معارضة ، وتتفاقم يوماً بعد يوم ، حتى يفاجأ الناس بها وبانحرافها وقد شبت عن الطوق.

ط- تنمية التفكير الناقد

إن مما يلحق الضرر بالأشخاص والشعوب هو تغييب دور العقل ومكانته وعدم استخدام التفكير العقلاني المستقيم في الموازنة بين الأمور والتمييز بين الحسن والقبيح وتجنب النفس والمجتمع أسباب الهلاك والدمار. ولعل أهم تلك المهارات الفعالة والتي لها دور في الوقاية من الفكر المتطرف والمنحرف هو مهارة التفكير الناقد، وهي من المهارات والمقاييس المهمة التي تستخدم في الحكم على درجة نضج الأشخاص. وفي هذه المهارة يتوصل الفرد إلي الأحكام والخيارات والقرارات بنفسه بدلا من أن يدع الآخرين يقومون بذلك نيابة عنه. وعندما يمارس الأفراد التفكير الناقد فإنهم سوف يستطيعون التفريق بين الأفكار والمغالطات المتعددة التي يتبناها ويعرضها أصحاب الفكر المنحرف، ويختبرون بها مدى دقة وصلاحيه تلك الأفكار المنحرفة. وتنمو لديهم القدرة على التخلص من "السموم الإعلامية" التي تبثها جماعات التطرف الديني في وسائلها الإعلامية المختلفة في علاجها المشوه والمتحيز للقضايا والمسائل الاجتماعية والسياسية والدينية.

ك - بث الأمل في البيت والعمل

في ظل الظروف والأحداث العالمية المحيطة، التي تموج بالصراعات والخلافات والقلق، فإنه من المهم إن تنتشر ثقافة التفاؤل والتسامح وأن تسود روح المحبة في بيئات البيت والعمل، وأن تشجع الهيئات والمؤسسات الحكومية والأهلية كل ما يساعد على رفع الروح المعنوية لأفراد المجتمع، وبث الأمل في إصلاح الأحوال وإزالة المعوقات.

2- طرق علاجية لتعديل الفكر المنحرف

أ- الدعوة إلى الوسطية

تمثل الوسطية في القضايا الإنسانية محورا هاما تدور حوله قضايا ومسائل كثيرة، فقد جعل الله تعالى كثيراً من الأشياء والطبائع والخصائص النفسية مملوكة بقانون الوسطية، فالشجاعة على سبيل المثال لها حدود، فإذا تجاوزتها صارت تهورا، والحذر له حدود فإذا تجاوزها أصبح جبنا وإحجاما⁽¹⁶⁾.

والوسطية تعني: الاستقامة على المنهج، والبعد عن الميل والانحراف، فالمنهج المستقيم، وبتعبير القرآن: "الصراط المستقيم" هو كما عبر أحد المفسرين الطريق السوي الواقع وسط الطرق الجائرة عن القصد إلى الجوانب، فإذا فرضنا خطوطا كثيرة واصله بين نقطتين متقابلتين، فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع في وسط تلك الخطوط المنحنية، ومن ضرورة كونه وسطا بين الطرق الجائرة أن تكون الأمة المهدية إليه وسطا بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة.

إن الانحراف الفكري ما هو إلا انحراف عن الوسطية والتوازن نحو الإفراط والتفريط، أو الغلو والتقصير. ولتعديل هذا الانحراف الفكري يجب العودة به وبمن يحمله إلى جادة

الوسطية. فالوسطية في الإسلام هي العدل بين الطرفين المتنازعين أو الأطراف المتنازعة دون ميل أو تحيز إلى أحدهما، أي الموازنة بين هذه الأطراف بحيث يعطى كلاً منها حقه دون بخس ولا جور عليه.

فالفكرة الوسطى يمكن أن تلتقي بها الأفكار المتطرفة في نقطة ما، هي نقطة التوازن والاعتدال، كما أن التعدد والاختلاف الفكري يكون حتماً كلما وجد التطرف، وتكون حدته وشدته بقدر حدة هذا التطرف، أما الوسط والاعتدال فهو طريق الوحدة الفكرية ومركزها ومنبعها. ولهذا تثير المذاهب والأفكار المتطرفة من الفرقة والخلاف بين أبناء الأمة الواحدة ما لا تثيره المذاهب المعتدلة في العادة .

ب- فهم الصراع وإدارته

كيف يمكن حل الصراع بين الأجهزة المعنية في الدول على سبيل المثال وبين الجماعات المتطرفة فكرياً وسلوكياً والوصول إلى حالة تنتفي فيها أسبابه، وتنتفي معها احتمالات قيامه مستقبلاً، أو على الأقل الوصول إلى حالة تقل معها درجة الصراع في العلاقات لمدة قصيرة، أو طويلة حتى إن تحول إلى حل الصراع. ويمكن القول أن هناك بعض الطرق للتخفيف من حدة الصراع ثم حله وهي:

- الاستعانة بالأهداف العليا والتهديدات المشتركة

مواجهة الجماعتين (الأجهزة الأمنية والجماعات المتطرفة) لتهديد مشترك أو لموقف يحتم عليها العمل معاً لتحقيق هدف، يكون غالباً أكثر فعالية، فقد يكون الاستعانة بمواجهة تهديد مشترك مثل التهديدات الصهيونية على سبيل المثال، أو المحافظة على هدف عال مثل وجوب رعاية مصالح الأمة العظمى، ودرء المفسد الكبرى عنها من الحاكم والمحكومين، و حفظ الأمن وأنه واجب على الجميع، وأن الإخلال به فساد في الأرض، والدين جاء بحفظ الضروريات الخمس (الدين والنفس والمال والعرض والعقل) ولا يمكن ذلك إلا بالأمن⁽¹⁷⁾.

- الاتصال الفعال

تشير البحوث إلى أن الاتصال بين جماعتين يكون فعالاً حيث يكون موجهاً ومحدد الهدف كأن يطلب من كل جماعة مثلاً: التقدم باقتراح تعتقد أنه معقول ويمكن أن يكون مقبولاً من الطرفين، فإذا تحقق مثل هذا الاتصال فإنه يغلب أن يؤدي إلى التخفيف من حدة الصراع.

- استخدام ممثلي الجماعات

يجب أن يكون ممثلو الأطراف من القادة أو من ذوي الشأن في جماعاتهم أو وظائفهم، ولكي يكون هذا الأسلوب فعالاً يتعين على الممثلين التعرف على ما يمكن للجماعة أو الجهة التي يمثلونها قبوله أو عدم قبوله، ثم عليهم إما الالتزام بهذه الحدود أو إعداد الجماعة للتنازلات.

- تجزئة الصراع

قد تطلب الجهات الأمنية من الجماعات المتطرفة البدء في إلقاء السلاح وعدم استخدامه قبل البدء في الاستماع إلى المطالب، أو البدء في محاكمة المسجونين أو الإفراج عن غير المطلوبين.

- تدخل طرف ثالث

وهو يشبه الحكم في المباراة، ويؤدي أدواراً مهمة مثل: ضرورة وضع حد زمني للوصول إلى اتفاق وتعريف القضايا محل الصراع وإعادة صياغتها، وترتيب أولوياتها والبحث عن حلول بديلة، وتقديم الضمانات اللازمة لتنفيذ الاتفاق إذا تم، كما أن تقديم تنازلات من الطرفين استجابة لطرف ثالث يغلب أن يكون أكثر قبولاً منهما ولا يظهرهما بمظهر الطرف الضعيف.

ومن الأساليب الفعالة في فهم وإدارة الصراع مع المنحرفين فكراً هو بناء جسور للوصول إليهم وهدم كل العوائق والحوائط التي تحول دون ذلك. إن تقبل ذوي الانحراف الفكري هو أول شروط مساعدتهم وتعديل انحرافاتهم، ثم يأتي الصدق والإخلاص في علاجهم، ومعرفة الدوافع المحركة لسلوكهم وأفكارهم. أن أسلوب الجسور الممدودة مع الغير هو أسلوب فعال في حل كثير من المشكلات المزمنة بين الأفراد والجماعات، إلا إنه من المهم استخدام ثلاثة قواعد ضمن هذا الأسلوب، وهي⁽¹⁸⁾:

الأولى: أن هناك أشياء يجب أن تتوقف في التعامل بين الأطراف المتنازعة.

الثانية: إن هناك أشياء يجب أن تستمر ولا تتوقف أو أن تتضاعف.

الثالثة: إن هناك أموراً وأشياء يجب أن تبدأ بين الطرفين.

وتطبيقاً لهذه القواعد بين أصحاب الانحراف الفكري وبين الذين يريدون تعديل الانحراف الفكري يجب مراعاة ما يأتي:

1 - توقف الاتهامات والشكوك والعزلة التي تسود علاقة الطرفين. كما يجب أن يتوقف اليأس من حل المشكلات العالقة، والتوقف عن وصف الآخر بأنه عدو مبين لا يمكن الحوار معه والاطمئنان إليه.

2 - استمرار احترام مكانة العقل ودوره في حل المشكلات، كما يجب أن تستمر أو تزيد الرغبة في الحوار، والوصول إلى حلول واقعية لقضايا الخلاف الفكري بين الطرفين.

3 - البدء في احترام الرأي الآخر والبحث عن أرضية مشتركة من الاجتهادات والآراء والأفكار المعتدلة، وكذلك العودة إلى الوسطية في الفكر والسلوك، كما يجب البدء في العودة إلى الحق والاعتراف بالخطأ والتراجع عنه من كلا الطرفين.

ج- بيان فضل التراجع عن الخطأ والعودة إلى الحق لقد جاء في الحديث النبوي الشريف " إن كل بني آدم خطاء وخير الخطاءين التوابون" . والعاقل من يُسلم بالخطأ حال تبينه للصواب وينتقد نفسه، بل ويشكر من أرشده إلى الحق، فالحق أحق أن يتبع، وهذا ما كان عليه الصحابة وسلف علماء الأمة، وإمامهم في هذا رسول الله ﷺ الذي لم يكن يبالي أن ينزل عند رأيه إلى رأي أصحابه دون غضاضة. ومن أساليب التوصل إلى فهم مشترك مع أصحاب الغلو والانحراف الفكري الديني عن المنهج الإسلامي الصحيح، أسلوب تبيان حقيقة ضعف الإنسان والتماس العذر لمن أخطأ وأراد التوبة والإنابة والرجوع إلى الحق. وكذلك الثناء الجميل والاحترام المشترك لهذا الخلق الإسلامي الرفيع. وخطورة تفرغ هذا الخلق من معناه الراقى، وذلك عن طريق التركيز على ما قبل الرجوع، وتسليط الضوء على حال العبد قبل التوبة. وينبغي على أهل النصح والإرشاد والعلم والحكمة الوصول بأهل التعصب والتطرف والغلو والفكر المنحرف إلى إدراك حقيقة الحديث الشريف القائل "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين". وذلك بأن من أخذهم على جهل وغره وخداع للإساءة لدينهم ووطنهم يجب أن لا يحدث ذلك مرة أخرى. ومن النافع في هذا الأمر أيضا تقديم بعض أصحاب الفكر المنحرف الذين أصغوا إلى حديث الحق ولم يصروا على ما عملوا، خاصة أولئك المؤثرين في جماعاتهم وتابعيهم، سيساهمون بإذن الله في تعريف الآخرين بالفكر المنحرف و مخاطره و كيف قد مشوا في نفس الطريق و ما خسروه و كيف اهتدوا إلى الطريق القويم ، و أيضا بكشف ما خفي على المغرر بهم.

د- الحوار الهادف

من طرق معالجة التطرف والغلو والانحرافات الفكرية فسح المجال للرأي الآخر، وقبول الحوار معه بل الدعوة إلى هذا الحوار، واستخدام سلاح الحجة والبرهان والإقناع، سواء كان هذا الآخر مغايرا في السياسة أم في الفكر أم في الدين. وقد ذكر القرآن الكريم أمثلة ونماذج كثيرة للحوارات منها ما بين الله عز وجل وملائكته، ومنها حوارات الأنبياء والرسل مع أقوامهم مثل حوارات نوح وإبراهيم وشعيب. ولكن هذا النقاش يجب أن يكون بطرق تختلف غاية الاختلاف عن طرق أصحاب الدعايات الذين همهم إقناع الخصوم بأية وسيلة مشروعة كانت أم غير مشروعة، وكذلك تختلف عن طرق أهل الحوار والمساجلات الخطابية الذين يرون في الحوار إنه كنوع من أنواع الحروب لا هدف له إلا النصر على العدو وليس التوصل إلى توضيح الأمور في أفكارهم وأفكار الآخرين معا.

إن الحوار مع هذه الأنماط الفكرية قد يكشف الكثير عن الأفكار التي تبدو غامضة، ولهذا يعتبر الحوار مفيداً في إخراج أصحاب الفكر المنحرف من سجن الترييد والتقليد إلى رحابة الفكر العقلي وسماحته، فهو يفتح أمامهم آفاقاً جديدة لم يكن مسموحاً لهم داخل جماعاتهم وبعينهم على استخدام ملكة العقل . وبالطبع فإنه لا حوار مع القتلة المعتدين الذين يؤمنون بالرصاصة القاتلة لا بالكلمة العاقلة، وبسن السكين لا بسن القلم، وبفكرة القوة لا بقوة الفكرة. إنما الحوار مع الذي ألقى سلاحه خلفه ويريد أن يكتشف خطأ الطريق الذي سلكه.

هـ - استثمار التجارب السابقة

يجب الاستفادة في صياغة برامج معالجة الانحراف الفكري من الذين تركوا الفكر المنحرف والمتطرف وتابوا عنه، وإن أمكن إشراكهم في صياغة البرامج حيث أنهم أقدر الناس على التماور مع الواقعين في هذا الفكر.

و- تصحيح المفاهيم الخاطئة

قد تؤدي انفعالات الفرد وحاجاته ومصالحه ورغباته إلى التأثير بمظاهر خاصة للشيء أو الشخص أو الفكر، ويؤدي ذلك إلى أن تكون معرفته عن هذا الشيء وإدراكه مختلفاً عن الواقع وبعيداً عن الحقيقة أو جانبياً للصواب، وكثيراً ما يندفع الإنسان أمام تأثير المشاعر القوية أو الدوافع المستثارة أو المعلومات المضللة، ثم يتحول هذا الانخداع إلى التأثير على مفاهيم الفرد ومدركاته واتجاهاته ومعتقداته نحو الأشياء أو الأشخاص. وعندما تتأثر هذه المفاهيم والاتجاهات سلباً بالمثيرات الخارجية مثل الأفكار والأشخاص فإن تصحيحها أو تعديلها يصبح عسيراً، بل إن خلل أو انحراف هذه المفاهيم يتبعه انحراف في السلوك، ويصبح الأمر أكثر مشقة في الإصلاح. إن معظم الذين يحملون أفكاراً منحرفة عن الدين والمجتمع هم ممن اختلت مفاهيمهم وتشوهت معتقداتهم وفهموا إن استباحة الدماء جائزة وهتك الحرمات وتدمير الممتلكات وترويع الأمنين بالمتفجرات هو جهاد مشروع، كما إن تكفير الحكام والعلماء واجب، والحوار مع الغير ضعف.

وعلم النفس يقدم مساهمة من خلال تطبيق أحد نظريات علم النفس الاجتماعي وهي نظرية التنافر المعرفي، والتي طورها فستنجر (Festinger,1962). وتقرر هذه النظرية أن الفرد يشعر بعدم الارتياح إذا تجمعت لديه معارف متناقضة أو غير متوازنة منطقياً حول موضوع أو حدث معين، وأنه قد يكون مدفوعاً لتخفيف حدة هذا التناقض بين المعارف عن طريق المزيد من المعرفة، أو عن طريق تغيير الاتجاهات القائمة. وتهتم هذه النظرية أساساً بتأثيرات التنافر على اعتقادات واتجاهات وسلوك الناس.

ز - توظيف التكنولوجيا

توظف بعض الجماعات المتطرفة استخدام التكنولوجيا للتأثير في الايدولوجيا ، ولعل الانترنت هي أكثر وسائل التكنولوجيا توظيفا في التأثير على الأفكار والمعتقدات ونشر فتاواها ومنشوراتها عبر الشبكة الإلكترونية العالمية مع قدرة تكنولوجية فائقة على الانتقال من موقع إلى آخر إذا هوجم أي موقع لهم. وفي ظل هذه الحرب الإلكترونية مع التطرف والانحراف الفكري فانه لا بد من إعداد جيل من الدعاة والأئمة والخطباء المتخصصين في التعامل مع الانترنت بسرعة وحرفية فائقة مع التمتع بقدرة على التنفيذ الفكري والرد على الشبهات.

ح - تحديد المصادر وتجفيف منابع

إن الكشف عن مصادر الفكر المنحرف ومحاولة تجفيف منابعه احد الطرق الفعالة في القضاء على الانحراف الفكري خاصة ذلك الانحراف المتعلق بالدين، وعليه يجب إدراك أهمية استقراء شبهات الغلاة والمنحرفين فكريا عن المنهج الديني الصحيح ودعاويهم أو الأمور الملتبسة عليهم، وتتبع مقالاتهم ومؤلفاتهم وسائر مزاعمهم والتعرف على رؤوسهم ومرجعياتهم، ثم الرد عليهم بالحجة والدليل والبرهان الشرعي والعقلي ، والحوار الجاد مع المنظرين والمتبوعين حول قضايا الخلاف و إسقاطها من قبل المختصين مثل: قضايا إمامة المسلمين وحقوقها وواجباتها، البيعة وتحققها للدولة شرعاً، وأنها في عنق كل مواطن ووجوب السمع والطاعة بالمعروف، العلماء ومرجعيتهم ، نظام الحكم وكونه إسلامياً مستمداً من المصادر (القرآن والسنة) والأصول الشرعية المعتبرة الملزمة للجميع.

إذ لا بد من تعريف الشباب بالأفكار المضللة وأخطائها قبل وصولها إليهم منمقة مزخرفة فيتأثرون بها. وتحصين الشباب ضدها والوصول بهم إلى التحصين الذاتي، لأن الفكر المنحرف سريع العدوى.

ط - تحديد مفهوم وصورة العدو

أحد الإشكاليات التي يجب أن توجه إليها جهود المفكرين والعلماء هي تحديد صورة العدو وخصائصه وأشكاله، وهذه الإشكالية وقع فيها كثير من المنحرفين فكرياً حيث تعميم صورة العدو وتضخيمه وسيطرته على عقولهم من خلال التفكير في وسائل تدميره والانتصار عليه. ويتم بالخطوات الآتية :

أولاً : فهم حاجة المنحرفين فكرياً إلى وجود عدو، فقد يكون وجود ذلك العدو كبش فداء لتغطية إخفاقات: اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية يعانون منها . وقد يكون وجود العدو عامل توحيد لذوي الفكر المنحرف.

ثانياً: تعريف صورة العدو في أذهان هؤلاء فيجب أن نصل بعقولهم إلى أن العدو هو من يريد بهم الشر والمكر واستنزاف قوتهم وتدمير مجموعهم وأن الدولة وأجهزتها لا تريد إلا إصلاحهم وتأهيلهم ودمجهم في المجتمع ليكونوا كغيرهم مواطنين صالحين فهم أبناء هذا الوطن وأن هناك من له مصالح وغايات في حدوث الصراع بين الدولة وأبنائها .

ثالثاً: تنبيه أصحاب الفكر المنحرف بأن الذين يدفعونهم ويمولونهم لن يكونوا أصدقاء وموالين دائمين فقد ينقلبون عليهم ويتركونهم في الساحة لوحدهم يواجهون مصيرهم بعد أن جعلوهم أداة لتحقيق مآربهم، ففي عالم المصالح لا صديق ولا عدو دائم أما في عالم حب الوطن فإن الأخوة والصداقة بين الحكام والمحكومين ستظل باقية ما بقي الوفاء والانتماء والعطاء للوطن .

م - إنشاء هيئة فكرية متخصصة (هيئة مكافحة الفكر المنحرف)

إذا كان هناك مركز أو هيئة لمحاربة التدخين أو تلوث البيئة أو الحد من حوادث المرور، فإن من الأهمية بمكان إنشاء هيئة لمكافحة الفكر المنحرف، حيث أن الفكر لا يعالج إلا بالفكر، وتوضع لها إستراتيجية تلزم كل جهة رسمية أو أهلية بتنفيذ برنامجها، وتبحث هذه الهيئة في الأسباب التي ساعدت على انتشار الفكر المتطرف، وأين وصل، ومن يروج له؟ ويكون أعضاؤها من كل التخصصات في المجتمع.

ن - الحزم والقوة

إذا استنفدت كل الوسائل في تعديل الأفكار المنحرفة للأفراد أو الجماعات، فإنه لا بد من تطبيق القانون العادل على العابثين في الأمن والمنتهكين لحقوق المجتمع والدولة، وذلك امتثالاً لقول الله تعالى ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ (النساء الآية 123) والتطبيق العادل والحازم يكون بعد التحري والتنثبت حتى لا يؤخذ البريء بجرم المذنب ولا تهدر حقوق أو أموال أو ممتلكات أو دماء بسبب وشاية ظالمة أو بلاغ كيدي مكنوب. والحزم والقوة يجب أن لا تعني سوء المعاملة للمواطن العادي، واتخاذ الوضع الراهن ذريعة لإزعاج المواطنين، حيث إنه مصدر المعلومات وهو العين الساهرة الأخرى.

مصادر ومراجع الفصل الثاني

- 1-الطاهر أحمد الزاوي ، ترتيب القاموس المحيط، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، دار الفكر ، بيروت، ص 538.
- 2-عدنان الدوري ،أسباب الجريمة وطبيعة السلوك الإجرامي ، ذات السلاسل ، الكويت 1984 ، ص 298.
- 3-محمد حجار ، أثر العوامل الإرثية في انحرافات السلوك عند الأولاد، مجلة الفكر الشرطي ، المجلد الثاني ، يونيو 1993 ، ص 12.
- 4-منى جمعة عيسى البحر ، الأسرة وجنوح الأحداث في مجتمع الإمارات ، جمعية الاجتماعيين - الشارقة - 1991،ص.83
- 5- زياده عبد الباقي ،قواعد البحث الاجتماعي ط1، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، 1972 ، ص240.
6. <http://www.alukah.net/Web/rommany/0/18995/#ixzz1UicorYwe>
- 7-فهد المطلق ، جنوح الأحداث ، دراسة ميدانية اجتماعية للأحداث الجانحين بدار الملاحظة بالقصيم، رسالة ماجستير غير منشورة ، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب الرياض 1409 ، ص 60 .
- 8- منى جمعة عيسى،مرجع سابق،ص.90
- 9-<http://www.assakina.com/center/studies/5304.html#ixzz1V6JpTYyV>
- 10- حنان فارس الفارس ، جرائم الأحداث : أسبابها وعلاجها ، الجزء الثالث من البحوث الفائزة بجائزة العويس للدراسات والابتكار العلمي : الدورة الثامنة ، 1997 دبي ، ندوة الثقافة والعلوم ، 1998 ، ص 307 - 257.
- 11- مظفر محمد، الجريمة ووسائل الإعلام، مجلة الشرطة ، العدد الأول ،حزيران/ يونيو ،العدد 975، 1996، ص 28،
- 12- إجلال حلمي ، انحراف السلوك لدى المراهقين بدولة الإمارات العربية المتحدة ، العين - جامعة الإمارات العربية المتحدة ، مركز البحوث والخدمات التطويرية التربوية والنفسية ، 1992 .
- 13- عبد الهادي الجوهري،معجم علم الاجتماع ،القاهرة ،مكتبة نهضة الشرق ،1982،ص182 .
- 14- شمسة محمد عبد الحميد ، ظاهرة انحراف الأحداث من منظور علم الاجتماع ، ندوة انحراف الأحداث ، أبو ظبي 21 - 20 مايو 1996 أبو ظبي ، منطقة أبو ظبي التعليمية 1996،ص.172

- 15- عبد الرحمن عيسوي، الجريمة، مجلة الأمن والحياة العدد (4) كانون ثاني/يناير 1983، ص16.
- 16- عبد الله بن ناصر السدحان ، رعاية الأحداث المنحرفين في المملكة العربية السعودية، مكتبة العبيكان، الرياض ، 1417 ، ص 40.
- 17- زهرة جاسم مشكلة الأحداث في دولة الإمارات ، ندوة الثقافة والعلوم، دبي 1992 ، ص 148.
- 18- مبادئ الأمم المتحدة التوجيهية لمنع جنوح الأحداث (مبادئ الرياض التوجيهية) ، الرياض آذار / مارس 1988.

الفصل الثالث

انحدار القيم الأخلاقية للمجتمعات
مجتمع المدينة العربية أنموذجاً

يحاول هذا الفصل تحليل التغيرات التي طرأت على القيم الأخلاقية لمجتمع المدينة العربية ، في ما يتعلق بطبيعة العلاقات و القيم الأخلاقية في داخلها . حقيقة ، أن المدينة العربية ساهمت مساهمة فعالة في نشر مبادئ الإسلام ، واستلهاه خلقه و تركيز الحضارة الإسلامية . لذلك أن نظام المدينة العربية الإسلامية أتى لكي يخدم الأهداف السامية التي ظهرت من اجلها الرسالة المحمدية ، وأصبحت المدينة العربية هيكل مقيد بأنظمة ونواميس تستجيب لوضعية المجتمع وتتأثر بنظمه الدينية والأسرية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية. وطالما احترمت التعاليم الدينية و صينت التقاليد الحضارية الإسلامية ، حافظ نظام المدينة على نسقه التقليدي ولم يتخلى عنه إلا عندما اختلت القيم وارتدت الحضارة وعمت الفوضى تحت تأثير عوامل ديموغرافية واقتصادية وسياسية نحن لانزال تحت تأثير وطأتها الشديدة وهي ظاهرة لاسابق لها في تاريخ المدينة العربية على ما نعلم .

ولعل من نتائجها أن سادت الفوضى والإرباك ونقشي الجهالة وطمس القيم الأخلاقية واللامساواة والظلم وانتهاك لحقوق الإنسان وحرته ، وانتشار ظاهرة الفقر والحرمان وظهور الهامشية الحضرية وغيرها من العادات والقيم الغربية على النسق القيمي العربي الأصيل . استدعت المنهجية المتبعة الإحاطة بجوانب الموضوع من حيث ، التعريف بالقيم الأخلاقية ، وبعد الأصالة الإسلامية في مضمونها ، والمشكلات الأخلاقية التي رافقت ظاهرة التحضر العربي وشواذه وصولا إلى سبل الحفاظ على قيمنا الأخلاقية الأصيلة .

أولا - بعض مفاهيم الأخلاق والقيم الأخلاقية

تندرج الأخلاق والقيم ضمن المكونات الحياتية لأي مجتمع ، وتتداخل هذه المكونات إلى درجة لا يمكن الفصل بينها دون إلحاق ضرر بكل منها ، وتشكل بالتالي مجمل أساليب حياته التي تشمل المكونات الثلاثة الآتية :-

1- القيم والرموز والأخلاق والسجايا والمعتقدات والمفاهيم والأمثال والمعايير والتقاليد والأعراف والعادات والمهارات التي يستعملها الإنسان في تعامله مع بيئته ، أو بعبارة أخرى تمثل آداب الناس في أحولهم في المعاش وأمور الدنيا ومعاملاتهم وتصرفاتهم في الحياة اليومية .

2- الإبداعات التعبيرية الفنية من آداب وموسيقى ورسم ورقص .

3- الفكر من علوم وفلسفة ومذاهب وعقائد ونظريات .

وتعرف القيم بأنها معتقدات حول الأمور والغايات وأشكال السلوك المفضلة لدى الناس ، توجه مشاعرهم وتفكيرهم ومواقفهم وتصرفهم واختياراتهم ، وتنظم علاقاتهم بالواقع والمؤسسات والآخرين وأنفسهم والمكان والزمان ، وتسوغ مواقفهم ، وتحدد هويتهم ومعنى وجودهم و بكلام بسيط ومختصر ، تتصل القيم بنوعية السلوك المفضل وبمعنى الوجود وغاياته .

وتتميز العلوم الاجتماعية عادة بين نوعيين من القيم - القيم الوسيطة والقيم الغاية ، النوع الأول هو معتقدات تفاضل بين سلوك وآخر ، أما القيم الغاية فهي ذات الصلة بالقيم الأخلاقية المثلث التي نسعى إليها ونحقق بها معنى وجودنا (العدالة ، الحرية ، السلم ، السعادة ، الإخلاص ، تحرير الوطن ، الكرامة ، الصداقة ، الثروة ، الرفاهية ، الحكمة ، الإخوة والمساواة ، احترام الآخرين) (1) .

ويدخل ضمن إطار القيم الأخلاقية ، تكريم الإنسان ، واصطناع الشورى كأسلوب حكم ، والعدل بين الناس ، ورفض الظلم وشرعية الثورة ضده ، والحرية المسؤولة ، و المساواة بين البشر ، والسماحة الفكرية والاجتماعية وتقديس العمل والمسؤولية عنه واحترام الأسرة ، والتكافل الاجتماعي ، ومنع الجشع الاستثمائي ، والمسؤولية الاجتماعية عن المصالح العامة ، ومنع الاحتكار ، ومسؤولية الدولة عن أعمال النفع العام .

تتصف الأخلاق بثلاث خصائص هي إن الأخلاق موطنها النفس وليس الجسم ، وإن الأخلاق هي حالة اجتماعية لأنها تنظم العلاقات الاجتماعية ، كما إن الأخلاق تتطور وتنتقل من حالة دنيا إلى حالة عليا سواء بحثت من قبل الفرد أو المجتمع . وإذا كان العلم يرجع إلى الفهم أي التجربة و العقل معا ومجاله المعرفة ، فإن الأخلاق ترجع إلى الإرادة ومجالها السلوك ، وإن ما يميز السلوك الأخلاقي هو انه يصدر عن " الإرادة الصالحة" التي تعود في النهاية إلى فكرة الواجب (2) .

وعالج الباحث العربي محمد عابد الجابري قضية الأخلاق والقيم وعلاقتها بالفكر ، وأثار قضية التعارض بين القيم الأخلاقية والدينية مثل تحريم الإجهاض وبين القيم الدنيوية (شروط التنمية) وقال إن هذا التعارض من الممكن أن يعلل تحت إطار الاجتهاد والتأويل وبمبررات مختلفة .

واستند إلى الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه (3) في تحليل قضية الحداثة والأخلاق والعلم . لأنه دعا إلى بناء الأخلاق على أساس علمي ، وعمل على تطبيق المنهج العلمي في تحليل القيم الأخلاقية واعتبر كلا من الأخلاق والقيم الأخلاقية ظواهر بشرية من صنع البشر أنفسهم تجدر الإشارة إلى إن نيتشه حلل تاريخ الأخلاق على انه صراع بين نوعين من الفئات : (أخلاق السادة) (وأخلاق العبيد) وإن جميع المراحل التاريخية منذ ظهور المسيحية كانت في الأساس مسرحا لأخلاق العبيد المبنية على خصال الزهد الديني أو المسيحي وهي تتردد بين الخير والشر والعجز والضعف ، فيما اتسمت أخلاق السادة بمقدرتها على التمييز بين الجيد والرديء وتقوم على البطولة والمقدرة والشهامة ، وهي الصفات التي تتصف بها الطبقة الارستقراطية .

واحتل موضوع الأخلاق حيزا واسعا في فكر فلاسفة الغرب (4) ، فسقراط الذي عرف الأخلاق بأنها المثل العليا في المجتمع وربط وجودها بوجود الخير كقيمة موضوعية يمكن معرفتها ،

واخذ أفلاطون في جمهوريته الفكرة نفسها في أن الخير يتعلق بالصالح العام لمجموع المجتمع المقسم إلى فئات الجنود والصناع والفلاسفة ، والصالح العام يكمن في تقسيم العمل والتناسق بين المهمات وتحقيق الانسجام ، بينما ربط أرسطو الأخلاق التي يهدف اجتماع المواطنين في ظل الدولة إلى تحقيقها ، فالغرض الأساسي من العيش المشترك للمواطنين في الدولة هو الأهداف الأخلاقية ، فهو العامل المشترك الذي يجمع بينهم ، وهو بالتالي المبرر للعيش في الدولة ، فالدولة إذن ذات هدف أخلاقي .

أما الفكر الديني الذي يمثله توما الاكويني ⁽⁵⁾ الذي أضفى مسحة مسيحية على جوهر أفكار أرسطو ، فالحكم أمانة من اجل كل مجتمع والحاكم له كامل السلطة لأنه يستمدّها من الصالح العام ، ولأن سلطته مستمدة من الله من اجل سعادة البشر ، فهي خدمة مدين بها لكل المجتمع الذي يتزأسه ، لذلك كانت الغاية الأخلاقية للحكومة مبدأ جوهرية في تفكيره . والمعروف إن أفكار توما الاكويني كانت الأساس الذي قام عليه حكم الكنيسة وعموم التفكير السياسي الديني لقرون عدة في أوروبا .

وخلاصة موقف الفكر الغربي إزاء الأخلاق تبلور في اتجاهين : الأول يربط الدولة بالمثل العليا من حيث نشؤها وغايتها وواجباتها إزاء من يعيش في ظلها ، وبالتالي يربط السياسة بنظام أخلاقي مستمد من تلك المثل العليا . وقد تسلسل هذا الاتجاه من الفكر اليوناني إلى الفكر الديني المسيحي وصولاً إلى العقد الاجتماعي والحقوق الطبيعية كأساس للديمقراطية النيابية ، مقابل ذلك ، التزم الاتجاه الثاني تيار (مكيا فلي) الذي جعل من السياسة صناعة تدور حول موضوع إيقانها كفن الوصول إلى الحكم والبقاء فيه ، حيث تحول التأكيد من موضوع أصل الدولة إلى موضوع عملها اليومي ، أي ما يقوم به حاكمها من الدرجة الأولى

أما التراث الفكري العربي فهو تراث متصل ومتطور في آن واحد شأنه شأن كل فكر آخر ، ولعل أهم صفة يمكننا استخلاصها منه هي الاهتمام الذي يوليه للعوامل الروحية وما يتصل بها ، وقوة الاتصال هذه جاءت من حيث كونه مهد الرسالات والأديان السماوية .

وفي الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام كانت السلطة متمثلة بالقبيلة ، فرئيس القبيلة هو صاحب السلطة ، ويلاحظ إن رئيس القبيلة في الجاهلية لم يكن يستمد سلطته من قوة مادية في الإكبار ، بل من الصفات الحميدة الشخصية التي يتمتع بها ويعترف بها طوعاً أفراد القبيلة فرئيس القبيلة يتمتع بالشجاعة في الحرب دفاعاً عن قبيلته ، وبالعدل في تصريف شؤونها ، والكرم وباقي الصفات الحميدة التي كرمها مجتمع الجاهلية ، وتجتمع تلك الصفات الحميدة في موضوع خدمة الصالح العام لأفراد القبيلة ، وهي بالتالي مرتبطة بنظام أخلاقي ⁽⁶⁾ .

إن اهتمام مجتمع الجاهلية بالأخلاق الحميدة أمر لا خلاف فيه وملفت للنظر ، ودليل قوي على أهمية العامل الخُلقي في ممارسة السلطة وفي التعامل المجتمعي العام ، فالصفات الحميدة كانت تعلق على كل شيء آخر بما فيها الحياة نفسها .

ثم أتى الإسلام لينتم مكارم الأخلاق ، فوضع التفكير بصورة تامة في اتجاه المُثل العليا ، فالخالق المهيم على كل شيء هو مصدر كل المُثل العليا ، لقد مارس الرسول الكريم (صلى الله عليه واله وسلم) السلطة الدنيوية كضرورة مشتقة من السلطة الدينية الروحية وتابعة لها ، فكان نبياً ومصلحاً أولاً ثم حاكماً دنيوياً، ثم تطورت مؤسسة الخلافة إلا إنها بقيت قائمة على أساس المبادئ الروحية والمثل العليا المستمدة من القرآن والشريعة .

ولكن ما إن بدا التراجع في النهضة العربية الإسلامية حتى بدأت عملية تحول تدريجي في المجتمع العربي من المثل العليا إلى الغرائز ، أي من الصالح العام إلى الصالح الخاص ، وبذلك كانت بداية التحلل الخُلقي للمجتمع العربي .

ثانياً- ما هو الانحراف الأخلاقي؟

الانحراف هو الخروج عن الخطّ والميلان عنه ، فإذا خرج السائق عن خطّ السير نقول إنّه انحرف عن الطريق، وإذا سار النهرُ باتجاه آخر غير مجراه الرئيس ، نقول إنّ النهر انحرف عن مجراه وإذا خرجت المركبة الفضائية عن مدارها ، قلنا إنّ المركبة انحرفت عن المدار وإذا خرج المسلم عن ضوابط الدين وقواعد الشريعة ، نقول عنه كما نقول عن السائق أو النهر أو المركبة ، إنّه خرج عن خطّ السير أو منهاج الشريعة.

ربما يستوقفنا تساؤل هنا هل خطّ السير قيد ؟ ربّما كان في الظاهر كذلك. لكننا يمكن أن نسمّيه بالقيّد الايجابي الذي فيه مصلحة للإنسان المسلم ، أي الذي يحفظ له سلامته البدنية والعقلية والنفسية ، ويحميه من عدوانه على نفسه ، أو عدوان الغير عليه.

الانحراف إذن خروج عن الحدّ .. فهو (شطط) و (شذوذ) و (تطرّف) والقرآن يعبر عنه تارة بـ (الفسق) وهو خروج كل ذي قشر عن قشره ، فيقال فسقت النواة أي خرجت عن التمرة ، والمراد به اصطلاحاً العصيان وتجاوز حدود الشرع ، فحينما يقال فسق عن أمر ربّه أي خرج عن طاعته فـ (الفسق) انحراف .

ويعبر عنه تارة أخرى بـ (الزيغ) وهو الميل عن المقصد ، أو الميل عن الطريق ، أي الاعوجاج بعد الاستقامة فـ (الزيغ) انحراف. وكما للسير أو المرور في الطريق قواعده وقوانينه التي تحمي السائق والمارة من المخاطر ، فكذلك لكلّ مخلوق وكائن حيّ قواعد وقوانين تنظّم له حياته.

إذن ما أسبابه؟ وكيف نشأ في مجتمع يحكمه كتاب الله وسنة رسوله؟

1- الأزمات العارضة

إن الإنسان ينزع دوما نحو الاستقرار وأسبابه من حضارة وسلم وما تعده الأمم من عدة وعدد إنما هو لردع كل من يحاول أن يعرض استقرارها للخطر، ومن هنا قد يتولد الانحراف عن الحروب والهجرات الجماعية والمحتشدات وما تحدثه من اهتزاز في القيم وعدم التلاؤم بين الفرد وبيئته الجديدة ولهذا كان حرص النبي ﷺ أن يكون فتح مكة سلمياً وأن يبرم هدنة الحديبية توفيراً للأمن والاستقرار واقتصاداً في الأرواح والأموال.

2- الظلم الاجتماعي

إن الأصل في المجتمعات البشرية أن يسودها العدل الذي يأخذ من كل فرد طاقته ويعطي كل فرد حقه وما يستحقه حتى لا يحول الوضع الاجتماعي للفرد دون تفتح شخصيته، ولكن عندما يغيب سلطان العدل والأخلاق عند ذلك تختل الموازين فينقسم المجتمع إلى طبقات بعضها محروم من كل شيء والبعض الآخر يتمتع بكل شيء. وما نلاحظ من اختلال في التوازن بين الطبقات والشعوب ليس وليد حتمية طبيعية أو بخل في الطبيعة، فالله قد خلق من الخيرات ما يسد حاجات البشر ولكن أتى يتحقق العدل وقد سلم المسلمون زمام أمر الإنسانية للمستكبرين الظالمين كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: الآية 34).

3- الفراغ المهني والدراسي

الفراغ داء قتال للفكر والعقل والطاقات الجسمية، إذ النفس لا بد لها من حركة وعمل، فإذا كانت فارغة من ذلك تبدد الفكر وتخن العقل وضعفت حركة النفس واستولت الوسواس والأفكار الرديئة على القلب، وربما حدث له إرادات سيئة شريرة يُنفَس بها عن الكبت الذي أصابه من الفراغ. وعلاج هذه المشكلة: أن يسعى الشاب في تحصيل عمل يناسبه من قراءة أو تجارة أو كتابة أو غيرها مما يحول بينه وبين هذا الفراغ ويستوجب أن يكون عضواً سليماً عاملاً في مجتمعه لنفسه ولغيره.

4- ضعف الوازع الديني

إن استقامة الفرد متوقفة على فعالية التربية وإيجابية المؤسسات التي تؤثر في الفرد وتبني تصوره ونظرته إلى الوجود والحياة، ويفترض على المؤسسات هنا أن تُثَمِّي في الفرد الشعور بالحرية مع وضع الضوابط له وتكوين وازع لديه ليعصمه من الانحراف. والوازع بشيء من الاستقراء تبين أنه تساهم في تكوينه العوامل الآتية:

أ. الوازع الديني الإيماني الذي ينشأ من الإيمان بالله واليوم الآخر الذي تجمع فيه الخلائق للجزاء العادل ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: الآيتين 7-8).

ب . الوازع القضائي القانون: يتكون هذا الوازع بوعي الأحكام التي تحصي الجرائم والجرح وما يترتب عليها من الآثار العقابية البدنية أو المالية والنفسية حين يتعرض المنحرف للعقاب القانوني يفقد حرته وأهليته.

ج . الوازع الطبيعي القدري: ويتولد من انتشار الوعي الصحي الذي يثبت العلاقة التلازمية بين الآفات وآثارها الوخيمة على الصحة ويذكر على سبيل المثال تولد التشمع في الكبد عن الخمر والسرطان في الحنجرة عن التدخين والسيدا عن الزنا والشذوذ الجنسي والديدان عن تعاطي لحم الخنزير وموت الإرادة والاضطرابات العصبية عن تعاطي المخدرات.

ما نتائج ظاهرة الانحراف الأخلاقي؟

- 1- وجود التهاون بالشعائر الدينية وأولها الصلاة، والتميع وعدم الجدية.
- 2- إهدار الأوقات وعدم تقدير قيمة الزمن.
- 3- الإسراف والتبذير والكبر والغرور.
- 4- ارتكاب الفواحش كالزنا واللواط، وعقوق الوالدين، وحب الراحة وعدم الصبر على العمل الجاد المثمر.

الانحراف الحقيقي هو ،التجرد من الدين أو الأخلاق وعقوق الوالدين أو إدمان الخمر أو المخدرات ، هذه المشاكل الكبيرة هي الانحراف بعينه وهي المشاكل التي لا بد من علاجها والتدخل السريع فيها، وهي مخالفة للمبادئ والعادات السائدة في المجتمع، وهذا الانحراف قد يبدأ من عدم الحشمة في اللباس وصولاً إلى المخدرات والسرقة والعنف ،ولا بد من التأكيد على أهمية دور الأسرة في صقل شخصية الفرد إلى جانب دور المجتمع تجاه الفرد، كما نرى أن مشكلة البطالة الموجودة في المجتمع لها أن تزيد من نسبة المنحرفين.

ثالثاً- السلوك الإنساني

يعرف السلوك الإنساني بأنه كل الأفعال والنشاطات التي تصدر عن الفرد سواءً كانت ظاهرة أم غير ظاهرة. ويعرفه آخريين بأنه أي نشاط يصدر عن الإنسان سواءً كان أفعالاً يمكن ملاحظتها وقياسها كالنشاطات الفسيولوجية والحركية أو نشاطات تتم على نحو غير ملحوظ كال تفكير والتذكر والوساوس وغيرها.

والسلوك ليس شيئاً ثابتاً ولكنه يتغير وهو لا يحدث في الفراغ وإنما في بيئة ما، وقد يحدث بصورة لا إرادية وعلى نحو آلي مثل التنفس أو السعال أو يحدث بصورة إرادية وعندها يكون بشكل مقصود وواعي وهذا السلوك يمكن تعلمه كما انه يتأثر بعوامل البيئة والمحيط الذي يعيش فيه الفرد.

والسلوك نوعان هما:-

أ. السلوك الاستجابي

وهو السلوك الذي تتحكم به المثيرات التي تسبقه، فبمجرد حدوث المثير يحدث السلوك، فالحليب في فم الطفل يؤدي إلى إفراز اللعاب، ونزول دموع العين عند تقطيع شرائح البصل وهكذا وتسمى المثيرات التي تسبق السلوك بالمثيرات القبلية.

إن السلوك الاستجابي لا يتأثر بالمثيرات التي تتبعه وهو أقرب ما يكون من السلوك اللاإرادي، فإذا وضع الإنسان يده في ماء ساخن فإنه يسحبها أوتوماتيكيا، فهذا السلوك ثابت لا يتغير وان الذي يتغير هو المثيرات التي تضبط هذا السلوك.

ب. السلوك الإجرائي

هو السلوك الذي يتحدد بفعل العوامل البيئية مثل العوامل الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والدينية والجغرافية. كما أن السلوك الإجرائي محكوم بنتائجه فالمثيرات البعدية قد تضعف السلوك الإجرائي وقد تقويه وقد لا يكون لها أي تأثير يذكر.

ونستطيع القول أن السلوك الإجرائي أقرب ما يكون من السلوك الإرادي.

خصائص السلوك:

1- القابلية للتنبؤ

إن السلوك الإنساني ليس ظاهرة عفوية ولا يحدث نتيجة للصدفة وإنما يخضع لنظام معين، وإذا استطاع العلم تحديد عناصر ومكونات هذا النظام فإنه يصبح بالإمكان التنبؤ به، ويعتقد معدلي السلوك أن البيئة المتمثلة في الظروف المادية والاجتماعية الماضية والحالية للشخص هي التي تقرر سلوكه، ولذلك نستطيع التنبؤ بسلوك الشخص بناءً على معرفتنا بظروفه البيئية السابقة والحالية، وكلما ازدادت معرفتنا بتلك الظروف وكانت تلك المعرفة بشكل موضوعي أصبحت قدرتنا على التنبؤ بالسلوك أكبر، ولكن هذا لا يعني أننا قادرون على التنبؤ بالسلوك بشكل كامل، فنحن لا نستطيع معرفة كل ما يحيط بالشخص من ظروف بيئية سواء في الماضي أو الحاضر.

2- القابلية للضبط

إن الضبط في ميدان تعديل السلوك عادة ما يشمل تنظيم أو إعادة تنظيم الأحداث البيئية التي تسبق السلوك أو تحدث بعده، كما أن الضبط الذاتي في مجال تعديل السلوك يعني ضبط الشخص لذاته باستخدام المبادئ والقوانين التي يستخدمها لضبط الأشخاص الآخرين والضبط الذي نريده من تعديل السلوك هو الضبط الايجابي وليس الضبط السلبي، لذلك أهم أسلوب يلتزم

به العاملون في ميدان تعديل السلوك هو الإكثار من أسلوب التعزيز والإقلال من أسلوب العقاب.

3- القابلية للقياس

بما أن السلوك الإنساني معقد لان جزء منه ظاهر وقابل للملاحظة والقياس والجزء الآخر غير ظاهر ولا يمكن قياسه بشكل مباشر لذلك فان العلماء لم يتفقوا على نظرية واحدة لتفسير السلوك الإنساني، وعلى الرغم من ذلك فان العلم لا يكون متكاملًا دون تحليل وقياس الظواهر المراد دراستها، وعليه فقد طور علماء النفس أساليب مباشرة لقياس السلوك كالملاحظة وقوائم التقدير والشطب وأساليب غير مباشرة كاختبارات الذكاء واختبارات الشخصية، وإذا تعذر قياس السلوك بشكل مباشر فمن الممكن قياسه بالاستدلال عليه من مظاهره المختلفة.

الأبعاد الرئيسة للسلوك

- 1- البعد البشري: إن السلوك الإنساني سلوك بشري صادر عن قوة عاقلة ناشطة وفاعلة في معظم الأحيان وهو صادر عن جهاز عصبي.
- 2- البعد المكاني: إن السلوك البشري يحدث في مكان معين، فقد يحدث في غرفة الصف مثلاً.
- 3- البعد الزمني: إن السلوك البشري يحدث في وقت معين قد يكون صباحاً أو يستغرق وقتاً طويلاً أو ثواني معدودة.
- 4- البعد الاجتماعي: إن السلوك يتأثر بالقيم الاجتماعية والعادات والتقاليد المعمول بها في المجتمع وهو الذي يحكم على السلوك على أنه مناسب أو غير مناسب، شاذ أو غير شاذ، فالسلوكيات قد تكون مقبولة في مجتمع ومرفوضة في مجتمع آخر.

رابعاً - الأصالة الإسلامية في القيم الأخلاقية لمجتمع المدينة العربية

آمن سكان المدن العربية بالدين الإسلامي الحنيف على أساس انه عقيدة وعبادة وخلق ومادة ثقافية وقانون للحياة وسماحة وقوة ، واعتنقه نظاما كاملا يفرض نفسه على كل مظاهر الحياة ، وينظم أمر الدنيا كما ينظم أمر الآخرة (7) . وبهذا الفهم توغلت تعاليم الدين الحنيف في مختلف مفاصل الحياة وضمن إستراتيجية محكمة تدعو إلى وحدة الأمة الإسلامية كافة وكسياج منيع لأي اختراق أجنبي من شأنه تهشيم قيم المسلم وتحريف مبادئه .

وفي الوقت ذاته ، فان الإسلام دين لا يحبز العزلة والرهينة ، والانغلاق على النفس ، لان هذا السلوك لا يساعد على الاستقرار البشري ، ولكنه يحذر من الانغماس في التمدن ، أي انه يحذر من جعل التمدن غاية في ذاته ، إذ إن هذا الانغماس يؤدي بالإنسان لان ينتقل من مرحلة

المباح إلى مرحلة الشبهات ثم إلى المحرمات ، وبالتالي تدمير الحواضر ، وان هذا التأصيل الديني للتحضر يساعد على بناء رؤية منهجية واضحة متحررة من الهيمنة التي تدعو إليها المدارس الأجنبية للتحضر والمتمثلة بكل المظاهر الخارجة عن المؤلف في سلوكية وقيم المجتمع الحضري العربي وأخلاقه الفاضلة ودينه السمح . ذلك إن المدينة العربية الإسلامية تضع حدود الإسلام وشرعه كمثل أعلى لها ، كما تقيس سلوك الأفراد ، وصحة المعاملات ، والعلاقات البشرية .

والقيم الأخلاقية التي جاء بها الإسلام وان لم يحسن الناس تطبيقها ، أو حادوا عنها في عديد من المدن الإسلامية ، وفي العصور المختلفة ، إلا إن هذا لا يلغيها ولكنها على الدوام كانت تُقيم الحجة على من يخالفها (8) . فان للأصالة جذور في المجتمع العربي وقوى تدافع عنها وهي تقاوم الذوبان في الآخرين منطلقاً من خصوصية الواقع العربي الإستراتيجية والقومية والدينية والجغرافية ، ونحن إذ نتكلم عن هذه الخصوصية ، فهو حديث مباشر عن الهوية العربية ، وان جوهر هذه الهوية يكمن في الأخلاق والثقافة الإسلاميتين .

والحضارة الإسلامية لم ترفض مطلقاً وفي أي مرحلة التعامل مع العالم والتفاعل معه فبعد الفتوحات الإسلامية التي أدخلت أهم الحضارات القديمة (الفارسية ، والهندية واليونانية) في إطار الدولة الإسلامية ، حدث أعظم وأوسع ألوان الانفتاح الحضاري من العرب المسلمين على تلك الحضارات القديمة ، لكنهم ميزوا بين المشترك الإنساني العام فاستلهموه ووظفوه محكوماً بأخلاقيات الإسلام ، وبين الخصوصيات الحضارية فرفضوها ، بل شنوا عليها عندما تعرضوا لغزوها حرباً ضروساً (9) .

وبهذا المنحى تتعزز أواصر الاتصال والانفتاح بين ثقافية المجتمع العربي المسلم مع حضارات الآخرين دون الإخلال بموازين الأصالة وجوهرها . تلك هي الثوابت التي يبقى المجتمع بموجبها متماسكاً موحداً مستمراً ومستقلاً . إلا أن الطموح والرغبة في استمرارها يواجه اليوم مقاومة من القوى المذبذبة على الهيمنة الطامعة في الأرض والثروة والمخلخلة للفكر والمهددة للعقيدة والوجود . فهذه القوى تعمل بالضد بشتى الوسائل السياسية والثقافية والاقتصادية والعسكرية .

ولغرض مقاومة هذا التيار ، ولكي يحافظ المجتمع الحضري العربي الحديث على أصالته وقيمه الخلقية ، يتطلب الحذر الشديد من الانغماس والاندفاع في التعامل مع صيغ التحضر الغربي الدخيل والانجرار وراء ما تمليه قيمه وأخلاقه ومحاولة وضع مفهوم التقدم والتطور الحضري كإطار معياري للتحويل الاجتماعي والوعي الثقافي بمقتضيات اللحظة الراهنة في مقابل ماضٍ يستوجب الانفصال عنه ، وفي اتجاه مستقبل يجب تحقيقه . وبهذا التطور الذي

يكشف للتاريخ البشري عن مسار العقل الإنساني الذي يتبع خطأ يضمن له التحول نحو الحداثة والتطور والمعرفة ومحافظا في الوقت ذاته بأصالة القيم الأخلاقية وجوهرها .

خامسا : التحضر العربي ومشكلاته الأخلاقية

شهدت المدن العربية خلال العقود الأخير من تاريخها المعاصر تغيرات كثيرة ، تمثلت بالتضخم السكاني الناجم عن الزيادة الطبيعية والهجرة من الريف أو البادية ، وفي الازدهار العمراني في مجالات المساكن والشوارع والمرافق العامة ، وما يتصل بالجوانب المادية من الحياة . تولد عنها سلسلة من التغيرات في الجوانب الأخرى في المجتمع ، خاصة في البناء الاجتماعي ؛ أي في الأنظمة والقوانين والمؤسسات التي تتحكم في العلاقات التي تنشأ بين الفرد والمجتمع وبين الأفراد أو الأسرة الواحدة ، وبين الجماعات في ما بينها على تعدد أنواعها . إن هذه التغيرات شقت طريقاً مغايراً لمنهج الإسلام وأخلاقه ، وبعيداً نوعاً ما عن الخصائص الرئيسية التي اتسمت بها المدينة العربية الإسلامية من خلال :

1- تأثر المدينة العربية الإسلامية المعاصرة بالتطورات العالمية ، وتبنيها التنظيم الطبقي حسب المفهوم الغربي ، الذي تبلور ونشأ في العديد من مدننا العربية ، وتجدر الإشارة إلى إن النظام الطبقي عامل رئيسي من عوامل التماسك الاجتماعي بين وحدات المجتمع المتعددة بسبب احتياج كل منها إلى الأخرى في بناء الجماعة وقد جاء في القرآن الكريم ما يؤكد أهمية هذا النظام للبناء الاجتماعي في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ (الحجرات : الآية 13) . إلا أن التنظيم الطبقي الحالي يخلو من أهمية التعارف بين الطبقات الاجتماعية ، وهو بهذا يجنح إلى الابتعاد عن أمر الله سبحانه وتعالى .

2- إدخال التكنولوجيا الصناعية في الحياة الاقتصادية ، وما نجم عن ذلك من تغيرات إدارية ونظامية وتقنية مرتبطة بالتصنيع والمجتمع الصناعي ، الذي يتنافى بسلوكه بمبادئ المجتمع الإسلامي بسبب عدم إمكانية تذييلها مع نسق الحياة الحضرية من جهة ، وصعوبة تطبع المجتمع العربي معها لجهله بألية حراكها وتشعباتها وانعكاساتها من جهة ثانية .

3- ارتباط عملية التحضر والنمو الحضري بالتطورات السياسية وحركات الاتحاد والانفصال والتقارب والتباعد في مجالات النشاط الاقتصادي والسياسي والترابي والأسري والديني الذي أملتته التوترات والاضطرابات المحلية والحروب (10) ، بدلا من اتخاذ طابع عربي إسلامي يمتاز بخصائص ومقومات تقوم بدورها في حركة التغير والتحويل على الصعيد العربي .

4- عدم التوازن في نمو المدن بإحجامها المتعددة ، وتوزيعها الجغرافي ، سواء بين الدول العربية ، وعلى نطاق الدولة الواحدة ، نجم عنه عمران هامشي ، بل تحولت المدن التاريخية أحيانا إلى مدن هامشية وفوضوية ، أو تهديمها لإفساح المجال أمام المدينة العصرية ، كما هو شأن العديد من مدن الجزائر ، أو إنشاء مدن عصرية إلى جانب المدن القديمة كما في المغرب وتونس ، إلا أن ظهور المدن العصرية إلى جانب المدن القديمة كثيرا ما تسبب في تدهور أوضاع هذه الأخيرة وتقهقر هياكلها الاقتصادية لفائدة العمران الجديد .

5- أدى التداخل الاجتماعي للجاليات الأجنبية في الدول العربية إلى ظهور حقائق اجتماعية ثقافية غريبة عن النسيج المترابط في العلاقات والتعايش والتسامح الذي ساد طوال عصور الازدهار الحضاري العربي الإسلامي . الأوضاع التي فرضها الاستعمار كرست التفرقة العنصرية والعرقية والتقهقر الفكري والعقائدي الذي لحق بالمجتمعات العربية ، وهذا أدى إلى تراجع المكانة الحضارية للمدن وتضائل دورها الحضاري .

6- إشكالية التحضر العربي حول مفهوم الحداثة والتحديث ، التي ترتبط بفكرة الاختراق الثقافي الغربي للعقل العربي المسلم ، بسبب استناد عملية التحديث في الوطن العربي إلى معايير منبثقة أصلا من التجربة الحضارية الغربية ، بيد أننا نعتقد أن الصفة الغربية لعملية التحديث صفة طارئة وليست جوهرية ، وهي بذلك لا تعكس تطورا أصيلا نابعا من الذات العربية ، بل تمثل استلابا لقيمنا من خلال تكريس التبعية الثقافية والحضارية الراهنة ، وتصبح عملية التحديث أصيلة عندما تركز على القيم الحضارية للأمة العربية والإسلامية، وتعمل على تطوير الثقافة الذاتية للعرب والمسلمين واستنهاضها .

والمطلوب إذا استيعاب المبادئ واستلها المقاصد ، ثم الاجتهاد لصياغة نموذج حضري يتوافق ومبادئ الحق ويستجيب لمشكلات الأمة الراهنة .

إذ أن اعتماد الحداثة بوصفها أساساً وحيداً لتوجيه حركة الأمة وتحضرها يؤدي إلى اقتلاع الفرد والمجتمع من أسسهما الثقافية والحضارية وأبعادهما عن جذورهما الإيمانية والأخلاقية ومن ثم إلقاءهما في خضم التبعية الاقتصادية والثقافية ، فلا يوجد في مفهوم الإسلام شئ من سلب الحرية الفردية ولا اثر للسيطرة الديكتاتورية والزعامة المطلقة (11) .

إن النظرة الصحيحة للمدينة هي النظرة التي تتكامل فيها صورة سلوك الناس وتصرفاتهم وأفعالهم وعلاقاتهم الاجتماعية بعضهم ببعض بعيدا عن النظرة (الستاتيكية) الجامدة لها .

حقيقة ، وفي ضوء التغيرات العصرية في نمط الحياة الحضرية والمشاكل المرافقة لها ، من حيث تأثرها بالحضارة الغربية وتقليد سكانها العشوائيين لنمط وإساليب الحياة لهذه الحضارة بخسيسها دون نفيسها ، وزائفها دون أصيلها ، فإن مدننا اليوم بحاجة إلى مراجعة دقيقة وإصلاحات جذرية بعيدا عن العلاجات التزيينية ، لأن ما تواجهه المدن اليوم قد لا يكون شبيها

بما واجهته على مدى عمرها الطويل ، فهي بحاجة إلى تخطيط اقتصادي وسياسة اجتماعية ومفاهيم إدارية وتخطيط سكاني سليم يتجاوز أخطاء الماضي وكل ذلك مرهون بكفاءات علمية وخبرات تقنية عالية وعلى قدر كبير لمواجهة مشاكلها . أن المجتمع العربي أوقع نفسه في شرك نصبه له الآخرون بوعي ، ونصبه لنفسه بغير وعي ووقع بسبب ذلك أسيراً للتناقضات لا يظهر لها حل من خلال :

التناقض بين الدين والعلم ، والتناقض بين العروبة والإسلام ، التناقض بين الأصالة والمعاصرة ، بل وصل التناقض إلى أن الأمة أصبحت مولعة بالبحث عما يفرقها أكثر من بحثها عما يجمعها ، هذه التناقضات قادت المجتمع إلى الابتعاد عن حقيقة الله في خلقه وإلغاء خصوصية الشخصية العربية ، وإغفال الأصالة في التراث والحضارة ، وسلب ارادة الأمة في تجاوز أخطاءها وصنع مستقبلها ، ومن ثم تعطيلها من التوصل إلى شق طريقها العربي المستقل أسوة بأمم الأرض الأخرى (12) .

وعلى أساس هذه المعطيات ، تأتي الدعوة إلى العقلانية والواقعية وتبني حقيقة إن لا نهضة عصرية لامتنا ما لم نقيم مبادئ الإسلام وتطبيق لدستوره ، والتخلي بأخلاقه ، تلك هي الأسلحة التي تمسك بها الرعيل الأول من المسلمين وأقاموا حضارة عجزت جميع الأمم أن تأتي بمثلها .

سادسا- شواذ التحضر العربي وتغير القيم الأخلاقية

مادام الإسلام دينا ودنيا وقيم أخلاقية عليا ، كان لا بد من أن تصطبغ به حياة الناس لتأخذ الجو الإسلامي في كل نواحيها ، ويدخل في أعماقها ، ولكن الذي حدث فقدان الخصوصية الحضرية العربية الإسلامية بعض روحانيتها الفذة التي كانت تملكها ، واتجهت اتجاها ماديا يتنافى والخلق الكريم الذي أسسه الإسلام والذي يركز على الروح دون المادة وبالتالي فتح المجتمع الحضري عيونه على حضارة مادية ، فغرههم ما رأوا واخذ بألبابهم ، فصاروا يلتهمون مفردات هذه الحضارة تترى ، بل وصل الأمر بطائفة ممن يسمونهم (المثقفون) إن صاروا ينظرون إلى خُلق القران بأنه جزء من الماضي يحمل بين طياته الجهل والتخلف!!! (13) .

بهذا المعنى تم التخلي عن خطط المدينة العربية الأصيلة وأنظمتها التي وضعت تحت دراسة ممعنة ومفصلة تتلاءم مع الذوق العربي وواقعه وكفيلة بان تحل كل الأزمات التي تعاني منها المدن في الوقت الحالي . وتدهور النسيج الحضري بعد إهمال عنصر الأصالة وتبني النموذج الغربي ، وقطع التحضر العربي أواصر اتصاله وانتمائه الحضاري لعملية غزو للجديد على حساب القديم ، لذلك تأتي الهياكل الجديدة على أنقاض القديم ، فتعكس صورة في الشكل ، وتحدث خلافا في المضامين الجوهرية والوظيفية للإشكال المتقدمة وليس التقدمية إذا

صح التعبير .والفضية الأساسية في هذا المجال هو انخفاض مستوى نوعية الحياة للمواطن العربي التي توضح مؤشرات بيانات الجدول (1) والذي تولد عنه مشكلات اجتماعية واقتصادية حادة (14) ، كانت السبب الأول وراء الشذوذ الحضري في مدننا العربية وما يرافق هذا الشذوذ من تغير وتحلل للقيم الأخلاقية متمثلاً ب :

- 1-التفكك الأسري في الكثير من الأسر العربية والذي أصبح ظاهراً للعيان .
- 2-مشكلات الإسكان وانتشار الأكواخ والمساكن الحقيمة الغير صحية ، وبخاصة في المدن الكبيرة والعواصم .
- 3-انحراف الأحداث وشيوع ظاهرة الجريمة على اختلاف أنواعها ودرجاتها .
- 4-عدم الاستقرار الاجتماعي وضعف التنشئة الاجتماعية .
- 5-انخفاض المستوى المعاشي وزيادة نسبة الفقر الحضري الجدول (2) .
- 6-تأثر الفرد والأسرة بالقيم الدنيوية الوضعية والسعي وراء الماديات .
- 7-ضعف العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وانقطاع صلة الرحم وصلة الجوار ، تلك التي أعدها الإسلام من الكباثر والموبقات .
- 8-انهيار كفاءة شبكات المرافق العامة وقصورها عن تلبية الخدمة المطلوبة للسكان .
- 9-كثرة حالات الإباحة في المأكل والمشرب والملبس ، التي لا تتسجم مع القيم الاجتماعية والأخلاقية للمجتمع العربي المسلم .

جدول 1: التصنيف النوعي للحياة لسكان الدولة العربية

المؤشرات / المجموعة العربية	المستوى التعليمي والسطحي	المجموعة العربية / المؤشرات	توفير الشروط المادية	المؤشرات / المجموعة العربية	المستوى العام لنوعية الحياة
1- الإمارات - قطر - البحرين - الكويت .	-نوعية الحياة جيد جدا	1- الإمارات - قطر - الكويت - البحرين .	نوعية الحياة جيد	1- الإمارات - قطر البحرين الكويت .	نوعية الحياة جيد جدا
2- الأردن - تونس - العراق -لبنان - ليبيا - السعودية	نوعية الحياة جيدة	2- تونس - الأردن - الجزائر - سوريا - عمان - العراق - لبنان - ليبيا - مصر	نوعية الحياة متوسطة	2- الأردن - تونس - السعودية - سوريا - العراق - عمان - لبنان - ليبيا	نوعية الحياة جيدة
3- سوريا -	نوعية الحياة	3- جيبوتي -	نوعية الحياة	3- الجزائر -	نوعية الحياة متوسطة

	مصر - المغرب	رديئة	السودان - المغرب - الصومال اليمن - موريتانيا	متوسطة	عمان - مصر - الجزائر المغرب
نوعية الحياة رديئة	4- جيبوتي - اليمن - السودان - الصومال موريتانيا			نوعية الحياة رديئة	4- جيبوتي - السودان - الصومال موريتانيا - اليمن

المصدر : صبري مصطفى البياتي ، أحلام احمد الدوري ، التصنيف الهرمي لنوعية الحياة في الوطن العربي ، بحث القي في المؤتمر الإحصائي الذي انعقد في رحاب جامعة الكوفة للفترة 7-8 مايس 2004 ،

جدول (2) : عدد السكان دون خط الفقر في بعض الأقطار العربية لعام 2009.

الدولة	الإجمالي	حضر	ريف
الأردن	13.0	11.3	19.0
تونس	3.8	1.9	7.1
الجزائر	5.7	3.2	10.2
سوريا	11.4	8.7	14.2
مصر	19.6	14.6	23.4
المغرب	9.0	4.8	14.5
موريتانيا	46.7	28.9	59.0
اليمن	34.8	20.7	40.1

المصدر: التقرير الاقتصادي العربي الموحد لسنة 2009، ص28.

في مثل هذه الظروف ، تعد المحافظة على مستوى مرتفع ومنظور من الخدمات التعليمية والصحية والمساكن والتأمينات الاجتماعية الأخرى عبئا على اقتصاديات الدولة ، إذا أن الاستثمارات المحلية تتوجه إلى مرافق اقل إنتاجية واقل عائدا للدولة كما في الجدول (3) .

وثمة ملاحظة أخرى جديرة بالاهتمام ، هي إن العلم يجب أن يكون الأساس الذي تركز عليه المدينة بكل خططها وأساليب حياتها ، ومن خلاله ينضوي تعامل الناس وينتظم سلوكهم ، أصبح العلم والتعلم في موقع لا يحسد عليه في مجتمعاتنا الحضرية بسبب عزوف الناس عنه وانشغالهم بالركض وراء لقمة العيش ، التي أضحت شبه شحيحة في الكثير من المدن العربية ، لا لقلّة الموارد فحسب وإنما لسوء توزيعها أو بعثرتها للملذات من قبل الناس فضلا عن قيام الأسر بمنع أطفالهم من الدخول في المدارس لزوجهم في الأعمال غير الرسمية (15) . هذا إضافة إلى انخفاض المستوى التعليمي لمن هم في مجال التعليم ، ويمكننا حينئذ أن نتصور مدى الانحدار عن القيم الأخلاقية في مجتمعنا كتحصيل حاصل لما آلت إليه المستويات التعليمية والثقافية والنتيجة عن قصد مدروس من قبل القائمين عليه للإبقاء على تخلف الطبقات الاجتماعية ليس إلا إن تبقى غير آبهة بما يدور حولها . وبهذا الصدد يقول الشاعر الألماني غوته (مستقبل الأمة تابع لطاقت عناصرها الفتية) ، ترى أي مستقبل بعد الذي حصل ينتظر امتنا .

جدول 3 : بعض المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية للدول العربية لعام 2009

القطر	النتاج المحلي الإجمالي بأسعار السوق الجارية (مليون دولار) (1)	متوسط نصيب الفرد من الناتج الإجمالي بالدولار (2)	الإنفاق على التعليم (3)		معدل البطالة % (4)	الإنفاق على الصحة نسبة إلى الإنفاق العام (5)
			من الناتج المحلي %	من الإنفاق العام %		
الأردن	21.3	3630	4.3	11.4	12.7	9.5
الإمارات	250.5	52574	1.6	28.3	3.7	8.7
البحرين	24.3	21668	3.1	15.0	1.2	9.5
تونس	40.8	3959	6.5	25.9	14.0	16.5
الجزائر	170.3	4916	5.1	24.0	11.3	9.5
جيبوتي	982	1131	7.6	22.8	59.0	13.4

8.7	10.0	27.6	6.7	18868	468.8	السعودية
6.3	19.7	8.0	0.8	1599	61.0	السودان
5.9	8.4	16.7	5.0	2677	52.5	سوريا
4.2	15.9	-	-	3611	110.4	العراق
4.3	7.5	8.8	5.0	20898	59.9	عمان
9.7	0.5	19.6	2.9	70651	102.3	قطر
4.9	1.3	12.9	3.4	43046	148.1	الكويت
11.3	8.2	11.0	2.8	7466	29.6	لبنان
6.5	10.0	-	-	10520	76.7	ليبيا
7.3	8.8	11.3	4.1	2192	162.6	مصر
5.5	9.6	27.2	6.8	2632	85.7	المغرب
5.3	22.0	10.1	2.8	1128	3.6	موريتانيا
5.6	15.9	14.3	5.7	1181	28.7	اليمن

المصدر: (1)التقرير الاقتصادي العربي الموحد، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، سبتمبر/أيلول 2009، ص 266

(2) نفس المصدر، ص 19.

(3) نفس المصدر، ص 283.

(4) نفس المصدر، ص 37.

(5) نفس المصدر، ص 275.

إذ إن الطريق الوحيد لازدهار العقل والمعرفة ، والحب والخشوع والتواضع والبناء
السيكولوجي للنفس والروح هو العلم والتعلم التي تعد أعلى غايات القيم الإنسانية ، فما الغرض
من العمران والشوارع والحدائق من غير وجود قيم أعلى وأسمى منها ، وهي القيم المعرفية
والدينية للمجتمع

سابعا- سبل الحفاظ على القيم الأخلاقية للمجتمع العربي

يمكننا الحفاظ على قيمنا الأخلاقية من خلال العمل في اتجاهين أولاهما خارجي وثانيها
داخلي، يتمثل الاتجاه الأول بالغزو الثقافي الأجنبي لقيمنا الثقافية والأخلاقية ، و هنا لابد من
الاعتراف ببعض المسلمات التي تبدو ثابتة وواقعية وهي :

- 1- إن التماثل الحضاري والثقافي المطلق لم يتحقق أبداً ، ولم تنجح أي حضارة قديمة أو حديثة في بلوغ هذا الهدف ، فالحضارة البابلية والآشورية والسومرية لم تجعل العالم بابلياً أو آشورياً أو سومرياً بالكامل ، وكذلك هو الحال بالنسبة للحضارة الفرعونية واليونانية والرومانية والحضارة الإسلامية إلى أن نصل إلى الحضارة الغربية الحديثة .
- وقياساً على ما سبق ، فإن الحضارة الغربية لم تنجح في استيعاب وذوبان الحضارات الأخرى داخلها ، بغض النظر عن اختلاف منطقتي التفاعل الحضاري في سماته ومضمونه عن المنطق ذاته في مراحل تاريخية سابقة ، طالما أن لكلٍ معطياتها الحضارية الثابتة .
- 2- إن ظاهرة الغزو الأجنبي للثقافة والقيم العربية هي في الواقع حقيقة مستقلة استقلالاً تاريخياً كاملاً عن ظاهرة الغزو الاستعماري كما عرفته المنطقة العربية ابتداءً من القرن التاسع عشر ، حقيقة ، الثقافة العربية خضعت لآثار هذا الاحتلال الذي كان لا بد وأن يؤثر في النواحي المعنوية والفكرية والأخلاقية للوجود العربية ، وليس أدل على هذه الملاحظة من أن مدة الحكم العثماني لم تؤدي إلى ذلك الغزو بتلك النسبة ولا بذلك القدر الذي عرفته الحضارة العربية في مواجهة الثقافة الأوروبية (16) .
- 3- أن الحقبة الاستعمارية الحديثة تميزت بحكم الغرب للسيطرة على الشرق ، وإن لا يطرد منه كما حدث لغزوته الصليبية (489-690 م) (1096-1291 م) ، ولذلك أراد الغرب ومفكروه تحقيق ركيزتين لهذه الحقبة الاستعمارية الحديثة هما :
- أ- ركيزة أقلية دينية أو أكثر بين الأقليات التي تسيطر على العقل الشرقي والإسلامي بوجه خاص ، ليظل الغرب هو القبة الحضارية للشرق ، فتتأبد للشرق بتبعيته للغرب ، حتى ولو رحلت عنه جيوش الاستعمار .
- ب- إيجاد أقلية دينية أو أكثر بين الأقليات التي تعيش في محيط العروبة والإسلام تقبل المشاركة مع الغرب في هذا المشروع الاستعماري الحديث (الغزو الثقافي والفكري) تمثل بذلك ثغرة الاختراق الغربي للشرق الأوسط الإسلامي . فعمل الغرب على تشجيع الاقتلاع الأخلاقي والثقافي واللغات الغربية من ناحية ، وبتشجيع التفكير السلفي الغيبي من ناحية أخرى . وقد نشأ عن هذه السياسة ثنائية هائلة ضمن البلد الواحد بين فكر ليبرالي أوروبي وفكر يغرق في مآهات الغيبية والماضي (17) .
- أما الاتجاه الثاني الداخلي يتمثل بطبيعة وتركيبية المجتمع العربي ، فهدف الغزو الأجنبي لا يمكنه أن يفلح بتحطيم قيمنا الأخلاقية دون أن نزهد نحن عن هذه القيم ، ونتاجر بذاتنا ، ونتخلى عن دورنا ، ونتنازل عن حقوقنا الإنسانية والحضارية ، أذن لا بد من الاعتراف بان هزالة القيم لها ارتباط بقوى جذب مركزية تتبع من صميم وواقع المجتمع العربي مُلَوحة للغرب إلى أن هنالك فراغ قيمي ورغبة ماسة بالجديد أيّ كان نوعه وبغض النظر عن مدى تلاؤمه

مع القيم السائدة في المجتمع . ولعل مبعث ذلك يعود إلى اللاتجانس الفكري واليأس الثقافي ، والتناقض الأيدولوجي، وتعدد الأنماط الاجتماعية والأنظمة التربوية والتي جعلت من المجتمع العربي مسرحاً لغموض عميق تترجمه مظاهر التباين والتناقض بين القيم والمبادئ ، بين الشعارات والانجازات بين التصرفات والممارسات (18) .

وإزاء كل ذلك ، ولأجل الحفاظ على قيمنا الأخلاقية من الانزلاق وراء التيارات الهجينة والغريبة عن واقعنا العربي ضرورة الأخذ بنظر الاعتبار الوسائل الآتية :

1- تبني سياسة الثقافة المضادة (counter- culyure) والتي تتمثل برفض الثقافة السلفية التقليدية دون الالمساس بقيم الإسلام الأصيلة وأخلاقه من ناحية ، ورفض الثقافة التخريبية والانتقالية المستعارة من الغرب دون تمحيص في معناها ومغزاها وتناسبها مع الواقع العربي من جهة ثانية ، ثقافية ضد التقليد سواء أكان تقليداً للماضي أو للغرب ، والتمسك بأخلاق القرآن التي تتماشى مع كل العصور (19) . فهي ضد الماضي بمعنى أنها ترفض الانعزال والانغلاق وتؤمن بالانفتاح بالاستفادة من التجارب الإنسانية ، وهي ضد الغرب لكي تتجنب الهامشية والاغتراب والافتقار الثقافي والقيمي ، ثقافة مرتبطة بتطلعات الشعب ومعبرة عن توفقه للتحرر والاستقلال الثقافي .

2- حماية الأسرة العربية من الانزلاق عن الأيمان وضعف الثقة بالنفس ، مع التركيز على حماية الأطفال ، بالنظر لما يحيط بالأطفال في سنوات حياتهم المبكرة من أخطار من خلال تكريس الطقوس الروحية والإيمانية في مجالات تنشئتهم وبما يسهم في دعم شخصية الأطفال ومنحها أهم ما تحتاجه من استعدادات وقدرات ذهنية وعاطفية لا بد من توفرها لاستكمال النموذج الاجتماعي المطلوب لمواجهة تحديات الحياة . والمعروف عن اليابان أنها منذ القدم أحاطت حياة أسرها بأعلى درجات الحماية الغيبية ، وان المجتمع الياباني يولي الطفولة من العناية والاهتمام ما يندر العثور على ما يناظرها في مجتمعات العالم الأخرى (20) لإدراكها من أن الطفولة تمثل الأساس التي تبني عليه الشعوب ذاتها وثقافتها ومستقبلها.

3- الحذر من الوقوع في مغبة اليأس ، كما يجب الحذر من نقشي حالة الشعور بالعجز وانتشار روح السلبية التي تؤدي إلى تهاون الناس وترك مستقبل أوطانهم يشكله الآخرون . وتقع على المثقفين مسؤولية تخفيف ضغوط اللحظة الراهنة ، مستعينين في ذلك بمخزون الثقافة العربية الإسلامية من قيم الحق والعدل والتعاون والصبر والأخلاق (21) ، فالخير لا ينهزم والشر لا ينتصر والغزو لن يفلح أمام سلاح الأيمان ، وفي ذلك سياج منيع يؤمن الحماية الكافية لقيمنا الأخلاقية العربية الأصيلة . وما أحوجنا إلى ذلك في عصرنا الراهن إلى مثل هذه المعطيات الإيمانية.

4- تأسيس منهج لثقافة عربية تأخذ بعين الاعتبار حقوق الهوية وموجبات المعاصرة فنحن معنيون بتأسيس ثقافي له هوية . أي إن الإطار التأسيسي العام للمشروع الثقافي هو الإطار الحضاري لهذا المشروع ، في مصادره ومرجعياته كما في مطالبه وأهدافه العامة ، والهوية الثقافية هنا تسير وبايجابية وفق المضمون الإنساني بقواعد التفكير الحر ، الموضوعي ، المنهجي وصولاً إلى تطبيقات في العلم ثم في التكنولوجيا فضلاً عن الهوية القومية والمضمون الإنساني ، أما الأساس الثالث الذي تركز عليه كل ثقافة معاصرة ، هو الإبداع ، وهو الضلع الثالث الذي يشكل القاعدة الصلبة التي تستند إليها قيمنا العربية في ظهورها الراهن ، ويضعها في المكان الملائم لى لمقاومة الغزو الخارجي (22) .

5- الأخذ بعين الاعتبار التحديات الاقتصادية والاجتماعية التي تواجه الوطن العربي اليوم ، ولأجل إضعاف هذه التحديات ، ولغرض بناء إطار نفسي منيع بروح الثقة وتهيئه للبناء الذاتي وتعزيز قدرته لمقاومة هذه التحديات ، لا بد من الاتجاه نحو تشخيص بعض المحكات التي تتدرج ضمن هذا الإطار والمؤثر في صميمية المجتمع وتكاد تمنعه من التقبل والاستيعاب والقدرة ، متمثلة بتأمين الغذاء والسكن وفرص العمل ومعالجة العضلات الاجتماعية المتزايدة ، وتهيئة مستلزمات التعليم والصحة والتوظيف ، ونقص البناء السوسيو - اقتصادي الحضري وعدم الاندماج فيه ، هذا فضلاً عن مواطن الحرمان الأخرى (22) .

إذ إن توفير الحدود المأمونة لهذه المآخذ في المجتمع الحضري العربي يرسخ الإطار الذاتي لشخصية الفرد العربي بما يمكنه من مواجهة أي تحدي خارجي .
تجدر الإشارة إلى إن النمو الحضري المتسارع وتعدد المدن المليونية زاد من التعقيدات الاجتماعية والحضارية والتي تمخض عنها بروز ظواهر غريبة عن القيم الأخلاقية للمجتمع العربي كالجريمة والإدمان على الكحول والمخدرات وعقوق الوالدين والإقصاء الاجتماعي ، والرشاوى والشذوذ الجنسي والميسر (24) .

ثامنا - التربية الإسلامية أساس الحفاظ على الأخلاق

تعاني الأمة الإسلامية اليوم من عدة أزمات نستطيع تلخيصها كالآتي:

- 1- أزمة فكر
- 2- أزمة سلوك
- 3- أزمة أخلاق
- 4- أزمة تخلف
- 5- أزمة الفاعلية (الإنتاجية)
- 6- أزمة قيادة

يقول اينشتاين ما يتعلق بهذه لزامات "لا يمكن القضاء على المشاكل والأزمات دون القضاء على الذين اوجدوا هذه المشاكل والأزمات" والذين اوجدوا هذه المشاكل في امتنا حددناها في الفصل السابق ،لكن هنا نشير إلى دور المنهج الإسلامي في التخلص من هذه المشاكل. في حديث مسند لرسول الله ﷺ: " اتق الله حيث ما كنت ،واتبع السيئة الحسنة تمحها ،وخالق الناس بخلق حسن" ومن خلال هذا الحديث ينقسم المسلم في حياته إلى ثلاث لكي يكتب عند الله من المتقين ،الشرط الأول من الحديث هو أن يجدهك الله حيث أمرك ولا يجدهك حيث نهاك عنه ،ولا يستقيم لأحد حسن الخلق مع الله إلا بالأركان الآتية: معرفة الله، ومعرفة شرعه وعرفه دينه ظاهره وباطنه ،أما الشرط الثاني هو أن المسلم يوازن بين أعماله السيئة مع الحسنة إن لم يستطع إلا أن يرتكب السيئات بقصد أو بدون قصد، فالحسنة تمحو السيئة ،فيما ركز الشرط الثالث من الحديث على الأخلاق ،وهوان يتعامل المسلم مع الآخرين بخلق حسن ، وبهذا فان المسلم المؤمن يكون أمام ثلاث حالات :الأولى مع الله والثانية مع النفس والثالثة مع الناس .

ولنا في دشداشة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مقارنة مع زعماء امتنا اليوم خير مثال على العدالة وحسن الخلق وديمقراطية عمر (رضي الله عنه) ،حينما وزع الخليفة عمر القماش على المسلمين بالتساوي ،وفي خطبة الجمعة التي تلت الحدث قام الخليفة عمر (رضي الله عنه) يخطب على المنبر ،فقال أيها المسلمون اسمعوا وأطيعوا فقام رجل صائحا بوجه عمر لا نسمع ولا نطيع فتعجب الخليفة عمر قائلا له لم يا رجل ؟قال له أنت أطول منا وعندنا القصير لم يكفيه القماش لعمل دشداشة فمن أين جئت بالقماش الذي يكفي دشداشة لك؟ فقال عمر (رضي الله عنه) وهو الفاروق قم يا عبد الله على ابنه براء أباك؟ فقام عبد الله قال أن أبي جمع بين حصته من القماش مع حصتي لكي تكفيه !! فقال الرجل الآن نسمع ونطيع!! هكذا كانت أخلاقهم وسلوكهم ودالتهم بين الناس وفيهم استقام الدين .

لذلك في ال 400 سنة الأولى من الإسلام لم تقطع سوى ثمان أيادي سُرقت ،وفي ال 800 سنة الأولى ومن الصين إلى اسبانيا لم يقام الحد للزنا بالشهود بل بالاعتراف كدلالة على عدم تجرؤ احد للزنا أو السرقة .

أن الدين الإسلامي يسير وفق الثانية من حيث احترامه للوقت ونحن نهدر الوقت كله بلا جدوى ،بحيث لانفطر في شهر رمضان قبل ثانية من الوقت ولا نصلي قبل ثانية من الوقت ،ننتظر الأذان لكي نفطر ونصلي ،وحيثما رأى رستم نظام الجيش ووقوفهم والتزامهم في خلافة الفاروق عمر (رضي الله عنه) قال قولته الشهيرة (أكل عمر كبدي) .

فالالتزام بالمواعيد سواء بالعمل أو العلاقات الاجتماعية سلوك أخلاقي أرست قواعد الشريعة الإسلامية منذ 1400 سنة خلت ،لكن القيم المادية قتلت العلاقات الأسرية والوظيفية وحتى العلاقات الزوجية ،في احد الدول العربية هناك قاعدة لا أخلاقية أصبحت شبه عرف متداول في

هذه الدولة في أن التوظيف لا يتم إلا بدفع الرشا، وحتى التوقيع على معاملة رسمية لا يمكن انجازها دون دفع الرشوة للموظف المعني، هكذا أضحت أخلاقنا ولهذا تراكمت على امتنا المصائب!!

لقد حدد الرسول ﷺ الهدف من بعثته فقال: **"إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"**. وعندما وقعت ابنة حاتم الطائي في الأسر.. يقول المعلم الأول محمد ﷺ لأصحابه: **"اتركوها فإن أباهم كان يحب مكارم الأخلاق"**. ويحب رسول الله أخلاقيات عنترة (الشاعر الجاهلي) في قوله⁽²⁵⁾:

وَأَعُضُّ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارْتِي * حَتَّى يُوَارِيَ جَارْتِي مَاوَاهَا**

قبل الحضارة الإسلامية وبعدها قامت إمبراطوريات وشمخت دول، فكيف انهارت ولماذا؟
الجواب هو : لضمور الجانب الأخلاقي في تلك الأمم، يقول الشاعر:

إِنَّمَا الْأُمَّمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ * فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا**

وفي عالم اليوم قد تجد إنساناً في غاية الدماثة والكياسة، فإذا عاملته بالدرهم والدينار وجدته لصاً! وإذا تعرفت عليه في عالم السياسة وجدته ذنباً يسير على قاعدة: إن لم تكن ذنباً أكلتك الذئاب، وإذا راقبته في أموره، رأيت مذهبه (مصلحتي أولاً وأخيراً، وإذا متُّ ظمآنٌ فلا نزل القطر).

في عالم اليوم تجد الرجل الإنكليزي في بريطانيا والأمريكي في الولايات المتحدة مثلاً، على غاية من الالتزام بأخلاقيات المواطن الصالح، في بيته وعمله ومعاملاته مع الآخرين، فإذا خرج هذا الإنسان إلى إحدى المستعمرات مثلاً، تحوّل من إنسان إلى وحش، نسي إنسانيته أو تركها في بلده وجاء إلى هنا يستعبد الناس وينهب ثرواتهم ويحرمهم أدنى حقوقهم، وهو ما زال يشعر بالرضا، فأخلاقيات المواطن الصالح تدفعه إلى ذلك.

الأخلاق عندهم مصلحة مرتبطة بالزمان والمكان والنفع والضرر. أمّا في المنهج التربوي الإسلامي فالفضيلة هي الصفة الجامعة للخصائص التي يجب أن يتميز بها الإنسان في الفكر والسلوك، مما يجعل الأخلاق جوهر العملية التربوية، الأخلاق في كل شيء، في القول والعمل، في البيت والشارع، في المصنع والمتجر، في السياسة والمعاملات، في بلدك وفي بلدان الآخرين، فهي أخلاق تنبعث من عقيدة المسلم ومبادئه، لا من أنانيته ومصالحه. والفرائض التي فرضها الإسلام على المسلمين إن هي إلا تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة وأن يظل متمسكاً بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف.

وفي الصلاة مثلاً يقول تعالى: ﴿.. وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...﴾ (العنكبوت: الآية 45). وكذلك الأمر في بقية العبادات فهي مدارج الكمال المنشود وروافد التطهر الذي يصون الحياة ويُعَلِّي شأنها.

ولا يقتصر حسن الخلق على مجرد الفعل، وذلك لأن الصورة الظاهرة (الخلق) قد لا تعبر عن الصورة الباطنة (الخلق) فربَّ شخصٍ خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو رياء.

الإسلام، رسالة مكارم الأخلاق، بمعناها العام والشامل لكل نواحي السلوك الإنساني، وبهذا نطق الرسول الكريم ﷺ فقال: "الإسلام حُسن الخلق" ، وقال ﷺ وهو القدوة والأسوة لسائر المسلمين : "أدبني ربِّي فأحسن تأديبي" ، وشهد بذلك الوحي المنزل، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: الآية 4).

وقد أكّد القرآن الكريم في الكثير من مواضعه على طهارة النفس وتركيتها، ورفعة السلوك واجتناب الرذائل، فقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس: الآية 7-8).

وأكد الإسلام على الارتباط الوثيق بين الإيمان والسلوك الأخلاقي القويم في معادلة متقابلة، إذ يكون الإيمان: صلاحاً عبادياً واقتصادياً وأخلاقياً، بعضه من بعض، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون: الآية 1-11).

فالصلاة عنوان للعبودية والتقوى بالاجتناب عن عمل المنكرات، فقال ﷺ : (مَنْ لَمْ تَنْتَهَ صَلَاتِهِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا) .

ومن ثمّ الالتزام الأخلاقي الرفيع بالالتزام بالعهود الاجتماعية وحفظ الأمانات ورعاية حقوق الناس. ويمكن أن نجمع ذلك في أنّ الإيمان والعمل الصالح توأمان لا يفترقان في سائر نشاط الإنسان ومحطات حياته، فالإيمان يشع في الوجود الإنساني "النور" ويبعث في روحه الحركة نحو الخير، والعمل الصالح هو استجابة النفس لذلك الإيمان وتصديق السلوك لصدقه وإخلاصه، وهو يرجع بدوره ليوكّد الإيمان ويثبته، قال تعالى: ﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...﴾ (فاطر: الآية 10).

فالأخلاق الحسنة لا تعني أن يكون الإنسان حلو اللسان، لين العريكة، دمث الخلق.. فتلك من الكماليات في الأخلاق، لا الضروريات والواجبات، فما قيمة كل ذلك مع الخيانة في الأمانة؟ أو الفحشاء والمنكر والبغي، أو الكذب والاحتيال، لذلك يعرف الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) حُسن الخلق بأنّه السلوك القويم والتصرُّف السليم، فيقول: (حُسن الخلق اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسُّع على العيال).

تاسعا-الإسلام وتجدد الحياة

ليس الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي يحيا حياة اجتماعية، فكثير من الحيوانات، وخاصة الحشرات، تحيا حياة اجتماعية أيضاً، وتتبع مجموعة من المقررات والأنظمة الحكيمة، ويحكمها التعاون وتوزيع الأعمال، والإنتاج والتوزيع والأمر والطاعة. فللنحل وبعض أنواع النمل والأرضة حضارات وأنظمة وتشكيلات لن يبلغها الإنسان إلا بعد سنوات، بل قرون وهو أشرف المخلوقات.

وحضارة هذه الحيوانات عكس حضارة الإنسان، فهي لم تمر بمراحل من قبيل عصر الغابة، والعصر الحجري، وعصر الحديد والصلب، وعصر الذرة، بل إنها منذ أن وضعت أقدامها في هذه الدنيا كانت لديها نفس هذه الحضارات والتشكيلات التي لها اليوم ولم يتغير حالها أبداً. أمّا الإنسان، فطبقاً للآية الكريمة: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: الآية 28) بدأت حياته من الصفر وستستمر إلى ما لا نهاية.

ومقتضيات العصر بالنسبة للحيوانات واحدة على الدوام لا تتغير، وليس لحب التجدد وعبادة الجديد معنى لديها، ولا يوجد عندها عالم جديد وآخر قديم، والعلم لا يكتشف لها كل يوم اكتشافاً جديداً يُغيّر أوضاعها، والمصنوعات الخفيفة والثقيلة لا ترد أسواقها كل يوم بأشكال أحدث وأكثر، لماذا؟ لأنها تحيا بالغريزة لا بالعقل.

أمّا الإنسان، فحياته الاجتماعية دائماً عرضة للتغير والتحول، ففي كل قرن تتغير حياته، وسرُّ كون الإنسان أشرف المخلوقات يكمن في أنه ابن الطبيعة البالغ الرشيد، وقد بلغ مرحلة استغنى فيها عن قيمومة الطبيعة ورعايتها المباشرة له باسم الغريزة، إنه يحيا بالعقل وليس بالغريزة.

إنّ الطبيعة قد اعترفت ببلوغ الإنسان وتركتة حُرّاً ورفعت عنه وصايتها. وإنّ ما ينجزه الحيوان بالغريزة والقانون الطبيعي الذي لا يقبل التمرد، ينجزه الإنسان بوساطة القوى العقلية والعلمية والقوانين الوضعية والتشريعية القابلة للتمرد، وهنا يكمن سرّ الفساد والانحراف الذي يطرأ على مسيرة التقدم والتكامل الإنسانية وسرّ التوقف والانحطاط، وسرّ السقوط والهلاك.

وكما إنّ طريق التقدّم والرفي مفتوح أمام الإنسان، كذلك فإنّ طريق الفساد والانحراف والسقوط ليس موصداً بوجهه. إنّ الإنسان قد بلغ المرحلة التي سمّاها القرآن الكريم مرحلة حمل الأمانة التي أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال.. أي إنّه قبل الحياة الحرّة ومسؤولية التكليف والقانون، وهو لهذا السبب ليس مصوناً من الظلم والجهل، ومن الخطأ وعبادة الذات. والقرآن الكريم بعد أن يُبيّن الاستعداد العجيب للإنسان في تحمل أمانة التكليف، يصفه مباشرة بصفتي (الظلم) و(الجهول).

إنّ هذين الاستعدادين لدى الإنسان (استعداد التكامل واستعداد الانحراف) لا ينفكان عن بعضهما، فالإنسان ليس كالحیوان الذي لا يتقدّم في حياته الاجتماعية ولا يتأخر ولا يذهب يمينا ولا شمالاً، ففي حياة الناس تقدم وتأخر، وإذا كانت في حياتهم حركة وسرعة، ففيها كذلك توقف وانحطاط، وإذا كان فيها تقدم وتكامل، ففيها أيضاً فساد وانحراف، وإذا كان هناك عدل وخير، كذلك يوجد ظلم واعتداء، وإذا كانت هناك مظاهر للعلم والعقل، فكذلك توجد مظاهر للجهل والعبث، والتغييرات والظواهر التي تستجد في كل عصر يمكن أن تكون من النوع الثاني. - الجامدون والجاهلون.

الإفراط والتفريط من جملة خواص الإنسان، فهو إذا أراد أن يقف عند حدّ الاعتدال، وجب عليه أن يسعى لفصل التغييرات التي هي من النوع الأوّل عن التغييرات التي هي من النوع الثاني، أن يسعى لتطویر العصر بقوة العلم والابتكار والسعي والعمل، أن يسعى للانسجام مع مظاهر الرقي والتقدم في عصره، ويسعى أيضاً للحيلولة دون وقوع الانحرافات العصرية واجتتاب الاصطباغ بصبغتها. لكن للأسف ليس الأمر دائماً كذلك، فهناك مرضان خطيران يهددان الإنسان في هذا المجال هما مرض الجمود ومرض الجهل. عاقبة المرض الأوّل التوقف والسكون والتخلف، وعاقبة المرض الثاني السقوط والانحراف.

فالجامد ينفر من كل جديد ولا يأنس إلا بالقديم، والجاهل يبرر كل جديد باسم مقتضيات العصر وباسم التجدد والرقي، والجامد يعد كل جديد فساداً وانحرافاً، والجاهل يحسب كل شيء على الحضارة والتقدم العلمي.

الجامد لا يفرق بين البذرة والقشرة، ولا بين الوسيلة والهدف، فالدين في نظره ملزم بحفظ الآثار القديمة، والقرآن في نظره إنما نزل من أجل أن يوقف حركة التاريخ ويثبت أوضاع العالم في أوضاعها التي هي عليها.

وفي نظره إن قراءة جزء عمّ، والكتابة بالقصبة، واستعمال محفظة قلم من الورق المقوى، والغسل في حوض الحمام القديم، وتناول الطعام باليد، واستعمال مصباح نفطي، والعيش في الجهل والأمية، هي شعائر دينية يجب المحافظة عليها، والجاهل على عكس ذلك، أنظاره مشدودة إلى العالم الغربي يرقب أي موضة جديدة ظهرت، وأي عادة بدأت، ليقوم فوراً بتقليدها وإطلاق أسم الحتمية التاريخية عليها.

إنّ الجامد والجاهل كليهما يفترضان أن كل وضع قديم هو جزء من الشعائر الدينية، مع فارق أنّ الجامد يرى أنّ هذه الشعائر يجب حفظها والجاهل يرى أنّ الدين أساساً يقترن بعبادة القديم وحبّ السكون والثبات.

في القرون الأخيرة، كانت مسألة تعارض العلم والدين محل جدل وأخذ ورد كبيرين بين شعوب الغرب، وفكرة تعارض الدين والعلم لها جذران:

الأول: إنَّ الكنيسة كانت قد تبنت مجموعة من المسائل العلمية والفلسفية القديمة على أنها قضايا دينية يجب الاعتقاد بها، ثم أثبت تقدم العلوم خلافها.
الثاني: كون العلم قد غيّر وجه الحياة وطرق العيش.

إنَّ المتدينين الجامدين بنفس الطريقة التي أضفوا بها على بعض المسائل الفلسفية لوناً دينياً، حاولوا أن ينسبوا إلى الدين الشكل المادي الظاهر للحياة، فتصور الجهال أنّ المسألة هكذا في الواقع، وأنّ الدين قد تبنى صورة مادية لحياة الناس، ولما كان الشكل المادي للحياة - بفتوى العلم - يجب أن يتغير، إذاً فقد أصدر العلم فتوى إلغاء الدين. وعلى هذا، فالجمود بالدرجة الأولى والجهل بالدرجة الثانية جاء بخرافة تعارض العلم والدين.

- أمثال القرآن تبين أن الإسلام دين متطور ومطور، والقرآن الكريم - من أجل أن يوجه أنظار المسلمين إلى أن يكونوا دائماً في حالة نمو وتكامل على ضوء الإسلام - يورد مثلاً واصفاً المجتمع المسلم، فيقول: ﴿... كَزَرَ عٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ...﴾ (الفتح: الآية 29). هذا مثل للمجتمع الذي يريده القرآن، ونموذج لما يتأمله القرآن، إنّه يخطط للمجتمع ليكون دائماً في حالة نمو وتوسع وانسباط.

يقول (ويل ديورانت): "لم يدع دين أتباعه إلى القوة كما دعا الإسلام، وتاريخ صدر الإسلام يريك إلى أي مدى استطاع الإسلام أن يبني المجتمع من جديد ويدفعه إلى أمام".
إنَّ الإسلام يعارض الجمود كما يعارض الجهل، والخطر الذي يهدد الإسلام آت، إمّا من هذه الفرقة أو تلك. فالجمود وتحجر الأدمغة والتمسك بكل قديم، إضافة إلى أنها لا تمت إلى الإسلام بصلة، فهي تعطي المبرر للجهلة من الناس ليتصوروا أنّ الإسلام يعارض التجدد بمعناه الحقيقي.

ومن ناحية أخرى، فإنّ التقليد وعبادة الموضة والتأثر بالغرب والاعتقاد بأنّ سعادة شعوب الشرق تكمن في أن يصبحوا أفرنجة جسماً وروحاً وباطناً وظاهراً، وأن يقبلوا جميع عاداتهم وآدابهم وسننهم، وينسقوا قوانينهم المدنية والاجتماعية بطريقة عمياء طبق قوانين الغربيين، كل هذا يمنح الجامدين المبرر لأن ينظروا بعين الريبة إلى كل جديد ويعدون خطراً على دين واستقلال وشخصية شعوبهم الاجتماعية.

وبين هذا وذاك، فإنّ الإسلام هو الذي يجب أن يدفع ثمن خطأ الفرقتين.
فجمود الجامدين يمنح الجاهلين مجالاً للهجوم، وجهل الجاهلين يزيد الجامدين إصراراً على البقاء على عقائدهم الجامدة.

العجيب إنَّ هؤلاء الجهّال المتظاهرين بالتحضر يظنون الزمان (معصوماً)، وهل تغيرات الزمان والعصر إلا نتائج جهود الإنسان؟ فمنذ متى أصبح البشر معصومين عن الخطأ لكي تكون تغيرات العصر معصومة هي الأخرى؟ إنَّ الإنسان كما يتأثر بالميل العلمية والأخلاقية

والذوقية والدينية ويقوم في كل عصر بابتكار ما يصلح حال البشرية، كذلك يتأثر بميول عبادة الذات وطلب الجاه والعبث الجنسي وحب المال والاستغلال. والإنسان كما يوفق أحياناً إلى اكتشافات جديدة ويعثر على طرق وأساليب علمية جديدة، كذلك يقع أحياناً أخرى ضحية الخطأ والاشتباه. لكن الجاهل لا يفهم هذا الكلام، إنما محور كلامه أن العالم اليوم كذا وكذا.

والأعجب من هذا إنه يقيسون مبادئ حياتهم على الحذاء والقبعة والملابس، فكما أن من الحذاء والقبعة جديداً وقديماً، وكما انه حين يكون جديداً يكون ذا قيمة، فيشتري ويحتذى، فإذا قدم رمي بعيداً، فحقائق العالم إذاً من هذا القبيل. ليس للجيد والرديء - في نظر هؤلاء الجاهلين - مفهوم غير مفهوم الجديد والقديم. فالإقطاعي في نظرهم - وهو الذي نصب نفسه مالكاً ظلاماً، وجلس لتقوم بالعمل مئات الأيدي والسواعد من أجله - سيئ لأنه قد صار قديماً يرفضه العالم اليوم، مرحلته انتهت، وقدمت موضته. أما في اليوم الذي وُجِدَ فيه وخرج حديثاً من القالب وعرض في أسواق العالم، فقد كان جيداً.

في نظر هؤلاء، استغلال المرأة سيئ لأن عالم اليوم لم يعد يعجبه ذلك ولا يرضى به. أما في الأمس حيث لم يكونوا يورثون المرأة، ولا يعترفون لها بحق التملك ولا يحترمون إرادتها ورأيها، فقد كان ذلك جيداً لأنه كان جيداً في وقته.

يعتقد هؤلاء الأفراد إنَّ العصر بما أنه عصر الفضاء، فلا يمكن أن نترك الطائرة ونركب الحمار، ونترك الكهرياء ونوقد المصباح النفطي، ونترك معامل النسيج الضخمة ونسج باليد، ونترك مكائن الطباعة العملاقة ونكتب باليد، وكذلك لا يمكن أن نترك المشاركة في حلقات الرقص، ولا نترك الذهاب إلى حفلات العري (إلا من المايوه) أو حفلات الطعام الباذخة، ولا نترك السكر والعريدة، ولا نترك لعب القمار، ولا نترك موضة الملابس القصيرة، فكل هذه من ظواهر القرن، وإن لم نفعّل، فقد رجعنا إلى عصر ركوب الحمير. كم أدت كلمة (ظاهرة القرن) إلى تحطيم أفراد، وكم قضت على أسر تفوق الحصر. يقولون: عصر العلم، وقرن الذرة، وزمن الأقمار الصناعية، ومرحلة الصواريخ عابرة القارات.. حسناً، ونحن نشكر الله على أننا نعيش في هذا العصر والزمان وفي هذا القرن والعهد، ونأمل أن نفيد أكثر فأكثر من مزايا العلوم والصناعات. ولكن هل نصبت العيون في هذا العصر الأعين العلم؟ وهل جميع ظواهر هذا القرن هي من نتائج التقدم العلمي؟ وهل يدعي العلم أن الطبيعة تجعل من شخص العالم شخصاً هادئاً ومطيعاً وإنسانياً مئة في المائة. إنَّ العلم لا يدعي مثل ذلك بالنسبة لشخص العالم، إذ تجد أن مجموعة من العلماء ينهمكون في البحث العلمي بكل صفاء وصدق نية وتأتي مجموعات من طالبي الجاه وأصحاب الهوى وعباد المال ليستخدموا نتائج جهودهم من أجل نيل مقاصدهم الدنيئة. وإنَّ العلم ليئن بسبب استغلاله

في غير وجهه الإنسانية لإرضاء الطبيعة المتمردة للإنسان، وما منشأ تعاسة هذا القرن ومصائبه إلا من ذلك.

خلاصة الفصل الثالث:

آمن سكان المدن العربية بالدين الإسلامي على أساس انه عقيدة وعبادة وخلق ومادة ثقافية وقانون للحياة وسماحة وقوة ، واعتقوه نظاما كاملا يفرض نفسه على مظاهر الحياة وينظم أمر الدنيا كما ينظم أمر الآخرة .

إلا إن المدينة العربية شهدت خلال العقود الأخيرة من تاريخها المعاصر تغيرات كثيرة تمثلت بالتضخم السكاني والازدهار العمراني في مجالات المساكن والشوارع والمرافق العامة ، وما يتصل بالجوانب المادية من الحياة ، تولد عنها سلسلة من التغيرات في الجوانب الأخرى في المجتمع ، في البناء الاجتماعي ، وفي الأنظمة والقوانين والمؤسسات التي تتحكم في العلاقات التي تنشأ بين الفرد والمجتمع ، وبين الأفراد أو الأسرة الواحدة ، وبين الجماعات فيما بينها على تعدد أنواعها .

هذه التغيرات في أغلبها منافية للأخلاق الكريمة التي أسست بموجبها مدننا ، فهي إما تقليد عشوائي للحضارة الغربية أو انحراف بقصد وبدون قصد عن التقاليد والأعراف العربية الأصيلة ، وبالتالي أدخلت إلى مجتمعنا العربي المسلم جملة من التناقضات بين الدين والعلم ، وتناقض بين العروبة والإسلام وتناقض بين الأصالة والمعاصرة وتوصل الفصل إلى استنتاج أولي هو أن لا نهضة عصرية لامتنا ما لم نقيم مبادئ الإسلام وتطبيق لدستوره أو التحلي بأخلاقه، تلك هي الأسلحة التي تمسك بها الأوائل من المسلمين وأقاموا حضارة عجزت جميع الأمم إن تأتي بمثلها .

أما الاستنتاج الثاني هو إن الثقافة والعلم والإخلاص والترابط الاجتماعي ومكافحة الفقر وترك المباحاة والتمسك بالقران الكريم هي سبل لابد منها ضمانا للعيش بكرامة .
وشدد الاستنتاج الثالث إلى إن الأخلاق هو السلاح الوحيد الذي يفتقده الغرب ولأجل إسقاطه من نفوسنا شن غزواته الثقافية والاستعمارية والفكرية علينا . وتمسكنا بهذا الضمان الوحيد لإفشال هذه المخططات والغزوات .

- 1- Milton Roueach , “ Atheory of organization within Value - Attitude systems ” Journal of Social issues , vol . 24 , No. (January 1968) , pp 13-33 .
- 2- محمد عابد الجابري ، قضايا في الفكر المعاصر ، بيروت ، من مركز دراسات الوحدة العربية ، 1977 ، ص 53 .
- 3- انظر ابن الياس ، بدائع الزهور ، الجزء الثاني ، ص 93 ، وابن تغري برودي ، النجوم ، الجزء السادس ، ص 221-234 .
- 4- Gusstaave Edmund Von Ggrunebaum , Islam : Essays in the Nuture and Growth of a cultural Tradition (New yoru : Barness and Noble , 1961) p. 9.
- 5- Tomas Aquinas : The ((summa Theologica)) of st. Tomas A quinas , translated by fathers of the English dominican province , 19 vols . (New york : Benziger Brother , 1911-1922) , and the commentary on Aristotle politics , books I , 11 and 111 , chap 31-6.
- 6- أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، الجزء 4 ، القاهرة ، لجنة البيان العربي ، (1962-1975) ، ص 413 .
- 7- مارلين نصر ، القومية والإسلام في خطاب كل من حسن البناء وعبد الناصر ، مجلة المستقبل العربي ، العدد 199 ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 1995 ، ص 21.
- 8- شاكر مصطفى ، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني ، الطبقة الأولى ، الجزء الثاني ، البصرة ، ذات السلاسل للطباعة ، 1988 ، ص 10 .
- 9- ثناء فؤاد عبد الله ، إشكاليات التفاعل والحوار الحضاري بين العرب والحضارة الغربية في إطار متغيرات العالم الجديد ، المستقبل العربي العدد 167 ، بيروت / مركز دراسات الوحدة العربية ، 1993 ، ص 40 .
- 10- محمد مهدي شمس الدين ، من اجل تحد عربي إسلامي ، مجلة المستقبل العربي ، العدد 36 ، 1990 ، ص 5 .
- 11- لؤي صافي ، الدولة الإسلامية بين الإطلاق المبدئي والتقييد النموذجي ، المستقبل العربي ، العدد 178 ، 1993 ، ص 75 .

- 12- محمد حسين هيكل ، العرب على أعتاب القرن الـ 21 ، المستقبل العربي ، العدد 190 ، بيروت ، مركز دراسات وبحوث الوحدة العربية ، 1994 ، ص 5-6 .
- 13- إبراهيم النعمة ، رضينا بالإسلام دينا ، الطبعة الأولى ، الموصل ، دار الزهراء الحديثة ، 1983 ، ص 47.
- 14- محمد عبد الله حماد ، المستوطنات البشرية في البلاد العربية ، الاسكوا ، الأمم المتحدة ، نيويورك ، 1995 ، ص 293 .
- 15- إسماعيل قيرة ، من هم فقراء الحضر قاع المدينة العربية أنموذجا ، مجلة المستقبل العربي ، العدد 205 ، 1996 ، ص 70 .
- 16- حامد ربيع ، الثقافة العربية الإسلامية في مواجهة الغزو الأجنبي ، مجلة قضايا دولية ، العدد 262 ، السنة السادسة ، معهد الدراسات السياسية ، إسلام اباد ، 1995 ، ص 25 .
- 17- حليم بركات ، المجتمع العربي المعاصر ، الطبقة الثالثة ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 1986 ، ص 51 .
- 18- احرشا والغالي ، الشباب العربي والممارسات الثقافية المأمولة ، شؤون عربية ، العدد 75 ، الأمانة العامة للجامعة العربية ، القاهرة ، 1993 ، ص 131 .
- 19- حليم بركات ، مصدر سابق ، ص 53 .
- 20- yoshihara , falk culture and the Liminality of children , current Aathropology , vol . 28, No 4 . Chicago , 1987 .
- 21- نجيب محفوظ ، العائش في الحقيقة ، القاهرة ، دار مصر للطباعة ، بدون تاريخ ، ص 65.
- 22- محمد شيا ، الثقافة العربية والتحولت العالمية الراهنة ، شؤون عربية ، العدد 75 ، الأمانة العامة للجامعة العربية ، القاهرة ، 1993 ، ص 92 .
- 23- إسماعيل قيرة ، مصدر سابق ، ص 51 .
- 24- فضل أيوبي ، صراع المدينة والقرية في الدولة النامية ، مجلة العربي ، العدد 372 ، السنة الثانية والثلاثون ، وزارة الإعلام ، الكويت ، 1989 ، ص 41 .
- 25- مصطفى محمد الطحان ، التربية ودورها في تشكيل السلوك، للمزيد انظر الموقع الآتي:
www.balagh.com

الفصل الرابع: التخلف وأنواعه

أولاً- مفهوم التخلف

يقصد بالتخلف من الناحية اللغوية القعود أو العجز عن مسايرة الركب، ويعرفه ابن منظور في كتابه لسان العرب بأنه: خلف الليث: الخلف ضد قدام وجلست خلف فلان أي بعده والتخلف التأخر، وفي حديث سعد: فخلفنا فكنا آخر الأربع أي أخرنا ولم يقدمنا، ومنه الحديث الذي أخرجه مسلم (استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم) أي إذا تباعد بعضهم على بعض في الصفوف تأثرت قلوبهم ونشأ بينهم الخلف وفي الحديث (لتسوون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم)- متفق عليه-. يريد أن كلا منهم يصرف وجهه عن الآخر ويوقع بينهم التباغض فإن إقبال الوجه على الوجه من أثر المودة والألفة (1).

وفي المعنى الاصطلاحي، هو التأخر الزمني والقيمي والسلوكي عن ركب الحضارة، فالإنسان أو الجماعة، حينما تكون القيم السائدة في حياتهما، تدعوها إلى التكلس والجمود والرتابة، ويبرر لهما واقعهما المتأخر والسيئ يطلق على هذه الحالة مصطلح التخلف. فالتخلف في المعنى الاصطلاحي يعني: التأخر الزمني، عن ركب التطور والتقدم، إذ هناك مجتمعات إنسانية متقدمة على هذا المجتمع في مختلف مجالات وحقول الحياة، وإن سيادة القيم والمبادئ تبرر بشكل سلبي الواقع المتأخر والسيئ الذي يعيشه الإنسان، وتوفر القابلية النفسية والمجتمعية لعملية الخضوع والاستتباع.

وبهذا لا يكون التأخر الزمني عن الركب الحضاري، محصوراً في الجانب المادي فحسب، بل يتعدى ذلك، وتكون مسافة التأخر، ذات أبعاد اقتصادية واجتماعية وسياسية، وتتواجد في كل جوانب الحياة والسلوك، وتأسيساً على حقيقة هذا التخلف كظاهرة - مجتمعية، لا تقف عند حد معين، بل تتوسع باستمرار، وتأخذ أبعاداً متنوعة. وإن التخلف كمرض السرطان من حيث فتكه واستمراره في القضاء على كل مقومات الجسم السليم.

والتخلف كمشكلة يعني حالة مرضية أو وضع غير مرغوب فيه ومطلوب حسمه وتصفيته ويسعى المجتمع للتخلص منه والانتقال إلى وضع آخر مرغوب ومستهدف هو التنمية. والتخلف كظاهرة برز الاهتمام بها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كمحاولة مستمرة لتوصيفها وتحليل أسبابها العميقة .

والتخلف كمفهوم يعني عدم الاستفادة من القدرة الإنتاجية التي يتيحها استخدام الطرق الفنية والتكنولوجية الحديثة كما يعني ضعف الأداء الاقتصادي لهذه البلدان ويعني أيضا عدم قدرتها على ضمان الحد الأدنى من الرفاهية المادية لغالبية السكان، والدول المتخلفة هي تلك الدولة التي تعمل اقتصاديتها بشكل تخسر فيه باستمرار مدد زمنية طويلة من السنين إضافة إلى الجهود الضائعة والإمكانات المفقودة.

ثانياً - أنواع التخلف

هناك أنواع عديدة لهذه الظاهرة كل منها لها أضرارها على الإنسان أو المجتمع وغالباً ما تجتمع هذه الأنواع جميعها في بلد ما لكي تفتك به وتأخره كثيراً عن ركب الحضارة وهذه الأنواع هي:

1- التخلف الثقافي

يقصد بالثقافة العادات والتقاليد والقيم واللغة مع ما تحمله هذه اللغة من تراث فكري وأساليب للتفكير وطريقة للتعبير عن تلك الأساليب، فالثقافة إذن هي صورة سلوك الناس وتصرفاتهم وأفعالهم وعلاقاتهم الاجتماعية بعضهم ببعض بعيداً عن النظرة (السناتيكية) الجامدة لها⁽²⁾. كل هذه المكونات تمثل الكسب الإنساني المضاف إلى الطبيعة فكل ما يضيفه الإنسان في علاقته مع الطبيعة هو ثقافة وبهذا يكون المعادل الطبيعي لمفهوم التخلف الثقافي هو فقدان السيطرة على الطبيعة وعدم التمكن من توظيفها بما يخدم الإنسان، والمقصود هنا بالطبيعة هي ثروتها بكافة أشكالها، أي أن التخلف الثقافي يصنع العجز المطلق أو النسبي تجاه الطبيعة وإمكاناتها، وتجاه المجتمع وآفاقه على قاعدة نفسية مهزومة ومتهرئة، تحاول اللهاث وراء الآخرين، دون التمكن الفعلي من امتلاك أسباب التقدم والخروج من آثار التخلف الثقافي. وبهذا يمكننا تحديد معنى التخلف الثقافي في النقاط الآتية:

أ- توقف عملية الكسب الاجتماعي على المستوى الثقافي الحضاري بحيث أضحي هذا المجتمع وعاء لتلقي منجزات الآخرين دون أن يقوم بأي جهد يذكر في عملية الكسب في هذا المجال، ولعامل الزمن وتراكمات التوقف والجمود، دورها في تعميق العوامل والأسباب التي تحول دون ممارسة الكسب الثقافي والحضاري، وبالتالي فإن التوقف لا يكون بمستوى واحد.

إن التخلف ليس ظاهرة اجتماعية جامدة بل هي متحركة، بحيث إن هذه الظاهرة تتمدد في الوسط الاجتماعي، وتلقي بقيمتها وأنماطها وأساقها على مجمل وتفصيل الحركة الاجتماعية، وهذه الحركة الاجتماعية المعتمدة في علاقاتها وصراعاتها وحراكها الداخلي على هذه الظاهرة تقوم بدورها بعملية معكوسة، حيث تغذي ظاهرة التخلف وتزيد من شموليتها وتعمق أبعادها، وتصبغ كل شيء بلونها.

ب- تراجع موقع الثقافة بحيث لا يكون للمسائل والقيم الثقافية العليا موقعها الطبيعي في الخريطة الاجتماعية، وتصبح الاهتمامات الثقافية في مؤخرة الركب والاهتمام. وهذا يعني على المستوى العملي، ضخ الإمكانات وصرف الطاقات في أمور وحقول لا تشكل أية أهمية إذا قارناها بموقع الثقافة ودورها في تقدم الأمم والشعوب.

ج- شيوع الاضطراب في المفهوم والمنهج، بحيث يكون الواقع الاجتماعي خليطاً فوضوياً للعديد من النقائص، وذلك بفعل هذا الاضطراب، ومن الطبيعي أن هذا الاضطراب المنهجي

والفوضى المفهومية، يؤديان، إلى استقطابات اجتماعية تزيد من تمزق المجتمع وضياعه وعدم قدرته على تحديد مصائره بنفسه.

ولعلنا لا نبالغ، إذ قلنا إن الكثير من المشكلات الداخلية، التي تعانيها مجتمعاتنا العربية والإسلامية، هي بفعل هذا الاضطراب ومتوالياته النفسية والاجتماعية والسياسية والحضارية. إذ أن هذا الاضطراب يمنع تشكل ووجود نمط ثقافي - اجتماعي نهضوي، وبالتالي فإن التخلف الثقافي يعني سقوط خطوط الدفاع، وتوفر مكونات اجتماعية وأنماط ثقافية، تعمل لتفريغ القيم الذاتية من مضامينها النهضوية والحضارية، وتتعامل مع الوافد، وكأنه المطلق وجسر الخلاص الوحيد.

فالتحضر الثقافي والتحجر الفكري والتعصب العقدي على مستوى الداخل، وانبهار نفسي وعقلي بالوافد وعدم وجود قدرة مجتمعية على استيعاب منجز العصر على مستوى الخارج، هروب وتراخ من كل عوامل الإنتاج وتطوير الكسب الذاتي، وإقبال حد الوله، إلى كل عوامل تعظيم الاستهلاك الترفي. وفي هذه الأجواء المجتمعية - القائمة - على تقديس الكم والأشياء على حساب النوع والقيم تتعمق كل أشكال ومظاهر وأنماط التخلف الثقافي. وينتج عن شيوع التخلف الثقافي في المجتمع بعض الظواهر الثقافية، من أبرزها: سرعة تدهور الحوار العقلاني والتفكير المنطقي والتعصب والتحيز وسرعة إطلاق الأحكام القطعية والأحكام المسبقة وسيطرة التفكير الخرافي والسحري.

فالتخلف الثقافي هو القاعدة العريضة التي تحتضن كل معوقات النمو، وكوابح التطوير، وتمنع الارتقاء الاجتماعي. لذلك فإن المجتمعات العربية والإسلامية، لا يمكنها النهوض والتطور والتقدم إذا استمرت بالخضوع إلى تأثيرات ومفاعيل التخلف الثقافي، وأنه ينبغي في المرحلة الأولى لعملية التطور والتقدم من العمل والتحرك الجاد لإنهاء جذور التخلف الثقافي، ومحاولة أنماطه المجتمعية، وأشكاله الثقافية والفكرية.

إن النواة الأولى للتطور هي محاربة جذور التخلف الثقافي، وإن بناء التقدم يبدأ من تلك الأنشطة والأعمال المتجهة إلى تبديد كل أشكال وأنماط التخلف الثقافي وأي تراخ عن العمل في هذا الاتجاه هو استقالة عن المسؤولية الوطنية، وتبديد للأولويات، وهروب من صناعة المستقبل الأفضل.

ولا ريب أن تأثيرات التخلف الثقافي في الفضاء الاجتماعي تشمل مختلف المجالات والحقول؛ حيث إن الواقع السياسي يتأثر بالتخلف الثقافي، بمعنى أن كل مشروعات التحديث والتطوير السياسي بحاجة دائما إلى وعي ثقافي قادر على استيعاب خطوات وإجراءات التحديث السياسي. ومن المؤكد أن التخلف الثقافي يعرقل عملية الاستيعاب والهضم والتكييف، كما أن الوضع الاقتصادي يتأثر بمستوى الوعي والحالة الثقافية. فإذا كانت الثقافة السائدة، اتكالية، لا أبالية،

فإن الإنسان سيتحول إلى طاقة استهلاكية - سلبية، لا تمتلك أدنى مقومات الاشتراك في عمليات الإنتاج والتطوير الاقتصادي. أما إذا كانت الثقافة مسؤولة، وتحث على العمل والالتزام والإبداع والعمران فإن هذه الثقافة ستحول أبناء المجتمع إلى طاقات خلاقه في مختلف الحقول والميادين، لذلك فإننا نعتقد أن إنهاء جذور التخلف الثقافي من واقع ثقافتنا وفضائنا الاجتماعي سيساهم في تجاوز الكثير من المحن والاختناقات التي تزيد من ضعفنا وتردي أوضاعنا، فكلما تمكنا كمجتمع من إنهاء جذور التخلف الثقافي من واقعنا، استطعنا أن نقبض على أسباب التقدم وعوامل التطور، وننمي في فضائنا كل متطلبات الرقي والاستقرار.

المعرفة العربية، في خطر شديد، عندما تتراكم الأخطاء من دون أية معالجة، ولا أي نقد، ولا أي مواجهة، ولا أي تمحيص، ولا أي دقة، المعرفة اليوم تتسحب تمامًا عن حياتنا، فغدت مجتمعاتنا بعيدة عنها، بل وصل الأمر أن يستخدم أحد كبارهم ألفاظا متهنكة غاية في العهر وهو يحمل فوق رأسه عمامة كبيرة، أو يعبث مسلسل تليفزيوني بتاريخ بلد عربي عبثًا غاية في السوء، أو يصل الإسفاف في الفن والثقافة إلى منحدرات بائسة، ناهيك عما ينشر كل يوم من مقالات تافهة ينشغل بها الناس، وأغلبها يتضمن معلومات خاطئة أو مفبركة أو كاذبة، لا تجد من يصحح أخطاءها، ولا من يقارن معلوماتها بالأصل، ولا من يؤكد سلامة مروياتها أو نصوصها.. الخ نجد اليوم أناسا قد اشتروا شهادات عليا ليطلقوا على أنفسهم «دكاترة»، وهم خواء من أي معرفة! أو يدّعي البعض انه يحمل الدكتوراه كذبا وزورا كي يستعرض عضلاته الهشة بها ، وعندما يكشف أمره ، لا يحاسبه أحد ، بل يبقى يتبوأ مكانه أو منصبه ، وكأنه لم يطعن بأي قيم للمجتمع ، وكأنه لم يكذب وينحدر إلى الأدنى ! وهذا لم يحصل أبدا في مجتمعات تحترم نفسها دوما وبأي صورة من الصور ، نعين ، قد تباع شهادات لهذا أو لذاك ، ولكن لا يمكن أبدا أن تجد كاذبا أو مزورا أو محتالا في منصب علمي أو إداري أو خدمي ، كما هو حال مجتمعاتنا التي تزداد فيها الضحالة يوما بعد آخر !

إن مرحلتنا هذه تعد من أصعب المراحل التي أنتجتها مرحلة سابقة كانت المعرفة فيها مبتذلة تمامًا، كي تبدأ اليوم مرحلة الانحدار بوجود جيلين اثنين: جيل لم يزل على تقاليده الإنشائية وهو لا يعرف آليات التقدم الجديدة، ولم يزل يتكلم بلغة الأمس، وجيل انعدمت قيمه وأصبح عبثيًا وهو يسوق عبثيته من خلال الوسائل الجديدة التي تزداد مخاطرها كل يوم على مستقبل مجتمعاتنا كلها، إن مجتمعاتنا التي رضخت للهجمة الجديدة التي بلورتها الماضويات تتأخر يوماً بعد آخر بفعل ردود الفعل القوية ضد الحداثة والتقدم، ولما أصبحت آفاق التفكير محدودة، فإن مجتمعاتنا تعتقد أن ما ينتج عندها أو ما يعاد إنتاجه على لسان هذا، أو كتابات ذاك، خطاب هذا ومنتجات ذلك هي المعرفة الحقيقية، إنها تعتقد أن ما يزاوله هذا أو ذاك هو من صميم المعرفة، أو أنها تخدع نفسها، عندما تعيش خواءً معرفياً حقيقياً وهي تتسلح بالخواء من دون أن تفكر قليلاً بما

يطوقها من قيود وسدود وحدود مقارنة بما يعرض في التليفزيون، مثلاً من معرفة عن الحيوان وعن الفضاء وعن الفكر وعن الفلسفة وعن الأدب وعن التاريخ وعن الأنثروبولوجيا وعن الصناعة وعن الزراعة وعن الوراثة وعن العمارة.. إلخ. إن واحداً من منزلقات مجتمعاتنا اليوم، تلك الانقسامات التي ولدتها الأيديولوجيات التي اجتاحت حياتنا في عالمنا العربي والإسلامي، وهي متنوعة في طبيعة العقائد الفكرية والسياسية والدينية والمذهبية التي سحقت القيم المعرفية التي هي بأمرس الحاجة إلى الحريات الفكرية والاجتماعية أساساً، ثم هجمة السلطات المتنوعة التي عرفتها دول المنطقة بالكامل سواء كانت عسكرية أو فردية أو دكتاتورية أو انقلابية، بحيث لم تجد مجتمعاتنا أي فرص للاستقرار، فعمت التناقضات في أغلب المؤسسات والجامعات ودور العلم حتى طال العبث الجامع العلمية واللغوية! وزحفت مؤخراً الهجمة الطائفية والمذهبية باسم الدين تارة وباسم الأحزاب والجماعات الدينية تارة أخرى لتسحق ما كان موجوداً لدينا في الجامعات وما تبقى من مؤسسات، بل لتنتشر الخراب والتخلف والجمود في كل مرافق حياتنا الاجتماعية، إنهم باسم الديمقراطية يغتالون القانون، وهم باسم الحريات يعبثون بالقيم، وهم باسم الدين يفرضون أجندة على الفكر، وهم باسم التراث يقتلون الحداثة، وهم باسم المذهب يحرمون الفن، وهم باسم الطائفة يفرقون المجتمع ويقسمونه، وإنهم باسم فئة معينة يزورون التاريخ، وهم باسم تفسير معين يذبحون الآخرين، وهم باسم حزب معين يزرعون الأحقاد، وهم باسم الأكاذيب يدينون المعرفة، وهم باسم رأى واحد ينشرون كل التناقضات، وهم باسم التعصب يزرعون الكراهية والأحقاد.. إلخ.

إن مجتمعاتنا اليوم أمام منعطف خطير جداً في تاريخ القرن الحادي والعشرين لقد انشغلت الأجيال الثلاثة السابقة في القرن العشرين بهمومها النهضة والاستقلالية والوطنية والقومية والفكرية والأيديولوجية، كانت تحث الخطى نحو التقدم، ولكن لاحتها الهزائم العسكرية والنفسية وقمع السلطات وجور الحكومات، فعاشت تناقضات متنوعة، ولكن بقيت الانقسامات سياسية وفكرية، أما الأجيال التي ستحيى في القرن الحادي والعشرين، فإنها ستحيى تناقضات من أنواع أخرى، إن جيل اليوم وهو عند بدايات قرن جديد لا يفكر تفكيراً عقلاًياً أو رومانسياً أو جدلياً أو نضالياً أو تقديمياً، إنه منشغل اليوم بالخزعبلات أو الأوهام أو الانقسامات والكراهية وعبادة الذات ونشر الانتماءات، وقد غلبت الذات على الموضوع، والأوهام على الحقائق، والكراهية على التسامح، مسخت الثقافات الجديدة والفكر الحر إلى أقتنية وأزقة وانغلاقات، تحولت الأوطان إلى سلعة من الدرجة الخامسة وغلبت النزاعات العرقية والطائفية على التفكير، بحيث أجد الأب لا يكره أي شعب أو أي مجتمع، ولكن ابنه مشبع اليوم بكراهية هذا الشعب أو ذاك العرق أو هذه الطائفة أو تلك الملة!! مرة أخرى ننادى بتغيير السياسات وتحديث الأنظمة والقوانين، ننادى بتجديد الأفكار وتغيير المناهج، بإصلاح الإعلام والتربية والتعليم، ننادى بتطوير الجامعات

ومضامينها وعناصرها، مجتمعاتنا إن بقيت على حالها، فهي ستدفع أثمانًا باهظة في المستقبل، ينبغي التفكير بتأسيس إستراتيجية جديدة لتغيير مجتمعاتنا نحو الأفضل، إن صناع القرار لا بد أن يعتمدوا على أناس تحترم المعرفة، إن خلق بيئة جديدة يتمتع فيها الناس بسلوكيات من نوع آخر، فإن الوعي والعقل سيولدان ثقافة مدنية من نوع جديد في المجتمع، وإن الثقافة المدنية ستأخذ بيد المعرفة شيئًا فشيئًا، إن أجيال الأمس سترحل في غضون 10-20 سنة، وليس أمام الأجيال الجديدة إلا مشكلات الدواخل وأزمات ميراث صعب إزاء عالم يتقدم بسرعة مذهلة.

ولغرض إنهاء جذور التخلف الثقافي من واقعنا يتطلب العناصر الآتية:

أ- إعادة بناء ثقافتنا الاجتماعية على أساس المسؤولية والعمل والعمران، فلا يمكن أن نتجاوز تأثيرات التخلف الثقافي المتعددة، إلا ببناء ثقافة اجتماعية جديدة، تعطي من شأن العمل وتحمل المسؤولية، وتحذر من الترهل والتكاسل، وتؤسس لحقائق التعاون والتضامن بكل صورهما وأشكالهما. فالثقافة الاجتماعية الجديدة هي جسرا للعبور إلى الواقع الجديد الذي يتجاوز كل حالات التراجع والتدهور وتوقف حركة البناء والإبداع.

ب- بلورة إرادة مجتمعية مستديمة، تأخذ على عاتقها ترجمة هذه التطلعات ونقل الطموحات من مرحلة الوعد إلى مرحلة الانجاز. فإنهاء كل جذور التخلف الثقافي وأشكاله ومظاهره من فضائنا الاجتماعي يتطلب إرادة صلبة ومستديمة وعمل متواصل يهدف إلى تفكيك بنية التخلف الثقافي ومجابهة كل تأثيراته وانعكاساته.

ج- التفاعل الخلاق مع الثقافات الإنسانية ورفض كل صيغ الانزواء ومحاولات الانطواء لأنهما تمنعنا من التعرف على حقائق الثقافات الإنسانية الأخرى، ومن المؤكد أن التفاعل الخلاق مع الثقافات الإنسانية سيوفر لنا القدرة على الاستفادة من منجزاتهم الإنسانية ومكاسبهم الحضارية.

2- التخلف الفكري

قبل الخوض في تفاصيل هذا النوع من التخلف لا بد من التطرق إلى بعض المفاهيم ذات العلاقة بهذا المفهوم ندرجها كآتي:

أ- القدرة الفكرية

القدرة الفكرية مزيج من القدرات الوظيفية التي يستخدمها الإنسان، تختلف من شخص لآخر حسب العمر والبيئة التي يعيش فيها، وما أكتسبه الفرد في هذه الحياة من تجارب.

ب- الذكاء

هو قدرة عقلية عامة تستلزم القدرة على الاستدلال، والتخطيط، وحل المشكلات، والتفكير المجرد، وفهم الأفكار المعقدة، والتعلم بسرعة والتعلم من الخبرة.

ج- مفهوم التخلف الفكري

انه من الصعوبة بمكان وضع تعريف جامع لهذا المفهوم ،إذ يختلف التعريف حسب المنظور والجهة التي قامت بأعداده، وتعدد وتتغير مع السنوات، ومع هذا كان هناك التعريفات الآتية:

1- التعريف الطبي : فالأطباء يركزون على وصف الحالة - الأعراض - المسببات.

2- التعريف السك ومترى : أخصائي علم النفس يركزون على معدل الذكاء.

3- التعريف الاجتماعي : المختصين في علم الاجتماع يقيسون الذكاء من خلال مقدرة الفرد على التفاعل مع المجتمع واستجابته للمتطلبات الاجتماعية، وهو ما يسمى السلوك التكيفي ومن ثم ظهر تعريف الجمعية الأمريكية للتخلف العقلي الذي مزج كل تلك التعريفات في تعريف واحد، وقد اختلف هذا التعريف خلال السنوات الماضية، حتى ظهر التعريف الأخير عام 2002. فقد قامت الجمعية الأمريكية للتخلف العقلي عام 2002 بتعريف التخلف الفكري (American Association on Mental Retardation 2002) بأنه أعاققة تتميز بالقصور الواضح في كلاً من القدرات الفكرية والسلوك التكيفي المعبر عنه بالمهارات الكيفية العملية - الاجتماعية - التصورية ، ويظهر قبل الثامنة عشر من العمر، وهناك خمسة نقاط أساسية لتطبيق هذا التعريف:

1- القصور في الوظائف الحالية وهنا يجب الأخذ بعين الاعتبار التأثيرات البيئية التي يعيش فيها أقرانه من نفس العمر والثقافة.

2- يعتبر التقييم جيداً عندما يأخذ في الحسبان الفروق الثقافية واللغوية، كما الاختلاف في العوامل التواصلية، والحسية، والحركية، والسلوكية.

3- في نفس الفرد فإن القصور عادة ما يصاحبه جوانب قوه.

4- الهدف الرئيسي من وصف القصور هو إيجاد خطة فردية لدعم احتياجاته.

5- بالدعم المناسب للفرد على المدى البعيد فإن الحياة الوظيفية للشخص المصاب بالتخلف الفكري عادة ما تتحسن.

وحل هذا التعريف مكان التعريف السابق من جرو سمان عام 1983 Grossman ، ونصه: " تمثل الإعاقة العقلية مستوى من الأداء الوظيفي العقلي والذي يقل عن متوسط الذكاء بانحرافين معياريين ، ويصاحب ذلك خلل واضح في السلوك التكيفي ، ويظهر في مراحل العمر الإنمائية منذ الميلاد وحتى سن 18 سنة.

د- المرض العقلي (الجنون) والتخلف الفكري

هناك خلط في المفاهيم لدى أغلب الناس بين التخلف الفكري والمرض العقلي ، ففي حالة المرض العقلي المسمى أحيانا بالجنون ، يولد الطفل وتنمو قواه العقلية وذكاءه بطريقة طبيعية ، ولكن لوجود عوامل وأسباب عديدة تؤثر على قواه العقلية تصبح تصرفاته غريبة وغير مقبولة من المجتمع الذي يعيش فيه ، وقد يكون ضاراً لنفسه وللآخرين لدرجة تمنعه من العيش معهم.

أما التخلف الفكري فهو القصور والتوقف عن اكتساب المهارات الفردية⁽³⁾ ، مما يؤدي إلى قصور ونقص في القدرات الذهنية مقارنة بالأطفال في نفس العمر ونفس المجتمع، ومن سمات التخلف العقلي:

-المرض العقلي نادرا ما يحصل في سن الطفولة المبكرة.

- المرض العقلي لا يشترط أن يكون فيه قصورا في الأداء العقلي.

- المرض العقلي يحدث نتيجة لإضرابات انفعاليه ونفسيه داخل الفرد.

وفي هذا الصدد يمكن إدراج حالتين هما:

-بطيئين التعلم

هي تلك الحالات التي يكون فيها معدل الذكاء 70-84 ، أي أن معدل الذكاء يقل عن المتوسط بانحراف معياري واحد، فهم ليسوا متخلفين فكرياً، وليس السبب هو وجود صعوبات محددة للتعلم.

-صعوبات التعلم

هي تلك الحالات التي يكون معدل الذكاء فيها طبيعي 85-145، ولكن هناك صعوبات قد تكون محددة في التعلم مثل صعوبة القراءة أو صعوبة في الكتابة، أو صعوبة في الرياضيات، وفي باقي الأنشطة التعليمية يكون جيداً.

هـ- تصنيف التخلف الفكري

تعددت التصنيفات التي تقسم التخلف الفكري والإعاقة العقلية حسب المنظور المحدد ، وهي:

1-التصنيف بحسب المسببات:

-الأسباب الوراثية (ما قبل الولادة)

-الأسباب البيئية (أثناء الحمل والولادة)

2-التصنيف بحسب الشكل الخارجي:

-المتلازمات : متلازمة داون، متلازمة ادوارد، متلازمة باتو.

-اضطرابات التمثيل الغذائي مثل فينيل كيتون يوريا PKU ، الجلاكتوسيميا Galactosemia،

تي ساك Tay-Sac disease

-نقص الهرمونات مثل قصور الغدة الدرقية - القماءة.

-صغر حجم الدماغ

- كبير حجم الدماغ ، الاستسقاء الدماغي.

3-التصنيف بحسب معدل الذكاء:

- معدل الذكاء 55-69 - معدل الذكاء أقل من المتوسط 2-3 انحراف معياري - الإعاقة

العقلية البسيطة.

-معدل الذكاء 40-54 - معدل الذكاء أقل من المتوسط -3-4 انحراف معياري - الإعاقة

العقلية المتوسطة

- معدل الذكاء 25-39 - معدل الذكاء أقل من المتوسط -4-5 انحراف معياري - الإعاقة العقلية الشديدة.

- معدل الذكاء أقل من 25 - معدل الذكاء أقل من المتوسط -5 انحراف معياري - الإعاقة العقلية الاعتمادية.

4-التصنيف بحسب البعد التربوي:

-القابلين للتعليم - الإعاقة العقلية البسيطة.

-القابلين للتدريب - الإعاقة العقلية المتوسطة.

- غير القابلين للتدريب أو التعليم - الإعاقة العقلية الشديدة.

-الاعتماديون - الإعاقة العقلية الشديدة جداً.

5-التصنيف بحسب معدل الذكاء وقدرة التكيف الاجتماعي:

هو التصنيف المعتمد من الجمعية الأمريكية للتخلف الفكري، ويتم التصنيف كما يأتي:

- الإعاقة العقلية البسيطة - معدل الذكاء 55-69، معدل الذكاء أقل من المتوسط 2-3 انحراف معياري - القابلين للتعليم.

- الإعاقة العقلية المتوسطة - معدل الذكاء 40-54 - معدل الذكاء أقل من المتوسط 3-4 انحراف معياري - القابلين للتدريب.

- الإعاقة العقلية الشديدة - معدل الذكاء 25-39 - معدل الذكاء أقل من المتوسط 4-5 انحراف معياري - غير القابلين للتدريب أو التعليم.

- الإعاقة العقلية الشديدة جداً - معدل الذكاء أقل من 25 - معدل الذكاء أقل من المتوسط 5-5 انحراف معياري - الاعتماديون.

3- التخلف الاقتصادي

التخلف الاقتصادي ظاهرة مركبة متعددة الأبعاد ومعنى ذلك أنها ظاهرة تتفاعل في إيجادها جميع جوانب المجتمع بدرجة أو بأخرى حيث أن التخلف الاقتصادي لا يوجد في مجتمع ما بمفرده متعايشاً مع تقدم سياسي واجتماعي وإنما يوجد وسط تخلف سياسي واجتماعي وثقافي ومن ثم فإن توفير نظام سياسي واجتماعي وثقافي رشيد يمكن أن يحقق مستوى اقتصادياً متقدماً. والتنمية الاقتصادية وهي مطلب غالب الدول النامية لا تتم في صورة أحادية حيث أنها عملية إنسانية شاملة تتطلب متغيرات اقتصادية وكذلك عوامل نفسية واجتماعية⁽⁴⁾. وبالتالي فإن الانصراف نحو التركيز على المتغيرات الاقتصادية وحدها دون الوضع في الاعتبار الأهمية

النسبية لباقي المتغيرات الأخرى الثقافية والاجتماعية والسياسية هو تشويه لحقيقة ومعنى التخلف الاقتصادي.

أ- مفهوم التخلف الاقتصادي

لفظ العالم الثالث يطلق على الدول المتخلفة تمييزا لها عن دول العالم الأول الرأسمالي ودول العالم الثاني الاشتراكي (سابقا) والتي تتمثل في الدول التي يقل متوسط الاستهلاك والرفاهية المادية لسكانها عن البلاد المتقدمة وذلك على الرغم من إمكان تحسين الأوضاع الاقتصادية فيها بوسائل معروفة وواضحة⁽⁵⁾.

ومن خلال هذا التعريف فإن مفهوم التخلف الاقتصادي يفترض وجود موارد كافية يمكن استغلالها والاستفادة منها ولكن لا يتم استغلالها وبالتالي فهذا التعريف يميز بين الدول الفقيرة التي تقل فيها الموارد والثروات، وقد تكون هذه الدول الفقيرة راغبة في التقدم، ولكن لفقير إمكاناتها المادية تقهدها عن النمو، أما الدول المتخلفة فسبب تخلفها لا يرجع إلى محدودية الموارد الإنتاجية كما في الدول الفقيرة بقدر ما يرجع إلى الاستخدام الرديء للموارد الاقتصادية، وهذا الاستخدام الرديء قد يأتي في صورة إهمال الموارد تماما أو الاستخدام الجزئي لها أو سوء استخدامها كأن تستخدم في نشاط صحيح بنسبة خاطئة أو تستخدم في نشاط خاطئ من الأصل، هذا إلى جانب أسباب أخرى قد تأتي من خارج العملية الإنتاجية كالبيئة المحيطة بالعملية الإنتاجية وآثار خصائصها السلبية عليها وكذلك الآثار السلبية للعلاقات الاقتصادية الدولية كالاستثمارات الأجنبية وطبيعة المنتجات المتبادلة. والتخلف الاقتصادي ينشأ في بيئة مختلة اجتماعيا وحضاريا حيث أن الدول المتخلفة اقتصاديا متخلفة حضاريا أيضا.

ومما سبق نخلص إلى أن التخلف الاقتصادي ليس مرادفا للفقير وإنما هو خلل اقتصادي وحضاري واجتماعي ساعدت علي نشوئه عوامل عديدة وتميزت الدول المتخلفة بوجود موارد ضخمة مع توافر إمكانات بشرية ومادية لازمة للارتفاع بمستوي المعيشة ومع وجود تخلف في طرائق الإنتاج والتنظيم الاجتماعي والتطبيقات الاقتصادية لاستغلال هذه الموارد ومن ثم النهوض بالدولة المتخلفة والوصول بها إلى درجات عالية من النمو الاقتصادي.

ب- مقاييس التخلف الاقتصادي

استخدمت في قياس ظاهرة التخلف الاقتصادي وتحديد مداها ومستوى أو درجة التقدم أو التخلف بين الدول المختلفة معايير متعددة، فمثلا معيار مستوى متوسط نصيب الفرد من الدخل القومي أخذ معيارا مناسباً للفرقة بين الدول المتخلفة والدول المتقدمة وترتيب الدول المتخلفة بالنسبة لبعضها البعض، ويعتبر بعض الباحثين أن الدول المتخلفة هي التي يقل فيها

متوسط دخل الفرد في السنة عن مقدار معين من الدولارات أو أن الدول النامية لا يتجاوز فيها دخل الفرد في السنة عن 4/1 متوسط دخل الفرد الأمريكي⁽⁶⁾.

كما تقسم دول العالم المختلفة إلى مجموعات تبعا لمستويات متوسطات الدخل، هذه المجموعات هي الدول الشديدة التخلف والمتخلفة نوعا والدول المتقدمة نسبيا والدول المتقدمة. ويعتري هذا المقياس قصورا واضحا حيث لا يكفي وحده كمعيار دقيق للدلالة على الأوضاع الاقتصادية ومستويات المعيشة في الدول المتخلفة وطرق التوزيع فيها كما أنه على الرغم من انخفاض مستويات الدخل الفردية في الدول النامية بصفة عامة إلا أن هناك من هذه الدول دولا نفطية يزيد فيها متوسط دخل الفرد عن متوسط الدخل الفردي السائد في كثير من دول العالم تقدما.

ولتلافي القصور في هذا المقياس فإن بعض الاقتصاديين يرى أن يضاف إلى هذا المقياس بعض المقاييس الأخرى التي تعبر عن مستوى الاستهلاك من سلع أساسية وبعض سلع الرفاهية الاجتماعية كالمياه والكهرباء والتلفاز والمستوي التعليمي للسكان ومستوي الرعاية الصحية المتوفرة لهم⁽⁷⁾. وهي جوانب هامة توضح نواح من معيشة السكان إلا أنها لا تعبر عن كافة النواحي التي يتعين التعرف عليها للحكم على مدى تقدم دولة أو تخلفها كإهماله لنواحي هامة كالإنتاجية والعمالة ومستوي الفن الإنتاجي والادخار والاستثمار ومدى توافر الموارد الإنتاجية للاقتصاد وطبيعة استغلال الموارد المتاحة ومدى التناسق بين قطاعات ومؤسسات الاقتصاد المختلفة.

وقد أدى ذلك إلى وضع أكثر شمولية للفرقة بين الدول النامية والدول المتقدمة وهو مدى قدرة الدولة على توفير احتياجات السكان الاقتصادية والاجتماعية والبيولوجية والنفسية وغيرها من سائر الاحتياجات الإنسانية، ووفق هذا المعيار فإن (الدولة المتخلفة هي التي توفر لسكانها من احتياجاتهم قدرا أقل مما توفره الدول المتقدمة)⁽⁸⁾.

إلا أنه معيار غير قابل للقياس في حد ذاته ولا يوجد هناك طريقة لترجمته إلى مقياس عملي لتقدير مدى إشباع هذه الحاجات لعدم وجود معايير موضوعية لتقدير هذه الاحتياجات والتي تختلف باختلاف الأفراد والبيئات والمدد الزمنية وغيرها من عوامل أخرى عديدة ولأنه أيضا لا يبين الموارد المتاحة للمجتمع ومدى استغلال هذه الموارد وأساليب هذا الاستغلال أو تكلفته.

ونخلص مما سبق بأنه من الصعوبة بمكان الوصول إلى تعريف مانع جامع لا يعترضه القصور لمقياس التخلف الاقتصادي وليس معنى ذلك إسقاط أدلة هذه المعايير التي أبرزت درجات التخلف ولكن ما ينبغي الإشارة إليه هو أن هذه المعايير تتبع مدارس فكرية تختلف عن واقع الدول المتخلفة، ولذا فإن هذه الدراسات التي تتبع من تلك المدارس عادة ما توصي

بمعلاج لهذه المشاكل من خلال سياسات واستراتيجيات إنمائية قد لا تتناسب ظروف هذه الدول النامية وحاجتها إلى وسائل معينة للعلاج أو أنها تفرض عليها من خلال مؤسساتها الاقتصادية طرقا لا تتناسب مع بيئتها الاقتصادية ولا تتفق مع إستراتيجيتها الاقتصادية ومن ثم تقع فريسة لحالة من التبعية الفكرية والاقتصادية.

ج- المفهوم الإسلامي للتخلف الاقتصادي

ينظر الإسلام إلى التخلف على أساس القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على أنه تراخ عن العمل والسعي في طلب الرزق وعماراة الأرض بشكل فعال، فإن الله قد أعطى للإنسان العديد من الثروات والنعم التي لا تحصى وطالبه بعماراة الأرض يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: الآية 61) وأن الإسلام يساعد الفقراء من مال الصدقة ولا يساعد المتخلفين أو القاعدين عن العمل بغير عذر وحديث الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) مع الرجل الذي يريد مسألة وباع له الرسول ما يملكه في بيته عن طريق المزاد وقال له اذهب واحتطب وبع ولا أرينك إلا بعد خمسة عشر يوما لهو دليل بين على مقت الرسول للقاعدين والمتخلفين.

وهكذا فرّق الإسلام بين الفقر والتخلف واعتبر الفقير له حق معلوم في الزكاة وموارد بيت المال أما المتخلف عن ركب التقدم فقد لعنه وتوعده إذا سأل وهو قادر على الكسب. أما عماراة الأرض فهي مطلب شرعي غير مقصور على البعد المادي المتمثل في إنتاج ما من المنتجات بل يشمل أبعادا أخرى اجتماعية وثقافية وأخلاقية حيث تهدف عماراة الأرض إقامة مجتمع المتقين الذي يتمتع بمستوى معيشي طيب يصل إليه بزيادة الإنتاج إلى أقصى حد مع استشعار تقوى الله في ذلك فإذا أصيب المجتمع بمصيبة التخلف، ومن ثم فإن هناك ثلاثة معايير يمكن النظر إليها على أنها تفرقة بين الدول المتخلفة والدول المتقدمة وذلك في المفهوم الإسلامي:

- 1- وجود الموارد الطبيعية الملائمة.
- 2- وجود الجهد البشري الفعال الذي يتعامل مع تلك الموارد أو يحيلها إلى منتجات نافعة.
- 3- وجود القيم التي تضمن بصفة مستمرة تفاعل الجهد البشري مع الموارد ومن ثم دوام عملية الإشباع المتزايد للحاجات.

إذا تواجدت تلك العناصر مجتمعة يعتبر المجتمع مجتمعا متقدما أو بالتعبير القرآني مجتمعا يحيا حياة طيبة تجمع بين رغد العيش واطمئنان النفس يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (النحل: الآية 97). وتعد عماراة الأرض من أهم الأعمال الصالحة. وإذا تخلف فيه عنصر من العناصر السابقة فقد المجتمع طيب الحياة فإذا

خلا من الموارد الطبيعية المناسبة فعليه أن يبذل قصارى جهده في تعويضها وإلا كان فقيرا وليس متخلفا ما دامت بقية العناصر قائمة.

وإذا فقد الجهد البشري في عمليات الإنتاج مع توافر الموارد فإنه في تلك الحالة يعتبر متخلفا في إمكانه التقدم ولم يفعله وإذا فقد مجموعة القيم الصالحة التي تضمن دوام التلاحم ونمو الإنتاج وعدالة توزيعه فإن ضخامة إنتاجه الاقتصادي لن تستمر طويلا، وإذا كان متقدما فهو تقدم وقتي سرعان ما يزول يقول تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل: الآية 112).

ومما سبق نخلص بالقول إلى أن الإسلام ربط المشكلة بالإنسان وبما هو عليه من قيم أي ربط المشكلة بجذورها الثقافية والاجتماعية العميقة مع عدم تجاهل عنصر المال ولا عنصر النشاط الاقتصادي للإنسان أي العنصر المادي في التقدم. وهذا الكلام ينطبق على الدول العربية تماما بعد أن توفرت لها جميع أنواع الموارد إلا إن الإنسان العربي أضحي كسولا اتكاليا لا يبالي بشأن نفسه ودينه ومستقبله، بعبارة أخرى تنطبق عليه الآية القرآنية الكريمة حينما ضرب الله بها مثلا عندما كفرت تلك القرية بأنعم الله فلا عجب أن صب الله عليهم سطوة الكفر واللعنة والاحتلالات وفقدان الاحترام والهيبة في المجالس الدولية وما خفي ربما أعظم والله المستعان.

د- ظاهرة التخلف الاقتصادية في المجتمعات الإسلامية وكيفية قياسها

تعاني جميع البلدان الإسلامية اليوم من التخلف الاقتصادي فهذا لا خلاف حوله، حيث وقعت هذه الدول في قارة التخلف الاقتصادي كما أن معظم تلك البلدان قد أخفقت في أن تكون لها آلية نمو ذاتية نابعة من داخلها، فقد نتج التخلف الاقتصادي من تمزق النظام الاجتماعي للمجتمعات الإسلامية بسبب الهيمنة الأجنبية الطويلة وأدى شلل المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى عجزها عن الوفاء بحاجات الناس وإحداث تطور حقيقي، حيث ربط الاستعمار اقتصاده باقتصاديات الدول الإسلامية تكملة له وكرتباط التابع بالمتبوع حيث حرص الاستعمار على عدم السماح للمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية أن تؤدي دورا في إحداث عملية نمو ذات جذور محلية بل على العكس، فقد حرص على أن تحدث التنمية الاقتصادية على يد أنواع من المؤسسات الغربية.

ه- قياس التخلف الاقتصادي في المفهوم الإسلامي

ركز المنهج التقليدي على معدل تزايد الدخل الفردي الحقيقي كمقياس للتنمية والتخلف الاقتصادي وزاد عليه مؤشرات أخرى مثل معدل البطالة والعدالة في توزيع الدخل إلا أن هذا المقياس لا يصلح وحده لقياس التخلف في المفهوم الإسلامي حيث يرى أحد الباحثين أن المقياس الصحيح يجب أن يتعدى استخدام كل نماذج النمو الإجمالية المبسطة والتي تهتم

بالتركيز علي الحد الأقصى لمعدل النمو علي أنه المؤشر الوحيد للتنمية وأن عدم تحقيقه يمثل صورة للتخلف إذ أن هناك المقياس الاجتماعي ومدى توزيع ناتج التنمية علي مستحقيها (9).
ويقترح البعض مقياساً آخر للتخلف الاقتصادي بعد رفض مقياس دخل الفرد في المتوسط ويسمى المقياس الإسلامي وهو الوضع الحقيقي لكل فرد في المجتمع في صورته الحقيقية المتمثلة في السلع والخدمات التي يمكن الحصول عليها (10)، علي أنه لم يتضح الفرق بين هذا المقياس ومعدل الدخل الفردي الحقيقي الذي بسطته كتابات التنمية الاقتصادية في المنهج التقليدي.

ويقترح آخرون مقياساً للتخلف والتقدم من خلال مدى الالتزام بالإسلام كعقيدة أو شريعة ويمكن في ذلك استخدام مؤشرات معينة مثل مدى الأخذ بالأصول والمبادئ الدستورية في نظام الدولة ومدى إقامة المؤسسات الإسلامية ونشر الدعوة وتوفير المساجد وأجهزة البريد وجهاز الحاسبة وما إلى ذلك (11).

ومما سبق نخلص إلى أن محاولة تفسير ظاهرة التخلف التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية من منظور إسلامي تحتاج منا إلى وقفة للتعرف علي ماهية هذه المجتمعات وذلك لأن ظاهرة التخلف لها سمات عامة تشترك فيها الدول المختلفة بغض النظر عن الدين والذي يجعل ظاهرة التخلف في الدول الإسلامية لها سمات خاصة بها هو أن كثيراً من المجتمعات الإسلامية في زمننا قد ورثت الإسلام كدين تؤدي فرائضه الدينية علي أحسن تقدير أما ما يتعلق بما يتطلبه الدين الإسلامي من ممارسات يومية وأنظمة وغيرها فلا وجود له ولهذا فإن تفسير ظاهرة التخلف التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية الحالية لا تختلف مع ظاهرة التخلف التي تعاني منها الدول غير الإسلامية بما تشتمل عليه من سمات، والمسألة لم تعد مسألة انتقال الجنوب من حالة التخلف إلى مصاف الشمال المتقدم علي الرغم من أن هذا الانتقال شبه مستحيل بل إن المسألة هي كيف يمكن تحقيق نموذج عالمي بديل يتجاوز الأزمة الحضارية التي بلغتها تجارب الدول المتقدمة نفسها وهي تجارب قامت علي مفهوم السيطرة ذي حدين : سيطرة الإنسان علي الإنسان وسيطرة الإنسان علي الطبيعة وهو مفهوم كانت نتيجته تفاوتاً في المشهد بين بلدان أو طبقات غنية تتمتع بمستوي معيشي واستهلاكي مرتفع وبين بلدان أو طبقات ما زالت تشكو من الجوع والحرمان والفقر والجهل والبؤس والتخلف من جهة وإخلاقاً رهيباً في النظام الطبيعي إلى حد بات يهدد مستقبل الحياة علي الأرض من جهة أخرى.

وبالتالي تبقى الحاجة إلى نموذج بديل يتجاوز هذه النماذج ومنظومة أخرى تحقق المصالحة بين الإنسان والإنسان من جهة والإنسان والطبيعة من جهة أخرى وكله لا يأتي إلا من خلال العودة إلى تعاليم الله وشريعة السماء.

و- أسباب التخلف الاقتصادي

ظهرت العديد من التفسيرات الخاصة بتحليل ظاهرة التخلف وأسبابها وفي معظمها تحمل تحليلات تعبر عن وجهة نظر المدرسة التي ينتمي إليها صاحبها كان يكون اشتراكي أو رأسمالي، حيث ترى المدرسة الفكرية الرأسمالية بان أسباب التخلف ترتبط بطبيعة المجتمعات النامية ومنها سوء التخطيط واللاعقلانية في التصرف بالمواد الأولية وضعف التعليم والأمية، في حين يربط العالم الاشتراكي ظاهرة التخلف التي تعاني منها شعوب العالم النامي بظاهرة الاستعمار، وهناك من يرى التخلف تعبير لوصف بلد أو مجتمع مقارنة ببلد أو مجتمع آخر على أساس التطور الاقتصادي والحضاري، وتفسيرات ظاهرة التخلف يمكن إدراجها كالاتي:

1- انخفاض الدخل القومي: إذ تواجه الدول النامية ضعفا في الجهاز الإنتاجي وعدم كفاءته مما يؤدي إلي انخفاض الدخل القومي ونصيب الفرد منه ووجود جزء كبير من الثروات غير المستغلة وفي حالة استغلالها لا تستغل الاستغلال الأمثل.

2- الزيادة السكانية الكبيرة: تشكل الزيادة السكانية الكبيرة مشكلة كبيرة في الدول النامية على عكس الدول المتقدمة ويرجع ذلك إلى زيادة نسبة المواليد وانخفاض الوفيات نتيجة تقدم الوضع الصحي، فضلا عن جهل أسر الدول المتخلفة بنظام تحديد النسل أو تقنين الإنجاب وبالتالي تصبح العملية الزوجية دون ضوابط واليات تسييرها بشكل منظم، مما ينتج عن ذلك تكديسات بشرية عالية وفقر وحرمان في التعليم وانتشار الجريمة وغيرها من الأضرار.

3- الفن الإنتاجي: أدت الثورة الصناعية في الدول الأوروبية إلى زيادة التقدم الإنتاجي مما أدى إلى رفع مستوي الإنتاجية لاعتماد هذه الدول على الآلات المتقدمة في الإنتاج بينما الدول النامية لا تزال تعتمد على العمل اليدوي وينقصها الفنيين ذوي الخبرة مما يؤدي إلى تأخر إنتاجية العمل وانخفاض الدخل القومي.

4- البطالة: تشكو الدول النامية من العديد من أنواع البطالة أهمها: البطالة التي تتولد عن اختلال التوازن بين العلاقات السائدة بين مختلف عناصر العملية الإنتاجية وخصوصا عنصر العمل ويرجع شيوع هذه البطالة في الدول النامية إلى توافر الأيدي العاملة غير المدربة، والبطالة المقنعة وهي تطلق على العمال الذين يعملون في أعمال تافهة أو معدومة القيمة اقتصاديا، والبطالة الموسمية ويقصد بها العمال الذين يظلون بلا عمل في بعض المواسم ويعود هذا النوع من البطالة إلى التقلبات الموسمية في الطلب على العمال وينتشر هذا النوع من البطالة في البلاد الزراعية.

5- سيادة الثقافات غير الاقتصادية: يسود الدول المتخلفة ثقافات غير مشجعة على العمل بسبب بعض معتقدات الاتكال والنظر إلى العمل نظرة متدنية تفقده المكانة الاجتماعية وسيطرة العادات والتقاليد البالية والمتخلفة وضعف الحافز لكسب النقود بسبب العجز أو عدم تقدير عامل الوقت وعدم احترام العمل الذي هو شرف وواجب وفريضة فرضها الإسلام في

آيات قرآنية عديدة قال تعالى: ﴿ وَقَلِّ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة: الآية 105) وفي قوله تعالى: ﴿ اَعْمَلُوا آل دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سبأ: الآية 13).

6- تخلف البيئة الاجتماعية: يوجد الكثير من العادات والتقاليد الاجتماعية التي تؤدي إلى التخلف الاقتصادي مثل: ارتفاع نسبة الأمية وانخفاض مستوى التعليم وتأخر المرأة في كثير من المجالات وفساد البيئة السياسية ووجود ظاهرة عمل الأطفال والإنفاق البذخي وخاصة في ظل سوء توزيع الدخل.

7- الحتمية الجغرافية: يحاول هذا التفسير إرجاع ظاهرة التخلف إلى العوامل الجغرافية كالمناخ، من خلال ارتفاع درجة الحرارة التي تتسم فيها بلدان العالم المتخلف على الأرجح، والذي يورث الكسل ويعيق التقدم لان كثيرا منها يقع في المناطق المدارية، لذلك ظهرت نظرية تقول إن الدول والمجتمعات التي تعيش في المناطق الحارة هي دول متخلفة أو نامية في حين تقع الدول المتقدمة في المناطق الباردة، كما تقول هذه النظرية بان السب وراء انخفاض نسبة مساهمة الدول النامية في الإنتاج الغذائي العالمي إنما يعود إلى ارتفاع الحرارة التي تؤدي إلى ضعف خصوبة التربة.

ولا يمكن الأخذ بهذه النظرية بالكامل لأسباب عديدة وفي مقدمتها إن هذه النظرية تتجاهل حقيقة أساسية هي إن الحضارات القديمة كحضارة وادي الرافدين والنيل قامت في مناطق حارة وبان هناك عدد من دول العالم الثالث تقع في المناطق الباردة كتركيا مثلا، إلا أن الحق يقال بان هناك فرق كبير بين تركيا والعرب وبين تركيا وشعوب أمريكا اللاتينية أو أفريقيا في كافة المجالات مما يعطي بعض الصدفية إلى ما تتضمنه هذه النظرية، هذا من جانب، ومن جانب آخر إن حضارتي وادي الرافدين والنيل قامت في مدة من الزمن لكن أين هي الآن؟ ولماذا لا تستمر؟ وهل توجد حضارة عريقة اليوم في الدول التي تقع ضمن المناطق الحارة؟ كل ذلك يدعم صحة النظرية. لكن الذي لا يتوافق مع ما جاءت به النظرية الثورة المايزية (المهاتيرية) التي استخدمت التكنولوجيا بقوة وحققت انجازات هي نفسها في دول العالم المتقدم، ما يعني أن الحرارة مهما ارتفعت سترفع معها الهمم إن أرادت الشعوب أن تبلغ الذرى، هذا إن أرادت!! بدليل أن الظروف المناخية في الوطن العربي متنوعة وهي بهذا تساعد على تنوع في الإنتاج الزراعي وبالتالي أنتاج الغذاء لكن السودان والعراق ومصر وهي دول تتوفر فيها كل مقومات الحضارة من ماء وإنسان وارض ومناخ لكنها تقع في ذيل السلم الحضاري العالمي!!

8- نظرية الحلقة المفرغة للفقر: حيث ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية ولا يزال العديد من الاقتصاديين الغربيين يؤمنون بها وهي نظرية استعمارية قائمة على أساس وجود مجموعة

من العوامل التي تؤثر الواحدة بالأخرى وتؤدي إلى خلق حلقات تراكمية من التخلف يصعب على هذه البلدان أن تتجاوزها فكل حالة من التخلف تؤدي إلى الأخرى، وهذه النظرية لا تنسجم في العديد من دول العالم الثالث التي تتمتع بفوائض مالية كبيرة ودخل مرتفع ولا تعاني من سوء التغذية وهذه النظرية تعتمد على السببية بين المتغيرات المذكورة (12).

9- النظرية الاقتصادية أو التفسير الاقتصادي : تشير هذه النظرية إن عدم توفر المواد الأولية في معظم دول العالم الثالث هي السبب وراء هذا التخلف في حين أن العديد من الدول الصناعية كاليابان وفرنسا لا تمتلك مواد أولية وهي دول متقدمة، كما أن دول العالم الثالث تضم أكبر وأضخم الثروات والموارد الطبيعية، فضلا عن تنوعها، وقامت الدول الاستعمارية باتخاذ مختلف الوسائل من أجل تجزئة هذه الدول ومنها الوطن العربي لضمان السيطرة عليها وسرقة ثرواتها (13) كما أن قوة الاحتكارات الرأسمالية وسيطرتها الكاملة على المواد الأولية والأسواق العالمية والسلع ورؤوس الأموال تحاول الدول الرأسمالية الاحتفاظ بالدول النامية من خلال ربطها بمظاهر التبعية الاقتصادية.

10- النظرية العرقية: التي تشير إن الأعراق البيضاء أو الجنس الأبيض هي القادرة على التطور ويراد بها الدول المتقدمة أما الشعوب الملونة فهي التي تتسم بالتخلف، وهذه النظرية تحمل بصمات يهودية حينما يتجح اليهود بأنهم شعب الله المختار، وكذلك الألمان الذين يروجون إلى أنهم الجنس الأنقى أو المميز، وهذه النظرية أيضا فيها الكثير من الشك بدليل إن هناك شعوب بيضاء لكنها ليست متقدمة كما هو حال شعوب الشرق الأوسط مثلا، كما أن الرئيس الأمريكي باراك اوباما ملون لا بل اسود وهو يقود أكبر دولة متقدمة في هذا العصر.

11- العامل الديني: تشير هذه النظرية بان هناك أديان تساهم في التطور والتقدم ومُحفزة وبناءة، واديان مثبطة للهيم والتقدم، فحيثما توجد الأولى يوجد التقدم وحيثما توجد الثانية يوجد التخلف، ولا يمكن الأخذ بهذه النظرية أبدا فهناك العديد من مجتمعات العالم النامي تنتمي إلى نفس الديانات في الدول المتقدمة ولكنها متخلفة كالفلبين المسيحية مثلا في آسيا أو ألبانيا المسلمة في أوروبا .

لذلك، ومن الواضح تماما أن هذه النظريات الخاصة بدراسة عوامل ظاهرة التخلف غير قادرة على الصمود أمام العديد من الحقائق ومنها انه ليست جميع بلدان العالم النامي هي كذلك في تاريخها الطويل بل لقد شهدت العديد منها قيام حضارات متميزة في الماضي، وهي تعيش نفس الظروف الجغرافية، كما لا يمكن الأخذ بنظرية الأعراق لان العالم اليوم يشهد قيام مجتمعات متطورة ومتقدمة كالصين واليابان، لذلك فان هذه النظريات هي أساسا قامت لتقديم تفسيرات تحاول من خلالها الدفاع عن الوضع الاقتصادي العالمي، ليبقى هذا التفاوت التتموي ما بين

الدول المتقدمة ودول العالم الثالث ،كما أن تطبيق هذه النظريات على الوطن العربي واستخدامها كمعايير لدراسة حالة التخلف في المجتمع العربي تعكس مرة أخرى عن ضعفها وتهافتها وعدم مصداقيتها .

ثالثاً- وجهات نظر حول التخلف

اختلف الباحثون حول تفسير ظاهرة التخلف كل حسب وجهة نظره لكننا نستطيع جمع تلك الآراء بما يمكن أن نطلق عليه: إن التخلف صناعة، وربما أحد علوم العصر الذي تميزنا به بحق؛ فنحن أمة تفوقنا في كل علم وفن، ومن أبرز هذه الفنون: فن التخلف، نحن أميون، وربما نفاخر العالم بذلك. إننا نصنع الأمية وننتجها، ولربما نصدرها إلى أطراف العالم من حولنا. التخلف عملة وطنية نحن من صنعها من أجل أن يتعامل بها الجميع، وهي العملة الوحيدة في العالم التي لها وجه واحد فقط، مرسوم عليه الجهل. نحن الوحيدون بين الأمم الذين نحارب الجهل بمزيد من الجهل.

ونحن من دون العالم نفاخر بأننا أمة "أقرأ" في حين ناصبنا القراءة كل العدا، وجعلنا من القراءة والكتب أعداء لنا منذ زمن بعيد. ونحن من بين كل الخلق الذين جعلنا شعار المرحلة- مع الاعتذار للشاعر عمرو بن كلثوم:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجَهْلٌ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

فنحن إذن من خلد الجاهلية مهما كان قصد الشاعر من كلمة جهل بريئاً وإيجابياً. لدينا جاهلية قديمة وجاهلية معاصرة ذات أصول، ويتم تدريسها في مدارسنا وجامعاتنا، وتتداولها في تعاملنا اليوم.

نحن نجهل ونتجاهل في كل شيء. لدينا مئات الفضائيات التي لا حصر لها تثبت في ثنايانا مختلف صنوف الجهل والتخلف، وتسلب أوقاتنا وربما عقولنا- إن بقي لدينا شيء منها. نتكلم كثيراً وجعلنا من القول فنوناً، ومن البلاغة صناعة، ومن السجع طريقة، ونمارس الكسل بكافة أنواعه التي من أهمها الكسل الفكري، فالدماغ في إجازة منذ قرون خلت، بانتظار صدمه كهربائية عليها تبعثه من سباته العميق.

نمارس الكره، وأحياناً الحقد ونرغب في الحرب، ونتبارى في الجهل والأمية. نمضي الساعات نبطلق في الشاشة الصغيرة وربما الكبيرة بحثاً عن شيء، ولا نجده. نضع الأطباق فوق سطوح بيوتنا، ونقلب المحطات وننام، ثم نصحو من أجل أن ننام من جديد.

نلقي مسؤولية كل مشاكلنا على الآخرين، على الاستعمار، وعلى القضاء والقدر، ونغمس رؤوسنا في الرمال. نشتم الآخرين وندعو عليهم بكل أصناف الدعاء، ونفنع أنفسنا أننا ما زلنا في مقدمة الأمم.

لا علاقة لنا بالإنتاج، ولا رغبة لنا في التطور، بل إننا قد نحارب من يقدم لنا فكرة قد تقود إلى تطورنا، نصدق كل شيء، ونؤمن بالخرافة، ونقدس الأسطورة، ونفرح بنشر الإشاعة. عاطلون عن العمل، وصنعنا من البطالة مهنة، بل إننا نعيب على غيرنا حين يعمل! لا نقرأ التاريخ، ونكره درس التاريخ في المدرسة، ونتأعب كثيراً، ولا ندري ماذا نصنع بالمعلومات التي يضحونها في رؤوسنا وعلى مسامعنا ليل نهار، نفاخر بأمجاد الماضي، ونزعم أن الأندلس كانت لنا، ولا نملك حاضراً مشرفاً نتحدث عنه. كل الأمم لها حاضر، ونحن ليس لنا إلا الماضي نتغنى به، نفاخر بخرافات الزير سالم ونباهي برجولة عنترة العبسي، ونذكر في مجالسنا كرم حاتم الطائي الأسطوري، ونسمي أولادنا وبناتنا أسماء ما انزل الله بها من سلطان، ونخلد أولئك الذين أورتونا الجهل والتهور وربما الغباء. نسخر من الآخرين، ولا يعجبنا العجب، ونظن أننا لا غالب لنا. ونمجد مفهوم الذات لدينا، ونعطي أنفسنا كل الحق أن نصنف العالم وكل من حولنا ونلصق بهم نعوتاً وألواناً بعدد ألوان قوس قزح.

نحن جاهلون رغم كثرة مدارسنا، وجاهلون رغم انتشار جامعاتنا، فليس من بينها جامعة واحدة استحققت أن تكون من بين أفضل خمسمائة جامعة في العالم الحديث، وجاهلون رغم أن كثيراً منا يحمل درجة الدكتوراه أو في طريقه إليها.

نمارس الشعوذة، ويذهب حتى المتعلمون إلى مشعوذي الطب. يضربون المرضى بحجة إخراج الجن من أجسادهم، ولا نؤمن بالطب النفسي ولا بقدرات العيادات النفسية، أليس هذا هو الجهل بعينه؟ وفي زمن الانفجار المعرفي الهائل، تتفجر لدينا مواهب تفسير الأحلام، والمعالجة من خلال الشعوذة، وكل ما هو بعيد عن العقل.

نجهل بتفوق، ونتخلف بجدارة، نصدق كل شيء، ولا ندقق في شيء، نعمم بالجهل ونتلذذ بحلاوته، ويقتلنا الكبرياء.. لا نقبل الاختلاف في الرأي، ونعلن الحرب ببساطة، فهذه الواحة لنا دوماً وأبداً، وخلال لحظات، ودون نقاش تمتد أيدينا إلى سيوفنا، ونعتلي ظهور خيولنا، فلا مجال لتفاوض، وكل من يقول رأياً معارضاً قد يصبح خائناً. نتخبط في الفكر، ولا مجال لاستخدام العقل، ونلعن العولمة، ونعيش في ظلها، فهنيئاً لنا لأننا ننعيم بالجهل، فقد صدق قول الشاعر فينا:

دُو الْعِلْمِ يَشْقَى فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ.

رابعاً - التخلف العلمي

يقول الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) " إذا أراد الله أن يذُلَّ إنساناً حرَّمهُ مِنَ الْعِلْمِ " و من إحدى مقولات المفكر الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد " الزمن الراهن ساحة معركة و السلاح فيها هو المعرفة".

لا شك أن التعليم في العالم العربي يعاني من أزمة عنيفة ومزمنة، وربما ظن البعض أنها أزمة مستعصية على العلاج؛ بسبب كثرة العوامل والأسباب شديدة التداخل والتعقيد الكامنة وراء هذه الأزمة، وفي الحقيقة ودون أدنى مبالغة أو تهويل، فإن أزمة التعليم في العالم العربي هي أزمة مصيرية؛ لأنها أزمة تمس عن قرب هوية الأمة وحاضرها ومستقبلها.

إن الإنسان بلا قراءة قرم صغير ، والأمة بلا كتاب قطيع هائم ، أن الصفة اللازمة للعباقرة في التاريخ مصاحبتهم للحرف وهيامهم للمعرفة ، حتى الجاحظ مات تحت كتبه ، و توفى الإمام مسلم صاحب الصحيح وهو يطالع كتاب ، وكان ابن عقيل يقرأ وهو يمشي و قال ابن الجوزي قرأت في شبابي ألف مجلد وقال المنتبي " وخير جليس في الزمان كتاب" ، أما الروائي الروسي تيولوستي " يقول إن قراءة الكتب تداوي جراحات الزمن فما قراء شبابنا اليوم؟! "

ابتعدت الأمة العربية اليوم عن مفاهيم القراءة المتعمقة فتأخرت عن ركب الحضارة ، إن ابتعاد الأمة عن منهجية التفكير السليم و مقومات العقيدة الإسلامية المنظمة لحياة الشعوب أدى إلى تردي حال الأمة لتغدو اليوم في خانة الهامش بعد أن كانت سادة العالم بعدلها وخيرها وقيمها السمة.

إن عبارة العرب لا يقرؤون وان قرأوا لا يفهمون ، هي شبة صحيحة ، لأن العرب يركزون حالياً على الإلقاء والمخاطبة الشفوية المتمثلة بالشعر ، ولم يركزوا على الكتابة منذ التاريخ القديم ، لان العرب مبالغين في تعظيم أنفسهم ولم يحبذوا الكتابة ،لان الكتابة لا بد أن تحمل نوعاً من النقد والنقد عن العرب غير مقبول حتى يومنا هذا . أما الدكتور عبد العزيز بن صالح الطويان عميد شؤون المكتبات في الجامعة الإسلامية وفهد إبراهيم الرشيد مدير المعارض بوزارة التعليم العالي بالمملكة العربية السعودية يختلفان وينفيان هذه العبارة جملة وتفصيلاً ،مشيرين إلى أن مقولة العرب لا يقرؤون وان قرأوا لا يفهمون عبارة قالها احد اليهود ،وذلك لإحباط العزيمة لدى العرب ، منوهين بأن العرب يقرؤون ولا يوجد هناك قطيعة بيننا وبين الكتاب وهذا اكبر دليل يتجسد في معارض الكتب الذي تشهد إقبالا كثيراً لشراء واقتناء الكتاب رغم الصعاب والظروف الاقتصادية التي تواجه الإنسان العربي.

إذا أردنا أن نندمج بالحضارة العالمية أو نفوقها فمفتاح ذلك القراءة ، ثم الكتابة و حرية التعبير التي يجب أن يكون لها قداسة ، والقبول بالنقد و إن كان جارحاً لأن " النقد الجارح خير من النفاق الجامح " فها نحن نرى الإنسان الأجنبي دائماً يقرأ ولكن نحن نخاف من الكتاب لان الكتاب يشرح جزء من الحقيقة ، وذلك ينبغي على المجتمع بكل تكويناته أن تعلم الناس في

المدارس والجامعات كيف يقرؤون لا كيف يفكون الخط كما هو حاصل اليوم، أي نعلمهم كيف يفهمون .. ويحللون .. ويستنتجون .. ويلخصون .. ومشكلة فك الخط مشكلة عويصة حتى في مناهجنا التعليمية اليوم .

هناك أمر لا بد من معرفته وهو إننا كعرب نعيش حالة من التخلف لسنا في مقامات أسلافنا الكبار وذلك لمسائل معقدة منها تواريخ المهانات، و الاستبداديات، و العلاقة السيئة بين الرعية والنخب السياسية ، ذلك ينعكس بشكل سلبي على المجتمع العربي وعلى الثقافة العربية العامة، فلا بد من إعادة النظر بيننا و بين التاريخ ، بمعنى أن نبتعد عن الهتافات و المناكفات الدينية و السياسية ، وتسوية المقولات التاريخية ، وتسوية العلاقات بين أوساط المجتمع لنعمل على إنماء ثقافتنا بالقراءة في مختلف أشكالها وصورها . ونبين هنا بعض تفاصيل التخلف العلمي وكالاتي:

1- الأمية

حذرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الالكسو) في كانون الثاني سنة 2008، من خطورة ظاهرة الأمية التي لا تزال مرتفعة في العالم العربي، حيث يبلغ عدد الأميين قرابة 100 مليون نسمة.

ورأت (الالكسو) في بيان بمناسبة الاحتفال باليوم العربي لمحو الأمية أن "البيانات الإحصائية حول واقع الأمية في الدول العربية تشير إلى أن عدد الأميين لدى الفئات العمرية التي تزيد عن 15 عاما بلغ قرابة 99,5 مليوناً" وتابعت أن "معدل الأمية في المنطقة وصل إلى 29.7% وهو يساوي ضعف معدل الأمية في العالم. وأوضحت المنظمة أن 75 مليوناً من إجمالي الأميين العرب تتراوح أعمارهم بين 15 و 45 عاماً، وتزيد معدلات الأمية بين النساء حيث يعاني قرابة نصفهن منها (46.5%). وأكدت الالكسو أن الأعداد الكبيرة للاميين في الدول العربية "تعبّر عن فجوة بنيوية عميقة تؤثر على تطور المجتمع العربي ، كما تترتب عنها نتائج سياسية واجتماعية واقتصادية بالغة الخطورة."

وقال البيان انه "بالرغم من الجهود العديدة التي بذلت على الصعيد العربي لم يرتق ملف الأمية إلى مستوى الأهمية التي ينبغي أن ينالها في المنطقة العربية التي يصل عدد سكانها إلى 335 مليوناً". ولفت إلى أن محاربة الأمية يجب أن تتركز على تعميم التعليم الأساسي والزاميته وتنظيم حملات مكثفة بالمناطق الريفية الفقيرة.

وكانت المنظمة قد وضعت منذ تأسيسها عام 1970 رؤية مستقبلية لمحاربة الأمية ضمت "أول إستراتيجية لمحو الأمية في البلاد العربية عام 1976" كما أنشأت "الصندوق العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار" عام 1980. وتبلغ ميزانية الالكسو، وهي من الهيئات المتخصصة التابعة لجامعة لدول العربية ومقرها تونس، قرابة 19 مليون دولار.

تجدر الإشارة إلى أن عدد الأميين في الوطن العربي بلغ 70 مليون أمي سنة 2005 بعد أن كان 50 مليون سنة 1970. أي انه بزيادة مستمرة وليس بنقصان عكس ما يسير عليه العالم الجدول (4) . رغم ما سجله البيان الصادر من المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم من انخفاض تدريجي في نسبة الأميين حيث كانت 73 % سنة 1970 إلى 48% سنة 1990 ومنها إلى 35% سنة 2005 إلى 30% سنة 2009 في الفئة العمرية التي هي فوق سن الخامسة عشر. البيان أشار أيضا إلى أن النسبة الحالية للأمية في العالم العربي تمثل ضعف نسبة المتوسط العالمي المسجل في هذا المجال، جدير بالذكر إن دراسات صادرة عن اليونسكو أشارت إلى أن عدد الذين لا يقرؤون ولا يكتبون على مستوى العالم بلغوا حتى العام 2007 نحو 774 مليون نسمة ، فيما 72 مليون طفل غير ملتحقين في المدارس ، ما يؤكد أن القراءة تواجه أزمة كبيرة تضاعف من محنة الكتاب في كل دول العالم وعلى وجه الخصوص الدول العربية ما استدعى الوقوف على السؤال : ما أسباب عدم تراجع نسب الأمية في العالم العربي فيما تتراجع نسب القراءة لدى المتعلمون ؟ إذ تنتشر أكبر نسبة للأمية في العالم العربي بين الإناث قياسا بالذكور حيث يمثلن أكثر من 46% مقابل أكثر من 25% للرجال، في حين أنها في الدول النامية 20.6 وفي الدول المتقدمة 1.1 وبالمحصلة النهائية هي 20.6% في العالم بمعنى أن العالم العربي كما هو معروف في هذه العجالة يحتل المرتبة الأولى في مسألة الأمية، ترسم معطيات أخرى خريطة للأمية في العالم العربي إذ تؤكد أن البلدان العربية الأكثر أمية هي مصر بسبعة عشر مليون أمي، يليها السودان ثم الجزائر فالمغرب واليمن، مجموع الأميين في هذه البلدان الطليعية في انتشار الأمية يمثل 78% من أميي الوطن العربي، في الجهة المقابلة تنصدر الإمارات العربية المتحدة تليها قطر فالبحرين فالكويت الدول العربية الأقل أمية وبين هؤلاء وهؤلاء تحفظ الأردن وتونس وليبيا وسوريا بنسبة معقولة هي 13% مع الإشارة إلى أن هذه الخارطة تعتبر نسبية نظرا لاختلال موازين الكثافة السكانية بين هذه الدول عدا عن فشل السياسات التعليمية وضعف البنية التربوية التحتية، تشير الدراسات كذلك إلى عوامل مفروضة جعلت العراق يتقهقر في مجال مكافحة الأمية بسبب سنوات الحصار والغزو لتبلغ نسبة الأميين فيه 51% وكذلك الحال في فلسطين التي سجلت سابقا معدلات مشجعة في نشر التعليم كما وكيفا غير أن أعمال الاحتلال التي تقتل البشر ولا تكاد تبقي حجراً على حجر جعلت هذا المنجز مهدد بنسب تتراجع سنة بعد أخرى.

أ- مفهوم الأمية

شهد مفهوم محو الأمية تطوراً كبيراً وقد بذلت منظمات دولية عدة مثل اليونسكو واليونسيف مجهوداً كبيراً في هذا المجال وتعرض مفهوم محو الأمية إلى تغيرات تناولت جوانبه بشكل جزئي ، إلى أن وجدت مؤسسات مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي

معايير كمية (أساساً) لاحتساب الأمية لتواجه بها دول العالم الثالث من خلال أرقام حتى لو سلمنا جدلاً أنها حقيقية ، فهي غير كافية فعلاً لتحديد الأمية ، إذ تم تحديد مفهوم محو الأمية تحت ضغط عناصر الكم ، وتم إفراغه "توعياً" من العناصر الأساسية.

"الأمية المقنعة" هي الأخطر كونها الأوسع انتشاراً ، إن برامج الأمم المتحدة للتنمية تصف العالم العربي بالأضعف حالياً في موضوع مكافحة الأمية مقارنة مع الكتل الحضارية الأخرى في العالم⁽¹⁴⁾ الأمي "المقنّع" ليس الإنسان الذي لا يقرأ ويكتب، بل الإنسان الذي لا يملك معرفة كافية لتعبئة أوراق المعاملات، الرسمية أو الخاصة ، التي تتعلّق بحياته بنفسه. فيضطرّ للجوء إلى شخص آخر لفهم المطلوب ولتعبئة أوراق المعاملات نيابةً عنه . وهذا الفارق "البسيط" في تعريف الأمية يرفع عدد الأميين العرب من 70 إلى 100 مليون عربي، أي حوالي 45 بالمائة من سكان العالم العربي .

جدول 4:نسبة الأمية في الوطن العربي لعام 2009.

الدولة	النسبة
العراق	51
مصر	42
الأردن	12
سوريا	19
لبنان	14
السعودية	14
اليمن	39
قطر	9
البحرين	3
الكويت	7
تونس	10
الجزائر	28
المغرب	38
السودان	50

المصدر، منظمة اليونسكو 2009.

وفي دراسة لليونيسيف صدرت مؤخراً واعتمدت مقاييس تقليدية ، وارتكزت إلى أرقام قدّمتها الحكومات ، بلغ تعداد الأميين سبعة ملايين عربي . تبلغ نسبة الأمية في وسط النساء العربيات نحو 80 % ، والسبب الرئيس أن الأمية غالباً ما تتبع في إطار عملية تهميش المرأة

في حياة المجتمع وفي المدرسة ، ويتم ذلك أحياناً باسم الدين وأحياناً أخرى باسم العادات والتقاليد.

واللافت للنظر أن خطط النهوض الاقتصادي غالباً ما تُوضَع بمنأى عن قضية تحرر المرأة ، مما يحد من هذا النهوض ويجعله هامشياً لأنه لا يندرج ضمن عملية نهوض مجتمعي شامل تكون قضية المرأة حجر الزاوية فيها ، مما يعطي العملية التنموية كل أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتطويرية ، كما تعطيها القدرة على الاستمرار وتجديد وتصويب المسار ضمن أي مجتمع محلي ، هنا أيضاً تبدو عملية محو أمية المرأة شرطاً أساسياً في عملية نمو وبناء مجتمع عربي ، إن حالة الأمية السائدة في البلاد العربية وبنسبة مذهلة ، هي عائق أساس أمام الديمقراطية ، إن الأمية التي تقارب نصف سكان العالم العربي ، تعني أن نصف السكان بعيدون عن القرار وليس لديهم الأهلية اللازمة لمسك زمام أمورهم ومستقبلهم بأيديهم ، وحينما يزداد الحديث عن "المشاركة" كحد أدنى في العملية الديمقراطية ، فإن ذلك يعني حكماً تزايد الكلام عن التلاعب السهل بمصير شرائح واسعة من الناس، تحت شعار ضرورة مشاركتهم في الحياة السياسية.

من جهة أخرى فإن حالة الأمية في العالم العربي تسهل حكم الأنظمة الديكتاتورية ، وتشكل قاعدة الاستبداد السياسي ، الاقتصادي والاجتماعي ، لأن هذه الشرائح الواسعة غالباً ما تكون عاجزة عن الفعل المنطقي أولاً والمبادرة الصلبة ثانياً، من أجل المشاركة في توجيه حياتها ومستقبلها.

ب- تعريف الأمية: هي ظاهرة اجتماعية سلبية متفشية في معظم أقطار الوطن العربي والعالم وبخاصة النامي منه ولها أبعادها الكثيرة والمتنوعة ومنها:

- الأمية الأبجدية : وتعني عدم معرفة القراءة والكتابة والإلمام بمبادئ الحساب الأساسية ويعرف الإنسان الأمي بأنه كل فرد بلغ الثانية عشرة من عمره ولا يلم الماما كاملاً بمبادئ القراءة والكتابة والحساب بلغة ما ولم يكن منتسباً إلي مدرسة أو مؤسسة تربية وتعليمية.

- الأمية الحضارية : وتعني عدم مقدرة الأشخاص المتعلمين على مواكبة معطيات العصر العلمية والتكنولوجية والفكرية والثقافية والفلسفية الإيديولوجية والتفاعل معها بعقلية ديناميكية قادرة على فهم المتغيرات الجديدة وتوظيفها بشكل إبداعي فعال يحقق الانسجام والتلاؤم ما بين نواتهم والعصر الذي ينتسبون إليه مؤمنين في ذات الوقت بمجموعة من العادات والتقاليد والمعتقدات الفكرية والممارسات السلوكية والمبادئ والمثل الاستاتيكية الجامدة التي تتعارض وطبيعة الحياة المتجددة على الدوام والتوافق.

تنقسم الأمية الحضارية من حيث المبدأ إلى عدد غير قليل من الأقسام والفروع الرئيسية فتدرج تحت لوائها - الأمية الثقافية - الأمية العلمية - الأمية التكنولوجية - الأمية الفنية - الأمية الجمالية - الأمية الصحية - الأمية العقائدية.

بهذا الفهم للامية تصل نسبة الأمية عندنا في الوطن العربي إلى 97%، ولو كان الأمر كذلك فانا أول الفرحين لان لدينا 3% قادرين على القيادة والإنتاج والتحكم والفهم الصحيح للحياة، لو أرادوا لاستطاعوا قيادة العرب نحو الإمام بتمكن. ولكن يبدو أن حقيقة هذا الرقم هي غير ذلك.

ج- توزيع نسب الأمية في العالم

تشير تقارير منظمة الأمم المتحدة للثقافة والعلوم والتربية (اليونسكو) أن أحدث البيانات الصادرة عن معهدها للإحصاء تشير إلى تحسن ملموس في نسب محو الأمية لدى الكبار على مدى العقد المنصرم (2001-2011) خصوصا في البلدان ذات الكثافة السكانية المرتفعة، بما فيها البرازيل والصين ومصر وباكستان، وتشير إحصاءات المعهد إلى أنّ واحداً من أصل خمسة كبار عبر العالم، أي ما يقارب 860 مليون شخص، لا يزالون من الأميين، وتلثاهم من النساء. ويعيش حوالي 70 في المائة من هؤلاء في جنوب الصحراء الإفريقية، وجنوب وغرب آسيا، والدول العربية وأفريقيا الشمالية الخريطة (1). وتشير مصادر منطقة شرق آسيا والمحيط الهادي إلى معدل لمحو الأمية بنسبة 86 في المائة، والى عدد إجمالي من الأميين يبلغ 185 مليوناً، ويوجد في منطقة أميركا اللاتينية والكاريبية 39 مليوناً من الأميين، أي ما يناهز 11 في المائة من مجموع السكان لدى فئة الكبار. الأمية العربية ووفقا لتقديرات المعهد⁽¹⁵⁾، فإن نسبة الأمية في الدول العربية وصلت عام 2000، إلى معدل 40 في المائة تقريبا، حيث شكلت نسبة الذكور أقل قليلا من 30 في المائة للذكور، ونسبة الإناث حوالي 52 في المائة، بينما وصلت النسبتان الأخيرتان في منطقة جنوب الصحراء الإفريقية إلى 32 في المائة وحوالي 50 في المائة على التوالي. وقال معهد اليونسكو انه وفي حال عدم تسارع الجهود لمحو الأمية بشكل حثيث، فإن عدد الأميين لدى الكبار سيبلغ حوالي 800 مليون شخص في العالم بحلول عام 2015، وهي المهلة التي حدّدها أكثر من 160 بلداً في عام 2000 بهدف خفض نسب الأمية لدى الكبار إلى النصف. وحسب التقديرات الوطنية المرتكزة إلى الإحصاءات الرسمية للسكان، والتي شملت أربعين بلداً، حققت الصين أفضل النتائج مع ارتفاع معدل محو الأمية لدى الكبار (15) عاماً وما فوق) من 78 في المائة في عام 1990 إلى 91 في المائة في عام 2000. كما ارتفع هذا المعدل في مصر من 44 في المائة في عام 1986 إلى 56 في المائة في عام 1996، وسجّل مزيداً من التحسن منذ ذلك الحين استنادا إلى تقارير صدرت أخيراً. وأعلنت البرازيل أيضاً عن تحسن بنسبة ست نقاط مئوية، من 80 في المائة في عام 1991 إلى 86 في المائة في

عام 2000، في حين شهدت باكستان ارتفاعاً لمعدل محو الأمية من 39 إلى 42 في المائة بين عام 1994 وعام 1998. كما سجّلت البلدان الأربعة، والصين بصورة خاصة، تحسناً في نسب محو الأمية لدى النساء. ففي البرازيل، أظهرت البيانات أنّ نسبة محو الأمية لدى النساء باتت تتجاوز بقليل نسبة محو الأمية لدى الرجال. وتلك هي أيضاً حالة بليزا وهندوراس والفليبيين وجزر السيشل. كذلك شهدت جمهورية إفريقيا الوسطى، وهي إحدى الدول الأفريقية القليلة التي تعلن رسمياً عن نسبها في مجال محو الأمية لدى الكبار، ارتفاعاً في معدلاتها من 34 في المائة إلى 49 في المائة من عام 1990 إلى عام 2000. لكنها تسجّل، على غرار مصر وباكستان، تفاوتاً كبيراً يفوق 20 نقطة مئوية في نسب محو الأمية بين الرجال والنساء.

خريطة 1: نسبة الأمية في العالم



المصدر: بالاعتماد على صحيفة الشرق الأوسط، العدد 6، 9048، أيلول /سبتمبر/ 2003.

وفي صفوف الشباب، الذين يُعرّف عنهم هنا بالأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و24 عاماً، فإنّ نسب محو الأمية غالباً ما تكون أكثر ارتفاعاً بالقياس مع سائر المجموعات السكانية لدى الكبار. ففي إيران على سبيل المثال، يبلغ الفرق في نسب محو الأمية بين الشباب والكبار 20 نقطة مئوية. ونمت نسبة محو الأمية لدى الشباب على نحو أسرع من النسب لدى الشباب خلال التسعينات في مجمل البلدان تقريباً.

أما الأمية في العام الإسلامي فقد بلغت درجة الخطورة، وأصبحت تشكل ظاهرة اجتماعية تدق ناقوس الخطر، فهي تفوق في خطورتها ظاهرة الفقر والجهل والمرض وسوء الأحوال واضطراب حبل الأمن في عدد من البلدان الإسلامية، لأن الأمية هي المصدر الأساس لكثير من تلك الظواهر التي تعيق النمو وتشدّ المجتمعات إلى التخلف، على الرغم من الجهود التي تبذل للتغلب على الصعاب وتذليلها، وإقامة الأسس القوية للتنمية الشاملة المستدامة التي تحدث تغييرات عميقة في المجتمعات. لأن الفقر يأتي في أحد مصادره من الأمية، والجهل أساسه الأمية، والمرض في أحد أسبابه ناتج عن الأمية، وسوء الأحوال بصورة عامة، مرجعه

الأمية التي تحرم الإنسان من معرفة حقوقه وواجباته، وتحول بينه وبين الإسهام في خدمة مجتمعه والحفاظ على مصالحه العليا. وغالباً ما يكون اضطراب حبل الأمن ناتجاً عن الأمية، سواء بمفهومه التقليدي أو بمدلوله العام، وهو الجهل بالقانون بالنسبة لكثير ممن يرتكبون الجرائم التي تدخل تحت طائلة القوانين الجارية، أو الجهل بحقائق الدين بالنسبة لكثير ممن يمارسون الإرهاب تحت غطاء ديني لوقوعهم تحت تأثير التطرف والتشدد والغلو في فهم النصوص الدينية. ووفقاً لإحصائيات الإيسيسكو التي تتطابق وإحصائيات اليونسكو، فإن نسبة الأمية في دول العالم الإسلامي السبع والخمسين، تتراوح بين 70 في المائة في وسط الذكور، و85 في المائة في وسط الإناث. وترتفع هذه النسبة في البوادي والأرياف عنها في المدن والحوضر بما يزيد عن عشرة في المائة. وتسجل الإيسيسكو من خلال متابعتها لمؤشرات خريطة محو الأمية في الدول الأعضاء، أن الأمية في عدد من المناطق من العالم الإسلامي تزيد ولا تنقص، وأن الجهود التي تبذلها الدوائر الحكومية المسؤولة في هذه الدول، تتعثر في الغالب ولا يكون لها مردود ملموس. بينما يحقق عدد قليل من الدول الأعضاء في مجال القضاء على الأمية نجاحاً يتفاوت من دولة إلى أخرى. وطبقاً للدراسات التي قامت بها الإيسيسكو خلال المدة الأخيرة، تؤكد أن الأمية هي من المعوقات الرئيسة للتنمية في مجموع البلدان الإسلامية وأن ضرورات النهوض على شتى المستويات وتحسين أحوال المجتمعات، تدعو إلى مضاعفة الجهود المبذولة في هذا المجال، وإلى تطوير الآليات التي تعتمد لمحاربة الأمية، بحيث يتم تجاوز الأساليب التقليدية والاعتماد على طرق جديدة ومناهج مبتكرة واتخاذ إجراءات جريئة بإرادة سياسية واعية ومسؤولة.

د- أسباب انتشار الأمية

- 1- أن جهود الأمية في المنطقة العربية صبت في اتجاه واحد هي القراءة والكتابة دون الاهتمام ببقية مجالات تعليم الكبار.
- 2- التباين في هيكليات الإدارات والأجهزة المسؤولة عن محو الأمية في المنطقة العربية. فنجدها في بعض البلدان عبارة عن قسم ملحق في أحد الوزارات وبعض البلدان وصلت إلى مستوى الوزارة وهذه هي الفجوة، وهناك قضية التباين في ما يتعلق بتحديد الفئة العمرية، بعض البلدان العربية تعتمد 15 سنة إلى 45 وبعضها 15 سنة فما فوق وبعضها عشر سنوات إلى 35 وبعضها عشر سنوات إلى 45 .
- 3- إشكالية أخرى أساسية أنه نمط تعليم الكبار في المنطقة العربية ونمط محو الأمية مازال يتجه بشكل تاماً إلى الوسائل التقليدية التي هي المعلم والسبورة وغيره ولم تستفيد الدول العربية من التقنيات الجديدة كالتعليم عن بعد أو الفيديو أو حتى القنوات التعليمية .
- 4- ارتفاع معدلات الفقر في بعض الدول العربية، ولذلك نلاحظ بشكل عام أن ارتفاع الأمية يعني يتجلى بشكل واضح في الدول العربية الفقيرة في الموارد.

5-أضف إلى ذلك أن القائمين على التعليم في مجال محو الأمية ليست لديهم القدرة الكافية على جذب المستهدفين أي الدارسين من خلال ابتكار طرق جديدة .

6-ليست لدينا في العالم العربي إستراتيجية شاملة ومتكاملة لمحو الأمية وإنما هناك اجتهادات من قُطر إلى آخر، إذ تشير بعض الأقطار بأنها ستنتهي من الأمية في عام 2010 وبعضها يشير إلى آخرة وانتهى العام 2010 ولم يظهر شيء يذكر من حيث القضاء على الأمية، تدل النتائج بأن الأمية سنوياً تنخفض بنسبة 1% فإذا كان عندنا 38.5% أميين فهذا يعني في تصورنا أننا نحتاج إلى 38 سنة مستقبلية لكي ننهي من مسألة هذه الأمية.

أن الحل الأقرب لمجابهة مشكل الأمية هو سد منابع الأمية وذلك عن طريق ضرورة فرض إلزامية التعليم للذكور و الإناث على حد السواء، سياسة إلزامية على جميع الدول العربية وهذا بالطبع توازيا مع الاستمرار في تنفيذ خطط تعليم الكبار التي اعتمدها بعض الدول العربية منذ سنة 1970. (علما أن كاتب هذه السطور رأى عبارة مرفوعة على باب إحدى الجامعات في دولة عربية مكتوب عليها "إلزامية التعليم اعتداء على حرية الفرد").

ذلك أن الواقع يؤكد وجود مستويات متدنية في التعليم لدى بعض الدول العربية، ويظهر مدى التفاوت بين معدلات الأمية، فبينما ترتفع نسبة المتعلمين في لبنان إلى 93,7% العام 2000 ارتفعت إلى 95,8% العام 2010 ،وتحتفظ الأردن و تونس وسوريا والسعودية والكويت والإمارات وقطر وليبيا بمعدلات تفوق 80 %، نجد أن هذه المعدلات تتراجع لتبلغ أدنى مستواها في موريتانيا والمغرب والسودان: حوالي 40 إلى 50 %.

2-الإنتاج المعرفي والعلمي

بعد قراءة نتائج دراسة أقامتها جامعة جياوتونج - شنغهاي الصينية، وهي دراسة أكاديمية سنوية مفصلة تصنف فيها الجامعات ومؤسسات التعليم العالي في جميع دول العالم وفق خمسة معايير أكاديمية يعطى لكل منها عددا محددًا من النقاط بحيث تحصل أرقى مؤسسة أو جامعة على الرقم 100 في كل معيار وتليها الجامعات الأخرى بنسب مئوية ومن ثم تجمع النقاط بشكل نسبي من المجموع الكلي (النسبة حسب أهمية كل معيار). و المعايير تعتمد بشكل رئيسي على الإنجازات العلمية، و البحوث المنشورة في مجلات محكمة و عدد الاقتباسات المرجعية منها، والجوائز العالمية ونوعية البرامج، و حجم المؤسسة التعليمية فيما يخص الإنجازات نسبة إلى عدد أعضاء الهيئة التدريسية، و غير ذلك من عناصر التعليم الجامعي و البحث العلمي. و يتم ترتيب الجامعات وفق ما تسجله من نقاط في جدول يضم أرقى 500 جامعة و مؤسسة تعليمية على مستوى العالم مرتبة حسب عدد النقاط التي تحصل عليها الجامعة، إضافة إلى تصنيفات

إقليمية مثل أرقى 100 جامعة أوروبية، و أرقى 100 جامعة آسيوية وما شابه. و من ثم ترتيب البلدان حسب مواقع جامعاتها في القائمة بالدرجة الأولى و عددها في القائمة بالدرجة الثانية. كما هو متوقع، تصدرت القائمة جامعات عريقة و مشهورة في الولايات المتحدة و بريطانيا حيث استحوذت جامعتي هارفارد و ستانفورد الأمريكيتين المرتبتين الأولى و الثانية و كمبردج و أكسفورد البريطانيتين المرتبتين الثالثة و الثامنة على التوالي، فيما استحوذت جامعات يابانية و ألمانية و كندية مواقع متقدمة في القائمة. وعلى مستوى أقاليم العالم تصدرت الولايات المتحدة قائمة بلدان الأمريكيتين و بريطانيا القائمة الأوروبية واليابان القائمة الآسيوية و جنوب أفريقيا القائمة الأفريقية .

وبمقارنة بسيطة بين الجامعات العربية والجامعات الإسرائيلية فإنه قد ورد ذكر سبع جامعات و معاهد إسرائيلية في القائمة الرئيسية من مجموع جامعاتها الثمانية، تصدرت فيها الجامعة العبرية في القدس الترتيب 90 و جامعة تل أبيب 101 ومعهد وايزمان 105 و ثلاث جامعات أخرى هي في المائتين الثالثة و الرابعة و الجامعة الإسرائيلية الوحيدة التي لم يرد ذكرها هي الجامعة المفتوحة. و احتلت إسرائيل المرتبة 12 في الترتيب العالمي للدول . وفي الترتيب الآسيوي استحوذت الجامعة العبرية الترتيب السابع، وجامعة تل أبيب المرتبة 9، معهد وايزمان المرتبة 18، ومعهد التخنيون المرتبة 22، وجامعة بار أيلان المرتبة 38، وجامعة بن غوريون المرتبة 39 و أخيرا جامعة حيفا استحوذت المرتبة 67 واستحوذت إسرائيل المرتبة الثانية من بين الدول الآسيوية بعد اليابان.

أما الجامعات العربية التي يبلغ عددها 184 جامعة فلم يرد ذكرها على الإطلاق، ومما يؤسف له فعلا عدم وجود أي أسم لها أو حتى لأسماء جامعات أجنبية عاملة في عدة بلدان عربية منذ زمن بعيد ولها شهرة إقليمية واسعة مثل الجامعة الأمريكية في بيروت و القاهرة (الاستثناء هي الجامعات الأمريكية التي فتحت لها فروعا في قطر مؤخرا وبالطبع كان تقييمها على أساس مراكزها الرئيسية).

وإذا استثنينا جائزة نوبل من المعايير الأخرى التي استندت إليها الدراسة (جامعة إسرائيلية واحدة حصلت على نقاط في هذا المعيار)، إذا استثنينا هذا المعيار فإن معظم المعايير التي يقاس بها مستوى الجامعات هو ما يتعلق منها بالبحث العلمي و الإنجازات الأكاديمية الأخرى التي لا يمكن أن تبرر عدم ورود أسماء جامعات عربية عريقة في حين تجد أسماء جامعتين من بلد صغير كسنغافورة و 8 جامعات من كوريا الجنوبية أو جامعات من بلدان فقيرة نسبيا مثل شيلي و الأرجنتين و المكسيك، بينما تمتلك المجتمعات العربية مستويات من الدخل هي من بين الأعلى في العالم، وربما الأكثر أهمية أننا نمتلك تراثا علميا و حضاريا تركه لنا ونشره في معظم بقاع الأرض قبل عصر الثروات الحديثة علماء خالدون من أمثال ابن سينا و

الرازي و الكندي و ابن حيان وغيرهم من الأسماء التاريخية الذين ساهمت نظرياتهم و كتبهم في انتشار علوم الطب و الرياضيات و الفلك وغيرها، وترجمت ودرّست في معظم جامعات العالم ، ومهدت الطريق أمام تطور العلوم الحديثة. إننا للأسف مجتمعات تعشق دراسة التاريخ ولكنها تسير عكس مساره، وينطبق علينا ما قاله الفيلسوف هيجل من أن " الشيء الوحيد الذي يعلمنا إياه التاريخ أنه لا يعلمنا شيئاً " مع أنها مقولة متعسفة بعض الشيء ولكننا على ما يبدو لم نتعلم من دراسة التاريخ.

الدراسة التي ذكرت أعلاه وذات العلاقة بتصنيف الجامعات في العالم قد تحتل نسبة من الخطأ في دقتها وهذا شيء طبيعي، أما المصادقية فهناك أكثر من دليل على امتلاك الدراسة لقدر كبير منها . ومع محاولة الابتعاد عن كل ماله علاقة بالسياسة في هذا الموضوع إلا أن مقتضيات الإثبات لهذه المصادقية تتطلب أحيانا بعض الأدلة و الحجج ذات الطابع السياسي (الذي لا يبدو أن واضعي الدراسة قد اهتموا به على الإطلاق) ومن بينها الآتي:

الجامعة الصينية التي قامت بالدراسة جاء ترتيبها في موقع متأخر من القائمة (404) و لا تتضمن القائمة أي جامعة صينية في المائة الأولى منها، والصين كبلد جاء في الترتيب 19 من القائمة و بما لا يتناسب مع إمكاناته العلمية و البشرية، وجامعة تايوان (الصين الوطنية)، جاء ترتيبها في المرتبة 153 قبل أي جامعة صينية و الكل يعرف حساسية الصين ، دولة وشعبا، تجاه تايوان.

بالنسبة لنا نحن العرب لا مصلحة للجامعة الصينية في عدم ذكر أي جامعة عربية في قائمتها كما أن ليس لها مصلحة بالمبالغة في التفوق الإسرائيلي حيث أن الصينيون يتعاطفون بشكل عام مع القضايا العربية وجامعاتهم ترتبط بعلاقات جيدة مع الجامعات العربية ،علما بأنه سبق لجامعة شنغهاي أن أرسلت دعوتين للمشاركة في مؤتمر علمي تخصصي وورشة أقامتهما بالتعاون مع منظمة اليونيدو خلال سنتي 1999 و 2001 لأعضاء في هيئة التدريس في جامعة قطر، وعلى الرغم من عدم الحضور إلا أن قوائم المشاركين فيهما لا تشير إلى أي إسرائيلي من بين مشاركين ينتمون إلى ما يقرب من خمسين بلدا.

تعتمد الدراسة في جزء من بياناتها على معلومات منشورة من قبل الجامعات نفسها إما على مواقعها على الانترنت أو من خلال إحصائيات منظمات عالمية (اليونسكو مثلا) أو ما تزودها به الجامعات من معلومات.

واقع البحث العلمي في البلدان العربية (حقائق و أرقام)

في عام 1985 و في مناقشة رسالة ماجستير لباحث في إحدى الجامعات العربية حول التعليم العالي في البلدان العربية، أورد الباحث من ضمن مناقشته جدولا يقارن فيه عدد الأبحاث العلمية

التي نشرتها الجامعات العربية في مجلات علمية محكمة مع مثيلاتها المنشورة من قبل الجامعات الإسرائيلية خلال المدة 1967-1982 . خلاصة ذلك الجدول تشير إلى أن نسبة الأبحاث العربية مجتمعة لا تساوي سوى 2% مما نشرته الجامعات الإسرائيلية أي أن إسرائيل أنتجت 50 مرة أكثر من الدول العربية في تلك المدة.

في مقالة للأستاذ رجاء النقاش في صحيفة الوطن القطرية أورد فيها انطباعاته عن محاضرة ألقاها العالم الشهير البروفيسور أحمد زويل، في إحدى الجامعات المصرية و التي ذكر فيها أن نسبة مساهمة المنشورات العربية في الإنتاج العلمي العالمي لا تتجاوز الـ 0.0002 % لمنطقة يشكل عدد سكانها 5% من عدد سكان العالم أجمع. وإذا صح الادعاء الإسرائيلي بان إسرائيل تساهم بما مقداره 1% من الإنتاج العالمي في الأبحاث العلمية فهذا يعني أن إسرائيل تنشر أبحاثا علمية 5000 مرة أكثر من الإنتاج العربي مجتمعا. الأرقام إن صحت فإنها تعني أن نسبة إنتاج إسرائيل إلى إنتاج الدول العربية ارتفعت خلال ربع القرن الأخير 100 مرة.

وحتى لو كانت تلك الأرقام غير دقيقة فان الواقع يشير إلى تخلف عام وواضح في جامعاتنا العربية و مؤسسات التعليم العالي و البحث العلمي في عموم الدول العربية و لا يحتاج إلى دراسات دقيقة لتكتشفه، مع الاعتقاد بان هذه الأرقام فيها مقدار كبير من الصحة وذلك من خلال الدراسات و التقارير الصادرة عن منظمات عالمية محايدة وشخصيات أكاديمية عربية مرموقة . تقول الدكتورة ميثا الشمسي نائب رئيس جامعة الإمارات لشؤون البحوث في مقالة لها⁽¹⁶⁾ أن الدول العربية من بين أقل دول العالم إنفاقا على البحث العلمي و التطوير حيث لا تتجاوز نسبة هذا الإنفاق ما معدله 0.2 % من مجموع الدخل القومي لجميع الدول العربية (في الدول المتقدمة تبلغ النسبة 2.5-5 %) و لا يساهم القطاع الصناعي في هذه النسبة الضئيلة بأكثر من 3% بينما يأتي 89% منه من مصادر حكومية. في الولايات المتحدة تبلغ نسبة الإنفاق على البحث العلمي و التطوير حوالي 3.1 % من الدخل القومي يساهم فيه قطاع الصناعة بحوالي 50-70% . وكنتيجة لذلك فان معدل الأبحاث العلمية المنشورة (لكل مليون نسمة) في البلدان العربية لا يتجاوز 2% من نفس المعدل في الدول الصناعية. و تورد الدكتورة الشمسي مقارنة مع دول نامية تشير إلى أن الدول العربية متخلفة عن معظم هذه الدول في إنتاجها من المنشورات العلمية و الإنتاج البحثي و معدل تقدمها يشير إلى ركود لا يتناسب مع التطور العلمي العالمي المتسارع. فعلى سبيل المثال كان إنتاج الصين في عام 1981 نصف الإنتاج العربي من الأبحاث و براءات الاختراع و في نهاية القرن الماضي أصبح إنتاجها ضعف ما أنتجته الدول العربية مجتمعة . العلاقة بين الأنفاق على البحث و التطوير و مستوى التقدم العلمي و التقني تنعكس بشكل واضح في عدد براءات الاختراع المسجلة في الدول العربية خلال

المدة 1980-2000 وهو 370 براءة اختراع مقارنة مع 16328 في كوريا الجنوبية التي تتفق بسخاء على البحث العلمي و التطوير .

ولا تورد الدكتوراة الشمسي، التي استندت في أرقامها على تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2003 الذي أصدره المكتب الإقليمي لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي (اليونيدبUNDP)، لا تورد مقارنة مع إسرائيل التي وضعها التقرير المذكور كأحد دول المقارنة (بالإضافة إلى الهند و الصين و كوريا الجنوبية). كذلك لم تذكر بان تلك النسبة الضئيلة التي تتفق على البحث العلمي يذهب معظمها أجورا إدارية للعاملين في مراكز البحوث العلمية . و حسب الأرقام الإسرائيلية فأن إسرائيل تتفق على البحوث العلمية و التطوير ما مقداره 4.5 % من الدخل القومي و هي أعلى نسبة من بلدان أوروبا و أمريكا الشمالية و أعلى بحوالي 20 مرة من نسبة الإنفاق في الدول العربية.

أما الدكتور وجيه عويس رئيس جامعة العلوم و التكنولوجيا الأردنية والتي تضم 16000 طالب و طالبة يقول⁽¹⁷⁾ بان جامعته تصرف ما مقداره نصف مليون دولار سنويا على البحث العلمي بمختلف فروعها، فإذا علمنا بان الجامعة تضم 650 عضو هيئة تدريس فهذا يعني ما معدله 770 دولار لعضو هيئة التدريس الواحد في السنة و هو مبلغ لا يغطي نفقات الأجر الإدارية للبحث لمدة شهر واحد. و يمضي الدكتور عويس قائلاً "غالبية البحوث العلمية في جامعاتنا العربية موجهة لأهداف محددة هي الترقيات العلمية " وهذا شيء معروف في الأوساط الأكاديمية لكن هذا القول، المتفق عليه، يعني أن البحث العلمي في جامعاتنا العربية أصبح أداة موجهة لغرض تحقيق أهداف شخصية ليس لها علاقة بالخطط التعليمية أو التنموية مما يؤدي إلى بعثرة جهود الباحثين و يضعف العمل الجماعي المطلوب من أجل قيام نهضة علمية أحد أركانها الأساسية البحث العلمي المنهجي (وهذا سببه بان الأستاذ الجامعي العربي يعاني من جوع مزمن مقابل ارتفاع كروش القيادات العربية الحكيمة!!).

تشير الجداول و الأرقام التي أوردها تقرير التنمية الإنسانية العربية 2003 إلى أن عدد العاملين في البحث و التطوير في البلدان العربية من العلماء و المهندسين يقارب من 330 فردا لكل مليون من السكان مقابل 4000 فرد في أمريكا الشمالية و 2400 فرد في أوروبا وعدد الفنيين لا يتجاوز 50 فردا لكل مليون مواطن مقابل 1000 فرد لكل مليون مواطن في الدول المتقدمة. ويؤدي تدني الإنفاق العربي على البحث و التطوير، الذي هو الأدنى من بين مجموعات دول العالم (أقل بحوالي سبع مرات من المعدل العالمي محسوبا على النسبة المئوية للدخل القومي وأقل ب 12-15 مرة من الدول المتقدمة) يؤدي دورا رئيسا في الحد من التطور العلمي و القابلية على الابتكار خصوصا و أن التمويل الحكومي الذي تصل نسبته إلى 89% من مجمل ذلك التمويل (الضعيف أصلا) يستهلك معظمه في تغطية رواتب العاملين كما يذكر التقرير.

كذلك تفتقر مناهج الجامعات العربية إلى سياسات بحثية واضحة فيما يتعلق بتأهيل وتدريب الطلبة على أسس البحث العلمي المنهجي وغياب أسلوب البحث في تدريس مختلف المقررات الدراسية خلال الدراسة الجامعية الأولية مما يتسبب في نقص واضح في أعداد المؤهلين للعمل في مجال البحوث من خريجي الجامعات.

وعلى هامش المؤتمر العالمي حول التنمية المستدامة الذي عقد في جوهانسبرغ في جنوب أفريقيا في سبتمبر 2002 عقد ممثلو إحدى عشر منظمة و أكاديمية و هيئات ثقافية و علمية عالمية مشهورة (من بينها اليونسكو وجامعة الأمم المتحدة و أكاديمية العالم الثالث للعلوم) اجتماعا على هامش المؤتمر في قرية يوبينتو (في ضواحي جوهانسبرغ) و أصدروا إعلانا سمي بـ " إعلان يوبينتو " و أصبح أحد وثائق المؤتمر الرسمية وفي هذا الإعلان (الذي جاء على شكل توصيات لجميع الحكومات و المؤسسات التعليمية و واضعي السياسات التعليمية في جميع أنحاء العالم) أوصى المشاركون بخصوص البحث العلمي، من ضمن توصيات عديدة، على ما يأتي (حسب ما جاء في موقع جامعة الأمم المتحدة على الإنترنت):
".... الدعوة للحكومات و جميع الأكاديميين وواضعي السياسات التعليمية وجميع من لهم علاقة بالتعليم في كافة مراحلهم على ضرورة إعادة النظر بالبرامج الدراسية بحيث تعتمد مناهجها على أسلوب التعليم المعتمد على حل المعضلات في المراحل الابتدائية و الثانوية Problem-based education من أجل تطوير أساليب تدريس غير آلية ودمجها مبكرا في دائرة التعليم، والى أسلوب حل المعضلات بواسطة البحث العلمي في مناهج الدراسة الجامعية Problem-based scientific research بحيث يدخل البحث العلمي كأسلوب منهجي في التدريس إضافة إلى كونه وظيفة أو ركنا أساسيا من أركان التعليم العالي مرتبطا بعملية التنمية الاجتماعية و الاقتصادية...."

هذا مع انه بعضا من تلك المنظمات كانت قد اجتمعت في أكتوبر من سنة 2001 في مدينة لوبنبرغ في ألمانيا و أصدرت إعلانا سمي بإعلان لوبنبرغ (التعليم العالي من أجل التنمية المستدامة) و الذي دعا مؤتمر جوهانسبرغ إلى تبني إصدار أدوات برامج متكاملة Tool-Kits مصممة لتنفيذ إجراءات جذرية بخصوص تطوير التعليم في جميع البلدان تتضمن استراتيجيات إصلاح شامل لكل ما يتعلق بأنشطة التعليم العالي من تدريس و أبحاث و تطوير و تدريب و تم التركيز على أهمية البحث العلمي في التعليم و توجيهه نحو تحقيق التنمية المستدامة. و قد تبني ذلك المؤتمر الشهير ما جاء في الإعلانين المذكورين.

هذه الدعوة الصريحة، و التي استندت إلى دراسات عديدة و مفصلة، قام بها خبراء متخصصون من تلك المنظمات تشير إلى الأهمية المتزايدة لتبني منهج البحث العلمي كأسلوب بديل في التعليم العالي عن الأساليب التقليدية (المقصود هو تبني أسلوب البحث في تدريس

المقررات الدراسية المختلفة). مطلوب من الجامعات العربية تبني المفاهيم و القيم العلمية التي دعا إليها الإعلانين المذكورين إضافة إلى ما تضمنته توصيات مؤتمر جوهانسبرغ بهذا الخصوص و الذي حضره ممثلون عن معظم الدول العربية.

المساهمة الهزيلة للقطاعات الصناعية و الخدمية للبحث و التطوير في البلدان العربية و التي تبلغ 3% فقط من مصادر التمويل الكلية و التي تحتل أقل نسبة من بين جميع البلدان على الإطلاق، إنما تعكس انعداماً تاماً للوعي المجتمعي بضرورة دعم العلم و البحث العلمي من أجل النهوض بمتطلبات التنمية، ففي البلدان المتقدمة تقوم المؤسسات الصناعية و مؤسسات القطاع الخاص الربحية بتمويل نشاطات البحث العلمي لغرض خلق ديناميكية تمويل مستديمة تغذي باستمرار حركة البحث و التطوير و الابتكار مما يؤدي إلى تحويل النشاط البحثي إلى استثمار مريح يدعم الناتج القومي و يدفع بعجلة التنمية والبناء إلى الأمام. في بلداننا العربية ينظر معظم المسؤولين عن هذه القطاعات إلى تمويل البحث العلمي للجامعات و مراكز البحوث على أنه صدقة أو هبة يستجدي بها الأكاديميون من أجل إرضاء طموحاتهم العلمية و نشر الأبحاث لأغراض الترقية الأكاديمية و الصعود الوظيفي. أما وانهم يستوردون مصانع كاملة بمفاتيحها ومعادلاتها (على حد تعبيراتهم) فليسوا بحاجة إلى البحوث طالما أن الشركات الأجنبية تجهزهم بكل ما يحتاجونه و تقوم بتدريبهم في مواقعها الرئيسية في بلدان المنشأ. وإذا ساهموا ببعض الفتات من أرباحهم في تمويل بعض الأبحاث فهي من أجل استجلاب الترضية الاجتماعية و الدعاية الإعلانية. كما وأن الاعتقاد بان البحث والتطوير لا يستطيع القيام به سوى الدول المتقدمة علمياً و تقنيا لا يزال راسخاً في أذهان القائمين على معظم هذه المؤسسات. لذلك نجد في معظم الشركات و المؤسسات الصناعية و الخدمية الكبيرة مراكز للتدريب و التطوير ولكن نادراً ما تتضمن هذه المراكز أية نشاطات بحثية. و غالباً ما تعزف هذه المؤسسات عن تشغيل أو توظيف حملة الشهادات العليا من القادرين على تنشيط البحوث لأسباب معظمها تتعلق بالرواتب و الأجور التي تترتب على توظيف هؤلاء بحجة نقص الخبرة الصناعية في مواقع الإنتاج على عكس ما هو شائع في مؤسسات مشابهة في الدول المتقدمة التي تستقطب هذه الكفاءات وتستثمر إمكانياتهم و خبراتهم البحثية . في سنة 2000 وحدها مولت وزارة التجارة و الصناعة الإسرائيلية 1200 مشروع بحث اشترك فيها باحثون من دائرة العلوم التابعة للوزارة مع باحثين من مختلف الجامعات و المعاهد الإسرائيلية، و تشارك الوزارة مع الجامعات الإسرائيلية في استضافة ما يقرب من 100 مؤتمر علمي عالمي سنوياً. وتفخر إسرائيل بكون عدد العاملين فيها من المهندسين و العلماء والبحث العلمي نسبة إلى عدد القوى العاملة الكلية هو الأعلى في العالم و حسب إحصائية نشرها معهد التخنيون مؤخراً (2004) فان 135 من كل 10000 من القوى العاملة الاسرائيلية يعملون

كمهندسين أو علماء و 9 من بين كل 1000 يعملون في مجال البحث العلمي و هو ضعف النسبة تقريبا في كل من الولايات المتحدة و اليابان. (يعمل في مؤسسة العلوم الإسرائيلية ISF وحدها ، وهي مؤسسة متخصصة بالبحوث، حوالي 1000 باحث علمي متفرغ وتتعاون المؤسسة في 80% من مجموع أبحاثها مع الجامعات الإسرائيلية).

ومن المفاهيم الخاطئة و السائدة في الأوساط الأكاديمية في البلدان العربية هو أن البحوث الأساسية في العلوم هي مضيعة للوقت و هدر للموارد على اعتبار أنها أبحاث غير تطبيقية و لا جدوى اقتصادية منها متناسين أن أعظم الابتكارات و الاكتشافات إنما كان أساسها البحوث في العلوم الأساسية . كذلك فان البحث العلمي في هذه المجالات يعمل على تطوير المواهب و يساهم في خلق جو أكاديمي يشجع على الإبداع ناهيك عن الخبرة التي يكتسبها العاملون وما يرافق ذلك من خلق بنية تحتية صلبة للبحث العلمي. و ينتقد تقرير التنمية الإنسانية العربية 2003 البلدان العربية بهذا الخصوص حيث يشير إلى أنه " رغم الزيادة في عدد البحوث العربية المنشورة في دوريات عالمية محكمة خلال الثلاثين سنة الماضية إلا أن النشاط البحثي العربي مازال بعيدا عن عالم الابتكار، فجّله تطبيقي (90%) و قلّة منه تتعلق بالبحوث الأساسية. أما البحوث في الحقول المتقدمة مثل تقنية المعلومات و البيولوجيا الجزيئية فتكاد تكون غير موجودة ".

وتؤدي البيروقراطية وسوء الإدارة دورهما السيئ في إحباط جميع المبادرات الرامية إلى تنشيط و تطوير البحث العلمي وتتسبب في هجرة العقول العربية إلى الدول التي توفر لها الفرص وترضي طموحها العلمي و المادي . يقول العالم المصري فاروق الباز رئيس مركز الاستكشاف عن بعد في جامعة بوسطن (Chronicle of Higher Education عدد مارس 2004) بأنه كان ضحية لهذه البيروقراطية حيث أنه عندما عاد إلى مصر بعد حصوله على شهادة الدكتوراه في الجيولوجيا من جامعة ميسوري، في أواسط الستينيات، عين مدرسا للكيمياء في أحد المعاهد المتوسطة على الرغم من وجود حاجة لتخصصه في الجامعات المصرية آنذاك و هذا ما جعله يشد الرحال عائدا إلى الولايات المتحدة حيث أتيحت له فرصة العمل مع وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) و في برنامج رحلة أبو لو Apollo إلى القمر . ربما كانت حالة الدكتور الباز أفضل من حالة دكتور في هندسة النفط ومن بلد نفطي عين في شركة حكومية مختصة في دباغة الجلود وذلك بتتسيب من الوزير المختص!!! و دكتور في الكيمياء يمارس اختصاصه في إدارة السكك الحديدية أحيل من وزارة التعليم العالي لعدم الحاجة إلى الاختصاص!!!.

وتختلف البلدان العربية من حيث مستوى تطورها و عائدها المعرفي و الاجتماعي و السياسي و يشير تقرير التنمية الإنسانية العربية الثاني 2003 إلى خضوع هذه العلوم غالبا إلى التوجه السياسي البيروقراطي للنظم الحاكمة، كما أن المراكز البحثية في هذه المجالات لازالت حديثة

العهد لم تظهر إلا بعد الحصول على الاستقلال الوطني ولم تترسخ فيها أصول البحث بعد. و تتميز هذه العلوم بنوع من التمركز حول الذات لا يكاد يتخلص منه مجال من مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية حيث أدت مقولة "الخصوصية" دورا سلبيا في هذا الاتجاه إذ أفضت إلى عدم الاهتمام بما "لا علاقة له بواقعنا"، فحالت بذلك دون تطور مقاربات مقارنة دون تحديد علمي لما يعتبر خصوصيا، حسب المقولة التي اتخذت شكل شعار لا ينتج المعرفة بل يكاد يحول دون إنتاجها. فنجد متخصصين في اللغة العربية والتاريخ الإسلامي حصلوا على شهاداتهم العليا من جامعات أوروبية أو أمريكية، مثلا أستاذ في علم الانثروبولوجيا متخرج من جامعة فرنسية أطروحته في الدكتوراه حول أصل السلالات البشرية في بلدان المغرب العربي، و أستاذ في النقد الأدبي العربي من جامعة دبلن وآخر في تأريخ العراق الحديث من جامعة ويسكون سون (Wisconsin)، وهكذا نجد أن هؤلاء الباحثين يتغربون لدراسة ما تركوه في مجتمعاتهم في حين نجد أن الطلاب و الباحثين الأجانب يأتون إلى البلدان العربية لدراسة و انجاز البحوث في التاريخ و الحضارة والثقافة الخاصة بهذه البلدان. هذا التمركز على الذات أدى إلى عدم تراكم رصيد علمي عربي عن المجتمعات و الحضارات الأخرى وهذه ليست رغبة الباحثين بقدر ما هي ثقافة ينتمون إليها نتيجة خيارات سياسية حيث لا توجد في العالم العربي مؤسسات تهتم بدراسة المجتمعات والحضارات الأخرى. و كنتيجة لذلك قل اندراج الأبحاث العربية في شبكات علمية عالمية، ومع عدم توفر شبكات عربية نجد الباحث العربي غير مندمج في مجموعة عالمية ولا في مجموعة عربية. هذه العزلة أدت في كثير من الأحيان إلى إحباط تحول إلى ظاهرة عامة تحولت إلى انكفاء في المشاغل الحياتية و لامبالاة بالأمر المعرفية بأشكالها. لذلك نجد إن الأبحاث في العلوم الإنسانية المنشورة في دوريات عالمية قليلة و معظمها منشورة من قبل بعض العرب الذين ينتجون أبحاثهم بلغات أجنبية ويتناولون موضوعات تهم الباحثين الأجانب. وتختلف شروط الإبداع في الأدب و الفنون عنها في حالة البحث العلمي في مجال العلوم الطبيعية و التكنولوجيا، حيث أن الأولى لا تحتاج إلى دعم مؤسستي ومادي أو بنية تحتية مساندة، فلا يمكن مثلا لعالم في الكيمياء أو البيولوجيا أن يقدم أنتاجا بمستوى العلماء الحاصلين على جائزة نوبل بدون أن تتوفر له مقومات البحث العلمي الأساسية من مؤسسات دعم البحوث والمعامل والمكتبات والأجهزة والمساعدين والتمويل و غير ذلك، في حين يستطيع شاعر أو روائي عربي الحصول على أرقى الجوائز العالمية بجهوده الفردية حيث لا يوجد شرط بين الرخاء المادي و الإبداع الأدبي الجيد. بل أحيانا نجد أن العكس هو الصحيح، حيث أن الظروف الصعبة و الحرمان و التحديات الفكرية و السياسية قد تصبح حافزا للإبداع الأدبي و الفني. غير أن ازدهار هذا الإبداع ونموه و تأثيره الايجابي في البيئة المحيطة به يحتاج إلى مناخ من الحرية

والاستقرار كما يحتاج إلى الدعم المادي والمؤسساتي لغرض نشره وهذا ما تفتقر إليه البلدان العربية.

يورد تقرير التنمية الإنسانية العربية الأول و الثاني أرقاماً حول الإنتاج الأدبي ونشر الكتب تضع البلدان العربية مجتمعة في أسفل القائمة من حيث الإصدارات تأليفاً و ترجمة حيث لم يتجاوز إنتاج الكتب في البلدان العربية عام 2000 على 0.8% من الإنتاج العالمي رغم أن العرب يشكلون 5% من سكان العالم، وهو أقل مما أنتجته تركيا و التي لا يتعدى سكانها ربع سكان البلدان العربية. الازدهار الوحيد كان في مجال تأليف و نشر الكتب الدينية التي بلغت نسبتها 17% من الإنتاج العالمي. و يذكر التقرير أن معدل عدد الكتب العربية المنشورة في السنة خلال التسعينات بلغت 5600 كتاب بالمقارنة مع 42000 كتاباً في أمريكا اللاتينية و 102000 كتاب في أمريكا الشمالية (تفاصيل أخرى في الجزء الأخير من الدراسة).

أن كاتب هذه السطور وهو يشاهد احتفالات نهاية العام 2011 المشئوم بان مقدمي برامج إحدى القنوات العراقية حصلوا هدية من مدير القناة 50 مليون دينار عراقي خلال ساعات تقديمهم لهذه البرامج، في ما صدر للكاتب معجم جغرافي وهو حينما نشره أعطى من جيبه الخاص 125 ألف دينار كأجور نقل من عمان إلى بغداد مقابل جهد خمسة سنوات ،وهذا خير مثال يشجع العلماء العرب على الإبداع والابتكار!!!، يذكر أن المصريين حينما يزوجوا بناتهم ينفقوا عليهن مصاريف الزفاف وبالتالي فهم يهيئوا أنفسهم لكل بنت وصلت مرحلة الزواج ،وهكذا العلماء العرب لكي ينشروا ضرورة تهيئة أنفسهم لأجور النشر.

أما بخصوص التعليم العالي النوعي تتلخص الأزمة (إضافة إلى ما ذكر سابقاً) بفشل المؤسسات التعليمية في طريقة مخاطبة عقول الطلبة من خلال فشلها في تعليمهم كيفية التفكير و استخدام المعلومات بذكاء، و أصبحت طريقة الحفظ عن ظهر قلب هي الوسيلة التي يحصل فيها الطلبة على النتائج المتميزة حتى في مقررات العلوم الطبيعية، و سبب ذلك يعود إلى عادة سيئة اكتسبها الطلبة في مراحل الدراسة الأولية حيث اعتادوا أن يكونوا متلقين فقط في نظام تعليمي يكون فيه المعلم أو المدرس هو محور العملية التعليمية، ووسيلة المعلم الوحيدة هي كتابه المنهجي وتلخيصه الذي غالباً ما يكتبه على السبورة ولا يحيد عنه لعدة سنوات وهو ما ينطبق عليه قول الفيلسوف الألماني جوهان فان جوتة " لا أسوأ من معلم لا يعرف إلا ما ينبغي أن يعرفه التلاميذ" .

للأسف الشديد يجد هذا الأسلوب رواجاً واسعاً لدى عدد كبير من أساتذة الجامعات أيضاً أما بسبب الصعوبات التي يواجهونها لدى محاولاتهم للتغيير، أو بسبب الجمود وعدم الرغبة في التطوير، أو اللامبالاة بسبب انعدام الحوافز، وكذلك الأعباء الأكاديمية التي يتحمل بها عضو هيئة التدريس، و هذا ما يجعل المخرجات التعليمية ضعيفة المستوى لا تستطيع المنافسة في العمل

مع مثيلاتها من الدول المتطورة أو حتى مع أقل الدول النامية الأخرى تطورا . من إحدى مقولات الفيلسوف الصيني الشهير كونفوشيوس حوالي سنة 500 قبل الميلاد " لا يحصل المرء على المعرفة إلا بعد أن يتعلم التفكير" و مقولته الأشهر لطلبتة " لكل حقيقة أربعة أركان و أنا كمعلم ليس علي إلا إعطائكم ركنا واحدا وعليكم أن تبحثوا بأنفسكم عن الأركان الثلاثة الأخرى" مقولة لا تحتاج إلى توضيح.

وللأنصاف لا بد من القول أيضا بان هناك العديد من الأساتذة الجامعيين ممن حاولوا و يحاولون تطبيق هذه المقولات و تغيير هذا الواقع بتغيير النمط التعليمي السائد، إلا أن محاولاتهم غالبا ما تصطدم بعدم قدرة الطلبة، الأضعفي المستوى، على التكيف مع هذه التغييرات حيث أنهم لم يعتادوا نمطا حديثا من التعليم يكونوا فيه طرفا فاعلا. وهذا ربما هو أحد أسباب التذني الواضح في نسبة أعداد الطلبة في تخصصات العلوم الطبيعية و الهندسية التي تتطلب مهارات تفكير و بحث أكثر من باقي التخصصات. و حسب البيانات التي يوردها تقرير التنمية الإنسانية العربية 2003 ، فان هذه النسبة تتراوح ما بين 0.5% و 4% (في العلوم الطبيعية) من مجموع عدد طلبة الجامعات، في حين تجدها في كوريا الجنوبية مثلا بحدود 20% . و ما لا يتطرق إليه التقرير هو أن أقساما علمية في جامعات عديدة بدأت تتوقف عن طرح برامجها بالكامل لعدم توفر الحد الأدنى من أعداد الطلبة الملتحقين بها، و هذا خلل خطير في محاولات بناء قدرة بشرية متوازنة، سينعكس مستقبلا على النمو الاقتصادي و الاجتماعي وكذلك التأثير السلبي على التعليم الأساسي و الثانوي. فليس من المعقول أن بلدانا نفطية لا تُدرّس في جامعاتها تخصصات الفيزياء و الكيمياء التطبيقية و التقنيات الحيوية والبتر و كيميائيات في حين تتكدس أعداد من خريجي العلوم الإنسانية ينضمون إلى قوافل من العاطلين عن العمل سنويا أو على أقل تقدير إلى قوائم البطالة المقنّعة مما يعني هدرا للجهد و المال. و من الأسباب الأخرى لهذا الخلل هو عدم توفر ثقافة علمية عامة في المجتمع بسبب القصور في تعميم التربية العلمية و الضعف في نشر الثقافة العلمية و غياب المؤسسات اللازمة لاحتضان العلم و توطينه.

وحول الهدر الأكاديمي تقول الأستاذة الدكتورة شيخة عبد الله المسند رئيس جامعة قطر في كلمة أمام مجلس الشورى⁽¹⁸⁾ أن نسبة الهدر الأكاديمي في الجامعة بلغت 45% بسبب الرسوب و التسرب و الفصل. وتشير البيانات التي عرضتها الدكتورة شيخة إلى أن نسبة الذين لم يتمكنوا من إكمال دراستهم لعدم تمكنهم من تحقيق متطلبات التخرج تبلغ أكثر من 30% من كل دفعة تدخل الجامعة . إضافة إلى ذلك تبلغ نسبة الطلبة الذين يتخرجون بدرجة مقبول 44% من مجموع الخريجين وهؤلاء نادرا ما يحصلون على وظائف تتناسب مع تخصصاتهم ، أن هؤلاء لم يتمكنوا من الحصول على المستوى العلمي الذي يمكنهم من اكتساب الحد الأدنى من المعارف و

المهارات التي يجب أن يكتسبها خريج الجامعة، لذلك نجد أن مؤسسات العمل بدأت تتجنب بل ترفض تعيين الخريجين بدرجة مقبول . هذا يعني أن (44% من نسبة الـ 70% من عدد الطلاب الذين يدخلون الجامعة يلاقون صعوبة أو لا يجدون عملا) أي أن نسبة الهدر الفعلية هي حوالي 60% وليست 30% وهذه نسبة عالية و خطيرة. لقد انتبهت إدارة الجامعة إلى هذا التدني في المستوى الأكاديمي و الهدر المتراكم و بدأت باتخاذ خطوات إعادة الهيكلة والتطوير على كافة المستويات الإدارية و الأكاديمية من أجل " توفير نظام تعليمي نوعي حديث يتناسب مع احتياجات و إمكانات الطلاب " ومتطلبات التنمية الشاملة التي تشهدها الدولة. وقد تجلت أولى خطوات التغيير في جامعة قطر مؤخرا بتحقيق استقلالها الإداري و المالي والخطوات الحثيثة من أجل الحصول على شهادات الاعتماد الدولية لجميع برامجها الأكاديمية. و يتوافق هذا التحرك ، من أجل تطوير جامعة قطر، مع التغييرات التي تشهدها قطاعات التعليم الأساسي و الثانوي والتي بدأت مؤخرا بتجربة المدارس المستقلة التي تتبنى تغيير أنماط التدريس التقليدية إلى وسائل فعالة تعتمد على أسلوب التفكير العلمي التحليلي و النقدي و أسلوب البحث العلمي المنهجي والتي يكون فيها الطالب طرفا رئيسا فاعلا وليس متلقيا فقط، مما سيؤدي إلى رفع المستوى الأكاديمي العام للطلبة بالدراسة الجامعية مستقبلا . غير أن عملية التغيير هذه، كأى عملية إعادة بناء، تحتاج إلى وقت ليس بالقليل لكي تعطي نتائج ملموسة و لا بأس من الانتظار " فليس المهم أن تسير بطيئا طالما أنك لم تتوقف " (مثل صيني).

ولا تفرد جامعة قطر بهذه النسبة العالية من الهدر الأكاديمي وتسرب الطلاب من مقاعد الدراسة و إن كانت الأسباب تختلف من جامعة إلى أخرى. فمثلا يذكر تقرير التنمية البشرية العربية 2003 ، استنادا إلى إحصائيات الحكومة المغربية، أن نسبة التسرب من الجامعات المغربية خلال السنوات الأخيرة بلغت 50% من مجموع الطلبة الذين يلتحقون في هذه الجامعات إما لأسباب أكاديمية كما هو الحال في جامعة قطر، أو لأسباب اقتصادية بسبب الحالة المعيشية المتدنية لهؤلاء الطلبة. كما أن حوالي 40% من الخريجين يبقون دون عمل. إن الصعوبات التي جاء ذكرها أعلاه إضافة إلى ضعف الموارد المتوفرة و المطلوبة للتغيير تقف حاجزا في وجه جميع هذه المحاولات. فقلة المصادر و الدوريات ووسائل التعليم الحديثة وتقنية المعلومات تؤدي دورها في تعطيل جميع المبادرات مهما كان مصدرها أو قوتها.

مؤشر رأس المال المعرفي في الدول العربية

يشير دليل التنمية البشرية الملحق بتقرير التنمية البشرية العالمي الصادر عن برنامج الأمم المتحدة للتنمية (اليونيدب) لعام 2004 إلى ثمان مؤشرات يقاس فيها مستوى التنمية البشرية أحدهما مؤشر التعليم الذي يتضمن تقييما لجميع أوجهه و جوانب التعليم مجتمعة. ومن بين

البلدان الـ 177 التي وضعها التقرير في جدول مرتب حسب قيمة مؤشر التنمية البشرية النهائي من الأعلى إلى الأدنى تحتل بعض الدول العربية مواقع لا بأس بها استنادا إلى المؤشر الكلي للتنمية البشرية (و بالتحديد البحرين و الكويت و قطر و الإمارات) و لكن في مؤشر التعليم بشكل خاص يقترب معدل مؤشر الدول العربية من دول جنوب الصحراء الأفريقية الفقيرة (0.61 و 0.56 على التوالي). فدولة عريقة مثل مصر يتساوى فيها مؤشر التعليم مع دولة فقيرة مثل توغو، و يقل عن دولة أفقر هي راوندا، أو عن بلد لم يسمع به 99% من سكان العالم هو جزر سليمان، إنما يشير إلى المستوى المعرفي المتدني الذي يحتله عالمنا العربي بين الأمم و إلى التخلف الذي يثير الأسى و الحزن والألم.

ويضع تقرير التنمية الإنسانية العربية 2003 جدولاً ملحقا عن مؤشرات رأس المال المعرفي في 109 من بلدان العالم حول العام 2000 تظهر فيه الدول العربية كأقل مجموعة منتجة للكتب المنشورة بالنسبة لعدد السكان (باستثناء دول جنوب الصحراء الأفريقية) فمثلا يبلغ معدل إنتاج الكتب في الجزائر 4.4 كتاب لكل مليون نسمة من السكان و في الأردن 5.5 و مصر 20.4 ، في حين يبلغ في هايتي 42 كتاب لكل مليون نسمة وفي السلفادور 105 و إسرائيل 328 و يبلغ في المجر 1035 وفي التشيك 1218 وفي أستونيا 2332 . و يذكر التقرير الأسباب لهذا التدهور في إنتاج الكتب و يعزبها إلى ارتفاع معدلات الأمية في بعض البلدان العربية و ضعف القوة الشرائية للقارئ العربي إضافة إلى قيود النشر بسبب الرقابة المشددة على كل ما يكتب. في هذا الصدد يقول السيد فتحي خليل نائب رئيس اتحاد الناشرين العرب: " تفرض على المؤلف و الناشر قيود كثيرة أهمها مراعاة أمزجة 22 رقبيا عربيا، فيؤدي ذلك إلى عدم انتقال الكتاب العربي بين أسواقه الطبيعية ببسر ". ومن المفارقات الرقابية التي أوردها التقرير (في احد الهوامش!) أن روايات الأديب الذي حاز على الجائزة الأولى في أكبر معارض الكتاب العربية في العام 2000 كانت ممنوعة، كما أن الرواية التي حازت على جائزة الإبداع لعاصمة الثقافة العربية في العام 2002 منعت من التوزيع من قبل الرقيب في العاصمة ذاتها.

أما الترجمة فان التقرير السابق يشير إلى وجود حالة من الركود والفوضى في هذا المجال، فرغم ازدياد عدد الكتب المترجمة إلى العربية من حوالي 175 عنوانا في السنة في النصف الأول من السبعينيات إلى ما يقرب من 330 كتابا في نهاية التسعينات، وهو ربع ما تنتجه اليونان، ويعادل تقريبا كتاب واحد لكل مليون من السكان في السنة بينما يبلغ في المجر مثلا 519 كتابا و 920 كتابا في أسبانيا لكل مليون من السكان. ومن المقارنات الغربية التي وردت في التقرير نقلا عن كتاب للدكتور شوقي جلال هي " أن العدد الإجمالي التراكمي للكتب

المتروجة إلى العربية منذ عصر المأمون حتى الآن (1000 عام تقريبا) يقدر بحوالي عشرة آلاف كتاب و هو ما يوازي ما تترجمه أسبانيا في عام واحد.

لدى إشرافها تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2002 ، لخصت الدكتورة ريماء خلف هنيدي، الأمين العام المساعد للأمم المتحدة و المدير الإقليمي لبرنامج الأمم المتحدة في كلمتها، تحسين الوضع المعرفي الذي يدعو إليه التقرير بالاستناد إلى مبادئ بسيطة وواضحة وهي " الدعوة إلى تطوير المواقف و الحوافز المجتمعية حتى تصبح رحما للإبداع و أرضا خصبة للابتكار، فيهما تتمكن البلدان العربية من خوض غمار المنافسة في الأسواق القائمة على المعرفة. وعليه ينبغي أن ينصب تغيير آليات النظام الاجتماعي باتجاه توفير الحوافز للبحث و الإبداع و الابتكار، و إتاحة الفرص الحقيقية للتميز في المكانة الاجتماعية لمكتسبي المعرفة و الباحثين عن التجديد و التطوير.

إن إدراك منزلة المتفوقين في الميدان المعرفي و العلمي رهن بتوفير علته و إيجاد أسبابه ولن يسوق العلماء و الفنانين و المتخصصين و الطلبة إلى ميدان الإبداع مراسيم تذاو و أوامر تتلى وإنما آفاق مفتوحة للعمل تقودها إلى مجاريه الصحيحة و قنواته السليمة إجراءات و قوانين مسهّلة و حافزة. وقد أشار التقرير إلى أن فجوة المعرفة وليس فجوة الدخل هي التي أصبحت المحدد الرئيسي لمقدرات الدول في عالم اليوم. لذلك جاء تقرير التنمية الإنسانية الثاني (عام 2003) مركزا على التنمية المعرفية و العلمية فنشر تحت شعار (نحو إقامة مجتمع المعرفة في البلدان العربية).

إن تكاليف تحسين نظم التعليم كبيرة جدا، إلا أن تكلفة استمرار الجهل لا حدود لها، ورحم الله الشاعر الذي قال⁽¹⁹⁾:

العِلْمُ يَبْنِي بِيوتًا لَا عِمَادَ لَهَا .. وَالْجَهْلُ يَهْدِمُ بِيوتَ الْعِزِّ وَالشَّرْفِ.

أما من حيث ترتيب طلاب دول العالم من حيث الأفضلية في مادة العلوم فإن الطلبة العرب لا ذكر لهم فيها، فقد أوضح بحث حديث أن الطلاب الفنلنديين هم الأفضل في مادة العلوم من بين طلاب 57 دولة، وجاءت النتائج عقب اختبارات شارك فيها أكثر من 400 ألف طالب، في سن الـ15، من 57 دولة، وفق تقرير منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي العالمية، وركزت الاختبارات على مادة العلوم، إلا أنها تضمنت كذلك مادة الرياضيات وقراءة الإنشاء.

وحاز طلاب هونغ كونغ وكندا، وتلاههم نظرائهم في تايوان واستونيا، واليابان، ونيوزلندا، وأستراليا، على المرتبة الثانية وفق الدراسة. وقبع الطلاب الأمريكيون في المرتبة الـ29، خلف طلاب بريطانيا الذين حازوا على المركز الـ14، فيما نال طلاب فرنسا المرتبة الـ25. ويشار أن منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي، التي يبلغ عدد أعضائها 30 من دول العالم

المتقدم، تجري الاختبارات السنوية على طلاب مدارس الدول الأعضاء كل ثلاث سنوات. وتفوق طلاب تايوان، وفنلندا، وهونغ كونغ في اختبار مادة الرياضيات، فيما حاز نظرائهم في كوريا الجنوبية على المرتبة الأولى في اختبار القراءة، وتلاههم طلاب فنلندا وهونغ كونغ. وتأخر التلاميذ البريطانيون عشرة مراكز في اللائحة العالمية الأشهر، التي تبين المستوى العلمي لتلاميذ المدارس في العالم، حيث جاءوا في المرتبة 14 ألمانيا التي تعتبر أكبر منافس اقتصادي لبريطانيا، أحرزت على العكس تقدماً كبيراً، بعد أن جاءت متأخرة كثيراً عن متوسط مستوى البلدان الغنية.

وستكون أحدث قائمة خاصة ببرنامج تقييم مستوى الطلبة على الصعيد العالمي مضيئة لآمال الحكومة البريطانية، خاصة أنها عززت ميزانية التعليم بمليارات الجنيهات في السنوات الأخيرة، وجعلت التعليم واحداً من أولى أولويات عملها!!! وقال وزير التعليم البريطاني جيم نايت: إننا فوق المتوسط بكثير، ولكننا ندرك أننا بحاجة إلى عمل المزيد كي نكون في مصاف دول العالم حقاً. وتعتبر اللوائح الخاصة ببرنامج تقييم تلاميذ العالم، والتي تصدر عن منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية العالمية مرة كل ثلاث سنوات، أشمل وأقوى مقياس لقدرات تلاميذ المدارس في سن 15 عاماً.

وشكلت القدرة العلمية الجزء الأكبر في اختبار الساعتين الذي خضع له الطلبة، من أجل إصدار اللائحة الخاصة لعام 2011. وتركز المنظمة المذكورة في كل مرة على ناحية مختلفة من نواحي المعرفة.

وحلت كندا محل اليابان في المركز الأول بين مجموعة الدول السبع الكبار، رغم أن الفائز بالمركز الأول على جميع الدول كانت فنلندا مرة أخرى. وبينما احتلت دولة أوروبية واحدة مركزاً قيادياً، جاءت ثلاثة بلدان آسيوية من بين أعلى ستة بلدان، أما البلدان الثلاثة فهي هونغ كونغ، تايوان، واليابان. وجاءت الولايات المتحدة مرة أخرى، دون متوسط البلدان الأعضاء في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية.

وبقيت إيطاليا في المركز الأخير بين الدول السبع الكبار، محققة النتيجة التي حققتها في العام السابق. وصرحت وزارة التربية فيها بأن النتائج السيئة للمسحيين السابقين، أدت إلى تشكيل حكومة يسار الوسط لجنة خاصة لدراسة هذا الموضوع.

وبموجب نظام جديد تم اعتماده، سوف تجبر المدارس على إعطاء دروس تقوية للطلبة الذين يرسبون في مادتي الرياضيات والعلوم. وصرح المتحدث الحكومة قائلاً: إن إيطاليا تخاطر بفقدان قدرتها على التنافس في هذا المجال.

وكان أداء تلاميذ عدة دول شرق أوروبية، من بينها استونيا التي حلت في المرتبة الخامسة جيداً، وما عدا ذلك، كان أداء معظم الدول الفقيرة التي شملتها الدراسة سيئاً. وفيما بين الدول الأعضاء في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية - وغالبيتها غنية نسبياً - كانت هناك علاقة بسيطة بين النتائج التي حققتها تلاميذها، وبين الأداء الاقتصادي للبلد في المدى الطويل.، اليابان، على سبيل المثال ما زالت تعيش حالة من تباطؤ النمو الاقتصادي، ولكن المستويات العلمية لطلبتها عالية.

ودعا السكرتير العام لاتحاد جامعات العالم الإسلامي الدكتور عبد العزيز التويجري إلى تأصيل المفهوم الإسلامي للجودة والاعتماد في التعليم الجامعي بما يطور بحوثه وينوع أنماطه التعليمية ويصون مناهجه من آفات الاستلاب والتغريب. وشدد على أهمية إيجاد تعليم من شأنه إيقاف نزف العقول المهاجرة والاستفادة من إيجابيات المستجدات العلمية والتكنولوجية المعاصرة حماية لخصوصيته وتحقيقاً لعالميته.

خامساً - أسباب تخلف العرب

ما سر تقدم الغرب وتخلف العرب ؟ سؤال يطرح نفسه بجدية في وقت وصل فيه العرب إلى أدنى الدرجات على جميع الأصعدة والمجالات بما فيها السياسة والاقتصاد والجانب الاجتماعي، وصاروا لعبة وبيادق يلعب بها الغرب ويحركها أينما شاء ، في حين يشهد الغرب نهضة وتقدماً جنونيا على جميع المستويات ، لا بل حتى بعض الدول النامية كالصين والهند وماليزيا على سبيل المثال لا الحصر، فما الفرق بيننا وبينهم وما سر هذا الاختلاف ونتائجه؟؟ (العربي اليوم لا يحلم بالتقدم بل بإيقاف التراجع) وهذه مصيبة !

في الهند ديمقراطية تنافس الديمقراطيات الغربية في تقاليدنا الراسخة، واحترامها لحقوق الإنسان، وفي الوقت نفسه تمكنت الهند تلك الدولة التي تضم أفقر البشر من وضع قدميها في قمة الدول المنتجة للبرمجيات، وفي الهند نفسها احترام لحقوق الإنسان، ربما غير موجود في بعض الدول المتقدمة!

كان هذا هو السؤال الأهم الذي شغل المفكرين العرب منذ اصطدام ثلاثتهم الأولى بالحضارة الغربية المتفوقة، وحدثت هذه الصدمة أولاً مع دخول نابليون إلى مصر بعثاده وعلمائه ومدافعه فصدم المصريون الذين كانوا يدافعون بالسيوف والخيول صدمة حضارية هائلة اكتشفوا معها مدى تخلفهم عما وصلت إليه الحضارة الغربية، ثم تأكدت الصدمة بعد ذلك عندما بدأت طلائع الدارسين والمفكرين المصريين والعرب تزور أوروبا وخاصة لندن وباريس لتكتشف أسلوباً مختلفاً تماماً في الحياة وفي التفكير وفي التدبير، ووجدوا حضارة باهرة تتجلى في مدن عامرة زاهرة تتميز بالتخطيط العمراني الرشيد وبالجمال والذوق والنظام والنظافة.

تعيش المجتمعات الغربية مساواة حقيقية بين الرجل والمرأة ويكفل القانون لجميع الفئات حقوقهم وواجباتهم فلا سيادة لغير القانون الذي يطبق على جميع الناس بدون استثناء بل وصل الأمر في مرات عديدة إلى محاكمة رؤساء دول ووزراء وشخصيات هامة تم التفتن لخرقهم لقوانين في دولهم فتم الزج بهم في السجن وإزاحتهم من مناصبهم مثلهم مثل غيرهم من الناس العاديين، ذلك أن المناصب الهامة في الغرب لا تحمي متقلديها من العقاب في حال خرقهم للقانون وتكفل حرية الصحافة والإعلام هذا الأمر فتجد الصحفيين يترصدون أصحاب المناصب والنفوذ ويقومون بالكشف بأفلامهم على أي تجاوز للسلطات أو خرق للقوانين ، فكم من وزير أو رئيس أو مسؤول أقيل أو أجبر على الاستقالة لتورطه في فضيحة مالية أو جنسية أو سياسية .

فالمسؤولية هناك تكليف وتنتهي بانتهاء أمدتها أو حدودها ، فلو افترضنا مثلاً أن وزيراً ارتكب مخالفة مرورية في الطريق لتمت معاقبته بنفس العقوبة التي تسلط على أي إنسان عادي ، والمسؤول يعيش حياته العادية بين الناس دون أي عُقد ، لماذا ؟ لأنه يحكم بالقانون ، وهذا القانون يطبق على جميع الناس سواسية ويضمن حقوقهم ويضبط ما لهم وما عليهم ، وتجد أغلب الناس عارفين ومدركين بسيادة القانون .

وفي مجال التربية والتعليم تجد المناهج متطورة ومواكبة للعصر وتقدم العلوم والتكنولوجيا فلا مجال لأن تجد نقصاً في التجهيزات أو اكتضاضاً في الأقسام أو نقصاً في كفاءة المدرسين أو خلا على مستوى التسيير الإداري ، ينشأ الطفل هناك على حب العلم والمعرفة ويستعمل المدرسون وسائل بيداغوجية حديثة تُرغّب التلميذ في الدراسة ، كما أنه لا مجال لقمع التلميذ واضطهاده بالعقوبات البدنية محجبه وحقوقهم مضمونة ولا مجال لتهميشهم فهم يعاملون باحترام ويجاب على كل أسئلتهم مهما كانت ويدرسون كل العلوم فليس هناك محظورات أو " تابوهات taboos " فكل شيء قابل للطرح والنقاش والمعرفة على أسس علمية دقيقة ومدروسة ، فيتعلم الطفل أساليب الحوار والديمقراطية وينشأ على السلوك الحضاري وينهل من العلوم والمعارف الحديثة ويتربى على الخلق والابتكار والإبداع، كما تشجع حكوماتهم البحث العلمي وترصد ميزانيات ضخمة .

ما الحال في بلداننا العربية؟؟

على عكس الوضع في الدول الغربية المتقدمة يعيش العرب على الأطلال البائدة والأمجاد الضائعة ، وترى الناس في الجهل والضلالة يعمهون وفي وحل التخلف الفكري والحضاري يتمرغون ، فلا مساواة بين الأفراد ولا قانون يسود على جميع الناس بل يسلط هذا القانون على رقاب الناس الضعفاء ويستثني أصحاب المناصب والنفوذ وتعيش المرأة تهميشاً وإقصاء كبيرين في مجتمع ذكوري تسوده النعرات الطائفية والقبلية والدينية ويحكمه التعصب والجهل والفوضى .

وينشأ الناس على الخوف والكبت والحرمان فلا حريات مكفولة ولا حقوق مضمونة ولا قانون يسود بين جميع الناس فيتعطل التفكير ويجمد الإبداع وترى الناس عاجزين عن إبداء آرائهم بكل حرية بل ويبررون المنطق باللامنطق ويميلون للشعوذة والدجل واللامعقول ويخطون بين الأمور ويستندون على أفكار موروثة خرافية ليسوا مقتنعين بها في حواراتهم ونقاشاتهم ، ويمررون جهلهم لأطفالهم وهكذا دواليك.

في دول تفنقر لأبسط مقومات المجتمع المدني وتغيب فيها الحريات الفردية ويمارس على الناشطين الحقوقيين شتى أصناف التنكيل والقمع وتنتشر فيها البطالة والرشوة والبيروقراطية وتهرب منها الأدمغة ويغامر فيها الشباب بحياتهم للهروب منها ، وفي دول تتوارث فيها الحكم فئة جاهلة ومستبدة تتلاعب بمصالح شعوبها الحيوية وتتاجر بقضايا الأمة وتركع أمام العدو ، وفي دول تقصي نصف المجتمع وتهمش القضايا المصيرية وتهتم بالقضايا التافهة والمصطنعة ، فكيف ثم كيف لها أن تتقدم وتتطور وتواكب سير التقدم والحضارة وشتان بين دولة تقدر العلم والعمل ودولة تقدر الجهل والتخلف.

أما من حيث مستوى المعيشة فان السعودية تقع في المرتبة 169 والعراق في المرتبة 170 بالنسبة لدول العالم البالغ عددها 195 دولة ، وهل من المعقول أن تكون المعيشة سيئة لهذه الدرجة في السعودية لدرجه أنها في مؤخرة دول العالم .
ما المقصود بمستوى المعيشة وعلى ماذا استند أصحاب هذه الاحصائيه في تصنيفهم لمستوى المعيشة في العالم للعام 2010؟ المعايير هي:

- 1-تكلفة المعيشة: وهذا المعيار يعتمد أو اعتمد على تكلفة المعيشة في مستوى مماثل أو أفضل من العيش في أمريكا. أيضاً المديونية على الدولة و ضرائب الدخل.
- 2- مستوى الثقافة والتعليم: وهذا المعيار اعتمد على معدل الأفراد الذين يقرأون ويكتبون، ومعدل الصحف المطبوعة والمنشورة والموزعة، ومعدل الالتحاق بالمرحلة الابتدائية والمتوسطة، ونسبة الزوار لكل متحف.
- 3-المستوى الاقتصادي: وهذا المعيار اعتمد على معدل الضرائب ، مستوى الدخل للأفراد، معدل الإنتاج المحلي، ومعدل وفيات المواليد.
- 4-المستوى البيئي: وهذا المعيار اعتمد على نسبة الكثافة السكانية في الكليو متر مربع، معدل زيادة عدد السكان، ونسبة الأراضي المحمية بيئياً.
- 5-الحرية: وهذا المعيار اعتمد على حرية المواطن سياسيا وحقوقه المدنية.
- 6- الصحة: وهذا المعيار اعتمد على نسبة استهلاك الفرد للسعرات الحرارية من الغذاء كمتطلب أساسي يومي، وعدد الأشخاص لكل طبيب، وعدد الاسرة في المستشفيات لكل 1000 مريض،

ونسبة عدد السكان المتاح لهم الوصول لماء نظيف، ومعدل وفيات المواليد، ومعدل الإنفاق على الصحة كمنظمة من الدخل العام للدولة.

7- البنية التحتية: وهذا المعيار اعتمد على طول السكك الحديدية، والطرق الممهدة أو المسفلتة، ومصادر المياه أو بمعنى آخر وجود قنوات للمياه كالأنهار، ومعدل ما سبق لنسبة السكان، أيضا عدد المطارات والسيارات والهواتف المحمولة لكل فرد وعدد مزودي خدمة الانترنت.

8-الأمن والسلامة: وقصد به مدى توفر السلامة البدنية والفكرية بحيث تتيح للفرد إمكانية العيش بأمن وتكون له القدرة على الإبداع والمشاركة الفعلية في الحياة، فالأمن مسؤول عن السلامة الفكرية والبدنية للفرد والمجتمع .

9-الطقس: وهذا المعيار اعتمد على متوسط سقوط الأمطار ومتوسط درجة الحرارة مع الأخذ بعين الاعتبار خطورة المنطقة من الكوارث الطبيعية.

هذا ما اعتمد عليه موقع (internationalliving.com) في تصنيف مستوى المعيشة في دول العالم، وقد استخدموا معدل نقاط يتراوح من 0 إلى 100 حيث أن 0 يعني الاسوء و100 يعني الأفضل.

وهناك تصنيف آخر اعتمد كل معيار منفصل عن الآخر في تقييم الدول وكانت النتائج كالآتي:

في المعيار الأول -" تكلفة المعيشة" أي التكلفة المادية للعيش في مستوى مماثل أو أفضل من ما هو عليه في الولايات المتحدة فقد حققت المملكة العربية السعودية مستوى أفضل من ما حققتة فرنسا الدولة الأولى على العالم في التصنيف. حيث أن المملكة حصلت على 60 نقطة بينما فرنسا حصلت على 55 نقطة. وحصل العراق على اخص الأماكن معيشة ب100 نقطة وهذا نظرا لطبيعة الحرب وانخفاض العملة. المملكة في هذا المعيار حققت المركز 86 على دول العالم وهو أعلى من نصف دول العالم بمعنى أن تكلفة معيشة في مستوى راقى في المملكة للفرد يعتبر اخص من نصف دول العالم وهذا أمر ايجابي، وهو الثالث عربياً بعد العراق وسوريا. وقد لا يعني رخص تكلفة المعيشة في العراق أمراً ايجابياً ولكنه ليس سلبياً أيضاً. وكما ذكروا في الموقع نفسه أن 0 يعني الاسوء في المعيار و 100 يعني الأفضل.

في المعيار الثاني " المستوى الثقافي" حصلت المملكة العربية السعودية على 68 نقطة وحققت المرتبة 45 أفضل من كثير من دول العالم ومنها دول أوروبية وآسيوية وكأفضل دوله عربيه من ناحية التعليم وما جاء في ذلك المعيار .

في المعيار الثالث " المستوى الاقتصادي" حصلت المملكة العربية السعودية على 53 نقطة وحققت المرتبة 47 أفضل من كثير من دول العالم ومنها دول أوروبية وآسيوية والرابعة عربياً

وسبقها بالترتيب دولة قطر وهي الثالثة على العالم في هذا المعيار ثم الإمارات المتحدة في المرتبة الثامنة ثم الكويت في المرتبة التاسعة. ورغم أن هذه المرتبة للسعودية تعتبر ضعيفة مقارنة بحجم الثروة السعودية ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذا المعيار تم فيه اعتماد معدل الدخل للأفراد بالدولار الأمريكي وأن قيمة الريال مرتبطة بالدولار ارتباط وثيق وكون أن الدولار يعادل 3.75 ريال مما قد اضعف موقع المملكة في هذا المعيار.

المعيار الرابع " المستوى البيئي " حصلت المملكة العربية السعودية على 51 نقطة وهي في مرتبة 171 وهي مرتبة متأخرة جدا على مستوى العالم، والمشكلة في هذا المعيار انه يشمل معدل زيادة عدد السكان والمملكة تعتبر من أكثر دول العالم في زيادة عدد السكان (مواطنين ومقيمين)، وحيث أن زيادة عدد السكان يعتبر عالمياً دليلاً لتأخر إلا أننا نرى على العكس تماماً ولكن إذا وافقناهم الرأي بأن زيادة عدد السكان دليل تأخر فالمملكة تعتبر دوله متأخرة ولكن هل يعقل أن دوله تكون متأخرة وقد حصلت على مرتبة متقدمه عالمياً اقتصادياً؟ بالإضافة على إن هذا المعيار اعتمد على الأراضي المحمية وفي المملكة بطبيعتها الصحراوية يندر فيها المحميات البيئية.

المعيار الخامس " الحرية " سقطت المملكة العربية السعودية في مرتبة متأخرة جدا ب 8 نقاط في المرتبة 186 وهذه نقطه سلبية بالنسبة لبلد مثل المملكة العربية السعودية وخصوصا في ضعف المشاركة الاجتماعية في الرأي السياسي. وللأسف أن الكثير وربما كل الدول العربية حققت مراكز متأخرة في هذا المعيار.

المعيار السادس " الصحة " حصلت المملكة على 71 نقطة وفي المرتبة 67 أيضا أفضل من الكثير من دول العالم ومنها دول أوروبية وآسيوية، وتعتبر الرابعة عربياً بعد لبنان ومصر والإمارات العربية المتحدة. ويعتبر قطاع الصحة في المملكة قطاعاً ضعيفاً نسبياً نظراً لعدم توفر المستشفيات المجهزة بالأجهزة والمعدات الطبية الضرورية في كثير من مناطق المملكة وخصوصا القرى والمدن الصغيرة. وهذه نقطه سلبية ، لكن على الرغم من ذلك المملكة تعتبر في مستوى متقدم عالمياً في الصحة.

المعيار السابع " البنية التحتية " سقطت المملكة العربية السعودية في مرحلة متأخرة في هذا المعيار وحصلت على 28 نقطة وفي المرتبة 181 وهي مرتبة متأخرة جدا تليها قطر كأخر دوله عربية في البنية التحتية ب 24 نقطة والمركز 185. وإذا أخذنا في عين الاعتبار أن في هذا المعيار تم حساب طول سكك الحديد فإن المملكة تعتبر ضعيفة في هذا الجانب مقارنة بكثير من الدول، ولكن إذا أخذنا عدد السيارات والهواتف المحمولة فاعتقد إنها قد تكون متقدمه على دول كثيرة ولا يعني هذا أمر ايجابي. وإذا أخذنا قلة مصادر المياه فالمشكلة هي جغرافية وليس للبشر

فيها حيله. وإذا أخذنا مشكلة عدد مزودي الانترنت فهذه نقطة سلبية في تاريخ الانترنت في المملكة.

المعيار الثامن " الأمن والسلامة" في هذا المعيار تأتي المملكة العربية السعودية بمرتبة متقدمة سواء من حيث مستوى العنف أو الجريمة المنظمة يأتي بعدها عربياً السودان واليمن ولبنان والعراق!!

المعيار التاسع " الطقس" من الطبيعي أن تقع دوله بمثل طبيعة المملكة العربية السعودية في مرتبه متأخرة بالنسبة للطقس فهي منطقه في معظمها صحراويه وجافه وتقل فيها الأمطار ولكن بالنسبة للكوارث الطبيعية فاعتقد أن المملكة تعتبر من آمن الدول في هذه المسألة.

ترتيب الدول العربية من حيث جودة الحياة

تصدرت تونس في المرتبة الأولى عربيا في "جودة الحياة"، حيث استحوذت على المرتبة الـ77 بين دول العالم فيما حصلت المغرب والأردن المرتبة الثانية من حيث "جودة الحياة" وفقا لترتيب مؤسسة "إنترناشونال ليفينج" الدولية لنوعية الحياة في دول العالم وبحسب الترتيب الذي حصلت عليه وكالة أنباء أمريكا إن أرابيك، وبمرتبة الـ91 لكل منهما، ثم لبنان في المرتبة الـ98. وجاءت مصر وسوريا وقطر في المرتبة الـ130 بين دول العالم في "جودة الحياة" فيما جاءت السعودية في المرتبة 171، والعراق في المرتبة الأخيرة، وذلك وفق الترتيب العالمي الذي تدرجت فيه الدول العربية الأخرى المراتب الأخيرة.

هذا وحل العراق في المرتبة الأخيرة (195) سبقتها الصومال في المرتبة الـ194، واليمن في المرتبة الـ193، والسودان في المرتبة الـ192. وجاءت الجزائر والكويت في المرتبة الـ137، والإمارات العربية المتحدة في المرتبة الـ144. وتصدرت فرنسا المرتبة الأولى على مستوى العالم تلتها أستراليا فهولندا ثم نيوزيلندا، في ما حلت الولايات المتحدة في المرتبة الخامسة، وجاءت إسرائيل وتركيا في المرتبة الـ71، كما يُشار أن أفغانستان قد جاءت في المرتبة الـ191، سبقتها إيران في المرتبة الـ190.

ويمكن حصر أسباب التخلف العربي الجدول (5) بالنقاط الآتية:

- 1- عدم قدرتنا على تقبل النقد، وعزو أي نقد يوجه نحونا إلى الغيرة، والحقد، والمؤامرة، والبغض.
- 2- غياب العدل، ولا اقصد به فقط عدل الحكومات والحكام، فهذا أمر مفروغ منه، بل اقصد العدل عند الناس العاديين.
- 3- عدم احترام المرأة.
- 4- عدم احترام والاهتمام بالعلم والبحث العلمي.

5- الانفكاك بين ما نؤمن به وما نطبقه في حياتنا.

6- فهم الدين بشكل غير صحيح.

7- سيادة العقلية العشائرية والطائفية والعنصرية.

8- غياب مفهوم العدالة في التعيين، وشيوع مفهوم الوساطة، والقفز على الوظائف العامة.

9- عدم وضوح مفهوم الدولة في أذهان الناس، والاعتماد عليها في كل شيء.

10- سيادة مفهوم الحصاد، ونسيان الزراعة في العقلية العربية. فالعربي يريد أن يرى ثمار، لكنه لا يفكر بالزراعة أبداً.

11- انعدام الإيمان بالإتقان بالعمل، والبحث عن الكم لا النوع.

12- الديكتاتورية وغياب الديمقراطية الحقيقية.

في أكتوبر من عام 2009 نشر مقال بعنوان "دول آيلة للسقوط" تحدث هذا المقال عن أكثر الدول تفككا من الناحية السياسية والأمنية والبنية التحتية . واعتمد المقال حينه على قائمة سنوية تصدرها مجلة "السياسية الخارجية (Foreign Policy) "تقيس أكثر من 21 عنصرا يفترض توفرها في الدول المستقرة مثل ثبات النظام السياسي وارتفاع المستوى الأمني وتوفر الخدمات العامة وانعدام الصراعات الداخلية (وحسب هذه القائمة أتت الصومال ، وزمبابوي وتشاد ، والكونغو ، وأفغانستان ، والعراق في مقدمة الدول المضطربة) !

الدولة	التسلسل العالمي	الدولة	التسلسل العالمي
		186	

جدول 5:ترتيب	101	مصر	32	الإمارات
الدول العربية في	110	فلسطين	38	قطر
معدل التطور	111	سوريا	39	البحرين
الإنساني علميا	114	المغرب	47	الكويت
وفكريا بين دول	126	العراق	53	ليبيا
العالم لعام	133	اليمن	55	السعودية
2011	136	موريتانيا	56	عمان
	140	جزر القمر	81	تونس
	147	جيبوتي	82	الأردن
	154	السودان	83	لبنان
	161	الصومال	84	الجزائر

المصدر: بالاعتماد على:مؤسسة "إنترناشونال ليفينج" الدولية ووكالة أنباء أمريكا إن أرابيك في موقعهما على شبكة المعلومات الدولية لعام 2011.

غير أن نهاية السنة الميلادية الأخيرة (2010) حفل بظهور قوائم أخرى كثيرة لا نكتفي فقط بتقييم الوضع السياسي والأمني بل وتقيس مستوى التخلف في جوانب أخرى كثيرة مثل الجريمة والوفيات ووضع المرأة وخطورة الاستثمار وتهديد حياة الصحفيين والزوار . وقبل استعراض أجزاء مختصرة من هذه القوائم ضرورة ملاحظة أن انهيار الوضع الأمني والسياسي هو ما يشكل الأساس أو الأصل الذي تنفرع عنه الجوانب السلبية في القوائم التالية، كما يفسر سر تكرار بعض الأسماء في أكثر من قائمة كالصومال والعراق وسيراليون وأفغانستان.

فمن حيث وضع المرأة مثلاً تأتي أفغانستان في مقدمة المجتمعات الأكثر إساءة للأنثى، فالمرأة هناك لا تعاني فقط من الفقر والأمية والتشدد، بل ومن الزواج المبكر وتحيز القضاء وانخفاض معدل العمر وغيره كثير... ! وتأتي بعد أفغانستان كل من الكونغو والعراق ونيبال/ والسودان والصومال!

أما من حيث خطورة الاستثمار فيأتي العراق في المركز الأول بسبب ظروفه الاستثنائية حيث نال 82 نقطة سالبة من 100 على السلم الخاص بمؤسسة الإيكونمست الاقتصادية، يليه في الترتيب كل من غينيا، وميا نمار، وزيمبابوي، وتركمانستان، وأوزباكستان، وأوكرانيا، وفنزويلا .
أما من حيث الفساد فمعظمنا يعرف أن منظمة الشفافية الدولية تصدر كل عام قائمة تقيس مستوى الفساد في العالم (تتدرج من 10 درجات لقمة النزاهة، ودرجة واحدة لقمة الفساد والمحسوبية) وفي آخر تقرير أتت في مؤخرة القائمة كل من الصومال، والعراق، وميانمار، وهايتي، وأفغانستان (بأقل من درجة ونصف) !!

أما من حيث الخطورة على حياة الصحفيين والزوار فتأتي العراق في المقدمة حيث ساهمت ظروفها الداخلية في قتل 25 صحفياً واختطاف 27 زائراً أجنبياً (غير من لم يثبت وجوده في الأوراق الرسمية) ، أما المراكز التالية فشملت دولاً مثل أفغانستان، والصومال، واليمن، وكوبا، وزيمبابوي، وقطاع غزة .

أما من حيث نسبة الجريمة فتأتي كولومبيا كأخطر دولة من حيث شيوع جرائم القتل بين المدنيين حيث تنتهي حياة 617 مواطناً من كل 1000 بالقتل العمد، أما في المراتب التالية فتأتي كل من جنوب أفريقيا، وكولومبيا، وجامايكا، وفنزويلا، وروسيا، والمكسيك، وأستونيا .
أما من حيث النمو الحضاري وتوفر الخدمات فتأتي سيراليون في مؤخرة دول العالم- حسب المؤشر العالمي للتنمية- يليها كل من بوركينا فاسو، والنيجر، وغينيا بيساو، ومالي، وموزنبيق، وتشاد، وأثيوبيا .

وهذا النوع من التخلف ينعكس على الوضع الصحي بشكل عام، ووفيات الأطفال بوجه خاص، فمن حيث وفيات الأطفال مثلاً تأتي سيراليون في مقدمة العالم حيث يموت فيها 262 طفلاً من بين كل 1000 طفل تحت سن الخامسة ، يليها في الترتيب كل من أفغانستان، وتشاد، وغينيا الاستوائية، وغينيا بيساو، ومالي .

أما من حيث تدهور الوضع الصحي ككل فتأتي مقاطعة سويسيلاند (وهي مملكة مستقلة في جنوب أفريقيا) في مقدمة دول العالم، حيث تسجل فيها 31 وفاة بين كل ألف مواطن، يليها في الترتيب أنجولا، وجنوب أفريقيا، وليسيثو، وسيراليون، وزمبابوي، وليبيريا وجميعها من الدول الأفريقية السمراء !.

وكل هذه القوائم مجتمعة تعمل بمثابة دلائل وشواهد تثبت أن التخلف ظاهرة حتمية (بل وتلقائية متوقعة) في حال انهيار النظام السياسي والاقتصادي والأمني في أي بلد .
كما تثبت أن التخلف في مجمله يأتي كنسيج متماسك يشمل الفقر والفساد وتدهور الخدمات وارتفاع معدل الجريمة والوفيات، وهو ما يفسر تكرار بعض الدول في أكثر من قائمة .
وتأتي في مركز الصدارة في هذا التصنيف النرويج والسويد وأستراليا وكندا وهولندا وحصلت بلجيكا المرتبة السادسة في القائمة، تليها أيسلندا، والولايات المتحدة، واليابان وأيرلندا، ثم سويسرا، وبريطانيا، وفنلندا، والنمسا، ولوكسمبورغ، وفرنسا، والدنمرك، ونيوزيلندا، وألمانيا وإسبانيا.

سادسا- بعض السبل للخروج من مأزق التخلف

لكي نتمكن من معالجة مشكلة التخلف العربية، التي تواجهنا بشكل صحيح، ينبغي أن نبدأ بتحديد جوهر وأسباب المشكلة. وإذا عدنا إلى نظريات التنمية، فسوف تقودنا إلى مجموعة من الأسباب المعروفة لدينا، التي تعمل على تجسيد التخلف وإعاقة وإحباط جهود التنمية. وقد نختلف على أهمية وطبيعة ودرجة تأثير هذه الأسباب، لكننا سنجد أنفسنا في نهاية المطاف أمام حقيقة واضحة مفادها أن العالم العربي . وبصرف النظر عن أسباب تخلفه التي يختلف حولها المفكرون والمنقون . يحتاج اليوم إلى قوة دافعة محرّكة تساعد على الخروج من مأزق التخلف، وعلى الماضي قدما في انطلاقة التنمية. فإذا لم تكن هناك قوة تنموية دافعة تؤثر على الناس الذين تعودوا على حياة التخلف، فلننس مسألة التنمية حتى ولو عرفنا أسباب التخلف. ولهذا فإن نقطة البدء تكون في تحديد هذه القوة التنموية الدافعة.

إن هذه القوة تتمثل في الفكر الذي يمكن تسميته بالفكر التنموي العربي. وينبغي لهذا الفكر لكي يكون ناجحاً في أهدافه التنموية أن يتطور ضمن الإطار الإسلامي ووفق السياق الإسلامي. فالإسلام دينا وثقافة يهيمن على عقول وقلوب المسلمين ويؤثر في سلوكهم وحياتهم. وإذا لم تكن القوة الدافعة للتنمية التي يمكن للفكر العربي التنموي أن يعتمد عليها، إذا لم تكن قادرة على التفاعل مع عامة الناس وعلى التغلغل في أعماق أنفسهم، فلن نتمكن من إخراجهم من التخلف ودفعهم نحو التنمية. فالفكر التنموي الذي نحتاج إليه في عالمنا العربي لن ينجح في تحقيق أهدافه المرجوة إلا إذا جاء منسجماً مع روح الإسلام وثوابته. فلا العلمانية ولا القومية ولا الاشتراكية قادرة على تشكيل أساس الخطاب التنموي العربي، لكن الإسلام بالمقابل، قادر على تزويدنا بالسلاح أو الأساس الذي نقاتل به التخلف، لأن الناس يفهمونه ويقبلونه ويحبونه ويتفاعلون معه. هذه حقيقة ينبغي أن نسلم بها، وان عدم قبولها يجعلنا ندور في حلقة مفرغة من الجدل غير المفيد. ولن يتمكن أي مفكر عربي من المساهمة في إثراء عملية التنمية العربية إذا لم يقبل بهذه الحقيقة، فكيف يمكن للفكر العربي التنموي أن يستفيد من حقيقة تغلغل الإسلام في

نفوس وعقول وقلوب المسلمين لتدعيم انطلاقة التنمية العربية؟. إذا كان بإمكان الفكر الإسلامي المتطرف أن يستغل قوة تأثير الإسلام على بعض شباب المسلمين بالشكل الذي يجعلهم يقتلون أنفسهم، أفلا يمكن للفكر التنموي العربي الإسلامي بالمقابل، أن يعتمد على هذه القوة الإسلامية الهائلة لدفع انطلاقة التنمية في العالمين العربي والإسلامي؟ ألا يمكن قلب الوضع الحالي، بحيث يتم استثمار القوة الإسلامية الدافعة لتحقيق التنمية والتطور عوضاً عن استغلالها الحالي من قبل المتطرفين لتدعيم التطرف والتخلف في العالمين العربي والإسلامي؟.

نعم يمكن لهذا الإنجاز الكبير أن يتحقق إذا تمكنا من معالجة إشكالية الفكر الإسلامي في الوقت الحاضر، فإذا تأملنا في هذا الفكر نجد أنه يعاني من مشكلتين رئيسيتين هما:
1- تأثره بالخطاب السياسي المتطرف.

2- خضوعه لمجموعة من القيود التي جعلته يتصف بالجمود ومحدودية قدرته على الحركة والتطور.

أن معالجة هاتين المشكلتين تتطلب حقيقة تجديداً وتطويراً أساسياً في بعض مجالات ومضامين الفقه الإسلامي. فلا تنمية في العالم العربي إلا من خلال الاعتماد على الإسلام. والفكر الإسلامي الحالي يحتاج إلى تطوير وتجديد، وهناك من يعارض بشدة هذا التطوير والتجديد، وإن هذه المعارضة تجسد في الحقيقة مأزق التخلف في العالمين العربي والإسلامي⁽²⁰⁾. ولقد تعلمنا منذ الصغر أن الإسلام قادر على التكيف مع جميع ظروف الزمان والمكان، وقادر على التفاعل مع مستجدات ومستلزمات وضرورات الحياة الإنسانية. ويشكل هذا المبدأ منطلقاً جيداً مهماً في التطوير، لأن القدرة على التكيف هي أحد مستلزمات التنمية الأساسية، لكن تكيف الفكر الإسلامي مع الظروف المستجدة لن يحدث في ظل حالة الجمود الفقهي المعاصر وهناك حاجة وضرورة ملحة للتجديد والتطوير وإزالة سوء الفهم في بعض مجالات الفقه السياسي وفقه الجهاد والعلاقة مع غير المسلمين، والفقه الاقتصادي وفقه العلم والتعليم، وفقه المرأة، والفقه الاجتماعي. وإن كل من يرفض فكرة الدعوة لهذا التجديد ويعارضها، فإنه يعمل من حيث يدري أو لا يدري، على تجسيد التخلف ووضع القيود أمام التنمية في المجتمعات العربية والإسلامية. وإذا كان الفقه من حيث المبدأ هو من اختصاص علماء المسلمين، فإن صياغة الخطاب التنموي ينبغي أن تكون مفتوحة أمام جميع المهتمين بالمشاركة من المفكرين الإسلاميين والمتخصصين بالدراسات الإسلامية. فضالتنا في هذه المسألة هي الفكرة المفيدة الجيدة. وأي فكرة تنموية مناسبة لا تتعارض مع مبدأ إسلامي ثابت ينبغي الأخذ بها حتى ولو كان مصدرها مفكر أو مستشرق غير مسلم.

إن فكر التطرف الإسلامي الذي يدعو إلى الصدام مع الغرب يخلق للمسلمين مشاكل عديدة تحد من قدرتهم على التطور، فجميع مصادر القوة الاقتصادية والعسكرية والعلمية والتقنية موجودة الآن لدى الغرب. والمسلمون غير قادرين على مواجهته أولاً، وهم بحاجة إليه لأغراض التنمية ثانياً. فكيف نترك الفكر المتطرف المنسوب إلى الإسلام يخرب ويهدم بيتنا الإسلامي من خلال دعوته إلى صدام مع الغرب قد تكون نتيجته كارثة على المسلمين في حال حدوثه.

وفي ما يتعلق بالتعليم، فإذا أردنا بعد عشرين عاماً على الأقل، أن يكون لدينا جيل قادر على التفاعل مع متطلبات التنمية فينبغي أن نبدأ، منذ الآن، بإصلاح جدي فعلي لمناهج تعليمنا. فكما إننا بحاجة إلى فكر عربي تنموي عام فإننا أكثر حاجة إلى وضع برامج تعليمية تنموية قادرة على أن تخلق لدى أجيالنا العقلية التحليلية العلمية الجيدة والمعرفة التقنية المناسبة. وإن إصلاح مناهج التعليم العربية وتطويرها يحتاج إلى إصلاح مرافق له في قدرات ومهارات المدرسين الذين يقومون بتعليم طلبتنا في المدارس.

أما بالنسبة للمرأة فإن المرأة تمثل نصف المجتمع، وهي أيضاً تلد نصفه الآخر، ولا يمكن من حيث المبدأ تحقيق التنمية في أي مجتمع إذا كانت نصف طاقته البشرية معطلة أو غير مستثمرة بالشكل الأفضل. وهناك في عالمنا الإسلامي الكثير من القيود الاجتماعية والسياسية المفروضة على المرأة باسم الدين بشكل غير صحيح. وكلما تذكرت مشهد رجل طالبان في أفغانستان وهو يضرب المرأة بالعصا، كما رأيناه في التلفاز، وتذكرت قصة قرأت عنها لامرأة عربية ريفية ماتت وهي تعاني من الألم لأنها لم تجد من يأخذها إلى المستشفى، ولم تعرف كيف تذهب إليه بمفردها، وكلما تذكرت وضع عشرات الآلاف من النساء المسلمات المتعلمات غير القادرات على العمل من سجينات البيوت، شعرت بالألم والظلم والإحباط الذي تعانيه ملايين النساء في عالمنا العربي والإسلامي. ولهذا فإن هناك ضرورة إنسانية وضرورة اقتصادية وضرورة أخلاقية وضرورة تنموية تستلزم منا العمل الجدي لمعالجة مشاكل المرأة في العالم الإسلامي. فالإسلام الذي كرم المرأة وساواها بالرجل من حيث المبدأ في أهم مجالات ومضامين الحياة، لا يمكن أن يكون عاجزاً اليوم عن تقديم الحلول المناسبة والكفيلة بإصلاح وضع وظروف المرأة المسلمة.

مصادر ومراجع الفصل الرابع

- 1- ياسين طه ظاهر، ظاهرة التخلف وتفسيراتها في دول العالم الثالث، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، العددان 21 و25، نيسان/ابريل 1990، ص.337
- 2- محمد صالح ربيع العجيلي، أصالة القيم الثقافية في المدينة العربية والغزو الثقافي الأجنبي، مجلة الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد، العدد السابع والثلاثون، السنة العاشرة، نيسان ابريل 2002، ص.50
- 3- محمد صالح ربيع العجيلي، طرائق التفكير العلمي، مطبعة الكتاب، بغداد، 2009، ص.121.
- 4- صلاح الدين نامق، الجوانب الأخلاقية في التنمية، القاهرة، دار النهضة العربية، 1993- ص.18
- 5- يحيى غني النجار، ملاحظات حول مفاهيم ونظريات التخلف، مجلة البحوث الاقتصادية والإدارية، العدد الثاني، المجلد الثامن، نيسان/ابريل 1990، ص.98.
- 6- المرجع السابق، ص 103.
- 7- أميرة عبد اللطيف مشهور، الصناعات البيئية وعلاقتها بالتنمية الاقتصادية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، القاهرة، 1976، ص. 30.
- 8- حمدي عبد العظيم، فقر الشعوب بين الاقتصاد الوضعي والاقتصاد الإسلامي، القاهرة، دار الفكر العربي، 2000، ص 20.
- 9- الإمام بن حزم، المحلى، الجزء السادس،، دار التراث، القاهرة، بدون تاريخ، ص. 152.
- 10- خورشيد أحمد، التنمية الاقتصادية في إطار إسلامي، ترجمة الدكتور رفيع المصري، مجلة أبحاث الاقتصاد الإسلامي، العدد 2 مجلد 2 - السعودية، عام 1985، ص 45.
- 11- شوقي دنيا، الإسلام والتنمية الاقتصادية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1979، ص 80. 1
- 12- فؤاد مرسي، التخلف والتنمية، دراسة في المنظور الاقتصادي، الطبعة الأولى، بيروت، دار الوحدة، 1982، ص.89.
- 13- نداء مطشر صادق، التخلف في العالم الثالث مع دراسة التجربة المصرية 1952- 1970، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، 1984، ص.78-83.

- 14- محمد صالح ربيع العجيلي، البعد الإسلامي في ظاهرة التحضر العربي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد 47، دبي 2004، ص 20.
- 15- إبراهيم الأيوبي، الحوار المتمدن ، العدد، 2197 ، شباط 2008 .
- 16- صحيفة جوف نيوز (عدد 2004/1/11).
- 17- وجيه عويس (نقلا عن دورية Chronicle of Higher Education عدد مارس 2004) .
- 18- صحيفة الوطن القطرية، العدد 720 ، في 2005/1/18.
- 19- بتصرف من مقال للدكتور زياد العاني بعنوان دراسة لواقع التعليم العالي و البحث العلمي في الجامعات العربية والمنشور على شبكة المعلومات العالمية.
- 20- مجلة Der Spiegel الألمانية، العدد 2007، 22 مقال مترجم بتصرف، ترجمة باسم الحاج العلي.

الفصل الخامس : الجهل أو تجاهل القيم الدينية

أولا- فلسفة الدين والعقل والجهل

1- الدين و العقل

منذ بداية الخليقة عرف وتعرف الإنسان البدائي على كل شيء حوله من خلال عقله ،وما زال يمارس ذلك حتى الآن ،وليس من خلال الأشياء عرف الإنسان بان له عقل يستفهم من خلاله الأشياء . فقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان بعقله أولا ثم أرسل الأنبياء والرسل ثانيا ومن هنا فإننا نحن البشر عرفنا الدين من خلال عقولنا واقتنعت به هذه العقول ثم آمننا بهذا الدين عقلا وقلبا وليس العكس عُرفت عقولنا من خلال الدين .وكل أمر من أمور حياتنا اليومية تمر على عقولنا أولا قبل أي شيء آخر وإننا لم نعرف عقولنا من خلال هذه الأمور ، فالطبيعة البشرية في كل أمر من أمور الحياة يتحكم فيها العقل أولا ويوجد في أعلى جزء في جسم الإنسان لسموه وأهميته من أي جزء آخر في الجسد، ويمارس العقل مهمته تجاه هذه الأمور ويقوم بتحليلها من كل الجوانب إلى أن يهتدي العقل إلى اخذ القرار الناضج العاقل مستغلا علمه وخبرته وخبرة الآخرين في هذا الأمور حتى يتسنى له النجاح وحياة أفضل ومستقبل باهر له وللبشرية اجمع .

وإذا كنا قد عرفنا الدين من خلال عقولنا فيجب علينا أن نقدم عقولنا في كل أمر من أمور الحياة أولا لأن عقولنا هي الهبة الوحيدة التي إعطانا الله إياها للتمييز في أفكارنا وتصرفاتنا مع أنفسنا ومع الآخرين ،من خلال عقولنا هذه وليس من خلال ديننا نعرف كيف نتصرف تجاه تلك الأمور الحياتية ،وإلا أصبح الإنسان هنا مسير وليس مخير وأصبح العقاب والصواب ليس وجود لهما طالما نحن مسيرين بهذه العقيدة أو هذا الدين لذلك خلق الله أولا الإنسان بعقله ثم انزل له الأديان لكي يميز الإنسان بعقله ويختار ما يتناسب مع عقله وفكره حتى لا يفرض الله نفسه على احد لأنه لا يحتاج إلى عبيد بل عبيده هم المحتاجين إليه ولقد انزل الله الأديان في شكل دستور كبير يرشد الإنسانية بأكملها بما يجب أن يفعله الإنسان ويقوم به في حياته اختياريا وليس فرضا على احد، وهذا الدستور يشمل كل عبيده في كل مكان على الأرض وليس دولة بعينها وهذا الدستور الألهي مرشدا للبشرية وليس حكرا أو فرضا على احد (كما نرى بعض الناس يحتكرون الدين ويفرضونه على البشر بدون وجه حق والله لا يحب أن يرغم احد على عبادته)ولقد عمل

الله هذه الأديان لأنه يعرف الإنسان بحاجة إلى هذه الأديان كما نرى قبل نزول الأديان السماوية على الأرض كما في مصر الفرعونية اخذ الإنسان يبحث عن اله له يشكره ويتعبد له من اجل الخيرات التي ينعم بها فاختر الشمس واعتقد أنها مصدر الحياة وأخذت البشرية في هذه الحقبة الزمنية اختيار أرباب مختلفة لهم كل واحد أو كل قبيلة أو كل دولة حسب ما يروق لها من اله مناسب لها حسب الظروف التي يمرون بها مثل (النار والقمر وبعض الأصنام المعبرة عن إحدى الأشياء التي يرون فيها سر حياتهم وهكذا) وانزل الله الأديان السماوية ليهتدي الإنسان من تخبطه في اختيار اله له واطهر الله ذاته للبشر جميعا وعرفوا الله جميعا وعرفوا من هو الخالق الذي يتقدمون له بالشكر والعبادة لأنه هو الوحيد الذي خلق العالم والبشر أجمعين ورغم ذلك ليس كل الناس امنوا به إلى الآن، إذ يوجد 40 مليون عقيدة اليوم على الأرض وأيضا يوجد من يعرفون الله ولكن بطرق مختلفة ولكل واحد طريقته رغم انه اله واحد يؤمنون به وقبل أن ينزل الله الأديان كان يعلم ذلك⁽¹⁾ فالوضع الديني الموجود حاليا هو معرف لدى الله قبل خلق البشرية اجمع (ولست ادري يوجد من يعترضون على هذا الأمر الآن ويفضلون أنفسهم عن بقية البشر !! وينسبون أن دينهم هو الوحيد المعترف به عند الله ولو أراد الله ذلك لقام وقال لعبيده ذلك وعلينا أن نؤمن أن الله يفعل بما يشاء وليس نحن نفعل ما يريد الله لعبيده لأننا كلنا متساويين عند الله لأننا عمل يديه وحدة) .

أن العقل له دور في حياة الإنسان منفصلا تماما عن دور الدين في حياته. العقل يفهم الإنسان من خلاله الأشياء التي حوله وأيضا الأمور التي يراها أمام عينه في حياته ويتفاعل معها. والدين هو علاقة خاصة وبشكل خاص مع الله، إذا اتفق الإنسان معه أو لم يتفق فهو أيضا شيء خاص.

2- العقل والجهل

إن العقل هو السمة الوحيدة التي تفرق الإنسان عن بقية الأحياء الموجودة على هذه الأرض وهذه نعمة خاصة من عند الله تعالى للإنسان ومنحة الله للإنسان وأعطاه الله لكل عبده دون تفرقة أو تمييز، لقد أعطى العقل لكل بدون استثناء رجل كان أو امرأة للذي يؤمن به والذي لا يؤمن به، وهذا دليل على محبة الله لنا جميعا دون تمييز. وهذه الهبة أو المنحة الكبيرة التي أعطاه الله لنا ليس بدون هدف أو قيمة لقد أعطاه الله لنا لنعرفه انه اله حق ؛ إعطانا إياه لنفرق بين اللون الأبيض والأسود، وأن نفرق بين الأمان والخطر، أعطانا إياه حتى نتصرف ونفكر في حل المشاكل التي تقابلنا في حياتنا وأشياء أخرى كثيرة، هذه مهمة العقل في اتخاذ قرارات حياتنا الخاصة وربما حياة الآخرين أيضا إذا كنا في مكانة تحكم علينا هذا، ولكن القرارات الصحيحة والصائبة هي التي يتخذها الإنسان من خبرته العلمانية واستشارة المختصين، حينما نذهب إلى الطبيب أو المحامي أو المحاسب أو المهندس وهكذا لأن كل هذه الأشياء تساعدنا

على اتخاذ القرار الواضح والسليم ومعرفة الحقيقة في الوقت المناسب ولا ننسى التاريخ أيضا من أحداثه الماضية أن نتعظ، من الأخطاء التي مرت بها الأمم من أحداث سياسية وعلمية. هذه الوجهة الطبيعية لقيمة العقل الطبيعي الأنساني في الحياة، ورغم أهمية هذا العقل تختلف قيمة العقل لدى كل إنسان على حسب تعليمة وبيئته وربما معتقدة أيضا، وإذا كان هذا الشخص تربي في بيئة ذات صفات مميزة، بالإضافة إلى استيعابه البطيء للأمور وعدم التميز بين الأشياء التي ذكرتها لا يعتبر جهلا شديدا طالما نتائج جهلة تنصب عليه بنفسه وحده وهو الوحيد الذي يحصد نتائج هذا الجهل.

ولكن هناك تركيبة معينة من الشخصيات (ليست سويه) يمتلكون العلم وعقول حادة الفكر والتميز ولكن تسخر هذا العقل لحساب مصالحهم أو لحساب فكرهم الديني أو السياسي أو المادي أو من أجل الوصول إلى شيء معين لذاته أو... أو... ولكن تنصب في الأخير لإشباع ذواتهم فقط دون مصلحة الآخرين وخاصة إذا كان هؤلاء في أماكن ومناصب كبيرة في حكم البلاد، وهذا هو الجهل القاتل الذي تعاني منه البلاد العربية من رؤساء حكموها بدون استثناء ولا زالت هذه الشخصيات (تخط الدين بالسياسة لمصالح شخصية فقط). وهذه الشخصيات ليس لها علاقة بالدين بقدر ما تتخذه أساسا لتسويغ مآربها للكسب المادي أو للبقاء في السلطة وبالتالي هي تريد إرضاء الآخرين من باب مصالحها لا احتراما لهؤلاء!

إذن هناك من يمتلك ناصية العلم ولا يسخره لخدمة الناس فذاك بخيل جاهل بالعلم وان امتلكه! وهذا هو دين أغلب العلماء في بلداننا، وهناك من يمتلك تعاليم الدين ولا يعمل بها فذاك هو الفاسق الذي لا يقدر نعمة الله التي أنعمها عليه، فالدين نعمة شريطة العمل به لفائدة الناس وإرضاء لرب الناس، وهناك من هو بعيدا عن العلم ولا يريد أن يتعلمه فذاك هو الجاهل حقا فهو شر الدواب! وهناك من هو ليس بعالم ولكن يريد أن يتعلم فذاك الجاهل الفطن .

إن الله سبحانه وتعالى خلق الناس وأعطاهم ذرة العقل لكن هناك من لا ينمي عقله فهو كسول في طريقه إلى الجهل، وهناك من ينمي عقله منذ بواكير عمره فيكتمل وينضج لديه عقله ويحكمه لغرض تسيير أمور دنياه وفهم دينه وهذا الذي يتصف برجاحة العقل، إذن تنمية العقل مفيدة لنضجه مثلما يحتاج الجسم إلى الرياضة الدائمة لكي يتقي شر الكثير من الأمراض.

3- الدين والجهل والفقر

قد يكون من السابق لأوانه التكلم عن النتائج المترتبة عن هذا لثالوث الخطر، ونتكلم عن الإرهاب الذي يعد أعلى درجات الإخلال بالسلم المجتمعي، وهناك درجات دونه منزلة، لكنها يمكن أن تكون مقدمة له، كما يمكن لكل درجة أدنى من التي تليها أن تكون مقدمة تمهيدية لتلك الدرجة الأعلى منها. أضعف الدرجات هو التشدد، ثم يليه التطرف، ثم العنف، ثم الإرهاب. صحيح إن هناك فرقا بين التشدد والتطرف من جهة، والعنف والإرهاب من جهة أخرى، من

حيث أن الأوليين يعبران عن خاصيتين ذاتيتين، فيما هي التركيبية الفكرية والنفسية للمتشدد أو المتطرف، بينما الثانيتان يعبران عن خاصيتين سلوكيتين، فيما هو التعبير العملي عن كل من التشدد والتطرف، ولكن إذا علمنا أن التشدد والتطرف لا بد أن يعكسا سلوكا في الحياة وتعاملا مع الآخر المغاير، البعيد والقريب أو الأقل بعدا، وهما من الممكن أن يبقيا في دائرة القناعات الفكرية والتفاعلات النفسية، فيمكن القول أنهما المرتبتان الأقل حدة من العنف والإرهاب، وكما إن التشدد أخف من التطرف، قد لا يرتفع العنف دائما إلى مرتبة الإرهاب، بل هو إرهاب مخفف، أو مقدمة ممهدة له.

من غير شك إن عوامل ظهور ظاهرة الإرهاب، ومقدمته السابقة له مرتبة، أي العنف، متعددة، ولكني أردت هنا التركيز على أهم تلك العوامل. وبالنسبة لمفردة الدين، يمكن أن ترمز لكل الإيديولوجيات الشمولية المتطرفة، لكني اخترت مفردة (الدين)، لأنه في واقعنا الراهن، وفي عموم البلدان ذات الأثرية المسلمة، بل في العالم كافة حيث وجد المسلمون، هو الذي يجسد أشد أنواع الإيديولوجيات الشمولية تطرفا وأصولية، وأيضا بسبب أن للدين من الخاصية مما لا تملكه بقية الإيديولوجيات الشمولية، ألا هو ادعاء أو وهم القداسة، وبالتالي من قابلية على البقاء أطول أمدا من سائر الإيديولوجيات. كما إننا نعني بالدين هو ما نجده أمامنا في واقع المجتمع البشري، أي الدين بفهم بشري وأداء بشري، بقطع النظر عما إذا كان الدين عموما، أو هذا أو ذلك الدين على وجه التحديد إلهي النشوء، أم هو بشري الفكرة من الأساس، ومع التسليم بالهيته لا نتحدث هنا عن الدين كحقيقة إلهية - فعلية أو مفترضة - في عالم التجريد، بل كواقع بشري متحرك على الأرض.

وبعد توضيح ماهية الدين ، لنمر على هذه العناصر الثلاثة، التي يمكن عدها المواد الأولية الأساسية لصناعة الإرهاب، أو مقدماته: الفقر بحد ذاته يمثل أرضية خصبة لنشوء الإرهاب، عبر استغلال القوى الإرهابية لعوز الفقراء وعطل العاطلين، وتوظيفهم للعمل الإرهابي. هذا إذا نظرنا إلى الفقر بمعزل عن العنصرين الثانيتين، لكن من رحم الفقر غالبا ما يولد الجهل، فعنه ينتج الجهل والامية، بسبب انعدام فرص التعلم، ذلك بحكم الفاقة والعوز المؤديين إلى زج كل أفراد الأسرة في عملية طلب الرزق، فيجري من جهة اعتداء سافر على الطفولة بتشغيل الأطفال وقتل طفولتهم مبكرا، مما يعد جريمة بحد ذاته، ثم ما يترتب عليه من خلق أجيال غير متعلمة، وعندها فأينما كان الجهل تمكنت ماكينة غسل الأدمغة من أداء وظيفتها على أحسن وجه، فتشيع الدين الخرافي والمتعصب والمتطرف، فيجتمع عندئذ هذا الثلاثي الخطير (الفقر، الجهل، الدين)، أو قل الخرف الديني والعصبية الدينية، ليخلق الأرضية الصالحة لنشوء روحية الكراهة تجاه الآخر، فالحرمان الناشئ عن الفقر، واللاعقلانية الناشئة عن الجهل، والعصبية الناشئة عن الدين؛ كل ذلك يسهم كله في عملية تلوين البيئة للمحتوى الداخلي للإنسان ببعديه الذهني

والنفسى، فيجري إنتاج الإنسان الكروه؛ وبالتالي يسهل لكاره الحياة، وكاره الجمال، وكاره الإبداع، وكاره المغايرة، يسهل عليه بطاقة الكره الكامنة والمتفجرة هذه، أن يكون أداة لتدمير الحياة عبر الفعل الإرهابى، فتتبعث روح الإرهاب التي تكونت بالعوامل الثلاثة (الفقر، الجهل، الدين) إلى الخارج كفعل تدميري.

طبعا يمكن أن يكون عنصر واحد من هذه العناصر؛ الفقر، أو الجهل، أو الدين، عاملا كافيا لوحده لصناعة الإرهاب، لكن إذا تضافر منها عاملان؛ الفقر والجهل، أو الفقر والدين، أو الجهل والدين، تكون شروط صناعة الإرهاب متوفرة أكثر مما لو اقتصر على عامل واحد. أما إذا تضافرت العوامل الثلاثة، فتكون النتيجة الإرهابية حتمية. والدين وحده يخترن طاقة تفجيرية عليا، لأنها طاقة مقدسة، وطاقة إلهية، بحسب القناعة الوهمية الراسخة لصاحبها، فالله الذي هو على كل شيء قدير، إذا ما تحول عنده إلى سلاح دمار شامل، لا يوقفه شيء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فالله ليس مجرد قدرة مطلقة، وقوة مطلقة، بل هو رحمة مطلقة، وحب مطلق، وجمال مطلق، وسلام مطلق. لكن إله الإرهابيين هو ذلك الله المنتقم الثائر الهائج الغاضب الناقم الجبار القاتل المدمر المبيد، تنزه الله الجميل عن كل ذلك وتسامى عنه تساميا عظيما، فهو العادل الرحيم المحب؛ المحب بشكل خاص للإنسان الإنساني، مؤمنا كان أو كافرا، دينيا أو لا دينيا، إلهيا أو ملحدا.

إذن المشكلة تكمن بشكل أساسي بـ(الفقر، والجهل، والدين)، لاسيما الدين المتسييس والمُحرف والمُنغلق والمُنغلق عليه، وإلا فمرحبا بدين عقلاني إنساني، أو عقلانينساني ومرحبا بلا دينية عقلانينسانية، ومرحبا بإيمان عقلانينساني، ومرحبا بإلحاد عقلانينساني، مرحبا بإسلام عقلانينساني، بتسنن أو تشيع عقلانينساني، وبمسيحية عقلانينسانية، وبأي دين عقلانينساني، فعلى قاعدتي العقلانية والإنسانية يتعايش الجميع بسلام ومحبة، محبة فيما بينهم، محبة للحياة، محبة للسلم، محبة للعدل، محبة للجمال، محبة للإبداع، ومحبة من الله لهم، لإنسانيتهم وعقلانيتهم، سواء آمنوا به أو لم يؤمنوا، فالله لا ريب يحب الإنسانين، ويحب العقلانيين.

4- الدين والأخلاق

كتب رودولف جولاني الذي كان عمدة مدينة نيويورك أثناء أحداث أيلول الإرهابية في كتابه بعنوان "القيادة" جاء فيه: لا تستطيع كقائد أن تتجنب الكوارث الكبيرة إلا إذا ركزت اهتمامك على الأمور الصغيرة!" غياب الحس العام، أو الذوق العام، إذا صح التعبير. عند المواطن العادي كارثة قادت إلى كل الكوارث! انهيار الآداب العامة المسؤولة عن تنظيم العلاقات الإجتماعية أدى بدوره إلى انهيار المجتمع "كنسيج اجتماعي يمسك في لحمته ناس هذا المجتمع. حينما تزور أي عيادة مشفى في أي بلد عربي كمثال على الوضع المزري في بلاد العرب والمسلمين،

ترى عدد المتواجدين يفوق بالمئات عدد المرضى، فلقد رافق كل مريض عشرة على الأقل من عائلته أو قريته أو قبيلته، ولا تجد تفسيراً لتلك الظاهرة إلا ضعف ثقة المريض وذويه بالمشفى وكادره الطبيّ.

تتكوّن لدى هؤلاء، وكنتيجة حتمية لسوء سمعة المشافي الحكوميّة، قناعة بأن مرافقة المريض تخفف من حدّة ألمه النفسي الناجم عن اضطراره للجوء إلى هذا المشفى المخزي! ومما ساهم في ازدياد الوضع سوءاً قيام عدد لا بأس به من أهالي المرضى بالتدخين غير مكرثين، أو متناسين أنهم في مشفى! اختلط الحابل بالنابل، لا تعرف الطبيب من المريض من المرصّة! الغرفة لا تتجاوز بمساحتها مساحة غرفة عادية في أيّ بيت، نصبت فيها أربع طاولات بأربع منظارات لفحص العين، وخلف كلّ منظار يجلس طبيب وقبالته مريض.

الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود! والباب باستمرار يغلق ويفتح دون أي محاولة لتنظيم عملية الدخول والخروج، كأن يتم إدخال أربعة مرضى في آن واحد وإخراجهم في آن واحد. ولكي يتوفر الهدوء اللازم أثناء عملية الفحص الطبيّ! كلّ ما نحتاج إليه زرع الحسّ العام في ضمير المواطن طبيياً كان أم مريضاً أم ممرضة!! إذا الأزمة ليست أزمة تكنولوجيا، إنها أزمة ذوق وحسّ وأخلاق!!

موضوع النظافة قضية أخلاقية أخرى تثير الاهتمام في أي مشفى، ناهيك عن المرافق العامة الأخرى! وقد ثبتها رسول الله ﷺ حينما قال "النظافة من الإيمان" لكن هذه المقولة العظيمة أصابها الإهمال من قبل الذين أمروا أن يتبعوها ويطبّقوها.

في احد مشافي مدينة حلب السورية حدثت قصة عجيبة، إذ نقلت إلى الغرفة سائحة فرنسية كانت قد تعرّضت لحادث سيارة وأصيبت بعدة كسور، أثناء تحضيرها للعمل الجراحي قامت الممرضة المسؤولة باستخدام "بيف باف" البخاخ المضاد للذباب، ورشّه فوق طاولة العمليات في محاولة للحدّ من الذباب الطائر، تنبّهت المريضة الفرنسية للوضع فقفزت من على الطاولة ورفضت أي إجراء جراحي واتصلت بسفارتها لتنقلها بالسرعة القصوى إلى بلدها.

عامل التنظيف في بلد عربي محترم أصبح وزيراً استلم المنصب عن طريق الالتماس والواسطة، الأمر الذي يوّد لديه إحساساً بأنه مخلوق مهمّ للغاية! ذلك الإحساس الذي يخفف بالمقابل إحساساً مناقضاً آخر يشعره بضالة العمل الذي يقوم به! الأعراف العربية لا تحترم المهن، وإيجاد معنى كلمة "مهنة" في قاموس اللغة العربية يطلعك على حقيقة الأمر! ناهيك عن مهنة "عامل تنظيف" التي تزيد الطين بلّة!

لا نحتاج إلى عالم صواريخ كي نحلّ قضية النظافة في بلادنا، بل نحتاج إلى إعادة النظر في قواميسنا! نحتاج إلى رفع مستوى الحسّ العام لدى إنسان الوطن، كي يعتني بنظافة ذلك الوطن ويحترم عامل تنظيفاته! متى يدرك رئيس الأطباء في كلّ مشفى من مشافينا أنّه ليس أهمّ

من عامل التنظيفات! لو اقتنع العلماء بمصداقية بعض الأفكار من خلال عدد الناس الذين يؤمنون بها ورفضوا أن يشكّوا بها أو أن يسعوا إلى دحضها لظلّ العالم غارق حتّى اليوم في بحر الجهل والظلمات.

أرسطو فيلسوف يوناني مازال العالم مدين له بالكثير من الحكمة والفلسفة، كان يعتقد أن الإنسان يولد من نطفة الرجل، وهذه النطفة، منذ البدء، تكون على شكل إنسان متناهي في الصغر، عندما يزرع الرجل نطفته في رحم المرأة يبدأ هذا الإنسان "القرم" بالنمو حتى يصبح جنينا كاملا، ظلّ الناس على مرّ الأزمان والعصور يؤمنون بتلك الفكرة دون معرفة تفسيرها علميا رغم وجودها في القرآن الكريم، حتى جاء القرن التاسع عشر باكتشافاته العلميّة المذهلة، والمجهر الإلكتروني إحداها، فدحض تلك الفكرة وأقام محلّها علما مستقلا كاملا يدرس التكاثر والوراثة والصبغيات ودور الذكر والأنثى على حدّ سواء في تلك الظاهرة الطبيعيّة.

حتى عصر غاليلو كان البشر أجمعين يؤمنون بأن الأرض ثابتة وهي مركز الكون، لماذا لم يُثبت عدد هؤلاء البشر مصداقية تلك الفكرة، هل بإمكانك أن تتصور لو اقتنع غاليلو بتلك الفكرة من خلاله عدد الناس المؤمنين بها أين كانت البشريّة الآن؟! شخص واحد غير خارطة الكون عندما أثبت خطأ ملايين الأشخاص! علماء الفضاء اليوم، وبناء على أعمال غاليلو وغيره من العلماء، يحركون بأياديهم من على سطح الأرض مركبة الفضاء وهي جاثمة على سطح المريخ!

علماء ناسا الأمريكيّون يطلقون صواريخ لتفتيت المذنبات وهي في الفضاء بينما "علماء" المسلمين يتناسون بان الله جعلها رجوما للشياطين لكن فقرهم العلمي يحول دون أن يصرخوا عاليا بان القرآن الكريم قد فسر وجود هذه المذنبات قبل أكثر من 1432 سنة خلت!. شابة مسلمة في السادسة عشر من عمرها تتساءل: لماذا خلقتني الله أنثى في مجتمع يحتقر الأنثى؟! إنّ طرحها لهذا السؤال يؤكّد أنها بدأت تستوعب المشكلة التي تعيشها كأنثى في مجتمعها، ومتى أدركت الأنثى بأنها تعيش مشكلة ستسعى لإيجاد حكمة لحل مشكلتها.

الاعتراف بالمشكلة، وعلى حد قول عالم النفس الأمريكي فيل ميك غرو، هو نصف الحل! بل هو النصف الأول والأكثر أهميّة، وجوابي، إن أجده، سيكون النصف الآخر! لذلك لابد من حماية الأجيال الجديدة والفتية من تعاليم الجاهلية وان نقيم نظاماً تعليمياً تربوياً يغرس المبادئ الإنسانيّة والأخلاقية والعلميّة في عقول هذه الأجيال وفي نفوسها نكون قد قضينا على الجهل قضاء مبرما.

كتب مرّة صحفي أمريكي يقول: عندما رأيت بأمّ عيني مجموعة من الأطفال الفلسطينيين ينتظرون شاحنات القمامة الإسرائيليّة لتفريغ حمولتها في منطقة نائيّة ثم يركضون باتجاهها للبحث بين محتوياتها عن قوت يومهم، عندما رأيت هذا المشهد أدركت كيف تستطيع أن تقنع

طفلا فلسطينيًا بأن يفجّر نفسه بعد أن كان هذا الأمر أكبر من قدرتي على إدراكه! هكذا تدنت قيمنا الأخلاقية والدينية إلى الحد الذي تجمدت أجسامنا وبعدت عن الخشوع لله في عباد الله وأرضه.

عندما ترى أن ثلاثة جوامع إلى أربع جوامع بنيت على مسافة لا تزيد 200-300 متراً الواحد عن الآخر تتساءل: كيف نتغاضى عن هدر ملايين الدولارات كي ننشئ هذه الكثرة من الجوامع؛ بينما على بعد 500 متراً توجد مشفى نواجه كارثة إنسانية وصحية إذ لا يوجد دواء لمريض، أو براد ماء أو كمادة لمرض الربو قد يكفي للتخفيف منها ثمن سجادة واحدة في هذه الجوامع، ناهيك عن كلفة حيطانه وسقفه وأرضيته وعن الأموال التي صُبت في جيوب القائمين عليه؟! هل يطلب الله سجادا وحيطانا مزركشة بالفيسفساء وسقوفا تتدلى منهما أغلى أنواع الثريات كي يقبل صلواتنا!

وهنا نطرح التساؤل الآتي: هل الشعوب الإسلامية تحتاج إلى الدين أم الأخلاق أم العلم؟ هذا السؤال قد يحيرنا في البداية ولكن إجابته أبسط وأسهل مما نتخيله فالإجابة عن سؤال واحد يحمل في طياته إجابة شافية عن السؤال المحوري وهذا السؤال هو هل الدين يشمل العلم والأخلاق أم أن العلم والأخلاق يشملون الدين؟

الفهم الحقيقي والسليم للدين يقودنا إلى تعاليم واضحة جلية مؤكدة وهي الحرص على طلب العلم واحترام المعلم ومنزلة العلماء والتشجيع على طلب العلم والأدلة كثيرة جدا يكفي منها أقوال الرسول ﷺ مثل "أطلبوا العلم ولو في الصين" وأيضاً "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد" وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: الآية 28) والكثير من التعاليم التي تحض على الحرص على العلم وتعليمه مثل "خيركم من تعلم العلم وعلمه" وكل هذا يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن تعاليم الإسلام تؤكد على تعميق مفهوم وأهمية العلم في عقول المسلمين لأقصى درجة.

أما عن الأخلاق ففي تعاليم الإسلام وسنة الرسول الكريم ما لا يشملهُ مؤلفات البشرية كلها وأحاديث الرسول كثيرة عن احترام الأم وطاعة الوالدين واحترام الزوجة لزوجها وعطف الكبير على الصغير وحسن الجوار وحرمة الطريق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتراحم ووصل الرحم..... الخ الأخلاق والعلم يقودان صاحبهما إلى الإيمان بالله وقد لا يفعلنا، ولدينا أمثلة كثيرة على علماء وحكماء لم يؤمنوا بالله أصلاً وان كانوا قد أحسنوا عملاً فلم تقدم أخلاقهم وعلومهم إلى الله.

نستخلص مما سبق أن الدين يشمل على العلم والأخلاق بجانب منهج متكامل للحياة وتشريعات تنظم الحياة وتكفل نشر العدل والحق والمساواة بين البشر وهذا يقودنا لإجابة السؤال محوري وهو أننا لا نحتاج الدين فالدين موجود ولكننا نحتاج الفهم الصحيح للدين.

5- الدين والإرهاب

هنا لابد من طرح تساؤل مهم هو: لماذا هذا الخلط والإصرار على تشويه الدين بالإرهاب؟ وهل الإرهاب ظاهرة مرتبطة بالمسلمين؟ لا ضرورة للخلط وتشويه الدين فلو عدنا لتاريخ الإسلام والدول الإسلامية القوية فسنجد أنها من ملأت الدنيا نورا وعلما وأكبر مثال لدينا الدولة العباسية وحضارة الأمويين في الأندلس وخروج علماء مسلمون أناروا عقول البشر أجمعين في وقت كادت أن تجهز فيه الكنيسة بروما على العلم في أوروبا بل ومحاربة كل من يخالفهم الرأي وإرهاب العلماء، وكمثال على ذلك جاليليو الذي هددوه بالإعدام إن لم يرجع عن رأيه العلمي بأن الشمس محور مجموعتنا الشمسية وليس الأرض، ومن علماء المسلمين الحسن ابن الهيثم عالم البصريات العظيم وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى وابن سينا عالم الطب والفيلسوف العظيم وابن رشد مؤسس علم الاجتماع والكثير من علماء المسلمين في كافة المجالات فأناروا الدنيا وبثوا أشعة العلم لتتقد العالم من ظلمة الجهل وحضارة تلك الدول وآثارها لدليل كفيلا بنقض متلازمة الدين والإرهاب التي يدعيها أعداء الإسلام، أما عن علاقة الإرهاب بالدين فهل ترى أن الحل يكمن في الشيوعية أو العلمانية؟ هذا ليس حلا فالإرهاب مشكلة نابعة عن القهر والظلم والفقر كما أوردنا، والدين يحارب هذا الثلاث بتشريعاته العادلة ونصرة المظلوم وتقرير حق الفقير على الغنى وكفالة اليتيم والزكاة والصدقة والتكافل بين الناس جميعا.

أما عن الفهم الخاطيء للإسلام فهو لا ذنب للدين فيه بل هي مشكلتنا نحن ونحن نركز هنا حول مظاهر الإسراف في المظاهر وترك الأساسيات من الاحتياجات ولكن، فإن المصالح الشخصية لمحبي المظاهر وجامعي الأموال بكل الطرق الشرعية وغير الشرعية هم السبب في هذا فتشروا مفاهيم خاطئة في عقول المسلمين لتأمين مصالحهم، ويحضرني هنا تشابه واضح بين مسلكهم ومسلك الشيوعية التي كان يعيش رؤوسها في الإتحاد السوفيتي في نعيم ويتركوا الشعب في جحيم بدعوى أن التقشف هو السبيل لتقدم الوطن مع تقديم سلسلة من الشعارات المزيفة التي تخدمهم على حساب الطبقة الكادحة التي يمتصون دماءها وهو نفس مسلك الكنيسة في أوروبا إبان الحملات الصليبية فغرروا بالبسطاء لينعموا بثروات الشرق وهو نفس مسلك جورج بوش الذي يطلق الشعارات لتحقيق مصالح مادية ودينيوية حقيرة الأغراض للاستحواذ على الشرق في شكل حملة صليبية مطورة راح ضحيته الملايين من البشر بين قتيل ومشرذ وجائع ومريض. لذلك فالعيب ليس في الإسلام ولكن العيب كل العيب يكمن فينا نحن وفي عقولنا القاصرة المغلقة وبخاصة جماعة المنتفعين فينا الذين ارتدوا لباس السياسة ليتاجروا بالبشر ومصيرهم ومستقبلهم، ولعل من مظاهر آخر الزمان كما اخبرنا عنها المصطفى ﷺ بقوله "إياكم والروبيضاء؟ قيل وما الروبيضاء؟ قال أرادل القوم الذين هم سيقودون شيوخها".

ونتساءل مرة أخرى هل غيّر الدين فينا شيء؟

الدين يغير فيمن آمن واتبع تعاليم الدين من خلال مفهوم سليم وعقيدة راسخة وأبسط شيء لنذكر كم هي سهلة الإجابة على هذا السؤال أن ننظر لمن نزل الإسلام ونشاء فيهم وهم العرب وكانوا وقتها لا يزيدون عن رعاة وبدو رحل متقلون متخلفون جاهلون فإذا بهم نفس هؤلاء البدو الجهلة بفضل الإسلام يبدعون نشأة دولة عظمى تسود فلا ترد واتسعت رقعتها لتخرج من جزيرة العرب لتضم بلاد الشام والعراق ومصر وتستحوذ على شمال أفريقيا وتتوسع شرقاً في قلب آسيا إلى حد الوصول لشرق آسيا والتوسع غرباً حتى الوصول لأوروبا وكل هذا ويصاحبه تطور علمي وثقافي مذهل لأبناء هؤلاء البدو الجهلة، وحتى أصبحوا أعظم دولة في العالم في عهد الخلافة العباسية التي كان ملوك العالم يسترضونها إما خوفاً منها وإما احتراماً لما وصلت له من تطور علمي وثقافي، ولدينا حضارة العرب في الأندلس فتجد المسلمين هم من أبدعوا وظهرت على أيديهم الفنون الراقية في المعمار والبناء وهم من أحفاد البدو الجهلاء فإذا بهم بفضل الإسلام ينقلبوا لسادة القوم بعد أن كانوا أحط شعوب الأرض وهذه هي معجزة الإسلام، ولست أدري من فينا الذي يتجاهل ولا يعلق على أمور كثيرة فلماذا لم نعلق على علماء المسلمين العظماء الذين هم أحفاد البدو الرعاة الجهلة؟ فهل تطورهم أتى من الفراغ؟؟

الإجابة تقول أن هؤلاء البدو الذين نتحدث عنهم لم يكونوا متخلفين وهناك بحوث كثيرة تتحدث عن بلاغتهم ولست القائل أنا بذلك ورغم ما طمس من معالم هذه الحقبة عمداً إلا أن الباقي يقول أنهم أصحاب المعلقات وعكاظ وطريق الإيلاف التجاري الذي ربط المنطقة كلها بهذا الجمل وإصرارهم على المواصلة . أما مرحلة الحضارة التي نتكلم عنها في زمن الدولة الاموية أو العباسية فكانت لأسباب سياسية وأكثر الذين نقلوا الثقافة أو الذين عملوا هم من غير البدو وأولهم الفرس واليونانيين، أضف إلى ذلك خروج الكثير من الرجال للدراسة في الخارج وأولهم كان معاوية الابن حين ترك الملك للدراسة في مصر في علوم الكيمياء والفلك، وحتى هذه اللحظة نقول جازمين إن الإسلام دين صريح وواضح لا لبس فيه يفهمه الجميع، ثم إن تأثيره كبير في البشر جميعاً إلا أن الإصرار والمكابرة وحب الدنيا تقلل من حدة تأثير هذا الدين فينا نحن المسلمين .

6- الجهل والتحضر

الجهل هو عندما نتعمد جهل خبرات التاريخ التي نتعلم منها الشعوب في الارتقاء والرقى، وان نجهل الخبرات المتخصصة في الأشياء الخاصة متمثلة في الأشخاص (بمعنى نأتي بمهندس زراعة نعيّنه رئيساً لهيئة السكك الحديدية) أو نستشير قائد القوات المسلحة في مسألة اقتصادية أو طبية وربما سياسية هذه كلها أخطاء فادحة تمر بها الأمة

العربية منذ زمن ليس بالقصير لأن كل التعيينات في كبرى المناصب تقوم على المحسوبية والرشوة دون البت في إمكانية الشخص نفسه.

وبلداننا العربية تتخبط في محيط من الظلام لعدم وجود الخبرة اقصد عدم استغلالها بالصورة اللاتقة، وان وجدت فهي للأسف تسخر لغير مسالكها الحقيقية وبالتالي ضياعها، أو أن الذي لديه خبرة ويتميز بالنزاهة والصدق والأمانة فليس له مكان اليوم بعد أن انغمس اغلب الناس بالسرقه وأكل مال الحرام، وتمشيا مع المثل القائل (العاقل بين المجانين مجنون). إذن يجب على العرب بكل أمانة أن يتعلموا من الماضي والحاضر ويدققوا في تفاصيل الحياة لفهم خباياها بدقة بما في ذلك الحياة الحضرية التي تمثل اليوم نصف المجتمع العربي أو أكثر. وبالنظر لخطورة الوضع العام في الحياة الحضرية العربية سوف نخصص لها مبحث خاص لشرح مضامين التحضر وأبعاده وشواذه وكما يأتي:

ثانيا: الإسلام في حياة المجتمع الحضري العربي

تتميز الأمة العربية بماض مشرق وحضارة عظيمة وان المدينة الفاضلة التي أرسى قواعدها رسول الله ﷺ بحصون العقيدة وقلاع الإيمان، فعادت الأمة تحمل معها كل المكارم والكمالات التي ورثتها من مناقب النبوة ومعجزات الرسالة .

ومثلت الحواضر العربية في حينها المكان الذي أثرى تباشير الرسالة المحمدية، التي وجد قائدها في هذه المدن أصالة القاعدة، وسبل الانطلاق وقوة العقيدة من لدن سكانها، فنقولبت يثرب (المدينة المنورة) بوهج الإسلام ونوره فكسي أهلها ثوب الأيمان ومقومات الفكر، والأخلاق الفاضلة، وكان هذا التفاعل بين الإسلام والمدينة قائما على أساس تبنّي الإسلام واقع المدينة بعد فهم عميق لخصوصيتها واستجابتها لمبادئه، وعلى هضم الحواضر لخصوصية الإسلام وجوهر منهجيته، هذا التفاعل ما كان له أن يتم دون وحي الهي لنبيّه الكريم لصالح حياة الناس بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: الآية 107) فأمره بالهجرة ليأخذ من المدينة مستقراً له ولأصحابه، فهي مباركة من الرحمن لهذا المستقر، وتكريم لأهل المدن من لدن سيد المرسلين.

ولكن وبعد مرور ما يقرب من 1432 سنة من الهجرة النبوية الشريفة يكون بالإمكان طرح عدة تساؤلات : هل حافظت الحواضر العربي على ثمار الزرع الأصيل للإسلام؟ وما درجة الإمام الروحي للإسلام في التركيب الحضري العربي؟ وما التغييرات التي طرأت على المدن العربية وأثرت في صميم علاقتها بالدين الإسلامي وما النتائج المترتبة على ذلك؟ وهل تجاهلت مبادئ الإسلام أم هو جهل في تطبيقها؟

وقد تم اختيار مجتمع المدينة العربية لاعتبارين أساسيين هما: الأول إن السكان الذين يعيشون في المدن يمثلون أكثرية في العالم العربي حوالي 54%، والثاني إن مجتمع المدينة أكثر انفتاحاً وتعلماً وتطوراً وفهماً من المجتمع الريفي، وبالتالي من المفترض والحالة هذه أن يكونوا أكثر التزاماً وتطبيقاً لمبادئ الدين الحنيف.

1- التحضر في منهج الإسلام

يركز الإسلام على حقيقة الإيمان بالله سبحانه وتعالى متجسدة بمبادئه قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: الآية 56) وأرسل لذلك الأنبياء والرسل، وانزل الكتب السماوية لتبشر بالثواب وتذر من العقاب، ولعل منشأ تأثير الدين في أخلاق الناس وسلوكهم من الاعتقاد بوجود دار للعقاب ودار للثواب، سواء أكانت في الدنيا أم في الآخرة، يحاسب فيهما الإنسان عن أعماله إذ قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة الآية 7-8).

وهذا يعني إن الحياة الدنيا ليست داراً للعبث والفساد، وإنما دار للعبادة والبناء والأعمار، وإن أعمار الأرض لا يتحقق إلا بالاعتماد على عاملين أساسيين: الأول منهما الاستقرار والأمن؛ والثاني التعاون والعمل؛ لغرض الحصول على الرزق الحلال، وإن هذين العاملين لا يمكن تحقيقهما إلا في الحواضر، لذلك كانا وراء اهتمام الإسلام بإنشاء المدن والدعوة إلى السكن فيها. وبهذا المنحى أضحت الحواضر غاية رئيسة وهدفاً من أهداف الدين الإسلامي الذي يرى في التحضر ضرورة دينية ودينية مثلما هو الإسلام الذي لا يرمي إلى تديين المدن بقدر ما يهدف إلى تفعيل العلاقة الجوهرية بينها، على أساس أن المدينة هي المهد الذي تترعع فيه شعائر الدين الإسلامي وتتم إبلاغ رسالته، وإن هذا الدين قد اكتملت صورته عندما استقر النبي محمد (صلى الله عليه واله وسلم) في المدينة ومنها شرع الرسول الكريم ﷺ في نشر رسالته السمحاء وإتمامها.

والذي يجسد حتمية العلاقة بين الإسلام والتحضر هو الاختلاف الجوهرية بين حياة المدينة والحياة في الريف والبادية؛ إذ تتميز الأخيرة بالتقل وعدم الاستقرار، وهنا يتعارض مع أداء الشعائر الدينية وفروضها، إذ لا يستطيع الفرد المسلم أن يؤدي واجباته الدينية وهو في وضع غير مستقر قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: الآية 96).

وبهذا أباحت الشريعة الإسلامية السمحاء في مثل هذه الأحوال قصر الصلاة، والفطر في رمضان على أن يؤدي الصوم في وقت آخر كما لا تجب صلاة الجمعة⁽²⁾، فكيف الحال مع ديمومة عدم الاستقرار.

وتجاوز الإسلام التأكيد على الحياة في القرية منطلقاً من منهجه القائم على التعاون والإخاء والتكافل والقوة والمنعة، تلك التي تظهر فعلها في المدينة بشكل أقوى وأمضى من القرية

والبادية، إذ إن الإنسان خلق عاجزاً عن تلبية جميع حاجاته، وإن هذا العجز يجعله بحاجة دائمة إلى أخيه قال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف: الآية 32).

وإن إشباع هذه الحاجات لا يحصل إلا بالتقارب والاجتماع في مكان صالح للاستقرار، حتى ينال كل فرد المنفعة من الآخر، وهم متقاربون غير متباعدين، وتمثل المدينة في مثل هذه الحال المكان الأمثل الذي يحقق هذا المطلب الإسلامي.

وينظر الإسلام إلى التحضر في تحقيق غايات أخرى تتعلق بإحكام الشريعة الإسلامية التي تتجلى بوضوح من تأكيد الرسول ﷺ بأهمية المسجد الجامع في المدينة لأداء الصلاة الجامعة، وجعله مسجداً واحداً؛ لكي يتجه إليه جميع المصلين في المدينة⁽³⁾. إلى جانب المساجد الأخرى لإقامة الصلوات الخمس، إضافة إلى أن للمسجد خصوصية تمدنية وفقاً للمفهوم العربي الإسلامي، ولذلك يرى الفقهاء أن هذه الصلاة الجامعة لا يمكن إقامتها في أي مكان من غير تحديد؛ إذ لا يجوز إقامتها إلا في مساجد المدن، فقد ورد عن النبي الكريم ﷺ حديثاً نصه (لا جمعه ولا تشريق ولا صلاة فطر ولا أضحي إلا في مصر جامع أو في مدينة عظيمة)⁽⁴⁾. ويأتي تحديد الماوردي في الأحكام السلطانية موافقاً تماماً لما ورد في الحديث، إذ أشار بشأن صلاة الجمعة إلى أنه لا يجوز إقامة صلاة الجمعة إلا في وطن مجتمع المنازل⁽⁵⁾.

ويضطلع المسجد بمهام أخرى مثل إقامة المؤتمرات والندوات التي تعالج مشكلات المسلمين وتلتزم الحلول لها من كتاب الله وسنة رسول الله، وإن الجيوش ما كانت تُجيش، والجموع ما كانت تحشد وتتطلق إلا من بيوت الله، بل أن المسجد النبوي الشريف كان يقوم مقام المستشفيات العسكرية، حيث يداوي فيه الجرحى، وتضمّد جروحهم، إضافة إلى حلقات العلم والتعليم والتي لم تجد لها متسعاً في غير بيوت الله. هذا المسجد الذي أرسى قواعده وأقام بنيانه رسول الله ﷺ واحتضنته المدن الإسلامية، كان له أثر كبير في ذلك المجتمع، بل في كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية.

واحتاج المجتمع الحضري إلى وجود قاضٍ يقضي بين الناس، يقيم في المسجد، وفي هذا يقول أبو حنيفة (رحمه الله): المصير كل موضع له أمير يحرس الناس، ويمنع المفسدين ويقوي أحكام الشرع، وقاضٍ ينفذ الأحكام الشرعية ويقوم الحدود⁽⁶⁾.

وتمثل المدينة من وجهة النظر الإسلامية مكاناً للتعليم، الذي كان على الدوام أقوى إغراءات المدينة ومنها انطلقت الحياة العلمية والثقافية للعرب، وقد اقتضت ضرورات تنفيذ الهدف الأعلى للإسلام وسياسة الرسول الأعظم ﷺ أن ينتشر الصحابة في الأمصار (المدن) بعد التحرير. وشكلت تلك الجامعات أدوات لنشر العقيدة الجديدة، وعندما ظهر الاهتمام بالحديث النبوي الشريف وظهرت معه حركة انتقال واسعة بين المدن حيث يوجد من يحفظ شيئاً عن الرسول ﷺ

أدى اتصال هذه البؤر بعضها ببعض إلى نشوء تقاليد ومنهجية موحدة لإرساء أسس العلوم ونشر الثقافة بين الأمصار.

إن اضطلاع المدينة بهذه الأدوار التي تصب في صلب العقيدة الإسلامية يبرز تأكيد الرسول الكريم ﷺ على التحضر؛ إذ اشترط ﷺ منذ بداية الدعوة على من يسلم الهجرة إلى المدينة لأنها أصبحت شرطاً أساسياً للإيمان، وكان الهدف من ذلك أن يعيش المسلم في مجتمع المدينة، ويتطبع به فهو مجتمع الأمة الذي يناضل من أجله، وأن التركيز على الهجرة أتاح للمؤمنين التمدن والاستقرار في ظل عقيدة جديدة. لذلك اقترنت الدعوة إلى التمدن بتكرار مراوغة الأعراب بقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (الحجرات: الآية 14) ومن جانب آخر اقترنت الدعوة إلى التحضر بالجهاد، فأصبح هناك نوعان من التلازم بين الهدف الديني والتربوي للجهاد وبين تعميم ظاهرة التحضر الجديد.

ووفق هذا التوجه النبوي الشريف نحو التحضر والغايات الدينية والتربوية التي يبتغيها يكمن مأزق التحضر العربي اليوم في تطلع الفرد إلى غايات أخرى من وراء تحضره، تتمثل بالانغماس في الكمالات وهي ما سماها ابن خلدون بالحضارة، وهي عنده "نهاية العالم وخروجه إلى الفساد والنشر والبعد عن الخير"⁽⁷⁾.

وبهذا المنطق يكون الإنسان قد اخطأ بحق نفسه وربه عندما اتخذ من التحضر غاية بقصد دنيوي بدلا من استثمار مكونات المدنية الحديثة وحملها نحو خدم عقيدته الدينية وتلبية متطلباتها.

2- خصائص المدن العربية الإسلامية

تختلف المدن العربية الإسلامية عن غيرها من مدن العالم الأخرى من حيث بناؤها وتكوينها في مؤسساتها ومفاهيمها ومن ثم اندرج هذا الاختلاف في تنظيماتها السياسية واهتماماتها الثقافية وفعاليتها الاقتصادية وتراكيبها الاجتماعية، ويأتي هذا الاختلاف من أن جميع نواحي الحياة فيها مرتبطة بحدود الدين الإسلامي منهاجا وتطبيقا.

ذلك أن المدينة الإسلامية تضع حدود الإسلام وشرعه مثلا أعلى لها من حيث الانصياع لحكم الحاكم، وتنظيم سلوك الأفراد، وتقنين صحة المعاملات والعلاقات البشرية بما في ذلك معاملة العبيد، بل تقنين ارتفاع البناء وعرض الشارع ومعايير الحي السكني⁽⁸⁾. وللمدينة الإسلامية في كل هذا حكم مرجعي أنزل في القرآن الكريم وفُصِّل في عمل الرسول الأكرم ﷺ وأقواله وسار عليه الصحابة من بعده.

والمدينة الإسلامية لقاء بين الزمان والمكان فالمكان لقاء بين الطبيعة والفكر، وبين المساحة والتصور، بين الامتداد والرؤية وحيث أن الإنسان سيد البيئة وخليفة الله في الأرض يتحدد اختيار

المكان طبقاً لهذا الإطار. وقد برع العرب في اختيار المكان الملائم لمدينهم حيث يتمشى مع منهج دينهم الحنيف، من حيث توفر الأمن والدفاع عنها ضد الأخطار الخارجية، وتوفر الأسس الصحيحة والاعتبارات الاجتماعية والمقومات الاقتصادية .

أما من حيث العمران فإننا نجد أن المسلمين قد اعتادوا بناء المسجد في وسط المدينة ويقع السوق بالقرب منه الذي يمثل ملتقى للتجار وذوي الحرف، وفيه تعقد المعاملات التجارية، وتحيط المناطق السكنية بالسوق عادة، وترتبط به بوساطة الشوارع الرئيسية التي غالباً ما تكون أوسع من الأزقة الملتوية والضيقة داخلها، وقد اتسم العمران بكثرة المنازل وضيق الدروب واكتظاظها بالناس وبالباعة وأصحاب الحرف.

وتميزت خطط توزيع المحلات السكنية والأسواق والشوارع في المدينة العربية الإسلامية بالانسجام مع خطة المدينة الرئيسية التي غلب عليها الشكل الدائري الذي يتماشى مع خطة الفكر العربي الإسلامي⁽⁹⁾. ومن المدن الدائرية الخطة: الكوفة والبصرة وبغداد والحضر في العراق، أما مدن المغرب العربي ومصر فقد استعملت الخطة المربعة في تخطيط مدينتها كالمدن المراكش والقااهرة القديمة التي بناها الفاطميون.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض مدن الجزيرة العربية مثل جدة ومكة المكرمة يقل فيها وجود الأزقة غير السالكة، كما تتخللها شوارع مستقيمة تتقاطع بزوايا قائمة، ويعود ذلك إلى أن تلك المدن تأثرت بالعالم الخارجي وبخاصة أقطار المحيط الهندي، ولذلك غلبت عليها تأثيرات ما قبل الحضارة الإسلامية.

وبغض النظر عما آلت إليه المدينة العربية الإسلامية من خصائص المجتمع الحضري نالت المنشآت الدينية في المدن العربية اهتماماً بالغاً وقديسية كبيرة متمثلة بالمساجد وقبور الأولياء الصالحين، فقد كانت هذه المراكز محلاً للمسلمين في إقامة شعائرهم الدينية كالصلاة وتدریس العلوم الإسلامية وتعليم القراءة والكتابة، ومركزاً للاجتماعات العامة، سواء في الأعياد الدينية أو المناسبات الاجتماعية⁽¹⁰⁾.

وضمن إطار القيم الدينية التي كانت مفروضة فرضاً في مجتمع المدينة المسلم ويتصرف بموجبها كل فرد من أفرادها، والتي يبرز لنا، إلى حد بعيد، المؤثرات الإسلامية في المجتمعات الحضرية، يمكن أن نشير إلى بعض المبادئ والقيم التي أضحت بمنزلة خصائص ثابتة في المجتمع الحضري العربي مثل: تكريم الإنسان بوصفه إنساناً، وإشاعة العدل بين الناس، ورفض الظلم، والحرية المسؤولة، والمساواة بين البشر، والسماحة الفكرية والاجتماعية، وتقديس العمل والمسؤولية عنه، واحترام الأسرة، والتكافل الاجتماعي، ومع الجشع الاستثمائي، والمسؤولية الاجتماعية عن المصالح العامة، وضرورة الاستثمار الإنتاجي، ومنع الاحتكار، ومسؤولية الدولة

عن أعمال النفع العام ،ورفض الأمية،والمطالبة بالعلم،وطلب الحكمة،والدعوة للتفكير في الطبيعة وأسرارها،وفي الذات الإنسانية.

أما الجانب التطبيقي لهذه القيم فقد تمثلت بمؤسسات الوقف ورعاية الأيتام وتعليمهم، ورعاية الفقراء والمعدمين ،والأغراب ،وذوي العاهات ،ومعالجة المرضى جسميا ونفسيا ،وتوفير مياه السبيل ،والرقابة الصحية اللازمة على مصادر المياه والحمامات العامة.

وثمة حقيقة مهمة تتمثل في أن البنية الاجتماعية على الرغم من طابعها الإسلامي الواضح كانت متأثرة بالتكوينات الاجتماعية الأولى ،التي ورثها العرب الفاتحون عن الدول السابقة ،فهي إسلامية قبطية في مصر ،وإسلامية بربرية في المغرب ،وبربرية عربية قوطية وايبيرية في الأندلس⁽¹¹⁾. هذا فضلا عن الخصائص الاجتماعية الأخرى ذات الارتباط الوثيق بالدين الإسلامي كالمجالس الدينية والاحتفالات بصلاة الجمعة ،ومجلس القصاص والمذكرين ،ومجالس الوعظ والإرشاد والدعوة ،ومجالس القضاء والاحتساب ،وتكريم العلماء والاهتمام بهم.

وقبل الانتهاء من هذا السرد الموضوعي لخصائص المدينة العربية الإسلامية لابد من الإشارة إلى أن العهد الإسلامي كان العهد الذهبي لبناء المدن الاقتصادية وهيمنتها الذي ارتكز على عدة عوامل؛منها السيطرة التامة على الريف والتجمع الحر في المدن ،وتنظيمات العمل ،وتيارات الذهب،وقوة النقد الإسلامي ،ونشاط التبادل التجاري ،فضلا عن توفير جميع الخدمات اللازمة للتطور الاقتصادي.

3-سمات التحضر المعاصر في المدن العربية

شهدت المدن العربية خلال العقود الأخيرة من تاريخها المعاصر تغيرات كثيرة تمثلت بالتضخم السكاني الناجم عن الزيادة الطبيعية والهجرة من الريف أو البادية ،وفي الازدهار العمراني في مجالات المساكن والشوارع والمرافق العامة،وما يتصل بالجوانب المادية من الحياة،تولد عنها سلسلة من التغيرات في الجوانب الأخرى في المجتمع،هي البناء الاجتماعي؛أي في الأنظمة والقوانين والمؤسسات التي تتحكم في العلاقات التي تنشأ بين الفرد والمجتمع وبين الأفراد والأسرة الواحدة،وبين الجماعات فيما بينها على تعدد أنواعها.إن هذه التغيرات شقت طريقا مغايرا لمنهج الإسلام ،وبعيداً نوعاً ما عن الخصائص الرئيسية التي اتسمت بها المدينة العربية الإسلامية من خلال:

أ-تأثرت المدينة العربية الإسلامية المعاصرة بالتطورات العالمية ،وتبنيها التنظيم الطبقي حسب المفهوم الغربي ،الذي تبلور ونشأ في العديد من المدن العربية (بيروت ،وعمان ،والكويت ،والقاهرة ،والرياض ،وتونس) على سبيل المثال.وتجدر الإشارة إلى أن التباين الطبقي عامل رئيس من عوامل التماسك الاجتماعي بين وحدات المجتمع المتعددة بسبب احتياج كل منها

إلى الأخرى في بناء الجماعة. وقد جاء في القرآن الكريم ما يؤكد أهمية هذا التباين الاجتماعي في قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات : الآية 13) إذ يخلو التنظيم الطبقي الحالي من أهمية التعارف بين الطبقات الاجتماعية ،وهو بهذا يجنح إلى الابتعاد عن أمر الله سبحانه وتعالى .

ب-إدخال التكنولوجيا الصناعية في الحياة الاقتصادية ،وما نجم عن ذلك من تغيرات إدارية ونظامية وتقنية مرتبطة بالتصنيع والمجتمع الصناعي الذي يتنافى بسلوكه ومبادئ المجتمع الإسلامي .

ج-ارتباط عملية التحضر والنمو الحضري بالتطورات السياسية وحركات الاتحاد والانفصال والتقارب والتباعد في مجالات النشاط الاقتصادي والتربوي والسياسي والأسري والديني،الذي أملتته التوترات والاضطرابات المحلية والحروب التي نشبت بين العرب والكيان الصهيوني الغاشم⁽¹²⁾.بدلا من اتخاذ طابع عربي إسلامي يمتاز بخصائص ومقومات تقوم بدورها في حركة التغيير والتحويل على الصعيد العربي .

د-عدم التوازن في نمو المدن بأحجامها المتعددة ،وتوزيعها ،سواء بين الدول العربية أو على نطاق الدولة الواحدة ،نجم عنه عمران هامشي ،بل تحول المدن التاريخية أحيانا إلى مدن هامشية وفوضوية أو تهديمها لإفساح المجال أمام المدينة العصرية كما هو شان العديد من مدن الجزائر ،أو إنشاء مدن عصرية إلى جانب المدن القديمة كما في المغرب وتونس ،إلا أن ظهور المدن العصرية إلى جانب المدن القديمة كثيراً ما تسبب في تدهور أوضاع هذه الأخيرة وتقهر هياكلها الاقتصادية لفائدة العمران الجديد .

هـ-أدى التداخل الاجتماعي للجاليات الأجنبية في الدول العربية إلى ظهور حقائق اجتماعية ثقافية غريبة عن النسيج المترابط في العلاقات والتعايش والتسامح،الذي ساد طوال عصور الازدهار الحضاري العربي الإسلامي،والأوضاع التي فرضها الاستعمار كرّست التفرقة العنصرية والعرقية والتقهقر الفكري والعقائدي ،الذي لحق بالمجتمعات العربية ،وهذا أدى إلى تراجع المكانة الحضارية للمدن وتضاؤل دورها الحضاري .

و-إشكالية التحضر العربي حول مفهوم الحداثة والتحديث ،التي ترتبط بفكرة الاختراق الثقافي الغربي للعقل العربي المسلم ،بسبب استناد عملية التحديث في الوطن العربي إلى معايير منبثقة أصلا من التجربة الحضارية الغربية،بيد أننا نعتقد أن الصفة الغربية لعملية التحديث صفة طارئة وليست جوهرية،وهي بذلك لا تعكس تطوراً أصيلاً نابعا من الذات العربية ،بل تمثل استلابا لقيمنا من حلال تكريس التبعية الثقافية والحضارية الراهنة،وتصبح عملية التحديث أصيلة عندما تركز على القيم الحضارية للأمة العربية والإسلامية ،وتعمل على

تطوير الثقافة الذاتية للعرب والمسلمين واستنهاضها. والمطلوب إذا استيعاب المبادئ واستلهاهم المقاصد، ثم الاجتهاد لصياغة نموذج حضري يتوافق ومبادئ الحق ويستجيب لمشكلات الأمة الراهنة.

إذ أن اعتماد الحداثة بوصفها أساساً وحيداً لتوجيه حركة الأمة وتحضرها يؤدي إلى اقتلاع الفرد والمجتمع من أسسهما الثقافية والحضارية وإبعادهما عن جذورهما الإيمانية والأخلاقية ومن ثم إلقاءهما في خضم التبعية الاقتصادية والثقافية، فلا يوجد في مفهوم الإسلام شيء من سلب الحرية الفردية ولا اثر للسيطرة الديكتاتورية والزعامة المطلقة⁽¹³⁾.

4- شواذ التحضر العربي

ما دام الإسلام ديناً ودنياً كان لابد من أن تصطبغ به حياة الناس، لتأخذ الجو الإسلامي في كل نواحيها، ويدخل في أعماقها، ولكن الذي حدث فقدان الخصوصية الحضارية العربية الإسلامية بعض روحانياتها الفذة التي كانت تملكها، واتجهت اتجاهاً مادياً يتنافى والعقيدة التي يعتنقها المسلم، ويعتز بها، وفتح المسلمون عيونهم على حضارة مادية، فغرهم ما رأوا واخذ بألبابهم، فصاروا يلتهمون هذه الحضارة المادية التهاماً، خسيسها دون نفيسها، وزانقها دون أصيلها، بل وصل الأمر بطائفة ممن يسمونهم (المتقفون) أن صاروا ينظرون إلى الإسلام انه جزء من الماضي يحمل بين طياته الجهل والتخلف!!⁽¹⁴⁾.

بهذا المنحى تم التخلي عن خطط المدينة العربية الأصيلة وأنظمتها التي وضعت تحت دراسة معمعة ومفصلة تتلاءم مع الذوق العربي وواقعه وكفيلة بان تحل كل الأزمات التي تعاني منها المدن في الوقت الحاضر، وتدهور النسيج العمراني الحضري بعد إهمال عنصر الأصالة وتبني النموذج الغربي، وقطع التحضر العربي أو اصر اتصاله وانتمائه الحضاري لعملية غزو للجديد على حساب القديم، لذلك تأتي الهياكل الجديدة على أنقاض القديم فتعكس صورة في الشكل وتحدث خللاً كبيراً في المضامين الجوهرية والوظيفية للأشكال المتقدمة وليس التقدمية إذا صح التعبير.

والقضية الأساسية في هذا المجال فقدان التوازن بين النمو الاجتماعي والنمو الاقتصادي الذي تولد عنه مشكلات اجتماعية واقتصادية حادة⁽¹⁵⁾. كانت السبب الأول وراء الشذوذ الحضري في مدننا العربية المتمثل ب:

أ- التفكك الأسري في الكثير من الأسر العربية.

ب- مشكلات الإسكان وانتشار الأكواخ والمساكن الحقيبة غير الصحيحة وبخاصة في المدن الكبيرة والعواصم.

ج- انحراف الأحداث وشيوع ظاهرة الجريمة على اختلاف أنواعها ودرجاتها.

- د- عدم الاستقرار الاجتماعي وضعف التنشئة الاجتماعية .
هـ- انخفاض المستوى المعاشي وزيادة نسبة الفقر الحضري.
و- تأثر الفرد والأسرة بالقيم الدنيوية والسعي وراء الماديات.
ز- ضعف العلاقات الاجتماعية بين الأفراد.

ح- انهيار كفاءة أداء شبكات المرافق العامة وقصورها عن خدمة السكان.

ط- كثرة حالات الإباحة في المأكل والمشرب والملبس التي لا تتسجم مع القيم الاجتماعية الأصيلة للمجتمع العربي.

في مثل هذه الظروف، تعد المحافظة على مستوى مرتفع ومنظور من الخدمات التعليمية والصحية والمساكن والتأمينات الاجتماعية الأخرى عبئاً على اقتصاديات الدولة؛ إذ إن الاستثمارات المحلية تتوجه إلى مرافق أقل إنتاجية وأقل عائداً للدولة كما في الجدول (6).

ومما يلفت النظر في ظاهرة التحضر الانغماس الشديد بالتمدن الذي يدفع الفرد لان ينتقل من مرحلة المباح إلى مرحلة الشبهات، ثم إلى المحرمات، ومن ثم تدمير الحواضر. وان هذا التأصيل الديني للتحضر يساعد على بناء رؤية منهجية واضحة متحررة من الهيمنة التي تدعو إليها المدارس الأجنبية للتحضر، المتمثلة بكل المظاهر الخارجة عن المألوف في سلوكية المجتمع الحضري العربي وأخلاقه ودينه السمح.

جدول (6): المصروفات الدفاعية والخلل في توظيف الموارد في الأقطار العربية.

القطر	المصروفات الدفاعية نسبة للناتج الداخلي الخام %	المصروفات الدفاعية نسبة لمجموع المصروفات التعليمية والصحية %	المعدل السنوي لاستيراد الأسلحة التقليدية	
			نسبة الواردات 1990	مليون دولار 1991-1997
الأردن	10.9	12.8	4.6	123
الإمارات	4.7	174	-	358
البحرين	3.0	134	-	182
تونس	3.2	58	0.2	13
الجزائر	1.5	18	2.1	220
جيبوتي	-	-	-	-
السعودية	17.7	177	8.8	2119
السودان	2.0	-	7.6	46

سوريا	13.0	204	28.7	689
الصومال	-	500	-	-
العراق	20.0	511	47.8	2064
عمان	15.8	268	4.6	120
قطر	-	-	-	74
الكويت	6.5	83	4.6	223
لبنان	-	-	-	17
ليبيا	8.6	56	5.5	220
مصر	4.6	57	10.6	1092
المغرب	4.5	52	1.6	110
موريتانيا	-	-	-	-
اليمن	-	-	-	73
إسرائيل	2.9	192	0.77	164

المصدر: تقرير التنمية البشرية لعام 1996، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1996، ص 206-207.

وثمة ملاحظة أخرى جديرة بالذكر هي أن العلم يجب أن يكون الأساس الذي تركز عليه المدينة بكل خططها وأساليب حياتها، ومن خلاله ينضوي تعامل الناس وينتظم سلوكهم. أصبح العلم والتعلم في موقع لا يحسد عليه في مجتمعاتنا الحضرية بسبب عزوف الناس عنه وانشغالهم بالركض وراء لقمة العيش، التي أضحت شبه معدمة في الكثير من المدن العربية، فقد اضطرت الكثير من الأسر إلى منع أطفالها من الدخول في المدارس لزعجهم في الأعمال غير الرسمية⁽¹⁶⁾ فضلا عن انخفاض المستوى التعليمي وتضاؤل القيم الثقافية.

إذ إن الثقافة والعلم هما السبيل الوحيد الذي يقدم ضماناً للبقاء بكرامة، وإنهما الطريق الوحيد لازدهار العقل والمعرفة والحب والخشوع والتواضع والبناء السيكولوجي للنفس والروح، فما الغرض من العمران والشوارع والحدائق من غير وجود قيم أعلى وأسمى منها، وهي القيم المعرفية والدينية للمجتمع.

5- المخرج الإسلامي

يمكن الاعتماد كلياً على الإسلام في تنقية أجواء الحواضر العربية بعد ما أصابها من تغيرات وانتكاسات شملت جميع جوانب الحياة فيها عمرانياً واجتماعياً واقتصادياً وديموغرافياً. وقد

بنيت هذه الثقة المطلقة بهذا الدين على أسس راسخة تمثلت أولاً بشخصية نبي هذا الأمة محمد ﷺ ودعوته المصلحين الذين يريدون لامتهم مجدداً، وحضارة، وقوة، أن يقتفوا في إصلاحهم اثر هذا النبي العظيم، الذي ما سجل التاريخ عليه هزيمة واحدة، والذي كانت دعوته نوراً وهدى، أضاء الدرب لتائهين في اللجج الهوجاء، التي ارتطمت بهم من كل جانب، وليس سوى الإسلام دين تتبثق منه الحياة وتتفجر منه ينابيع الروح.

وقد جاءت شهادة الأستاذ (Charies Gedder) كبير أساتذة الإسلام في أمريكا في كلمته التي ألقاها في كراتشي عام 1966، يقول:

" إن الإسلام يملك جميع الخصائص التي تستطيع أن تنتشر السلام والانسجام في العالم، إن الغرب يؤمل من المسلمين الذين يحملون الدين الذي انزله الله، وكان لهم بسببه ماضٍ مجيد ومشرق، أن يقدموا مبادئ الحياة وفلسفتها إلى الغرب، وبذلك يستطيعون أن يحملوا راية السلام التي عينت لهم في عالم الغد" (17).

وقد خسر المسلمون أنفسهم يوم أن ضعف الإيمان في قلوبهم، الإيمان الذي كان يفجر الطاقات في نفوس أسلافهم، ويبعث فيهم الهمة، حتى بنوا حضارة الإسلام وشيدوا حصون مدنيته في واقعهم، بل في العالم، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (المؤمنون: الآية 103).

وبهذا المنحى الإسلامي السليم يمكن أن ندرك، بأسى حجم الاغتراب الذي تعيشه مجتمعاتنا الحضرية في أيامنا هذه، وإزاء هذه الحالة جاءت الدعوة بالركون إلى الإسلام من خلال استلهاهم عمق معانيه للحياة ولغرض انتشال مجتمعنا ومنعه من الانجرار أكثر وراء التبعات والمنغصات المجحفة بحقه كشعب مسلم.

وهذه الدعوة تملئها الموجبات الآتية مخرجا لا بديل عنه:

أ- انتقاء ما يدعو إلى التَّخَوُّف من احتمال تعارض عوامل التحضر مع منهج الإسلام، ذلك أن تثبيت دعائم التحضر وتأطيرها بالمبادئ الدينية للإسلام قضية جوهرية، إذا ما فهم الإسلام على حقيقته وطبقت مبادئه كاملة.

ب- نبذ سياسات التحضر العشوائي المنسجمة والمتكيفة مع تغيرات الحداثة المزيفة والمتناقضة مع قيم المجتمع الإسلامي، ذلك أن المجتمع الذي ينشده الإسلام يجب أن يتسم بالفكر الايجابي والوصف العلمي للأشياء والأحداث، والالتزام بمجال الحقائق الممكنة الملاحظة (Observable) والقابلة للقياس (Measurable)، وفي هذا الإطار يتخلى الإنسان عن السعي وراء الضلالة والعلل والمصير والطبيعة النهائية للأشياء، ويكتفي بالوقوف عند حدود التجربة العلمية التي أرستها العقيدة الإسلامية.

ج-الانتباه إلى حقيقة الصراع بين الدول على انه صراع ديني أكثر مما هو صراع من أي نوع آخر ،صراع بين قيم الإسلام وقيم الغرب،التي لا تزال تعيش في رحم التاريخ العربي ،والشواهد على ذلك انه بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ مباشرة بدأت الصحراء تمارس ضغوطها المكثفة على الفكر الوليد ،حتى استطاعت القيم الصحراوية أن تجتاح مواقع عديدة من مواقع الإيديولوجية الإسلامية ،وتتال من بعض مظاهر مدنيته،وان تلبس بعضها الآخر لبوسها القديم مزوقا تزويقا خارجيا بتهاويل الرؤى الجديدة ،التي جاء بها الإسلام.

إلا إن الدين يحب أن لا يكون سببا للصراع في القرن الحادي والعشرين لذلك يعتبر الجهل هو أكبر تهديد لنا بسبب عدم الانفتاح والتواصل من قبل الجمعيات الدينية وحتى العلمانية منها وقد بلغ حجم التهجومات على معتقدات الآخرين بسبب المفاهيم الخاطئة إلى حد كبير اليوم.

سوء الفهم وسوء التفسير هما الجذور الأساسية لكل النزاعات فتأثير الدين لا شك أنه عنصر أساسي في المسرح السياسي العالمي كما يجادل الكثيرون أن الجهل والدين متلازمان ولكن هذا في حد ذاته ادعاء جاهل فالجهل الديني لا ينبع من الدين نفسه لكن الصراع الذي نواجهه اليوم هو صراع سياسي وثقافي واقتصادي وجغرافي ثم ديني.

فالإرهاب القائم اليوم ما هو إلا التجسيد الناتج عن الجهل الديني والجري وراء شعارات ومنظمات أصولية تعتقد بأنها تخوض حربا مقدسة ضد الكيانات العلمانية ومحاربتها تمت عبر العصور عن طريق الحرب كون هذه الطريقة فعالة وسريعة وتحقيق الغاية فيها لا يتطلب الكثير من الجهد والوقت.

أعتقد مارك جيرقنسمير أن منطق العنف الديني وفكرة الحرب من الأمور التي يجب عدم الإذعان لها والدليل هنا الحروب الصليبية والفتوحات الإسلامية فالحروب الدينية التي هيمنت على الحياة السياسية في فرنسا في القرن السادس عشر مثلا لكننا هنا نأخذ برأي كارين أرمسترونغ وذلك أن فعالية الحرب الدينية هي موضع شك كبير وعليه فأن مناقشة الأعمال العدائية التي مرت عبر العصور بسبب الدين تحتاج إلى مجلدات لتدوينها.

وبالحديث عن الجهل فأن الصراع الناجم عنه يتعلق بالنظم العقائدية وبين الفجوة المتزايدة في العالم بين المتدينين والعلمانيين، وبالنسبة للمتدينين فأن اعتقادهم يتمثل بمحاربة العلمانيين لأنهم بالأحرى لا يستحقون العيش، في ما ينادي العلمانيين بحرية العيش والتعايش بدون نزاعات والتخلص من فجوة التخلف المتزايدة وممارسة الدبلوماسية الدينية بشكل أكبر.

وحتى يتم التخلص من هذه الصراعات نحن بحاجة ماسه إلى التهدئة والجلوس والتحدث بعد ترك الأحقاد جانبا سنجد جميع الأطراف أن لديهم الكثير من القواسم المشتركة وأن التشوهات ما هي إلا تراكمات تسلت إلى جميع الأديان عبر القرون، فالحوار المفتوح والبحث عن

أرضيات مشتركة ومناقشة المسائل الحساسة سيبعد الحرب والعنف، وعلاوة على ذلك سيتم اكتشاف طرق للتعايش السلمي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي وربما الأهم من ذلك أن هذه الحوارات ستتبدد المفاهيم الخاطئة والمزعجة بالجهل الديني. في هذه الحقبة من العولمة والتحديات الاقتصادية من الحكمة بمكان أن نقول أن الجهل والصراعات القائمة توجب على جيلنا مجابتهتها من خلال التعليم والذي كان مهد الحضارة وأن احترام التعايش والقيم الأخلاقية هما الطريق الوحيد الذي يقودنا إلى التنمية والتخلص من براثن الجهل.

د- إن بناء نظام حضري يرتكز على الرؤية القرآنية للإنسان، ولللاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كفيل بتتقية البيئة الحضرية، باطنها وخارجها، مادياً واعتبارياً من خلال رفع القيمة المعنوية للفرد الحضري، الذي يتعرض إلى تحدٍ خطير يهدد بذويان إنسانيته وشخصيته ومعتقداته، كما يجب الاكتفاء بإبراز شخصية الرسول ﷺ وحده نبياً، ورجل دولة، ومبرمجاً اجتماعياً، وموسوعة أخلاقية، وأسوة حسنة، وقدوة كاملة للإنسانية إلى يوم الدين؛ لتأطير أسلوب للحياة الحضرية، وتطهير نسيجها الاجتماعي من الشوائب قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: الآية 28).

هـ- ضرورة التلاحق الفكري بين الإسلام والمواريث الحضارية؛ لتلبية متطلبات العصر بعيداً عن الانحراف والشذوذ والتضاد في انحباس القيم وخروجها عن مبدأ العقيدة الإسلامية في ضوء الاحتياجات الجديدة للمجتمع الحضري العربي.

6- فكرة الآخرة وتأثيرها في السلوك

إن العوامل التي تتحكم في سلوك الإنسان، ويخضع لها في حركاته وسكناته تنقسم إلى نوعين: الأول العوامل الخارجية، كالبيئة والحوادث العامة والخاصة، وليس لهذه من ضابط معين، لأنها تختلف باختلاف المحيط والمجتمع الذي يعيش فيه، وتتنوع حسب الظروف والأحوال التي لا تدخل في حساب، النوع الثاني العوامل الداخلية، كالمشاعر والنزعات النفسية، وهي كثيرة منها:

1- منطلق الحياة الذي يفرض حكمه بعيداً عن تأثير الإرادة والاختيار، كالتنفس، ونمو الجسم، وتطور الأعضاء وقدرتها على القيام بوظائفها الخاصة.

2- منطلق العاطفة، وهو مصدر لأكثر ما نقوم به من أعمال في حياتنا اليومية. كالمحافظة على الأبناء وتربيتهم، والثناء على من نحب، والطعن فيمن نكره، ولا يسلم من سلطان هذا المنطق أحد حتى أهل الفضائل والذكاء.

3 -منطق العقل، وهو مصدر الإدراك والتفكير، وأصل العلوم والصناعات، وبه يتغلب الإنسان على الطبيعة، ويميز بين الحق والباطل والضار والنافع.

4 - منطق العدوى والتقليد، كالأفكار المتولدة من الكتب والجرائد والخطب، وكان النظر بدون شعور إلى جهة ينظر إليها الغير، وما إلى ذلك.

5 - منطق العادة، كشرب الدخان، والنوم في وقت معين، وما إلى ذلك.

6 -منطق الدين، ويتضمن الكثير من التعقل والتأمل وقد مثل دوراً عظيماً في تاريخ الأمم والأفراد حيث كان وما يزال المقياس الوحيد لأفعال المتدينين وأقوالهم، كما أن له تأثيراً بارزاً في الفنون والآداب والسياسة والأخلاق. وهذه النزعات تتفاعل مع العوامل الخارجية، فتتأثر بها وتؤثر فيها.

وغيرنا من هذا السرد يتصل بمنطق التدين، وبنوع أخص الاعتقاد بالبعث، وكيف يؤثر في أخلاقنا وسلوكنا، وكلنا نعلم أن شعور الإنسان بأن عليه رقيباً يعلم السرّ وأخفى، وأنه مسؤول عن كل كبيرة وصغيرة، وأنه يحاسب ويعاقب إن أساء، ويثاب إن أحسن. أن هذا الشعور يبعثه . في الغالب . على فعل الخير وترك الشر، وعلى أن يكبح الإنسان جماح نفسه، ويمنعها من أن تحقق أهواءها وشهواتها.

ورب قائل يقول: لقد رأينا أفراداً يعتقدون بالجنة والنار مع أنهم يرتكبون أكبر الخطايا وأحط الأعمال، ورأينا آخرين أفضل منهم أخلاقاً، وعلى حظ من الخير مع أنهم لا يدينون بشيء؟
الجواب:

إن الذين يدعون أنهم من الدين وأهله، ثم يخالفون عن أمره، ويستخفون بتعاليمه على نوعين: النوع الأول منهم لا يعرفون من الدين أصلاً ولا فرعاً ولا يعنيه من أمره كثير أو قليل، وإنما يصرخون باسم الدين، ويتشبهون بأذياله كلما خرج (آدمي) عن طاعتهم، وكلما فشلت لهم مؤامرة، وكلما هزم لهم لص مدرب على الإجماع، إنهم يرددون لحن الدين بأنغام شتى لا يعرفها نبي ولا وصي ، وأننا موضع التساؤل، بل موضع الشك والريب! لماذا هذا التهويش، وهذه المناداة بالويل والثبور وعظام الأمور وإظهار الغيرة على الدين أكثر من الأنبياء والأولياء؟! مع أنهم لا يؤدون فرضاً من فرائضه، ولا يتورعون عن مخالفة أمره ونهيه، وهذا دليل واضح فاضح على أنهم سماسرة أديان يتسترون باسمها اتقاناً للخديعة، وخوفاً من الفضيحة، وما قرأت كلمة تعبر عن حقيقة هؤلاء أجمع من قول سيد الشهداء الحسين بن علي(عليه السلام): (الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معاشهم، فإذا محصوا البلاء قلّ الديانون).

النوع الثاني من الناس يؤمنون بالله وحسابه وعقابه، ولكنهم يتنازلون عن بعض ما يدينون رغبة في منصب، ورهبة من قوي، أو خوفاً من عوز أو لضعف في الإرادة والتفكير، وما إلى ذلك من

الأسباب التي لا يملكون معها المناعة الكافية إذا تصادمت مع عقيدتهم. إن هؤلاء مؤمنون بلا ريب ولكنهم ضعفاء لا يحتملون الهم والمتاعب. والإنسان، أي إنسان في صراع مستمر مع الخوف من العواقب، والقوي من ثبت على عقيدته حتى وإن زالت الأرض من تحته، وأطبقت السماء على رأسه، ومهما يكن فإن الفرق بعيد جداً بين من يضم الجحود، ويظهر الإيمان كذباً وافتراء، وبين من يؤمن بالحق، ولكن لا يثبت عند الصدمات، إن الفرق بين الاثنين كالفرق بين من سار إلى المعركة مع الجند ليتجسس ويدبر المكائد والمصائد، وبين من هرب من الجندية حرصاً على حياته وحياء أولاده، فالأول تعمد الإجرام والعدوان، وتاجر بالدماء والأرواح، لغاية الكسب والريح، أما الثاني فكل ما يبتغيه (سلامات يا رأس) ولا يضم لأحد شراً وقد يشعر بالخطيئة والخجل من نفسه، ويطلب السماح والغفران، بل قد يحس بالراحة عندما يعاتب أو يعاقب، وقد رأينا من يعترف بالذنب علناً، ويطلب إيقاع العقوبة به، ليخلص من توتر الأعصاب، وتأنيب الضمير الذي لازمه في ليله ونهاره، واليك مثلاً واحداً من آلاف الأمثلة:

كان بعض القدامى يرفض ما يصطدم مع دينه ووجدانه، وهو في مقتبل العمر، وعندما تقدمت به السن، وأصبح ذا عيال وأطفال تقبل بعض ما كان يرفض من قبل، وفي ذات يوم رجع إلى نفسه، وقارن بين يومه وأمه، فذاب قلبه حسرات أرسلها مع أنفاسه الملتهبة في هذين البيتين:

**عصيت هوى نفسي صغيراً وعندما
أطعت الهوى عكس القضية ليتني**

**رمانى زمانى بالمشيب وبالكبر
ولدت كبيراً ثم عدت إلى الصغر**

وليس من شك أن الكريم سبحانه قد غفر لهذا الشاعر الذي تحرق ألماً من ذنبه، ونكس رأسه حياء من ربه.

قدّمنا أن الإيمان باليوم الآخر يخلق في الإنسان حافزاً إلى عمل الفضائل والخيرات، وتجنب الشرور والموبقات، وللتدليل على هذه الحقيقة نذكر طرفاً من معاملة الإنسان في العالم الثاني: عن أي شيء يسأل؟ وبماذا يكافأ؟.

جاء في الحديث: **(كلكم راع، وكل راع مسؤول عن رعيته)**. وليس من شك أن مسؤولية كل إنسان تكون على قدر وسعه ومقدرته، فمسؤولية الحاكم غير مسؤولية المحكوم، وما يُطلب من الغني لا يُطلب من الفقير، وتكليف العالم غير تكليف الجاهل، ومن هنا قيل: إن الطرق التي توصل إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، أي أن السبيل إليه سبحانه سهلة يسيرة، وأمنة لا هول فيها ولا خوف، يستطيع أن يسلكها كل فرد، ما دام الله لا يكلف نفساً إلا وسعها. وفي يوم القيامة يسأل المرء عن أفعاله وأقواله، وما أبداه وأخفاه من خير أو شر، ثم يلقي الجزاء وفاقاً على ما كان يصنع (كل نفس بما كسبت رهينة) فالعمل وحده مقياس الثواب والعقاب، فمن أحسن قلبه

الحسنى وزيادة ومن أساء فجزاء سيئة بمثلها، ولا سيئة مع السهو والخطأ ولا مع الاضطرار والإلجاء ومن تعمد فباب التوبة مفتوح من دخله كان آمناً.

ومما جاء في الحديث إن الإنسان يسأل غداً عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله مما اكتسبه وفيما أنفقه، وفي حديث آخر يقال له: هل علمت؟ فان قال نعم، قيل له هلا علمت؟ وان قال لا قيل له هلا تعلمت حتى تعمل؟ فمقياس الفضيلة والرذيلة، والقرب من الله والبعد عنه هو الأعمال وحدها، لا الصور والأشكال، ولا الاحساب والأنساب، ولا الجاه والمال، ومن اعتمد على شيء منها فقد غفل عما يراد منه كما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون: الآية 115).

ومن طريف ما قرأت عن ديانة زرادشت أن عمل الإنسان إن كان حسناً أتاه غداً في صورة فتاة جميلة يسر بحسنها، ويتمتع بجمالها متى يشاء وكيف شاء، وإن كان عمله سيئاً أتاه في صورة عجوز شمطاء مفزعة لا تفارقه لحظة، ولا يستطيع التهرب منها بحال، أجارنا الله وإياكم. وإذا اعتقد الإنسان أنه لا يترك مهماً من غير تكليف يسأل عنه، ويؤخذ به، تورع عن محارم الله، وتردد طويلاً قبل أن يقدم، وتحفظ ما استطاع.

ومن أغرب ما قرأت أن كاتباً فرنسياً يدعى (بيار جوايو) زعم أن الناس خُلِقوا للخداع والسرقة، والقتل والاعتصاب، وانه وضع كتاب شرح فيه فلسفته هذه وأصدره سنة 1953 ، وأسماه (لم يكن شيء وهذا كل شيء)! وماذا يبقى من الخير إذا انتشرت هذه الفلسفة، أو الفلسفات الأخرى التي لا تعترف بالبعث والنشر؟! أجل، إن هناك أناساً لا يعترفون بعالم الغيب، ومع ذلك تراهم على كثير من الخير، وربما أكثر من الذين يؤمنون . كما قدّمنا .

وكثيراً ما تغرس التربية الشعور بالمسؤولية في نفوس الكبار والصغار، وتحملهم على احترام القانون حتى ولو لم يكن من رقيب وحسيب.

أجل، نحن لا ننكر هذا، ولكن الإحساس بوجود قوة عالمة عادلة دونها كل قوة لا بد أن يترك أثراً ملموساً لا يتركه الضمير والأخلاق. إن الضمير يؤنب ولا يعذب، ويعاتب ولا يعاقب، وليس كل الناس علي بن أبي طالب أو عمر بن الخطاب الذين عبدوا الحق لذات الحق: ولا ينكر لهما مهما تكن النتائج، بل أكثرهم يبكون ذنوبهم ولا يكثرثون لها، ومنهم من يستمرئ الجرائم، ويكررها بنشوة وقسوة، ويتبجح قائلاً دون خجل: (الدنيا فريسة الشاطر)، ومنهم من يفعل الخطيئة ثم يقذف بها الأبرياء، ويتهمهم زوراً وبهتاناً، ومنهم من تبلغ به الحال أن يعاقب الطيبين الأخيار على ذنب هو صاحبه وفاعله.

وبالتالي، فإن الدين وحده العاصم، ولا سلطان فوق سلطانه، أما الضمير فهو أشبه بالناصح الذي لا يملك نفعاً ولا ضرراً، وكثيراً ما يغلب على أمره، فيكف ويعتزل. ثم إذا كان الضمير وزعاً من الداخل، والسجن أو المشنقة وزعاً من الخارج فإن الإيمان بالله واليوم الآخر يجمع بين الاثنين بحيث لا يستطيع المؤمن التهرب منها بحال، ويبقى شاعراً بالمسؤولية، خائفاً من عقاب الله وعذابه، حتى ولو اختفى بجريمة عن أعين الناس، وأمن ملامتهم، وعقوبة الحكام، إذ لا مفر له من حكم الله وسلطانه، وإليك هذا الشاهد: روي أن رجلاً تكررت منه المعاصي وكلما حاول التوبة والإقلاع عنها غلبته نفسه، فأتى الحسين (عليه السلام) وقال له: يا ابن رسول الله إني مسرف على نفسي، فاعرض عليّ ما يكون لها زاجراً أو مستنقذاً، قال الحسين (عليه السلام): ((أن قبلت مني خمس خصال فقدرت عليها لم تضرك المعصية، فابتهج الرجل وقال: جاء الفرج! قال الحسين: إذا أردت أن تعصي الله عزّ وجل فلا تأكل رزقه؛ قال الرجل: كيف؟ إذن من أين آكل، وكل ما في الأرض من رزقه؟ قال الحسين: أفحسبك أن تأكل رزقه، وتعصيه؟ قال الرجل: لا بأس، هات الثانية، فربما كانت فرجاً ومخرجاً.

قال الحسين: إذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده.

قال الرجل: يا سبحان الله، هذه أعظم من تلك، فأين أسكن؟ وله المشرق والمغرب وما بينهما؟ قال: يا هذا، أليق بك أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه؟! قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، هات الثالثة، فربما كانت أهون الثلاث. قال: إذا أردت أن تعصيه فانظر موضعاً لا يراك فيه، وهناك افعل ما شئت. قال: ماذا تقول؟! ولا تخفى على الله خافية؟ قال: أتأكل رزقه، وتسكن بلاده، ثم تعصيه، وهو بمراى منك ومسمع؟! قال: هات الرابعة، وإلى الله المشتكى. قال: إذا جاءك ملك الموت، ليقبض روحك، فقل له أخرني حتى أتوب. قال: لا يقبل مني. فقال له: أكرهه على القبول. قال الرجل: كيف ولا أملك لنفسي معه شيئاً؟ قال: إذا كنت لا تقدر أن تدفعه عنك فتب قبل أن يفوت الأوان.

قال الرجل: على أي حال بقيت الخامسة، فهاتها. قال: إذا جاء الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى الجحيم فلا تذهب معهم. فقال الرجل: حسبي حسبي. أستغفر الله وأتوب إليه. ولن يراني بعد اليوم فيما يكره. وهكذا تزجر المواعظ عن الرذائل من أحياء الله قلبه بهيبته وجلاله، والخوف من غضبه وسطوته، إن الدين لم يفرض علينا الإيمان اليوم الآخر كوسيلة ولا ترغيباً في عمل الخيرات، وإنما أوجبه كفاية في نفسه، لأنه حقيقة ثابتة لها وجود واقعي، فالإيمان به إيمان وتسليم بالأمر الواقع، أما الوقوف عند الحدود فهو فرع لهذا الأصل، وثمره من ثمراته.

مصادر ومراجع الفصل الخامس

- 1-مينا الطيبي، ، الدين السياسي ونقد الفكر الديني، الحوار المتمدن، العدد 3394 في 12-2011-6.
- 2-القرطبي،الجامع لإحكام القرآن،دار الكتاب العربي،القاهرة،ص.287
- 3-محمد عبد الستار عثمان،المدينة الإسلامية،عالم المعرفة،المجلس الوطني للثقافة والآداب،الكويت،1988،ص236.
- 4-الزليعي،نصب الراية لأحاديث الهداية،الطبعة الأولى،دمشق،1938،ص195.
- 5-الماوردي،الأحكام السلطانية والولايات الدينية،مصر،المطبعة المحمودية،التجارية،1938،ص103.
- 6-المصدر نفسه،ص163.
- 7-ابن خلدون،المقدمة،القاهرة،دار الشعب،ص113.
- 8-إسحاق يعقوب القطب،خصائص المدينة والتحضر في الدول الإسلامية،مجلة المدينة العربية،العدد 42،السنة التاسعة،1990،ص72
- 9-عبد الرزاق عباس حسين،جغرافية المدن،بغداد،مطبعة اسعد،1976،ص42.
- 10-طارق نافع الحمداني،بعض جوانب الحياة الاجتماعية في مدينة بغداد،الندوة العلمية الأولى لجامعة بغداد،1990،ص543.
- 11-شاكر مصطفى،المدن في الإسلام حتى العصر العثماني،ط1،الكويت،دار ذات السلاسل،1988،ص15.
- 12-محمد مهدي شمس الدين،من اجل تحد عربي إسلامي،مجلة المستقبل العربي،العدد1990،36،ص5.
- 13-لؤي صافي،الدولة الإسلامية بين الإطلاق المبدئي والتقييد النموذجي،مجلة المستقبل العربي،العدد 1993،178،ص85.
- 14-إبراهيم النعمة،رضينا بالإسلام ديناً،الطبعة الأولى،الموصل،الزهراء الحديثة،1983،ص47.
- 15-المستوطنات العشوائية في البلاد العربية،الاسكو،الأمم المتحدة،نيويورك،1995،ص293.

- 16- إسماعيل قيرة، من هم فقراء الحضر قاع المدينة العربية أنموذجاً، مجلة المستقبل العربي، العدد 1996، 205، ص70.
- 17- أبي الحسن علي الحسني، نحو التربية الإسلامية الحرة، الطبعة الأولى، 1968، ص47.

الفصل السادس: الشذوذ الجنسي المثليين (الواط والسحاق) ، الزنا

يعبر عن الغريزة الجنسية بأنها طاقة موجودة لدى البشر تؤدي وظيفة حيوية ومصيرية، وهي التكاثر وعمران الأرض، شريطة أن تتم في إطارها الصحيح وبصورتها الصحيحة، ولكن نتيجة لبعض العوامل تتجه هذه الطاقة الجنسية اتجاهات مخالفة للمألوف، ويظهر ما يعرف بالشدوذ الجنسي الذي تفشى بين الرجال والنساء. وعلى الرغم من اختلاف الأطباء النفسيين في تحديد الأسباب الحقيقية للشدوذ فإنهم اتفقوا جميعاً على حقيقة وجوده في كل المجتمعات بما فيها المجتمعات المسلمة.

ويذكر أنه أمام الضغوط الكبيرة التي مارستها الجمعيات والمنظمات المدافعة عن حقوق الإنسان وتكتلات المثليين التي أصبحت متواجدة على أعلى المستويات تم إلغاء مرض "الشدوذ الجنسي" من التقسيم الحديث للأمراض النفسية في العام 1973 بناء على توصية من عالم الطب النفسي "روبرت سبتزر"، ويات الشدوذ في المفهوم الغربي مجرد ميل طبيعي وحق من حقوق الإنسان، وعلى هذا فإن كان ذلك مقبولاً في المجتمعات الغربية، ولكن الأمر مرفوض دينياً واجتماعياً في المجتمع الشرقي.

أن الشدوذ الجنسي قد ينظر إليه على أنه أحد أمرين؛ إما مرض أو انحراف سلوكي، على أنه في حالة المرض يعاني الشخص الشاذ مما هو فيه وتتكون لديه رغبة ملحة في التخلص منه، وحينها علينا مساعدته، أما في حالة الانحراف السلوكي فيكون الشخص مستمتعاً وراضياً عما يفعل وحينها يستحق العقاب.

ويضع آخرون الشدوذ الجنسي في قائمة الأمراض النفسية في أنه نوع من أنواع الاضطرابات التي تحتاج إلى علاج؛ لأن الطبيعي أن الرجل يميل للأنثى والعكس، إلا أن هناك عوامل كثيرة - كالاكتئاب الجنسية - مثلاً هي التي تدفع إلى مثل هذا الاضطراب الذي يحتاج إلى علاج. في حين لا يتفق آخرون على إن الشدوذ مرض؛ حيث يؤكدون أنه انحراف سلوكي، معللين ذلك بأن المرض معناه أن صاحبه غير مسئول عنه، ولا دخل له في ما يحدث له، ولكن هذا لا يوجد في حالات الشدوذ الجنسي، مضيفين أن علاج الشدوذ الجنسي الذي يتم تحت إشراف الطبيب النفسي هو أصلاً علاج سلوكي وليس علاجاً دوائياً .

بعض المصطلحات الخاصة بهذا الموضوع:

أ-شخص شاذ جنسياً

الشخص الشاذ جنسياً "هو الذي يجد متعة جنسية دون الوصول إلى عملية الجماع الحقيقية بين الذكر والأنثى"

ب-الانحرافات الجنسية

- 1- المثلية الجنسية Homosexuality
- (اللواط) H0mosexuality
- (السحاق) Lesbianism
- 2- السادية Sadism
- 3- الماسوشية Masochism
- 4- الشراهة الجنسية Satyriasis
- 5 - الفيتيشية Fetishism
- 6- تحول الزي Transfestism
- 7- انحراف التلصص Voyeuris
- 8- الجنس البديل Transexualism
- 10- جماع الحيوان Bestiosexuality
- 11- جماع الصغار Infantosexuality
- 12- جماع الأموات Necrophilia
- 13- جماع الشيخوخة Geronto
- 15- المزدوج Homo Homosexual

وتأسيسا على ذلك فأننا نتعامل مع ثلاثة مصطلحات بالنسبة للعلاقة الجنسية :

أ- Heterosexual

ب- Homosexual

ج- Bisexual

ولكن هذه المصطلحات لم تلقى إعجاب وموافقة الكثيرين من علماء الصحة لذا فقد قاموا بتقسيم آخر (تصنيف كينزي) :

- 1- نوع لا يمارس الجنس إلا مع الجنس الآخر.
- 2-نوع يفضل الجنس الآخر (مارس مرة عارضة مع نفس الجنس).
- 3- نوع يفضل الجنس الآخر بدرجة أقل (الممارسة مع نفس الجنس أكثر من عارضة).
- 4-نوع الجنسان متساويان عنده في الأفضلية (ليس هناك فرق أن يمارس مع نفس الجنس أو الآخر).

5-يفضل نفس الجنس (مرات مع الآخر أكثر من عارضة).

6-يفضل نفس الجنس بدرجة أعلى (الممارسة مع الجنس الآخر عارضة).

7-لا يمارس إلا مع نفس الجنس فقط.

ج- مافيا الشواذ الجنسي

تحول الناشطون من الشواذ فعلا وبلا أدنى مبالغة إلى جماعة ضغط (لوبي) تمارس ضغوطها على رجال الإعلام والفكر والاقتصاد والسياسة والدين، بالضبط كما يفعل اللوبي الصهيوني، وقد تمكنوا فعلا من جني ثمار هذا الضغط في العقدين الأخيرين، بعد أن مروا بنكسة عابرة إبان ظهور الايدز.

جمعيات حقوق الشواذ (المثليين بلغتهم الخاصة) شكلت هذا اللوبي فعلا (يعرف أحيانا بمافيا الشذوذ (Gay mafia) أو المافيا المخملية (Velvet mafia) وكل من يجروء على فتح فمه ضدهم ولو بملاحظة عابرة سيتعرض للاتهام بالنازية(باعتبار أن النازيين كانوا ضد الشواذ) وسط سيل من السباب والشتم التي لا يرغب بسماعها أي محترم (!)، بل إنه سيتعرض لعملية نبش في ماضيه الشخصي للبحث عن كل صغيرة وكبيرة مما يعتبرها المجتمع الغربي أمورا عادية لكنها ستصبح هنا أمورا مستهجنة ومعيبة.

فقد دعا أحد قادة الكنيسة إلى محاولة الكشف عن الأجنة البشرية المصابة بالشذوذ و علاجها من شذوذها (على فرض صحة النظرية مرة أخرى). عندها قامت المافيا بإرهابه واتهامه بمحاولة إبادة الشواذ وتطهيرهم عرقيا و اعتبرت كنيسته من "بقايا النازية" وانتهى الأمر بتراجعها عن دعواها! وبقى التراجع أقل خطورة من سماح بعض الكنائس بفتح أبوابها واحتضانها الشواذ و الترحيب بهم عبر لافتات على أبواب الكنيسة كما هو شائع في الكثير من الكنائس.

لكن الضغط الذي تمارسه المافيا لم يقتصر فقط على رجال الدين أو العلم أو الإعلام، بل تعداهم إلى رجال التشريع والسياسة، فالإقرار الأخير لزواج الشواذ الذي صوت عليه في الهيئة التشريعية في ولاية فرم ونت (وليس عبر التصويت المباشر للسكان) رُوج له أصلا من قبل مافيا الشذوذ عبر استغلال الكساد الاقتصادي، وحقيقة فإن ولاية فرم ونت هي من أفقر الولايات أصلا ، الدراسات المدعومة من قبل المافيا زينت أمر الإقرار قبل حدوث الإقرار، فتمرير المشروع سيضيف للولاية 30 مليون دولار على الأقل بالإضافة إلى 400 فرصة عمل جديدة، بالإضافة إلى كل الاحتمالات المفتوحة لتنشيط السياحة حيث سيأتي الشواذ من كل الولايات المتحدة أو على الأقل من ساحلها الشرقي ليعقدوا قرانهم في فرم ونت التي كانت مهجورة حتى لحظتها.

هكذا تنتوع أساليب المافيا بين الترغيب والترهيب وغسل الأدمغة إعلامياً والنتيجة واحدة: تمييع الحدود بين ما هو طبيعي وشاذ، والتعود على الشذوذ دون أي تحسس منه حتى يصير طبيعياً بالتدريج.

الخروج من الخزانة (getting out of the closet) هو مصطلح المافيا المفضل للتعبير عن إعلان الفرد ميوله الشاذة والخروج بها من السرية إلى العلن، أي إنه كان في (الخزانة) بمشاعره وممارساته السرية، ثم خرج إلى العلن (من الخزانة).

و الذي حدث مع مافيا الشذوذ الجنسي في أمريكا أنها لم تكتف بالخروج من الخزانة، بل صارت تحاول وضع المجتمع كله في الخزانة..! و لأن أمريكا بالنسبة للكثيرين هي العالم كله، فإن العالم كله يبدو أنه يرسم الوضع في هذه الخزانة.

د-الدعارة الذكورية

أن سوق الدعارة لم يعد مقتصراً على النساء فقط، فقد انضم إليهن الجنس الخشن وإن كان بصورة أنثوية والذين يطلق عليهم تسمية " المثليين " أو "الشواذ" حيث أن هناك أيضاً من ينظم لهم مهنتهم ويؤمن لهم الزبائن، ودون نسيان سوق الدعارة الخاص بالأطفال وإن أنكرته مجتمعاتنا العربية معتبرة إياها مجرد حالات شاذة لا أكثر ولا أقل. كل هذا يكاد يكون معروف للجميع، ولكن أن يكون هناك أناس يتاجرون بالرجال لصالح النساء فهذا ليس بالجديد في المجتمعات الغربية لكنه وبكل تأكيد جديد وغير مطروح ضمن مجتمعنا العربي عموماً ، لكون من الصعب إيجاد السوق المناسب لهذه المهنة ضمن مجتمعنا المحافظ والذين لا يتقبل هذه الفكرة لا من قريب ولا من بعيد.

في النوادي الرياضية الخاصة بجمال الأجساد وبنيتها القوية والمتناسقة لعله كان وما زال العنوان الأوحى لكل الرياضيين الذين يمارسون رياضة (كمال الأجسام) نظراً لما تقدمه هذه الرياضة للاعبين من قوة وتناسق في تكوين عضلاتهم، وآخر ما يتوقعه الإنسان من هذه النوادي بالإضافة إلى "عملها الرياضي" أن تكون شريكاً بهذه التجارة و مقصداً مهماً لمن يريد العمل في هذا المجال، وطبعاً لا يمكن أن تشمل جميع هذه النوادي بممارستها لهذا العمل، لكن طبيعة الشبان الموجودين ضمنها والاعتناء المبالغ من قبلهم في تنسيق أجسادهم هو ما يجعلها المقصد الأهم للعديد من الراغبين في العمل ضمن هذه المهنة الجديدة.

ومن المعروف أن هذه الأنديّة تروج لمجموعة كبيرة من الأدوية والهرمونات التي تسمح للعضلات بالنمو بشكل سريع وتساعد على الوصول إلى حد كبير من الضخامة، وبسعر مادي مرتفع وباهظ الثمن قد يكون من الصعب على اغلب اللاعبين تحمل نفقاته والالتزام بشرائها بشكل منتظم .

ولعل شغف احد الهواة الفقراء وحبه الكبير لهذه الرياضة وسوء أوضاعه المالية التي لم تسمح له شراء هذا النوع من المنشطات بشكل دائم هو ما جعله فريسة سهلة بين يدي أحد العاملين في النادي، حيث عرض عليه عرضاً مغرياً يتضمن بتقديم كافة المنشطات التي يرغبها منها الموجود في النادي أو غير الموجودة في البلد كله، هذا بالإضافة إلى مبلغ مالي جيد يأخذه عند كل لقاء جنسي مع إحدى النساء التي يعرفهن.

في البداية رفض العرض " يقول هذا الرجل الفقير الهاوي :فالفكرة بالكامل لم تكن تخطر على بالي، لكن ومع العروض المغرية التي قدمت لي وافقت وبشروط معينة (لم يفصح عنها)، وبدأت بالفعل بعد يومين من موافقتي باللقاء الجنسي مع إحدى النساء التي لم تكن تتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر وكانت جميلة جداً وشهوانيةً إلى حد المرض، وكان من الشروط التي فرضت عليّ أن أمارس معها الجنس بالطريقة والأسلوب التي تريده، وفي منزل مستأجر من قبلها في إحدى ضواحي المدينة، وعند نهاية اللقاء كانت تعطيني مبلغاً مادياً محترماً يزداد ويتضاعف بحسب درجة السعادة التي كنت أقدمها لها!!، كما أن الأمر لم يتوقف عند ذلك فقط وبعد مدة قدمت لي إحدى صديقاتها ومن طبقة غنية جداً وتابعت معها العمل نفسه وكانت تساعدني في العديد من الأمور الحياتية وتأمين المصروف وغيرها من الأمور.

والجدير بالذكر أن هذا الرجل وخلال حديثه أكد بأنه ليس الوحيد الذي تم اختياره للعمل في هذه المهنة من النادي بل أن هناك العديد من الأشخاص الذين يمارسونها ويعملون بها ومنهم من دون أجر مالي أو مقابل يذكر وإنما من باب إمتاع رغباتهم الجنسية فقط.

وفي احد النوادي الليلية هناك شخص آخر متخصص في مجال الأرامل والمطلقات وسيئات الحظ من أزواجهن على حد قوله، حيث يعمل كحارس في إحدى النوادي الليلية نظراً لما يتمتع به من قوة بدنية واضحة، ونتيجة لعمله فإن اغلب النوعيات التي تعمل في مجال الدعارة على تواصل وتعامل معه طوال مدة عمله وبمختلف أصنافهن وأشكالهن.

حيث يقول: " في عملنا نصادف كل النوعيات والأشكال من البشر، ونتعامل بكافة الطرق المتاحة أمامنا في سبيل كسب المال، وكل شيء توقعته منهم إلا أن أكون ممن يتاجر بهم في هذا العمل، فالقصة بدأت لدي عندما قدمت لي إحدى الفتيات اللواتي تعمل في الملهى على صديقتها وهي مطلقة وتعيش وحيدة وقد طلبت مني أن أذهب إليها بين الحين والآخر و(أعوضها عن فراق زوجها!!!) ووافقت لكونها جميلة وجذابة جداً ولم يتم طرح اجر مادي

معين لكنها كانت عند كل لقاء تعطيني هدية معينة منها غالبية الثمن ومنها العادية وكنت أقوم ببيعها أن استطعت، ومع مرور الأيام وعن طريق نفس الفتاة في الملهى بدأت في العمل بنفس الأسلوب ومع نساء أخريات ومقابل أجر مادي يختلف حسب قدراتهن المالية، وقد توسع نطاق

عملي مع مرور الأيام ليشمل نساء أرامل ومنهن المتزوجات اللواتي يعانون عدم توافق جنسي مع أزواجهن نظراً لفرق العمر أو لانشغالهم الدائم عنهن وبمقابل مادي يختلف بين واحدة وأخرى.

وتعتبر مواقع التواصل الاجتماعي " كالفيس بوك والتوي تر " وغيرها صاحبة الفضل في تحقيق تواصل اجتماعي مهم بين شريحة كبيرة من الزائرين والمستخدمين للشبكة العنكبوتية وان باتت مقسمة كل شريحة على جانب معين، ومن ضمن الشرائح المطروحة مؤخراً عبر هذه المواقع الاجتماعية شريحة ليست بالجديدة والتي باتت تعلن عن نفسها وبصراحة كبيرة بحيث تعلن عن أرقام هواتفها وإقامتها، فهذه الشريحة باختصار عبارة عن مجموعة من الشبان التي تعلن بصراحة عن استعدادها لتقديم خدماتها الجنسية مقابل أجر مادي، وهذه الخدمات لا تقتصر على النساء فقط وإنما تشمل الرجال أيضاً!!، بحيث أنها تؤدي الدور الايجابي في العلاقة الجنسية مع الرجال ومنهم من يؤدي السلبية ومنهم الاثنيين معاً.

من المؤكد أن من يقبلون بهذا الأسلوب هم أشخاص مأزومون ويتخذون من الظروف المحيطة بهم ذريعة لاختيار هذه المهمة الوضيعة، لكن من الواضح أن هناك أزمت جديدة تخترق خصوصية مجتمعاتنا ونفشل عن التصدي لها في ظل غياب القدرة على تناولها علانية ودفنها بعيداً عن الأعين.

خلاصة القول أن الشذوذ الاجتماعي لم يعد مقتصراً على نوع واحد وإنما توسع وانتشر وتعددت وجوهه ويات من الضروري العمل الوقوف بوجهه وكافة الطرق والأساليب المطروحة والمتوفرة القضائية منها عبر ملاحظتهم وملاحقة كافة فنون الدعارة أو الانحرافات الاجتماعية عبر حملات من التوعية عبر وسائل الإعلام والصحافة صاحبة القدرة الأمثل على طرح هذه القضايا ومهاجمتها.

المبحث الأول- المثلية الجنسية

1- مفهوم المثلية الجنسية (Homosexuality)

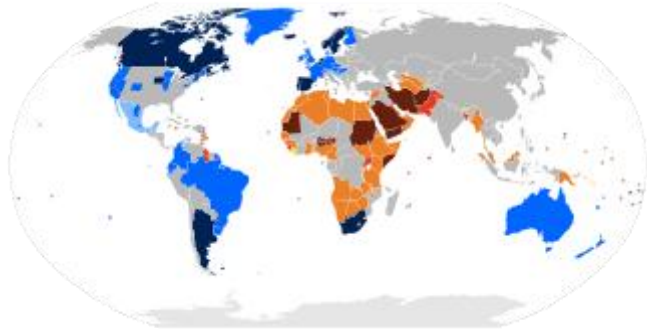
وتسمى أيضاً الميول المثلية: هو انجذاب نفسي وعاطفي وشعوري مكثف ومتواصل تجاه شخص من نفس الجنس، وقد تتوج هذه الميول بالرغبة في الإتحاد الجسدي ومن ثمّ الاتصال الجنسي، وهذه الميول تختلف نوعياً عن العلاقات الجنسية المعهودة الأخرى مثل الجنس البيولوجي والجنس الاجتماعي، والدور الاجتماعي للجنس. فالميول المثلية تختلف عن كل هذه الأنواع من السلوك الجنسي بحيث تكون حصيلة من أحاسيس غالباً مبهمه ممتزجة بنظرة المثلي إلى نفسه ودرجة تقبله لميوله، و لا يعبر الشخص بالضرورة عن ميوله الجنسية من خلال ممارسة للجنس.

بتعبير آخر فإن المثلية الجنسية لا يعبر بالضرورة عن السلوك الجنسي للشخص، فالمثلية الجنسية ليست مرادفا لممارسة اللواط أو السحاق، فكثير من المثليين لا يمارسون اللواط أو السحاق بينما نجد الكثير من الذين يمارسون اللواط أو السحاق « متغايرين » جنسيا وليسوا « مثليين ». لذلك يمكننا اعتبار أن مصطلح "المثلية الجنسية" إنما يعنى الانجذاب الجنسي والعاطفي للأشخاص من نفس الجنس.

2- الفرق بين الميول المثلية والممارسات المثلية

الميول المثلية: هي أن يكون لدى الشخص انجذاب نفسي وعاطفي وجنسي تجاه أفراد من نفس جنسه، و يوجد الكثير ممن يملكون هذه الميول والمشاعر بصورة طبيعية، وتوجد بعض الدراسات والأبحاث التي تقول أن 4% من سكان العالم هم أصحاب الميول المثلي⁽¹⁾ خريطة (2).

خريطة 2: الميول المثلي على مستوى سكان العالم



لا تتوفر بيانات مسموح بالزواج من نفس الجنس مسموح بالارتباط من نفس الجنس الزواج الأجنبي معترف به غير مسموح بالزواج من نفس الجنس الجنسية المثلية ممنوعة عقوبة صغيرة عقوبة كبيرة سجن مؤبد عقوبة الإعدام

المصدر: أحمد خيرى العمري عولمة الشذوذ ، ويكيديا الموسوعة الحرة.

تجدر الإشارة إلى أن الكثير ممن لديهم هذه الميول لا يقومون بأي ممارسة جنسية مثلية والعكس صحيح، إذ أن الكثير ممن يمارسون الجنس المثلي ليست لديهم ميول مثلية.

3-أسباب الانجذاب لنفس الجنس

أثبتت الأبحاث العلمية التي قام بها علماء النفس وأطباء نفسانيون أن التوجه الجنسي (و قصد به المشاعر والرغبات الجنسية) لا يمكن أن يكون اختيارياً، حيث لا يمكن لأي إنسان اختيار نوع مشاعره الجنسية ولا يمكن لأي إنسان اختيار رغباته الجنسية، فالشخص المغاير يجد نفسه منجذباً جنسياً وعاطفياً تجاه الجنس الآخر دون أي إرادة منه وكذلك الشخص «المثلي» يجد نفسه منجذباً تجاه الأفراد من نفس جنسه دون أي إرادة منه.

هناك جذور للانجذاب المثلي، تكمن هذه الجذور أحياناً في :

أ. أحداث تتعلق بماضي فيه الانتهاك أو الاعتداء الجنسي.

ب. العلاقة مع الوالد من نفس الجنس.

ج. العلاقة مع الوالد من الجنس الآخر.

د. العلاقة مع الأقران.

4- الاعتداء الجنسي

يشمل أي اتصال أو تفاعل يتم من خلاله أن شخصاً، أكبر أو أقوى أو له تأثيراً كبيراً، يستخدم طفلاً أو مراهقاً من أجل الحصول على إثارة جنسية، تظهر الدراسات أن حالات الانتهاك الجنسي تشيع في طفولة المثليين البالغين، في إحدى هذه الدراسات أظهرت أن نحو 80% من الرجال المثليين، الذين شملتهم الدراسة، قالوا أنهم تعرضوا لانتهاك جنسي على يد شخص بالغ قبل وصولهم لسن العاشرة⁽²⁾.

وكما هو الحال مع أي من العوامل التي نبحثها، فإن الاعتداء الجنسي لا ينتج تلقائياً الانجذاب الجنسي، غير أنه بالنسبة للبعض قد يمثل جزءاً كبيراً من سياق يساعد على تكون الانجذاب الجنسي، وعادة ما تختلف الطريقة التي يؤدي بها الاعتداء الجنسي للتأثير على تطور تلك الميول ما بين الرجال والنساء.

الضرر الذي يحدثه الاعتداء الجنسي على الرجال بعد الاعتداء الجنسي قد تكون المشاعر المختلطة القوية التي يشعر بها الفرد الذي تعرض للاعتداء، جزءاً من ما يشكل الميول المثلية، التخبُّط أو التشويش في هذه الحالة يمكن تعريفه بأنه "الشعور بشعورين متناقضين في الوقت نفسه". فالأمر المحير بالنسبة للولد الصغير هو أنه برغم الموقف البشع الذي تعرض له، فقد شعر ببعض اللذة، وهو ما يجعله يشعر بإحساس قوي بالعار، لقد حدث اتصال وتلامس جسدي، من طبيعته إثارة شعور باللذة العاطفية والجنسية، ولكن هذا الاتصال ذاته كان في نفس الوقت فظيعة! وتكون النتيجة إحساس غامر بالخزي والحيرة.

من الصعب على الصبي الصغير أو المراهق أن يقبل أنه قد استمتع بقدر من اللذة الجنسية مع رجل أو ولد أكبر، يزداد التخبُّط والشعور بالعار حينما يكون الاعتداء الجنسي هو السياق الوحيد

الذي فيه يبدو للصبي أن عطشه للحب الذكري والاتصال مع رجل قد ارتوى، ويترك هذا انطباعاً خادعاً بأن الجنس والحب أمران متلازمان دائماً.

إن الشعور بالعار وحالة الالتباس هذه يؤديان إلى إثارة أفكار ملحة ومقلقة مثل: "يا ترى هذا معناه أنني ماذا؟!" "من الممكن أنني شاذ؟!" وبناء على ذلك يمكن أن يؤدي الضرر الذي تحدثه تلك المشاعر المختلطة إلى جعل الأولاد الصغار المشوشين يعتقدون أنهم شيء غير ما هم عليه في الحقيقة.

5-العلاقة مع الوالد من نفس الجنس

تعد العلاقة مع الوالد من نفس الجنس، الأب في حالة الذكر والأم في حالة الأنثى، أهم العلاقات التي تكون الهوية الجنسية وبالتالي الانجذاب الجنسي، فإذا كانت هناك مشكلات في تلك العلاقات مثل غياب الوالد المتواصل، أو عنفه وقسوته، أو سوء العلاقة بين الوالدين، فإن الطفل لا يحصل على احتياجاته النفسية من هذا الوالد، الطفل الذكر يحتاج لحب أبوي ذكوري من أبيه والبنات من أمها، ولكن عندما لا يوجد ذلك الحب بسبب البعد المكاني أو النفسي، فإن الطفل ("من نفس الجنس) لكي يحمي نفسه من الإحباط، هذا الانفصال النفسي يمنع من تكون الهوية الجنسية التي تنشأ بالتوحد بالوالد من نفس الجنس (الأب بالنسبة للولد والأم بالنسبة للبنات). كما أن هذا الشوق القديم للحب الذكري بالنسبة للولد، والحب الأنثوي بالنسبة للبنات، يظل قابلاً بالداخل منتظراً الإشباع، وعندما يحدث هذا الإشباع في وقت متأخر أو بطريقة جنسية، يحدث ربط بين هذا الشوق أو الاحتياج العاطفي واللذة الجنسية، أي يحدث نوع من "جنسنة" الاحتياج للأب أو للأم.

أيضاً عندما لا يتوحد الولد مع أبيه، وتكون أمه مسيطرة وحامية وخانقة المحبة، فإنها تمنعه من الدخول في عالم الرجال، وبالتالي يظل هذا العالم مكتنفاً بالغموض والسرية، وفي نفس الوقت يظل الطفل مشتاق لهذا العالم، وعندما يأتي سن المراهقة فإن هذا الشوق وذلك الغموض يؤدي إلى نمو الانجذاب الجنسي تجاه الذكور والأمر نفسه بالنسبة للإناث عندما ينجذب للإناث.

عبرت خبيزة في علم النفس تدعى إليزابيث موبيرلي (Elizabeth Moberly) عن العلاقة بين خبرات الطفولة والجنسية المثلية بالقول: "إن الجنسية المثلية هي عجز في قدرة الطفل على التواصل مع الوالد من نفس الجنس وينتقل هذا العجز (فيما بعد) إلى التعامل مع البالغين من نفس الجنس عموماً، ويمكن القول إن المشكلة ليست أن الشخص المثلي البالغ يريد حبا من نفس الجنس، بل أن حاجات الطفولة لديه المتعلقة بتلقي الحب من الوالد من نفس الجنس لم تُسدّد،

ولذلك يحاول هذا الشخص إشباع تلك الحاجات الآن عن طريق علاقات مع بالغين آخرين من نفس الجنس تشمل أنشطة جنسية كطريقة خاطئة لتلقي الحب".

6-التفاعلات مع الأقران

ما بين سن الرابعة والخامسة ينتقل الأطفال من اللعب جنب الأطفال الآخرين، إلى اللعب مع الأطفال الآخرين، ويبدأ الأطفال في تعلم كيف يكون لهم أصدقاء، هذه الصداقات المبكرة تصيف عنصراً إلى الهوية الجنسية للطفل، الأطفال يحتاجون لحب وقبول الأطفال الآخرين من أقرانهم الذين يماثلونهم في العمر والأهم الأطفال المماثلين لهم في الجنس، علاقة الصداقة بين من هم من نفس الجنس تؤدي دوراً هاماً في عملية بناء الهوية الجنسية (Gender Identity). الأطفال المتخبطون في علاقاتهم مع الوالد من نفس الجنس، قد يختبرون أيضاً درجة مماثلة من البعد والرفض في العلاقة مع أقرانهم من نفس الجنس، مما يضيف إلى حالة التشويش وعدم الأمان التي يشعرون بها، لأن في بعض الحالات يتوقع الأطفال أن يتلقوا من أقرانهم (الذين من نفس جنسهم) معاملة كذلك التي يتلقونها من الوالد من نفس الجنس، ربما يشعر ولد صغير أنه غير متوافق تماماً مع أقرانه الذكور، مثلما يشعر تماماً تجاه والده. وربما تشعر طفلة صغيرة أنها لا تنتمي إلى عالم البنات اللاتي يماثلونها في السن، مثلما تشعر تماماً أنها لا تنتمي إلى عالم أمها. الرغبة في الانتماء والقبول تظل صارخة تطالب بالإشباع، وإذا لم يندمج الأطفال أو المراهقون مع أقرانهم من نفس الجنس فربما ينجذبون للوقوع في علاقات غير صحية تبدو وكأنها ستسد الاحتياج للقبول.

7-كيف تتكون المثلية لدى الشخص

هناك نظريات دعي بها علماء النفس والأطباء النفسانيين أن التوجه الجنسي "و المقصود به المشاعر والرغبات الجنسية" لا يمكن أن يكون اختياراً، فكيف يمكن لإنسان اختيار نوع مشاعره الجنسية وكيف يمكنك اختيار رغباتك الجنسية، فالشخص الطبيعي يجد نفسه منجذباً جنسياً وعاطفياً تجاه الجنس الآخر دون أي إرادة منه وكذلك الشخص المثلي يجد نفسه منجذباً تجاه الأفراد من نفسه جنسه بدون إرادة منه. إن العلاقة بين الجنسية المثلية والطب النفسي هي علاقة معقدة للغاية، وقد أصبحت أكثر تعقيداً في الأعوام الأخيرة بسبب الأبعاد السياسية والاجتماعية للأمر.

إن الغالبية العظمى ممن لديهم سلوكيات مثلية لا يستشيرون الأطباء النفسيين، ولا يتقدمون بأي شكوى من أي أعراض نفسية بسبب عدم وجود رادع ديني، لذلك أصبح من الضروري تقسيم الأفراد الذين يستشيرون الأخصائيين النفسيين إلى ثلاثة مجموعات:

أ-الذين لديهم صعوبة في تقبل ميولهم ومشاعرهم المثلية الجنسية "دون أن تكون لهم ممارسات جنسية مثلية".

ب-الذين لديهم ممارسات مثلية وأيضاً مشاكل نفسية.

ج-الذين لديهم ممارسات مثلية بالإضافة إلى مشاكل مختلفة نتيجة إصابتهم بالإيدز.

إن الذين لديهم صعوبة في تقبل توجههم المثلي، وكيف يؤثر ذلك على رؤيتهم لأنفسهم، عادة ما يلجئون للعلاج بسبب:

1- شعور بالذنب غير قابل للتخلص منه، وعادة ما يرتبط ذلك بالخلفية الدينية والثقافية والاجتماعية والآراء الشخصية في طبيعة العلاقات.

2-أو لفشل العلاقات المثلية لأسباب متنوعة، حيث أن هذه العلاقات عادة ما تكون هشة، ومعبأة بالغيرة الشديدة، وبمشاعر الفقد والهجر التي عادةً تصحب فشل تلك العلاقات، وقد وُجد أن:

-الرجال المثليون هم أقل سعادة من نظرائهم الغيريين. (رأي الباحث وينبر وويليامز)

-أن المثليين أكثر إصابة بالأعراض "النفس جسمية".

-أكثر وحدة واكتئاباً وتفكيراً في الانتحار.

-أقل تقديرًا للذات من الغيريين. (رأي الباحث بيل وينبرج) وبالتالي تعرضهم أكبر للإصابة بمشاكل نفسية عن غيرهم.

8-نظرة المجتمع والقانون

في المجتمعات الغربية، مجتمعات ما قبل الثورة الصناعية، كان هناك تقبل عام للمثليين بين شتى طبقات المجتمع، وتقبل طفيف بين البرجوازيين، ريثما اتفق الأغلبية على أنه عمل غير أخلاقي. وفي بداية القرن التاسع عشر، أغلبية السلطات المتبنية للقانون النابليوني (القانون المدني الفرنسي) لم يكون هناك قانون مدين للمثلية، لكن السلطات متبنية القانون العام البريطاني فكان لها قوانين ضد المثليين وأعدموا ممارسي الجنس المثلي حتى أواخر 1800.

في المملكة المتحدة، الجنس المثلي تمت إجازته للرجال الذين أعمارهم أكثر من الـ 21 (في 1967)، وتغير ذلك إلى الـ 18 عاماً (في التسعينات) وإلى الـ 16 عاماً (سنة 2000) وهذا السن يعادل الجنس المغاير.

في الولايات المتحدة، في 26 يونيو 2003 قلبت المحكمة العليا الأميركية كل القوانين المدنية للمثليين في جميع الولايات في القرار المعروف بـ لورنس في تكساس ، وفي الصين ليس هناك قانون مخصص لأي سلوك مثلي.

9- المثلية في التاريخ العربي

ذُكر في المصادر بان قوم لوط كانوا يعيشون في منطقة البحر الميت حالياً وقد أفاض القرآن الكريم في وصفهم بأنهم قوم كانوا يمارسون المثلية بشكل واضح أي الإتيان بعضهم لبعض في الدبر (ستوضح الآيات الكريمة في الفقرة رقم 11 اللاحقة) ، كما اشتهر بعض العرب في العصر العباسي بعشق الغلمان، وقد ذكر المؤرخون شخصيات تاريخية من المثليين أبرزهم أبو نواس الشاعر، وقد ذكرت العديد من المصادر قصائد ولعه وتغزله بالصبيان، إلا أن البعض يستدل وبيالغ في الاستدلال ليقول إن أبو نواس دليل على وتقبله له، لكن الحقيقة أن أبو نواس كانت له قصص وحكايات وقصائد ماجنة وأخرى غير ماجنة في جاريات أحبهن وهام بهن حباً (الجارية جنان مثلاً) فهو في أسوأ الأحوال مزدوج الميل ويقال إن أبو نواس تحديداً تاب في آخر حياته وقال في التوبة والزهد أشعاراً كثيرة⁽³⁾.

ويمكن القول إن "جلجامش" كان مثلياً، وكانت تربطه علاقة مثلية ب"أنكيديو".! تقول الملحمة إن "جلجامش" قبل اجتماعه ب"أنكيديو"، شاهد حلماً رواه لأمه، قال: "أماه.!!، لقد رأيت في ليلة البارحة حلماً، كانت السماء حاشدةً بالشهب، واحد منها انقض علي، رمت رفعه، فثقل علي، حاولت إبعاده، فصعب علي، فبينما رفاقي يغسلون قدميه، ملت عليه كما أميل على امرأة، وضعته عند قدميك، فجعلته لي نداً." ويمكن أن نذكر هنا أيضاً "أفلاطون" الذي كان مثلياً، وتغزل بالفتيان، فهو الذي يقول: "أرمي إليك هذه التفاحة، فخذها إذا رغبت في، وأعطني مكانها عذريتك، وخذها حتى إذا ما رغبت في، وتذكر أن الجمال لا يدوم.!!".

10- المثلية كظاهرة سلوكية بالوطن العربي

المثلية تتخذ الشكل العلني بالدول الغربية، ولها مؤسسات وقوانين ومواقع إنترنت، ولها جمعيات تسعى إلى نشرها في العالم كله بما فيه الوطن العربي، فيما يسميه بعض الكتاب بـ"مافيا الشذوذ الجنسي". لكنها ما زالت تتخذ في أكثر الدول العربية "الشكل السري" ماعدا ما يتم ملاحظته مؤخراً في النمط السلوكي لبعض المثليين الذين يريدون إثبات أنفسهم والتعريف باختلافهم، فقد نشطت مؤخراً بعض الجمعيات التي تطالب بحقوق الشواذ كبشر عاديين كغيرهم، وتتلقى معظم هذه الجمعيات دعماً وتشجيعاً من الجمعيات الغربية⁽⁴⁾. و نجد أنها قد بدأت تظهر للعلن في بعض الدول العربية كلبان حيث تم تأسيس أول جمعية تعنى بأمور المثليين ورعايتهم في لبنان وهي جمعية "حلم".

11- رأي الأديان في المثلية

أ- رأي اليهودية

اليهودية تختلف في الآراء، فهناك الليبرالية، والتقليدية والحيادية في وجهات النظر، اليهود الأرثوذكس عادةً يرون العلاقات المثلية "كفاحشة"، والشهوة المثلية "سلوك غير طبيعي"، أما الماسورتيين أو المتحفظين فهم لا يقبلون في أن يكون المثليين "علنا"، في أن يكونوا "علماء في الدين"، ولكن لا يرون الشهوة المثلية "كفاحشة"، ولكن يعتبرون الجنس المثلي يساوي خرق لأي جزء من الوصاية الدينية اليهودية، أما الإصلاحيين متقبلين للمثليين والجنس المثلي.

ب- رأي المسيحية

المسيحية تقليدياً تعتبر أي نوع من الجنس المانع للتكاثر "كفاحش"⁽⁵⁾، لكن هناك وجهات قليلة حيادية وليبرالية، إلا أن المسيحيين المتقيدين بتطبيق دينهم يصرون على أن العلاقات المثلية خاطئة.

الكنيسة الرومانية الكاثوليكية تفرق بين المثلية وبين السلوك المثلي فلا تعتبر الأول خاطئة، إذ إن الإنسان لا يتحكم بهويته الجنسية ولكنها تعتبر السلوك المثلي الجنسي خاطئة فهي تراه "ضد القانون الطبيعي"، لذا تطلب من المثليين أن يمارسوا "العفة". كما تقول الكنيسة "إن الشهوات المثلية يجب أن يتخلى عنه الشخص خاصة إذا كان ذلك الشخص سيتعلم ليكون قس في الكنيسة.

ج- رأي الإسلام

في الإسلام، لا يوجد مصطلح المثلية أصلاً ولكن يوجد ما يطلق عليه "الشذوذ الجنسي أو سلوك قوم لوط" محرم بإجماع المسلمين، لورود نصوص في القرآن: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: الآية 165) وقوله عز وجل ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (الشعراء: الآية 166). ويقول تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: الآية 80) وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (الأعراف: الآية 81) وهم يجرمونهم لعل أخرى حيث يرون أن اللواط "إضرار بالصحة والخلق والمثل الاجتماعية وانتكاس للفطرة ونشر للرديلة وإفساد للرجولة وجناية على حق الأنوثة"، ويرون بها خراب الأسرة وتدميرها. المشرع المسلم ذهب إلى أبعد من ذلك حيث حرم على الرجال كشف عورتهم أمام بعضهم البعض، حيث صح عن النبي ﷺ قوله: " غط فخذك فإن فخذ الرجل من عورته"⁽⁶⁾ وعن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: " لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد، ولا المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد "⁽⁷⁾.

وقد أقر جمهور فقهاء السنة والصاحبان من الحنفية بأن اللواط يعاقب بمثل الزاني، بحيث يرحم المحصن ويجلد غيره، فالشافعية يقولون بأن "حد اللواط هو حد الزنى" بدليل ما رواه البيهقي عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: "إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان" و قال المالكية والحنابلة ب"وجوب الرجم في اللواط بغض النظر إذا ما كان الفاعل محصناً أو غير محصن، ويرجم المفعول به أيضاً إن كان بالغاً، راضياً بالفعل".

الأمام أبو حنيفة (رحمه الله) خالف فذهب إلى أن "اللوطي يعزَّر فقط ولا يحد"، من منطلق إنه لا اختلاط للأنساب بالمثلية، ولا يترتب عليه حدوث مناعات تؤدي إلى القتل، ولا يتعلق به المهر، فليس هو زنى كما يرى". إلا أن أبي محمد وأبي يوسف من الحنفية فقد أفتيا "أن الحد في اللواط كالزنا. وفي حالة تكرار اللواط يقتل حسب ما أفتى معظم الحنفية". تختلف المذاهب السنية بمن يجوز له تنفيذ الحد، الشائع بينها أن يقوم الإمام أو نائبه بفعل.

واتفق فقهاء المذهب الشيعي على أن اللواط يُعتبر من أشنع المعاصي والذنوب وأشدّها حرمةً وقُبْحاً وهو من الكبائر التي "يهتَرُ لها عرش الله"، ويستحق مرتكبها سواءً كان فاعلاً أو مفعولاً به القتل، وهو الحد الشرعي لهذه المعصية في الدنيا إذا ثبت ارتكابه لهذه المعصية بالأدلة الشرعية لدى الحاكم الشرعي فكما ورد في كتاب الكافي (من أشهر كتب الشيعة) انه قد روى أبو بكر الحَضْرَمِيُّ عَنِ الإِمَامِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ الصَّادِقِ (عليه السلام) أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " مَنْ جَامَعَ غُلَامًا جَاءَ جُنْبًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْقِيهِ مَاءُ الدُّنْيَا وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا " . ثُمَّ قَالَ : " إِنَّ الدُّكْرَ لَيُرَكَّبُ الدُّكْرُ فَيَهْتَرُ الْعَرْشُ لِذَلِكَ ، وَ إِنَّ الرَّجُلَ لَيُؤْتَى فِي حَقْبِهِ فَيَحْبِسُهُ اللَّهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ حِسَابِ الْخَلَائِقِ ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ إِلَى جَهَنَّمَ فَيُعَذَّبُ بِطَبَقَاتِهَا طَبَقَةً طَبَقَةً حَتَّى يَرُدَّ إِلَى أَسْفَلِهَا وَ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا " . وَ رُوِيَ عَنِ يُونُسَ عَنِ بَعْضِ أَصْحَابِنَا عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ : سَمِعْتُهُ يَقُولُ ﷺ : " حُرْمَةُ الدُّبْرِ أَكْبَرُ مِنْ حُرْمَةِ الْفَرْجِ إِنَّ اللَّهَ أَهْلَكَ أُمَّةً بِحُرْمَةِ الدُّبْرِ ، وَ لَمْ يُهْلِكْ أَحَدًا بِحُرْمَةِ الْفَرْجِ " .

وروي السَّكُونِيُّ عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ (عليه السلام) أَنَّهُ قَالَ : قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (عليه السلام) : " اللُّوَاطُ مَا دُونَ الدُّبْرِ ، وَ الدُّبْرُ هُوَ الْكُفْرُ " .

12- دعوة للتعايش بين الإسلام والمثلية

رغم ما ذكرنا آنفاً؛ نشط مؤخراً ما يسمى "التعايش بين الإسلام والمثلية الجنسية" الذي يسعى إلى تكريسه كتاب ومثقفون وفنانون وحتى رجال دين مسلمون، يرون أن تحريم الشذوذ الجنسي جاء نتيجة العادات والتقاليد والفتاوى الفقهية، ويرى هؤلاء أن الإسلام لا يحرم المثلية بالمطلق!، من الأمثلة على تلك الدعوة إلى التعايش الفلم الأمريكي جهاد من أجل الحب الذي حظي بدعم إعلامي غربي كبير ورعته بعض المنظمات الإسلامية الأمريكية وتلقى جوائز عديدة.

ومن جانب آخر، يرفض هذا التعايش الغالبية الساحقة من رجال الدين المسلمين ويرى بعض الكتاب أن هذا التعايش خطة غربية تقودها جمعيات المثليين في الغرب تسعى إلى نشر الشذوذ في البلاد العربية والإسلامية⁽⁸⁾.

13- المثلية في نظر ديانات أخرى

- الهندوسية تعتبر المثلية سلوك مخالف للعبادات.
- السيخية تعلم أن المثلية غير طبيعية، وهي من السيئات.
- لكونفوشية تسمح بالجنس المثلي لكن على أساس التكاثر.
- البوذية لدى البوذيين الغربيين واليابانيين والصينيين لهم آراء متقبلة للمثليين، لكن البوذيين الشرقيين يرون المثلية كفاحشة.
- الطاوية لا تتقبله لكن تعتبره سلوك
- الديانات الأميركية الأصلية تعتبر المثليين كأناس مقدسين ولديهم قوة.
- الديانة اليونانية والشنتو والملائيسية والرومانية كلهم يأخذون وجهة نظر تقبلية.

14- بعض المواقف المجتمعية من المثليين

يرى مؤيدو المثلية أنها حق وحرية شخصية مقدسة لا يجب المساس بها انطلاقاً من الرؤية الليبرالية، بينما يرى معارضوها أنها تدمر المجتمعات أخلاقياً وتدمر الهرم السكاني فهي منافية لمعظم الأديان والشرائع التراثية، ونشرها في هذا العصر يتم غالباً بطرق ترويجية فقط، أي هي ظاهرة حديثة بامتياز ويرى معارضوها أنها جزء من الانهيار الأخلاقي والديني الذي شهدته البشرية في العصر الحديث.

وفي هذا السياق دعا صحفي سوري إلى إسقاط شعار "مثلي مثلك" الذي يرفعه المثليون مطالبين بالاعتراف بحقهم بالمساواة مع الأسوياء جنسياً في سورية، وقال تحت عنوان (معذرة: ليس مثلك مثلي... عن الشذوذ الجنسي في سوريا): "يتحفا" بعض مثليي الجنس بين حين وآخر، بشعارات من قبيل الشعار الذي رفعوه في إحدى حملاتهم منذ مدة قريبة تحت عنوان: "مثلي مثلك". وما برحوا يطالبون بحق الاعتراف بهم مجتمعياً وقيماً، كي يصبحوا مقبولين في الوسط الاجتماعي من دون أن تطاولهم أي نظرة دونية من قبل الغيريين جنسياً والرافضين للمثلية، ونعترف بأن هذا حقهم (بحسب وجهة نظرهم)، وإن كنا نرفض شعارهم جملة وتفصيلاً نظراً للتضليل المتعمد الذي فيه.

15- المثليين والمثليات في المجتمعات العربية

لا تزال غالبية المجتمعات الغربية تعارض هذا الظاهرة بشكل أو بآخر، أو على الأقل لا تنظر إليها بعين الرضا، ولكن القانون يحمي هذه الفئة من الاضطهاد أو التمييز، وفي بعض الدول الغربية، أصبح تقبل ظاهرة الجنس المثلي أكثر انفتاحاً وأصبح من العادي افتتاح نوادي وحانات ومراقص خاصة بالمتليين والمتليات.

ويحتفل هؤلاء بيومهم الخاص في شهر تموز من كل سنة وكان آخر احتفال لهم في تموز من سنة 2011 حضرة استعراض ل200 جندي أمريكي لمباركة احتفالهم!!، حيث أقيم مهرجان كبير - كرنفال - سار فيه الآلاف المثليين والمتليات في شوارع المدن، شبة عراة، يحملون الزهور واللافتات بشتى الألوان خاصة الوردي، يحتفلون بحقهم في ممارسة الجنس بحسب رغبتهم، وقد سمحت بعض الحكومات بعقد الزواج بين المثليين، كما هو الحال بالنسبة للزواج التقليدي. ولكن دول وحكومات عديدة لا تزال ترفض الاعتراف بهم، وقد رفض الرئيس الأمريكي جورج بوش بكل تصميم وقناعة السماح بزواج المثليين، خاصة وان الكنائس المسيحية ترفض هذا الموضوع بكل حزم. مع أن الرئيس الأمريكي باراك اوباما أرسل إلى اثنين من المثليين عقدا غرامهما على الآخر أرسل إليهم بطاقة تهنئة بهذه المناسبة كدلالة على موقفه المنسجم والمتعاطف معهم.

ولعل اكبر مثال على هذا التردد في الدول الأجنبية بين قبول ورفض حق الإنسان في ميوله الجنسية، هو الضجة الكبرى التي أثارها فيلم "جبل بروكباك (Brokeback mountain)" والذي تدور قصته حول علاقة صداقة بين اثنين من رعاة البقر الأمريكيين (الكاويوز) تتحول إلى قصة غرام وعلاقة جنسية مثليه .

أثار موضوع الفيلم الكثير من الجدل، فهناك من شجع هذا الاتجاه داعياً إلى المزيد من الأفلام التي تطالب بحق هؤلاء في إظهار مشاعرهم وميولهم الجنسية علناً وبدون خوف، وهناك من عارض الفيلم كونه يضر ببنية المجتمع وأخلاقياته ويشبه السم الذي يتسلل ببطء وينتشر بسرعة ليصيب اكبر عدد من المشاهدين الشباب ويهز مبادئهم وإيمانهم.

وقد اجمع النقاد على أن الفيلم متقن من ناحية التصوير والإخراج والتمثيل، وحاز على أربعة جوائز "غولدن غلوب"، وتم ترشيحه لمجموعة من جوائز الأوسكار، ولكن وبالرغم من كل التوقعات فشل الفيلم فشلاً ذريعاً في حفل توزيع جوائز الأوسكار الأخير، فهل هذه رسالة واضحة ترفض هذه النوعية من الأفلام؟؟

ودعا المنتج السينمائي الأمريكي المحافظ، مايكل كلاس، لتخصيص جائزة للأفلام السينمائية المؤيدة لما سماه "القيم الأخلاقية الأمريكية" بعد أن أثارت استيائه الجوائز التي حصدها فيلم "جبل بروكباك"، ويتساءل كلاس: هل يعتقد احد منكم أن هنالك أي رسالة إيجابية في فيلم كهذا، تساهم ميول بطله الجنسية في تدمير عائلة؟

تعتبر هذه الظاهرة في المجتمعات العربية معروفة منذ القدم، ويؤمن البعض أن قوم لوط مارسوا اللواط لهذا حق عليهم العذاب، وقد تغزل بعض الشعراء والأقدمون بالغلمان في أشعارهم علناً، ومنهم الشاعر المعروف بابي نواس والحلمي والجزار والنظام، ولكن القليل جداً من المثليين العرب يعترفون بميولهم الجنسية خوفاً على حياتهم أو منعاً لتعرضهم للأذى خاصة لتحريم هذا الشذوذ (الواط للرجال، و السحاق للنساء) في الديانات السماوية، كالإسلام والمسيحية.

وقد نشرت وسائل الإعلام الغربية بتوسع عن مؤتمرات ومسيرات ينظمها مجموعات من المثليين الجنسيين العرب والمسلمين الذين يحاولون تنظيم حركة مثلية إسلامية عالمية، لمساعدة إخوانهم وأخواتهم وتخفيف القيود عنهم ومنع تعذيبهم أو سجنهم أو حتى قتلهم في بلادهم.

ولعل أول مرة تناولت فيها وسائل الإعلام العربية هذا الموضوع بتوسع كانت عام 2001، حين بدأت في مصر محاكمة أكثر من 50 رجل من المثليين في قضية أثارت انتقادات واسعة النطاق من قبل جمعيات حقوق الإنسان الدولية، وكان الرجال اعتقلوا بعد أن شنت الشرطة غارة على مرقص ليلي عائم يسمى "كوين بوت" بالقاهرة، وهو مرقص يرتاده المثليون، وقد اكتظت الصحف بالعناوين المثيرة التي هاجمتهم بقسوة، ووصفتهم بـ "عبد الشيطان"، وتمت محاكمتهم بتهمة الفجور والفسوق، ونشرت صورهم جميعاً وأسماءهم الكاملة وأماكن عملهم لإذلالهم هم وعائلاتهم⁽⁹⁾.

وتابعت الشرطة المصرية بعدها تعقب المثليين ومراقبة الإعلانات التي ينشرونها في الصحف أو على الانترنت لإيجاد "رفيق"، وتم القبض على الكثيرين ومنهم احد الشباب اللبنانيين 28 عاماً، والذي تم اعتقاله وتعذيبه في مصر، وكذلك الشاب المصري الذي تم سجنه لمدة ثلاثة سنوات تليها ثلاثة سنوات مراقبة من قبل الشرطة.

وقام شاب مصري آخر بإقامة مركز مصري جديد لحقوق الإنسان اسماء "المبادرة المصرية للحقوق الشخصية" وتبنى المركز قضية محاربة معارضي المثليين في مصر، وقد اعتبر كثير من المصريين أن ولادة هذا المركز تهدد بتخريب المجتمع المصري سياسياً واجتماعياً ودينياً، وأن المركز هو مؤامرة مشبوهة ترعاها واشنطن هدفها الدعوة إلى انحلال القيم والأخلاق في مصر، وذلك عن طريق تقليد الرؤية والثقافة الأمريكية التي تعتمد على الحرية الفردية في كل شيء.

واستطاع احد الشباب المصريين رغم كل التهديدات من إن يلتقط الخيط ليدخل بالقضية إلى حلبة السباق في سوق منظمات حقوق الإنسان والمجتمع المدني، وأعيدت بعد ذلك محاكمة تنظيم المثليين في مصر بسبب الضغوط المحلية والعالمية على القضاء المصري، ولكن محكمة الاستئناف أكدت القرارات السابقة بإدانة جميع المتهمين بتهمة الفجور والفسوق، وقد تابع هذا الشاب وزملائه نشاطهم محاولين إقناع الدولة والمجتمع أن الإباحية الجنسية هي من الحقوق الشخصية التي يجب الدفاع عنها حتى لو كانت شذوذاً جنسياً يرفضه الشعب المصري، وأن من

حق كل شخص اختيار دينه أو معتقده دون تدخل من الدولة أو المجتمع، ما دامت حرية الفرد لا تضر بالآخرين.

والمؤكد إن ظاهرة المثليين العرب منتشرة في دول عديدة، ففي سنة 2011 تم في الإمارات اعتقال 26 رجلاً بتهمة الفسوق وممارسة الجنس الشاذ، وقررت المحكمة سجن كلاً منهم لمدة 5 سنوات، وفي السنة ذاتها تم اعتقال 24 رجلاً شاركوا في عرس زميلين لهم وسمت الشرطة هذه الحملة بـ "حملة زواج المثليين". أما في الكويت فقد تقرر إقامة مراكز دينية خاصة لمساعدة هؤلاء الأشخاص على العودة للفطرة الطبيعية على أساس أن هذا الميل الجنسي الشاذ هو مجرد اختيار خاطئ يمكن معالجته والتحكم به .

وفي لبنان كانت آخر الاعتقالات سنة 2011 أيضاً ، حيث تم اعتقال 11 رجل وامرأة من المثليين في نادٍ ليلي، وكانت تهمة بئسهم بند 534 من القانون اللبناني وهي "مجامعة شخص من نفس الجنس". أما في المغرب فقد تم طرح ملف تحت اسم "الشواذ جنسياً" مؤخراً، وكان من الواضح محاربة الرأي العام لهذه الظاهرة ورفضها كلياً.

وباء الإيدز بدأ ينتشر في الشرق الأوسط و شمال أفريقيا في الأعوام الأخيرة من القرن العشرين حسب أول دراسة من نوعها في المنطقة، وان ممارسة الجنس بين الرجال هو المسؤول عن انتشار هذه الأوبئة في دول مثل مصر و تونس و باكستان و السودان، هذا و تهدد الممارسات الجنسية غير الصحية و المحفوفة بالمخاطرة بتوسيع دائرة الوباء في المنطقة.

"ممارسة الجنس بين سائقي الشاحنات في المغرب و باكستان، وبين السجناء في لبنان و بين أطفال الشوارع في مصر" قد يكون مسؤولاً عن أوبئة الإيدز التي ظهرت في الشرق الأوسط و شمال أفريقيا حسب دراسة أجريت في قطر و التي ضمت 23 دولة من المنطقة.

هذه الدراسة الأولى من نوعها تشير إلى أن الشرق الأوسط و شمال أفريقيا لم يعودوا مناطق محصنة ضد وباء الإيدز (نقص المناعة المكتسبة)، ووفقاً للدراسة فان هذه الأوبئة بدأت بالانتشار في بدايات عام 2003 بين الرجال الذين يمارسون الجنس مع الرجال (و هو مصطلح يشمل مثليي الجنس و الرجال المخنثين).

معدلات الإصابة بالإيدز تجاوزت 5% ضمن فئات معينة من السكان في دول مثل مصر و تونس و السودان، بينما في باكستان النسبة وصلت إلى 28% بين الرجال الذين يمارسون الجنس مع الرجال، الباحثين أحسوا بالقلق من هذه البيانات لكنهم لم يفاجئوا، لأن هذه البيانات جمعت في السابق لكن لم يتم الإعلان عنها من ذي قبل.

انتشار فيروس الإيدز في الشرق الأوسط و شمال أفريقيا كان محدوداً للغاية في السابق، و رغم أنه فقط 2-3% من الرجال في المنطقة يمارسون الجنس مع الرجال، إلا أن سلوكهم الجنسي و ممارساتهم الجنسية تساهم في نشر الأوبئة في المنطقة، فالعديد منهم يمتلك عدة

شركاء يمارس الجنس معهم وفي بعض الأحيان يمتلكون شركاء إناث، بينما استخدام الواقي الذكري المستمر يقلل عن 25% منهم من الإصابة بالمرض.

الباحثين يشددون حالياً على ضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة من قبل الدول المعرضة للخطر و بأسرع وقت ممكن، من أجل إيقاف توسع دائرة الوباء بين الرجال المعنيين و منعها من الانتشار إلى فئات أخرى مثل النساء، و ذلك عن طريق جعل اختبارات الإيدز سهلة المنال، توسيع نظام مراقبة الإيدز و توفير العلاجات اللازمة.

الرجال الذين يمارسون الجنس مع الرجال ما زالوا فئة مخبئة و مخفية في المنطقة، و هذا السلوك ما زال وصمة عار، لكن بعض البلدان تمكنوا من التعامل مع هذه المشكلة بطريقة مبتكرة، و في الوقت نفسه تجنب الحساسيات الاجتماعية و الثقافية و السياسية.

في دول مثل لبنان و المغرب هنالك منظمات غير حكومية التي تسعد هذه الفئة المخبئة من دون تدخل الحكومة، هنالك منظمات غير حكومية فعالة للغاية ، و هذه البرامج يجب أن تتوسع في باقي دول المنطقة والتي بدأت منذ سنة 2008، أن الإيدز بين الرجال الذين يمارسون الجنس الشرجي كان يشكل أكثر من ربع الحالات المبلغ عنها.

16- رأي الكتاب و الأطباء ورجال الدين في العالم العربي

تطرق الكثير من الكتاب والأطباء ورجال الدين علناً إلى هذه الظاهرة، ومنهم الدكتور أبو بكر من المغرب أخصائي الأمراض النفسية والجنسية، والذي حاول تحليل نفسية الشواذ معلناً أنه ليس هناك أي عامل وراثي أو بيولوجي يؤدي للرجبات الجنسية المثلية، وإنما حسب رأيه تعود هذه الظاهرة إلى الدور المهم للتربية الجنسية الصحيحة في التوعية والتعريف والوقاية .

ويؤكد الدكتور أبو بكر أن النسبة الأكبر من المثليين في المغرب (65-70%) يعانون من الخوف من الجنس الآخر، وهذا الخوف يعود لعدة أسباب حدثت في الطفولة أو المراهقة وأدت إلى صدمات جعلتهم يميلون إلى نفس الجنس.

أما الدكتور عبد العظيم أحد كبار العلماء في مصر والأستاذ بجامعة الأزهر فقد قال أن الادعاء بأن الشذوذ هو حالة وراثية لا يمكن التحكم فيها وبالتالي فإن الله لا يعاقب صاحبها، هو ادعاء خاطئ. وأضاف إن كثيراً من الفقهاء دعا إلى قتل الرجال الذين يمارسون اللواط، أما بالنسبة للنساء اللاتي يمارسن السحاق فقال انه يتوجب معاقبتهم بما يناسب هذه " الجريمة".

وأكد الداعية السعودي الشهير الشيخ سلمان العودة إن فعل الفاحشة المثلية(الشذوذ الجنسي) هو جريمة كبيرة وليس كفرة، رغم أن الفعل نفسه كفر، وقال أن أكثر العلماء يقولون بمعاقبة مرتكبها بالقتل أو الجلد.

وبالرغم من كل هذا التشديد والتأكيد من قبل الكثيرين من العلماء ورجال الدين، على كون العلاقة الجنسية المثلية مرفوضة ومكروهة، إلا إن وسائل الإعلام العربية بدأت مؤخراً تتطرق بحرية أوسع إلى موضوع المثليين العرب فقد سمعنا في السنتين الأخيرتين عن حوادث زواج رجل من رجل في فنادق القاهرة الشهيرة، ومنها حالة زواج رجلين كويتيين ورجلين مصريين، وفي كلتا الحادتين قامت فرقة موسيقية بزف العروسين في الحفل بينما جلس العروسان "الرجلان" على كرسيين متجاورين، وتحيط بهما الزهور من كل اتجاه، بينما يراقب الجميع نظراتهما وابتسامتهما ومغازلتها لبعضيهما البعض، بينما تشابكت أيديهما بكل عشق ومحبة.

17- بعض الطرق لمعالجة ظاهرة المثليين

كثير من الأمهات لا تعرف عن أسرار أولادها الذكور والإناث المثليين شيئاً لأنهم ظاهرياً لا يوجد شيء غير طبيعي في علاقتهم بأصدقائهم، فالشباب يخرج مع أقرانه من الشباب وكذلك الفتاة تخرج مع صديقاتها، ولكن بعض الملامح البسيطة تظهر وتدل علي ميولهم المثلية خاصة لدى الشباب مثل ميلهم للتزين وارتداء الألوان الفاقعة التي ترتديها البنات وذلك نتيجة زيادة هرمون الاستروجين الأنثوي لديهم.

أما الفتاة فتكون ميولها ذكورية نتيجة زيادة هرمون التسترون الذكري لديها، وعن هذه المظاهر قال الدكتور عصام عبد الجواد أستاذ الصحة النفسية بكلية التربية النوعية جامعة القاهرة إنه لا يوجد في العالم أنثى كاملة وذكر كامل.

وهذا يعد سبباً بيولوجياً مباشراً لظاهرة المثلية ولكنه ليس السبب الوحيد فهناك سبب آخر يتمثل في تعرض المثليين والمثليات من صغرهم إلى اعتداء جنسي من نفس جنسهم، وهذا الاعتداء تكرر معهم فحقق لهم متعة ثم تحول إلى عادة لا يمكن الاستغناء عنها، كذلك تأخر سن الزواج عامل مساعد في وجود هذه الظاهرة في مجتمعاتنا فياس الشباب من التنفيس عن رغباتهم الجنسية يدفعهم إلى البحث عن طرق مختلفة في إشباعها من بينها المثلية.

لذلك يجب على الأم عندما تكتشف أن ابنها أو ابنتها تحاول أن تلمس أصدقائها من نفس جنسها مع رغبتها في الانفراد بهم باستمرار أن تزيد من مراقبتها لهم وتبدأ على الفور فتح حوار مع أبنائها في أي شيء حتى تذيب جبل الثلج الذي بنته بينهما الحياة المادية والسعي وراء لقمة العيش.

وأشار الدكتور عصام إلى أن مرحلة العلاج النفسي للطفل تسفر عن نتيجة جيدة لكن بالنسبة للمراهق يصبح الأمر أكثر صعوبة، لأن المراهق المثلي راض عن نفسه ويرى أن المجتمع على خطأ وهو الوحيد الذي على حق، لهذا فإن المثلية لا يمكن علاجها إلا برغبة من المثلي أو المثلية أما إذا لم تتواجد هذه الرغبة فلا سبيل للشفاء.

وهناك نوع من العلاج يسمى بالعلاج السلوكي العقابي وفيه يتم عرض شريط فيديو أو صور مثيرة وفور استجابته لها يتم تعريضه إلى صدمات كهربائية.

وأكد الدكتور علي أبو ليلة أستاذ العلوم الاجتماعية أن ظاهرة المثلية معدية اجتماعياً فبدافع التجربة الجديدة قد يدخل شخص سليم في علاقة مثلية مع صديق له أو تدخل الفتاة في علاقة مثلية مع فتاة مثلها، ويساعد على حدوث ذلك الفراغ الأخلاقي المنتشر بين شريحة الشباب نتيجة ضعف الرقابة عليهم وجلوسهم في خلوة مع بعضهم لمدة طويلة بحجة المذاكرة على سبيل المثال، وقد يكون عدم وجود نتيجة ملموسة للعلاقة المثلية، كأنجاب طفل مثلما يحدث في العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة عاملاً مغرباً للدخول في تلك العلاقة.

الحل في رأي الدكتور علي هو العودة إلى حضن الدين لأن المثليين غالباً ما يكونون من الطبقة الدنيا أو العليا في المجتمع وهاتان الطبقتان يقل فيهما الوازع الديني، لذلك يجب أن تقوم الأسر المسلمة والمسيحية بزيادة الوعي الديني عند أبنائهم، وتوعية الأبناء بالآثار السلبية التي قد تنتج من هذه الممارسات الضارة وهي عدم تمكن الشباب أو الفتاة ذوي العلاقات المثلية مستقبلاً من إقامة أسرة طبيعية، ونصح الطبيب الأسر التي تشك في علاقات أبنائها أن تصطحبهم إلى أطباء نفسيين.

18- عدد المثليين في العالم

مع هذا الدعم المفترض، فإن مافيا الشذوذ استخدمت في دعم نفوذها والترويج لمصالحها وغسل أدمغة الناس أكذوبتين أساسيتين ظلت تكررهما على أنهما حقيقتان لا جدال فيهما حتى تحول التشكيك فيها إلى جريمة (كما التشكيك بأعداد ضحايا الهولوكوست مثلاً).

الأكذوبة الأولى تتعلق بنسبة هؤلاء في المجتمع، فقد كان لا بد لمافيا الشذوذ أن تضخم عدد المبطلين بالشذوذ الجنسي لكي تجعل منهم "أقلية" لها كيانها ومشاكلها وقضاياها ومظالمها، بالضبط حاولت أن تستفيد من مبدأ التسامح (tolerance) الذي استثمر مع اليهود والسود، ولذلك صارت تقول وتكرر إنهم يشكلون 10% من أي مجتمع، وفي هذا كذبة مزدوجة، ذلك أنها اعتمدت على تضخيم متعمد لنتائج دراسة كينزي في مطلع الخمسينات، والتي أثبتت لاحقاً أنها كانت متحيزة تماماً ومضخمة أصلاً في استحصال النتائج فضلاً عن أن نماذج الإحصائية تم اختيارها مسبقاً بحيث تصل لنتائج مزيفة (اختار السجناء مثلاً ليمثلوا بنتائجهم المجتمع رغم أنه من المعروف تماماً انتشار الظواهر الشاذة في السجن) وانتهى كينزي إلى نتيجة هي أن 4% من الذكور هم شاذون حصراً، وأن عشرة بالمائة منهم يمرون بمرحلة في أعمارهم يكون لديهم فيه نشاط شاذ جنسياً، لكن مافيا الشذوذ الإعلامية تحذف الـ 4% تماماً وترتكز على الـ 10% باعتبارها أقلية مظلومة لها ثقلها السكاني والاجتماعي ولا ينبغي تجاهلها،

الجزء الثاني من الأكذوبة المزدوجة يتعلق بتعميم هذه العشرة بالمائة-على فرض صحتها- على كل المجتمعات وهكذا صار يقال ويكرر "إنهم يمثلون عشرة بالمائة من أي مجتمع!".
والحقيقة التي كشفتها الكثير من الدراسات العلمية أن نسبة الشذوذ الجنسي لا تزيد عن 1% في أكثر الأرقام ارتفاعا، وأنها غالبا لا تزيد عن 1% إلا بقليل و أن نسبة السحاقيات أقل من ذلك بكثير، لكن هذه الأرقام تضيع في بوق مافيا الشذوذ التي تتخذ من شعار مستشار هتلر "غوبلز" أسلوبا لها: "اكذب و اكذب حتى يصدقك الجميع!" ثم بعد ذلك تتهم من لا يصدقها أو يجروء على قول شيء مختلف بأنه "نازي"!!

ولعل من أطرف ما عرض مؤخرا في الإعلام الأمريكي (دون أن يهتم أحد بمدلولاته العميقة) ما كشفته الإعلامية "تايرا بانكس" عن أن معظم ممثلي أفلام الجنس الشاذ هم من "أسوياء الميول" الذين عملوا أصلا في أفلام جنس عادية ثم انتقلوا إلى أفلام الشذوذ التي يدفع لهم فيها ستة أضعاف الأجر! تايرا تعاملت على طريقة الإعلام الأمريكي مع هذه الحقيقة فاستضافت ممثل يقول إنه "سوي" لكنه يمثل الشذوذ (الظاهرة صار اسمها gay for pay "شاذ من أجل النقود")، ولأن هذا الممثل متزوج ولديه أولاد فقد كانت الأسئلة من النوع الذي يثير الجمهور ويزيد فضوله، لكن الأمر المهم الذي تم تجاهله هنا هو أن الـ 10% المزعومة (بكل ما معروف عنها من فلتان وإباحية) عجزت عن توفير ممثلين شاذين فعلا وصارت تدفع أضعاف المبلغ لتستوردتهم من الخانة الأخرى، (الطبيعية)، ألا يعني ذلك أن نسبتهم الحقيقية أقل من ذلك بكثير؟
الأكذوبة الثانية التي تزيد خطورة عن الأولى هي أن المبتلين بالشذوذ ولدوا هكذا، أي إن حالتهم "طبيعية" وناجئة عن "جينات" حملت لهم شذوذهم!

والحقيقة أن هناك بعض الدراسات العلمية التي تذهب هذا المنحى في تفسير أصول ظاهرة الشذوذ ولكن الأمر غير محسوم لأن هناك دراسات أخرى ترجح أمر البيئة والظروف الاجتماعية في التنشئة وأخرى ترجح العوامل الكيميائية وأخرى ترجح التفاعل بين كل ذلك.

المبحث الثاني - اللواط

يبدو أن هذا الانحراف الخُلقي بدأ لأول مرة في قوم لوط ولم يكن الناس يفعلون ذلك من قبل ،
و يدل على ذلك قول الله تعالى :

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (الأعراف: الآية 80-81) و تدل بعض الأحاديث على أن المعلم الأول لهذا الانحراف الخطير هو إبليس (لعنة الله عليه) فقد روى أبو بصير " إن إبليس أتاهم في صورة حسنة فيه تأنيث ، عليه ثياب حسنة ،فجاء إلى شباب منهم

فأمرهم أن يفعلوا فيه ، فلو طلب إليهم أن يقع بهم لأبوا عليه ، ولكن طلب إليهم أن يفعلوا به ، فلما وقعوا به أعجبهم ذلك ، ثم ذهب عنهم وتركهم ، فأحال بعضهم على بعض".
ومسألة اللواط من أخطر المشاكل الأخلاقية التي تهدد كرامة الإنسان وتوجب إذلاله، واللواط أشد قبحا وحرمة من الزنا لأن الله تعالى أهلك أمة بحرمة الدبر ولم يهلك أحداً بحرمة الفرج كما في الخبر. أن هذه المشكلة تكاد تكون موجودة في كل عصر وفي كل جيل على مستوى أفراد وبشكل خفي أيضاً، أما على مستوى أمة وبشكل علني فهذا ما اختصت به أمة لوط.

أولاً- تعريف اللواط

اللواط شرعاً هو: تغييب الحشفة في دبر الذكر، ذكره صاحب الفواكه الدواني وغيره. والحشفة هي الآلة الحاسة في الذكر وبها الالتذاذ، وتكون في مقدمته. ومن تعريف اللواط يتبين لنا أن الملامسة للدبر من الخارج، أو ملامسة ما حوله، أو إيلاج جزء من الحشفة، أو إيلاجها في أنثى لا يعد لواطاً شرعاً، وهذا لا يعني أنه جائز، بل هو من المحرمات الداخلة في قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلْمِئِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (المؤمنون: الآية 7). وفاعل اللواط بالمعنى الشرعي الذي ذكرناه يستحق القتل، أما ما سوى ذلك مما لا يعد لواطاً.

واللواط في اللغة هو اللصوق، و لاط الرجل لوطاً و لاوط، أي عمل قوم لوط، أي وطء الدبر، و سمي لوطاً لالتصاق اللواطي بالملوط به، أو لأنه فعل قوم لوط. ويعرف أيضاً:

أنه إتيان الذكور في الدبر، وعرف . أيضاً . بأنه :اكتفاء الرجال بالرجال، وعرف بأنه: وطء الذكر الذكر.

ثانياً- الإدمان على الممارسة وكيفيتها

من الناحية الطبية إن من يمارس هذه الفاحشة لا يستطيع البعد عنها وذلك لعدة أسباب⁽¹⁰⁾ :
منها أن المستقيم يوجد به مادة لزجة تتغذى على البكتريا من البراز (أكرم الله قارئ السطور) وعند ممارسة اللواط فان المنى يقضي على هذه المادة ويحل محلها ويصبح بكتريا وبعد مرور يوم أو يومين تجف المنطقة من السائل اللزج فيعاود الرجل أو المرأة بالرغبة في فعل هذه الفاحشة مرة أخرى لذلك نهى الله عنها سبحانه وتعالى لحكمة، وهذا هو سبب الإدمان على هذه العادة.

ثالثاً- من هم الضحايا لممارسة اللواط؟

إن أهم الضحايا لممارسة عمل قوم لوط هم الأطفال الأبرياء الذين يذهبون صيد سهل بيد ممارسي هذا العمل، وهناك عدة أنواع للضحايا :

1- الأقارب! ولا بد أن يسأل سائل وهل يملك هذا الشاذ القوة أن يفعل ذلك مع أقاربه؟ الجواب نعم؛ فالإنسان الشاذ إنسان فقد كل معنى للأخلاق حيث انه ينتظر كل فرصة تسمح له بذلك، فيمارس اللواط مع أولاد عمه أو أخواله أو أي قريب يخلو به.

2- طلاب المدارس: ويمكن أن نقسمهم إلى قسمين حسب الإيقاع بهم وهم:

أ- الطلاب الذين يقعون ضحايا لمعلميهم (ولا أقصد الكل في ذلك) فذلك لا يشكل نسبة 7% حيث انه يوجد بعض المعلمين الذين يستغلون مراكزهم من اجل إشباع رغباتهم الجنسية، فيهددون الطالب بالرسوب في صفه، أو بإعطاء العلامات العالية في المادة إذا فعل ما يريد، مما يدفع هذا الطفل إلى قبول ذلك لأنه لا يرى فيه ما يؤذيه، ولا يعرف ماذا يفعل لغياب الوعي والإرشاد الأبوي.

ب- الطلاب الذين يقعون ضحايا للطلاب الأكبر سناً منهم ونرى ذلك بشكل كبير ولا سيما في المدارس التي تحوي صفوفاً تبدأ من الأول إلى نهاية المرحلة الثانوية فالطالب الذي في الصف الثاني الثانوي يكون في أوج سن المراهقة فيبدأ يبحث عن الضحايا من الطلاب الأصغر سناً وذلك بمغريات كثيرة منها المال-الألعاب-أشرطة الفيديو-الخ.

3- أولاد الجيران: وهي منتشرة في اغلب البلاد حيث تنشأ علاقات بين أولاد الجيران بغض النظر عن فارق السن بينهم، فإذا ما كان احد هؤلاء شاذاً بدأ يحاول أن يوقع بضحيته، والأمر سوف يكون في غاية السهولة لان الجار لا يتوقع أن يصدر ذلك من أولاد احد جيرانه لأنه يعتبره أخ لابنه، والشاذ لديه الفرصة لان يدعو الطفل إلى بيته في أي وقت يسمح بذلك، وتحت غياب الوعي والنصح يحدث الخطأ.

4- الأصدقاء: وهؤلاء لا يمكن أن نسميهم الضحايا، لأنهم هم من أوقعوا أنفسهم في هذا العمل الخبيث، والشيطان (لعنة الله عليه) استطاع أن يغويهم، والسبب الرئيسي الذي يؤدي إلى ذلك هو أنهم كانوا يتابعون الأفلام الإباحية ويمارسون العادة السرية أمام بعضهم، فينشأ لديهم نوع من أنواع الشواذ.

رابعاً- أسباب اللواط

1- غياب التربية القائمة على الفهم الصحيح المرين للإسلام، والبعيد عن مظاهر الكبت، والقهر، والاضطهاد، والإحباط⁽¹¹⁾.

- 2- عدم توجيه الأولاد والبنات إلى وظيفة الجنس في الحياة، والأساليب المشروعة لتلبية الغريزة الجنسية، والحكمة في تحريم العلاقات الجنسية بغير الطرق المشروعة، وحكم الشرع في عمليات الشذوذ، وتعارضها مع الحياة الطبيعية للإنسان .
- 3- عدم الاهتمام بتلبية حاجات الجنسين ومطالبهم، وحرمانهم من أن يشبعوا ما في نفوسهم من حاجة إلى شراء ما يحتاجونه مما يناسبهم، وأن يكون لهم كيان اقتصادي يحسّون به، لأن هذا الحرمان كثيراً ما يؤدي إلى الانحراف.
- 4- عدم مراقبة الآباء لأبنائهم في تصرفاتهم وسلوكهم، إضافة إلى الإهمال وعدم المبالاة، والتطرف في إطلاق الحرية لهم، أو التعتن في كبتهم ومنعهم من كل شيء، فلو كان الآباء يوازنون بين الإفراط والتفريط في الحريات، ويصحبونهم في بعض مناشطهم ، ويحسنون توجيههم في اختيار أصدقائهم، ويجعلون منهم أصدقاء مسئولين ومحترمين، ولرأيهم مكانة وتقديراً؛ لو حصل ذلك كله لما كان للانحراف سبيل إليهم .
- 5- عدم تبيان ما يترتب على الفاحشة في الدنيا من أمراض جسمية، ونفسية، وصحية، وردود أفعال على ممارسة الحياة الطبيعية؛ إلى جانب ما في الحياة الأخرى من عقاب عند الله، وغضب منه، ثم الحكم الشرعي المترتب على ممارسة الشذوذ الجنسي، ومدى استبشاع الشرع والمجتمع له.
- 6- حرمان الولد من الحنان مما يجعله فريسة سهلة لكل من يشعره بشيء من الاهتمام.
- 7- مجالسة المرد من الشباب، والمقصود بهم صغار السن، وأصحاب الجمال ومن لا لحية له.
- 8- ترك الأولاد يجالسون من هم أكبر منهم سناً فيقعوا فريسة لهم.
- 9- عدم تعويد الصغار نقل ما يحدث لهم في الخارج إلى آبائهم خوفاً منهم.
- 10- إرسال الأولاد إلى أقاربهم في بلاد بعيدة حيث يقل الرقيب ويحدث ما يحدث.
- 11- عدم متابعة الأولاد في المدارس ومعرفة من يصاحبون وما يحدث معهم فيها، وتقبيدهم بأوقات دخول وخروج المدرسة.
- 12- تركهم مع ما يثير الغرائز وينشر الرذائل، من تمثيلات وصحف ومجلات، وغناء.
- 13- بالإضافة إلى أن هناك بعض الأسباب التي تؤدي إلى حدوث الشذوذ عند الطفل تلقائياً مثل الحقنة الشرجية وإدخال التحاميل الشرجية وهذا كله يؤدي إلى إثارة الطفل جنسياً، فيبدأ بالبحث عن كل شيء ليدخله في الفتحة الشرجية حتى قد يصل إلى ممارسة اللواط مع غيره.

خامساً- الأضرار الناتجة عن ممارسة اللواط

أ- الأضرار الفردية: وهي الإصابة بالعديد من الأمراض وهي:

مرض الإيدز مرض فقد المناعة المكتسبة الذي يؤدي عادة إلى الموت - التهاب الكبد الفيروسي - مرض الزهري - مرض السيلان - مرض الهريس - التهابات الشرج الجرثومية - مرض التيفوئيد - مرض الاميبيا - الديدان المعوية - ثواليل الشرج - مرض الجرب - مرض قمل العانة - فيروس السايكوميجالك الذي قد يؤدي إلى سرطان الشرج - المرض الحبيبي للمفاوي التناسلي.

ب- الأضرار الاجتماعية والنفسية

1-مفسدة لنفسية الشباب إذ يزرع السلبية فيهم ولا يشبع عواطفهم، فهم لا يستطيعون ممارسته غالباً إلا بعد تعاطي الخمر أو المخدرات لخلق جو وهمي من المتعة بداخلهم؛ وهذا يعني أنه يجرهم إلى المزيد من الدمار والعدائية.

2-ويكفي أن يشعر الواحد منهم أنه قد سلبت عنه رجولته التي يفخر بها ، والتي هي تاج فخر الرجل .

3-مفسدة للنساء اللواتي ينصرف أزواجهن عنهن إلى الرجال، ويقصرون فيما يجب عليهم من إحصانهم، فينجرفن إلى طريق الانحراف أو الشذوذ بين بعضهن، أو يرتمين في أحضان رجال غرباء عنهن، وبذلك تشيع الفاحشة في المجتمع ، وينقلب المجتمع إلى وكر كبير تصيح فيه الشياطين و تصرخ .

4-تقليل النسل؛ فمن وقع في يرثن الشذوذ فرغب عن الزواج، وتنصل من تحمّل مسؤوليته، فقد ساهم في تهديم مجتمعه، والحدّ من نسبة التوالد فيه، ويكفيه أنه قطع نسبه وأوقف نسله.

سادسا- حكم الشرع الإسلامي في اللواط

آيات قرآنية كثيرة أكدت وبشكل قاطع لا لبس فيه تحريم هذا القبح الذي يعد من أنكى القبائح في نظر الإسلام ،وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (النمل: الآية 54).

وقد وصف القرآن الكريم هؤلاء الشردمة بالمسرفين والمجرمين، وأنهم أهل نجاسة غير متطهرين معتدين وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل: الآية 56). ووصفه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ (الأنبياء : الآية 74).

ولعن المصطفى ﷺ من فعل هذه الفعلة المقيتة ثلاث لعنات متواليات حيث قال : (وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ) واخرج الطبراني من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال فيه : (وإذا كثر اللوطية رفع الله يده عن الخلق فلا يبالي في أي واد هلكوا) . أما عن عقوبة هذه الجريمة الدنيئة فقد أخرج

أبو داود والترمذي وابن ماجة والبيهقي وغيرهم عنه ﷺ قوله : (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به) في رواية ابن ماجة عن أبو هريرة عن النبي ﷺ في الذي يعمل عمل قوم لوط قال : (زجئوا الأعلى والأسفل أزجموهما جميعاً).

ومن الناس من يتساهل في عمل تلك الجريمة المنكرة مع زوجته ، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : (هي اللوطية الصغرى) ، يعني الرجل يأتي زوجته في دبرها، وعن خزيمة بن ثابت قال قال رسول الله ﷺ : (إن الله لا يستحي من الحق ثلاث مرات لا تأتوا النساء في أدبارهن) وأخرج الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ : (لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر)، وعن أبو هريرة عن النبي ﷺ قال من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ .

سابعا- سبل التخلص من هذه الظاهرة

لغرض التخلص من مرض اللواط يستمر العلاج لمدة خمس أيام وهي على النحو الآتي :
في اليوم الأول : الاغتسال بماء الوضوء غسلًا شرعياً بعد صلاة الفجر وقبل بزوغ الشمس على نية الطهارة من الخبث والخبائث ثم قراءة مجموعة المعوذات ، وبعد صلاة الظهر قراءة سورة " يوسف " ، وبعد صلاة العصر قراءة مجموعة التيسيح ، وبعد صلاة المغرب قراءة دعاء التحصين وهو موجود على صفحة روحانيات ، وبعد صلاة العشاء قراءة سورة " النجم " ثم قراءة مجموعة الاستغفار .

وفي اليوم الثاني : وبعد صلاة الفجر قراءة سورة " هود " ، وفي وقت الضحى قراءة مجموعة التيسيح ، وبعد صلاة الظهر قراءة مجموعة المعوذات ، وبعد صلاة العصر قراءة سورة " يس " ، وبعد صلاة المغرب قراءة مجموعة المعوذات ، وبعد صلاة العشاء قراءة مجموعة الاستغفار ثم قراءة دعاء التحصين .

وفي اليوم الثالث : الاغتسال بماء الوضوء بعد صلاة الفجر وقبل بزوغ الشمس ثم قراءة سورة " الكهف " ، وفي وقت الضحى قراءة مجموعة التيسيح ، وبعد صلاة الظهر قراءة سورة " الكهف " ، وبعد صلاة العصر قراءة مجموعة المعوذات ، وبعد صلاة المغرب قراءة مجموعة التيسيح ، وبعد صلاة العشاء قراءة سورة " الواقعة " ثم قراءة دعاء التحصين .

وفي اليوم الرابع : وبعد صلاة الفجر قراءة سورة " البقرة " ، وبعد صلات الظهر قراءة سورة " يس " ، وبعد صلاة العصر قراءة مجموعة المعوذات ، وبعد صلاة المغرب قراءة سورة " هود " ، وبعد صلاة العشاء قراءة سورة " الدخان " ثم قراءة مجموعة الاستغفار .

وفي اليوم الخامس : الاغتسال بماء الوضوء غسلًا شرعياً بعد صلاة الفجر وقبل بزوغ الشمس على نية الطهارة من الخبث والخبائث ثم قراءة سورة " الملك " ، وبعد صلاة الظهر قراءة سورة "

الكهف " وبعد صلاة العصر قراءة مجموعة المعوذات ، وبعد صلاة المغرب قراءة دعاء التحصين ، وبعد صلاة العشاء قراءة سورة " الحديد " ثم قراءة مجموعة الاستغفار .

ثامنا-حماية الزوجين من الشذوذ الجنسي

حرص الإسلام على أن يكون البيت الإسلامي الذي رَغِبَ في تأسيسه حصناً منيعاً يحمي الزوجين من الانحرافات الخُلُقِيَّة و المفسدات الأخلاقية ، و أن يكون بيتاً تتوفر فيه كل ما تتطلبه الحياة الهادئة و الأمانة و السعيدة من الأجواء التي تُمكِّن الرجل و المرأة من القيام بدورهما و أداء مسؤولياتهما .

لهذا فإننا نجد أن الله عَزَّ و جَلَّ قد وضع القوانين الحكيمة و سن السُنن القويمة الكفيلة بإسعاد الزوجين و تسهيل بلوغهما إلى الأهداف المبتغاة من تأسيس الأسرة.

- حدود الاستمتاع بين الزوجين

لكي تتحقق أهداف الزواج و الأسرة ، فإن الاستمتاع بين الزوجين لا بد و أن تكون محدودة بحدود تتماشى مع أهداف الزواج في الإسلام و تكون بحيث تضمن سلامة الزوجين و كذلك العلاقة الزوجية و الأسرة من جميع الجهات .

لقد سمح الدين الإسلامي للزوجين بالاستلذاذ و الاستمتاع المتقابل جنسياً بينهما ضمن حدود الشريعة الإسلامية ، أي ما لم يتجاوز الاستمتاع حدود المعاشرة بالمعروف ، و ما لم تتضمن محرماً من المحرمات ، أو تتسبب في ترك واجب من الواجبات ، فللزوجين أن يتلذذا من بعضهما متى شاءا و كيفما شاءا ، فهي جائزة بكل أشكالها نظراً و لمساً و تقبيلاً و ما إليها من أنواع الاستمتاع المتصورة.

- ما لا يجوز من الاستمتاع للزوجين

- 1- لا يجوز الجماع خلال فترة الحيض و النفاس.
- 2- لا يجوز للزوجين . و كذا لغيرهما . حال الإحرام ممارسة الأمور الجنسية ، وطياً أو استمناؤاً أو تقبيلاً أو لمساً أو النظر بشهوة و تلذذ .
- 3- يشترط أن يكون الاستمتاع بين الزوجين غير ضارة و غير مؤذية لأي منهما ، كما إذا تلذذ أحد الزوجين من قَرص أو عَض أو ضرب الطرف الآخر ، و يجوز كل ذلك برضاها.
- 4- يجوز لهما الاستعانة بأعضاء البدن في إثارة الطرف الآخر جنسياً و إفراغ شهوته ، لكن لا تجوز الاستعانة بأجسام خارجية بإدخالها في الفرج أو الدبر (الشرح) .
- 5- لا يجوز لأي منهما بلع المادة المنوية لكونها نجسة.
- 6- لا يجوز للزوج إكراه زوجته على مجامعتها في الدبر ، و لها أن لا تستجيب له.

7- لا يجوز للزوج إكراه زوجته على الجماع حال كونها مريضة بحيث لا تطيق ممارسة الجنس ، أو تكون العملية الجنسية مضرّة بالنسبة لها ، و لها أن تمتنع مما يضر بها.

- حكم الجماع في الدبر

خصص الله عز و جل مسلكاً خاصاً للعملية الجنسية تتوفر فيه كل المواصفات الكفيلة بإيصال الزوجين إلى ذروة المتعة الجنسية و هو الفرج (المهبل) ، و جعل الله جل جلاله أحكاماً للاتصال الجنسي ، كما و سنن آداباً للاستمتاع الزوجية ، و نحن نوّمن بأن الأزواج الملتزمين بهذه القوانين و السنن يضمنون لأنفسهم سلامة معاشرتهم الجنسية إلى جانب حصولهم على أعلى درجات المتعة الجنسية السليمة ، و يجنّبون أنفسهم سلبيات و أضرار السلوك الجنسي الخاطيء .

تاسعا-ممارسة الجنس بالفم

معاشرة الزوجة من طريق الفم و إنزال المنى في فمها ممارسة خاطئة و مستقبحة ينبغي اجتنابها و الترفع عنها ، و هذه الممارسة إن لم تكن برضا الزوجة فهي محرمة ، كما و يحرم ابتلاع شيء من المنى لنجاسته ، و أما إذا كانت هذه الممارسة برضا منها و لم تتسبب في ابتلاع المنى فهو عمل مستقبح رغم جوازه ، و ينبغي للمؤمنين اجتناب مثل هذه الأمور ، حيث أنها من الممارسات الخاطئة التي قد تصنّف ضمن الشذوذ الجنسي. هذا و للاستماعات الزوجية آداب و مستحبات و مكروهات ينبغي للإنسان المؤمن معرفتها و الالتزام بها لما فيها من آثار مهمة صحية و اجتماعية و معنوية .

المبحث الثالث - السحاق Lesbianism

السحاق وهي علاقة بين أنثى وأنثى أخرى وقد يكون شكل هذه العلاقة عبارة عن قبيلات ومداعبات جسدية أو تطور في العلاقة يُحدث إثارة جنسية بوسائل مختلفة حتى تتحقق النشوة الجنسية الكاملة.

وهذا المصطلح يدل على ممارسة الجنس بين النساء من دون الرجال، وقد أطلق هذا المصطلح على المثليات جنسياً، لأنهن "يسحقن" أي يضغطن أثناء وأعضاء بعضهن أثناء ممارسة الجنس، ويرجع سبب هذه العادة إلى النشأة التي تربت فيها البنات مثل المدارس الخاصة

بالبنات أو المجتمع الذي يمنع من اختلاط الذكور بالإناث . فتعبر البنت عن ما تحويه بداخلها من رغبات جنسية بهذه الطريقة بحيث تمنع عنها الريبة والشك من أهلها عندما تختلي بصديقتها. تختلف درجات الشذوذ أو السحاق لدى البنات باختلاف طبيعتها الجنسية ومدى ودرجه احتياجها للجنس، وتجد الفتاة التي اعتادت على هذه الممارسة تجد لذة لا تجدها في ممارستها الجنس مع رجل لأنها قد تعودت وتجد في شذوذها ما يروي عطشها من الجنس . وأصل هذه الكلمة يعود إلى جزيرة ليسبوس Lesbos حيث كانت مسقط رأس الشاعرة اليونانية صافو Sappho التي كانت تمارس السحاق مع غيرها من النسوة اليونانيات في القرن السادس قبل الميلاد يفضل بعض النساء إقامة علاقات جنسية وعاطفية مع غيرهن من جنس النساء ، وهذه الظاهرة تعادل اللواط عند الذكور . هذا التصرف المخالف للطبيعة يعد من أوجه الشذوذ الجنسي .

النساء الشاذات لا يختلفن عن غيرهن من النساء الطبيعيات من حيث اللجوء للاستثارة الجنسية للحصول على الرعشة ، كالتقبيل واستثارة الثدي ، وبعضهن يعترفن بأنهن يفضلن العناق والالتصاق الجسدي غيرهن من النساء أكثر من اهتمامهن باستثارة أعضائهن الجنسية ، وهذا بعد ذاته يشير إلى أنه حتى المرأة الشاذة تشدد على الناحية العاطفية في علاقتها السحاقية . تشعر المرأة التي تمارس علاقات سحاقية مع غيرها من النساء كما يشعر الرجل وتتصرف كتصرفه ، فهي تقص شعرها وتمارس ألعاب الرجال وتغشى مجتمعاتهم ، وتكون في الغالب ذات عاطفة جنسية حادة .

إذا خطر لامرأة سحاقية أن تغري فتاة ، فإنها تبدأ بالتحايل عليها واكتساب عطفها بأن تظهر نحوها شيئاً من الحب والحنان العاديين ، ثم تتبع ذلك بالقبلات والعناق والنوم في فراش واحد ، وبعد ذلك تعمل المريضة السحاقية تدريجياً على إيقاظ شعور اللذة والشهوة في نفس ضحيتها التي كثيراً ما تجهل أن وراء هذه المظاهر تكمن في علاقة غير طبيعية ، فتقع بدورها في حب صاحبها ، وتنتهي هذه العلاقة إلى إثارة الهياج الجنسي ومن ثم ممارسة السحاق ، وقد تدوم هذه العلاقة الشاذة سنوات عديدة .

إن السحاق مثل غيره من أوجه الشذوذ الجنسي بحاجة إلى معالجة نفسية دعوية وطويلة بهدف مساعدة الشاذات على التخلص من وضعهن المعقد في المجتمع الذي ينبذهن ويحاربهن ، في الحقيقة إن هذه الظاهرة أكثر انتشاراً في الغرب تبعاً للإباحية الجنسية والتهاك الاجتماعي والإحباط والضغط الاجتماعي التي يعاني منها السكان وتسود ذلك المجتمع .

أولاً- مصطلحات خاصة بالموضوع

1-الجنس

يُشيرُ الجنسُ إلى الخصائص البيولوجية التي تعرف الإنسان كأنثى أو ذكر. رغم أن مجموعتي الخصائص البيولوجية هاتين لا تقصي إحداهما الأخرى، فبعض الأفراد يمتلكون خصائص من كلا الجنسين، إلا أنها تميز البشر كذكور وإناث. يشير المصطلح "جنس" في استخدامات عامة في لغات عديدة إلى "النشاط الجنسي"، ولكن لأغراض تقنية في سياق النقاشات حول الجنسانية والصحة الجنسية، يفضل التعريف أعلاه.

2-الصحة الجنسية

الصحة الجنسية هي أن يكون الإنسان في وضع صحي من الناحية الجسدية والعاطفية والاجتماعية، في علاقة تلك النواحي بالجنسانية؛ فهي ليست فقط الخلو من الأمراض أو الخلل الوظيفي أو العجز. تتطلب الصحة الجنسية توجّهاً إيجابياً ومتّسماً بالاحترام تجاه الجنسانية والعلاقات الجنسية، بالإضافة إلى إمكانية إقامة علاقات جنسية ممتعة وآمنة، خالية من الإكراه والتمييز والعنف، بغية الحفاظ على الصحة الجنسية، يجب احترام وحماية وتطبيق الحقوق الجنسية لجميع الأفراد.

3-الهوية الجنسية

تعريف الذات لجنسيتها في ما يتعلّق بميولها الجنسية و/ أو العاطفية، إذا كانت تميل لنوع اجتماعي مماثل لنوعها أو مختلف عن نوعها: مثلية، مغايرة، أم آخر. لا يتعلّق تعريف شخص ما لهوية الجنسية بتعريف هوية الشخص الآخر في العلاقة، كما تتكون الهوية الجنسية من خمسة عناصر أساسية، هي: الجنس البيولوجي، النوع الاجتماعي، الدور الاجتماعي، الميول الجنسية والسلوك الجنسي.

4-الجنس البيولوجي

يتحدّد الجنس البيولوجي بواسطة الجينات الوراثية والهرمونات. حينما يكون هناك تلاؤم معين بين الجينات الموروثة والهرمونات ينجم عن ذلك الجنس البيولوجي الذكري والأنثوي، أو الجنس المختلط.

5-النوع الاجتماعي (الهوية الجندرية)

النظرة الموضوعية لدى الذات بتعريفها هل هي رجل أم امرأة، هل هي صاحبة صفات تنسب اجتماعياً للرجال أم صفات تنسب اجتماعياً للنساء. عند الأكثرية هناك تلاؤم بين الجنس البيولوجي الذي يحدده كل من الجينات، الهرمونات والنوع الاجتماعي. إلا أن هناك تناقضاً أو عدم تلاؤم، في حالات معينة، بين الجنس البيولوجي والنوع الاجتماعي، فنجد بالتالي أن هناك ذكوراً

بيولوجياً يعرفون أنفسهم كنساء اجتماعياً، ونجد أن هناك إنثاءً بيولوجياً يُعرفون أنفسهم، اجتماعياً، كرجال، كما أن هناك مَنْ لا يعرفون أنفسهم سواء كانوا رجالاً أو نساءً.

6- الدور الاجتماعي

نظرة المجتمع إلى الذات وتحديد تصرفها وسلوكها، مظهرها ودورها فيه. مثلاً: نظرة المجتمع إلى دور الرجل أن يعمل خارج البيت ليعيل زوجته وأسرته، وإلى دور المرأة أن تبقى في البيت لتعتني بأفراد الأسرة وزوجها، وهي بذلك تحدد سلوك الرجل وتصفه بالرجولة، وتعطي سلوك المرأة صفة الأنوثة. وعادةً ما تُسبب أدوار تكثر من دونية النساء اجتماعياً وتحد من مشاركتهن في الحيز العام، أو من توليهن دوراً قيادياً في المجتمع. وفي المقابل، حظي الدور الرجولي بصفات قيادية بالغة التأثير في كل جوانب الحياة الاجتماعية، الثقافية، السياسية، والاقتصادية.

7- الأنوثة والذكورة

يعود هذان المصطلحان إلى مجموعة سلوكيات، شكل جسماني أو اهتمام اجتماعي ما (الملابس والموضة) تربط، عادةً، بالنساء (الأنوثة) أو بالرجال (الذكورة) في المجتمع. يرى المجتمع الذكورة كمرادفة لما هو رجالي، والأنوثة كمرادفة لما هو نسائي. إلا أن الذكورة لا تقتصر، بالضرورة، على الميدان الرجالي فقط، كما أن الأنوثة لا تقتصر، بالضرورة، على الميدان النسائي، فقط. أي أن هناك نساء من الممكن أن يكن ذكوريات في كل ما يتعلق بالسلوك، اللباس، أو الهيئة الخارجية، وبالقدر نفسه من الممكن للرجال أن يكونوا أنثويين من ناحية معينة أو من نواحٍ عديدة. لا تقتصر الذكورة على الميدان الرجولي فحسب، كما أن الأنوثة لا تقتصر على الميدان النسائي فحسب، لكون الذكورة أو الأنوثة لا تحدد النوع البيولوجي، النوع الاجتماعي، أو الميول الجنسية عند الإنسان؛ ليس كل امرأة ذكورية هي مثلية الجنس، كما أنه ليس كل رجل أنثوي هو مثلي الجنس.

8- الميول الجنسية

هو الانجذاب الجنسي الأساسي والفطري، العاطفي والحسي. تتضمن الميول الجنسية صور مختلفة للجنسية المختلطة التي تحمل مجمل ممارسة التجارب الجنسية والعاطفية الحسية مع أفراد نفس الجنس أو مع الجنس الآخر، إن الشخص الذي يميل جنسياً إلى أفراد جنسه فقط يُدعى مثلي الجنس.

9- متحرر/متحررة الجنس

يصف هذا المصطلح هويات وظواهر اجتماعية متعددة بعيدة عن الميول الجنسية المغايرة والدور الاجتماعي السائد عند الرجال والنساء في مجتمعات أحادية الفكر الجنساني. في بعض

الأحيان، يستخدم هذا المصطلح، أيضاً، لوصف المختلف، الآخر، البعيد عن القاعدة المشرعة والمتفق عليها.

10-مغيرو/مغيرات النوع الاجتماعي

لا تحدد الهوية وفق الجنس البيولوجي، أو وفق نظرة المجتمع للذات (رجل أم امرأة) فحسب، وإنما حسب ما تشعر به الذات تجاه نفسها، فمن الممكن لرجل أن يتأنت اجتماعياً، أو لامرأة أن تتذكر اجتماعياً، وهذا لا يتعلق بالضرورة بميولهما الجنسية أو برغبتهما في تغيير نوعهما البيولوجي.

11-مغيرو/مغيرات الجنس البيولوجي

يكون هذا حينما تشعر النساء إنهن رجال ويشعر الرجال أنهم نساء. يتجه مغيرو الجنس لتغيير الجنس من خلال العلاج الهرموني أو من خلال عملية جراحية، في حين قبل أو بعد تغيير الجنس يكون/تكون مغيرو/ة الجنس أو مزدوج/ة الجنس أو مثلي/ة الجنس.

أ - ذ: مغيرات/مغيرو الجنس من أنثى إلى ذكر.

ب - أ: مغيرات/مغيرو الجنس من ذكر إلى أنثى.

12-مخالطو الجنس البيولوجي

صفة وراثية يحملها الجنين المولود بحيث يطور أعضاء جنسية داخلية وخارجية غير واضحة الملامح تشبه أعضاء الذكر أو/والأنثى. إن مخالط/ة الجنس ليس/ت بالضرورة مثلي/ة الجنس.

13-مسترجله

هي المثلية التي تميل إلى تصرف اجتماعي ذكوري.

14-ناعمة

وهي المثلية التي تميل إلى تصرف اجتماعي أنثوي.

15-عابر/ عابرة اللباس

امرأة أو رجل يرتديان لباساً لا يتناسب ثقافياً واجتماعياً مع نوعهم الاجتماعي. على سبيل المثال: ذكر يرتدي لباس امرأة ويصمم شعره ويمكيج وجهه كالنساء. لكن، من المهم جداً الانتباه إلى أن تغيير اللباس لا يعني بالضرورة أن الإنسان مثلي، فمن الممكن لعابرة اللباس أن يكون/تكون مغيرو/ة الجنس أو مثلي/ة الجنس.

16-متعدّدة النوع الاجتماعي

الشخص الذي يملك النوعين الاجتماعيين ويظهرهما، لكن كل على حدة، فهو أو هي يمكن أن يظهر/تظهر كامرأة يوماً أو كرجل يوماً آخر.

17-رهاب المثليّة

الخوف والاشمئزاز والمنافرة من مثلي الجنس أو مزدوج/ة الميول الجنسيّة. تزداد حدة هذا التصرف تجاه المثليين حينما يصبح الغضب، النقمة والكره أساساً في اضطهاد المثليين. في العديد من الحالات يؤدي العنف الرمزي الذي يحمله مفهوم "رهاب المثليّة" للمثليين إلى عنف جسدي.

18-رهاب المثليّة الذاتية/الباطنيّة

مشاعر الخوف والاشمئزاز والأفكار المسبقة التي يحملها مثليّ الجنس تجاه ذاته خاصة، وتجاه الآخرين.

19-مغايرة الجنس البحتيّة

وهو توجه اجتماعي يعني تجاهل وإنكار أفراد المجتمع مغاير الجنس لكيان ووجود مثلي الجنس (وأحرار الجنس، إجمالاً). ينعكس هذا التجاهل من حيث عدم إيلاء اعتبار لاحتياجات المثليين/ات الشخصية والاجتماعية الخاصة بهم/ن والمختلفة عن احتياجات المغايرين/ات جنسياً. هذا التوجه يؤدي إلى إعادة صياغة متكررة للمجتمع كمجتمعٍ خالٍ من التنوع الجنسي، وبالتالي إلى تعزيز الهوية المغايرة وكأنها الوضعية الطبيعيّة أو المُشرّعة الوحيدة.

20-الفخر

يحمل الفخر بُعدين:

البعد الشخصي: السيرورة في بلورة الهوية المثلية لدى مثليّ الجنس، وتخطّي مرحلة رهاب المثلية الباطنية الذاتية، وقبول المعاني الإيجابية في الميول المثلية.

البُعد الاجتماعي - السياسي: تنظيم سياسي لدى مجموعات مثليي الجنس أو المتحررين جنسياً من أجل الحصول على حقوق اجتماعية متساوية، كما هو الحال لدى مُغايري الجنس. في حزيران 1969، اندلعت مظاهرة عفوية في نيويورك جراء تهجم الشرطة العنيف على نادٍ ليلي باسم "ستون ول" والذي تواجدت فيه مجموعات من المثليين والمثليات حينها. منذ ذلك الحين، وحتى الآن، تقام مواكب الفخر في شهر حزيران من كل عام في مدن العالم الكبيرة إحياءً لذكرى

هذه الحادثة. تعد مواكب الفخر منبراً سياسياً واجتماعياً، وحدثاً للترفيه ورفع الوعي للمجموعات المثلية، أحرار الجنس والمغايرة.

21- سلم كينسي

يتكوّن سلم كينسي من سبع درجات. يبدأ السلم من الدرجة صفر وهي تعني مغاير الجنس المطلق، ثم ينتهي بالدرجة 6، وهي تعني مثلي الجنس المطلق. يصف سلم كينسي التواصل الجنساني عند الإنسان. بناء الباحث الاجتماعي كينسي في أوائل الخمسينيات، وهو يستخدم، حتى الآن، في أبحاث اجتماعية أخرى، إلى جانب طرق أخرى تصف الاختلافات الجنسية عند الإنسان.

22- الإشهار بالمثلية، الخروج من الخزانة

وهي وصف وضعي للسيرورة التي من خلالها تتبلور هوية الشخص الجنسية حتى الوصول إلى مرحلة قبول الذات بهويتها الجنسية، وإشهار الهوية الجنسية أمام العائلة، الأصدقاء وأحياناً أمام المجتمع كلّهُ. يكون الإشهار عن الذات، في حالات عدة، جزئياً، يحدد الفرد فيه دوائر الأشخاص الذين يريد أن يُشهر نفسه أمامهم.

23- اليوم العالمي لمناهضة رهاب المثلية

وهو السابع عشر من شهر أيار من كل سنة. يهدف هذا اليوم إلى المرافعة والتثقيف حول مثلي الجنس والحاجة الإنسانية لتقبل هؤلاء الأفراد من المجتمع، والذين يشكلون أقلية جنسية، وشأنهم شأن كل أقلية، فهم يطالبون بتحقيق كامل حقوقهم وعدم التعرّض للهجمات والعنف من رهاب المثلية.

ثانياً - مظاهر

في الغرب منتشر عندهم كظاهرة عادية ولهم حقوق وحرية ولهم زواجات بينهن يعملونها السحاقيات ويميزون أنفسهم في علامات وشم بالزند أو الظهر خصوصاً البويات وخواتم بشكل كثير بالأصابع أو حلقة بالسرة ليميزن أنفسهن ولهن شعار علامة صليبين ينتهون بدائرة والغريب في العلاقة التي تكون أن البنبت تحب وتعشق البوي وليس حب من طرف واحد كما يحصل في الشاذين من الرجال فقد يكون ولد وسيم وجميل ويعشقونه وهو لا يميل لهم فهم يتعذبون في وصلة ولكن في أمر السحاقيات يحصل حب بينهن وتعلق وكره للرجال كبير وعدم ميل لهم .

يطلق على السحاقيات في اللغة الانكليزية لمن تمارسه كلمة lesbian وهي تعني سحاقيه ومن يمثل دور الرجل be رمز إلى كلمة بوي والى من تمارس دور البنبت les وتنطق بالعربي ليز أو

لس والبوي تكون غالبا في مظهر مسترجله تميل إلى البنات فقط ولا تحس برغبة إلى الرجال وتقلد أشكال الرجال سواء بقصر الشعر أو خشونة الصوت أو بلبس أو تمارس الألعاب العضلية وتحاول تنمية عضلاتها وتشبه الرجال بالمشية وكان بداية انتشاره كما ذكر في التاريخ في قوم لوط عليه السلام عندما اكتفى الرجال بالرجال والنساء اكتفين بالنساء ومارسوا الجنس كل واحد مع نوعه .

ثالثا- أسبابه :تنقسم الأسباب إلى جانبين هما:

أ-الأسباب العامة

- 1-الرفقة السيئة تؤثر تأثير كبير في نشر هذه السلوكيات الشاذة وتبدأ غالبا من سن المراهقة في بدايتها في المراحل المتوسطة والثانوية فتبدأ الشاذة تحوم على بنت تعجب بها لكي توقعها في شباكها وتجربها لممارسة الشذوذ مع بعض .
- 2- مشاهدة الأفلام الجنسية الشاذة والصور . السبب الرئيسي في مثل هذه الانحرافات والشذوذ هو إدمان المواقع الإباحية وجعلها المصدر الوحيد لثقافة الجنسية مع وجود اضطرابات في الشخصية تجعل الإنسان مدمن على الأفعال الشاذة ، هذا بالإضافة إلى ضعف الوازع الديني
- 3-ضعف الرقابة من الأهل على تصرفات البنت وعدم معرفة من تصاحب .
- 4-وجود صدمة من عنصر الرجال في تجربة فاشلة بطلاق معه وتكون نظره لكل الرجال أنهم سيئين وتكتفي بالنساء لممارسة الجنس معهن.
- 5-الانقطاع عن الجنس مدة طويلة لمن هي مثلا متزوجة بسجن ووجود سجينات منحرفات يجذبها لهذا الفعل أو سفر زوج مدة طويلة فقد تتجر لتفريغ شهوتها بالممارسة مع بني جنسها وهذا في حالة أنها يكون عندها استعداد لهذا، أما السوية فهي لا تقرب لهذا الشذوذ حتى في طول غياب زوجها ولكن لاشك أن طول غياب الزوج عن زوجته كما حددته ابنة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إن المرأة تصبر خمسة أشهر وستة أشهر وطبعاً قد تستطيع أن تصبر أكثر وكذلك الزوج ولكن هذا محدد كحق لها من حقوق الزوجية .

ب- الأسباب الخاصة

- 1- تقول أنها تمارس السحاق بعد تجربة زواج فاشلة كانت هي احد الأسباب بالطلاق وتعتبر السحاق طريقة آمنة لها لا تجلب لها مشاكل وشبهه لأنها تمارس الجنس مع بنت مثلها في غرفتها ودون شك احد من أهلها لأنها ليست ولد.
- 2- تقول الثانية أنها أيضا مطلقه وتعتبر أن السحاق تنفيس لها من نار الشهوة التي ذاقت الجنس في زواجها.

3- الثالثة تقول أنها متزوجة من ست شهور وتعتبر الزواج شيء رائع جدا ولكن هي تحب البنات كثيراً لأنها كانت تمارس معهن السحاق.

4- متزوجة تحب السحاق وتحب البنات كثيراً وتحس بمتعته معهن وزوجها المتحرر (كما تصفه) هو الذي يدفعها لذلك وعلمها عليه !! هذه نماذج لأقوال سحاقيات لتقرب دوافعهن وسبب ميولهن لذلك.

5- تقول إحدى المبتليات بهذه المشكلة أن مشكلتي بدأت منذ سفر زوجي إلى دولة أوروبية منذ 5 سنوات، حيث كان يرى المغريات أمامه وبدأ بالخيانة إلى أن علمت بأمره فتوصلنا إلى حل وهو ممارسة الجنس عبر الهاتف وعن طريق إرسال صوري له وهكذا استمرت الحالة سنة تقريبا، وبعد ذلك من خلال كاميرا الكمبيوتر على النت، المشكلة أنه بدأ يتكلم عن موضوع إرسال أشخاص ليمارسوا الجنس معي وكان يتخيل الموضوع إلى أن يُفرغ شهوته فيتندم على ما قاله، وهكذا كل يوم نفس الموضوع إلى أن قام بإجباري بممارسة الجنس مع فتيات وتصويرها وإرسال الصور له لكنني لم أوافق أبداً وبعدها أقنعتني بفكرة لمس الرجال من الأقارب عن طريق الخطأ أو المزاح ليلبي رغباته الجنسية.

رابعاً- السحاق بين الزوج والزوجة

يطلق على المرأة الشاذة جنسياً، أو المرأة التي تمارس المثلية وتكره الجنس الطبيعي، ولا تميل إلى الذكور بالسحاقية، رغم أن المرأة الطبيعية تمارس ضرباً من ضروب السحاق أيضاً، في مرحلة ما من مراحل الجماع مع زوجها، وفي اعتقادنا إن كلمة سحاق أتت من عملية سحق أو فعل حك أعضاء المرأة التناسلية بأعضاء امرأة أخرى وخصوصاً البظرين، وهو فعل عرفته الإناث منذ عصور سحيقة، وأشار إليها ضمناً القران الكريم عندما تناول تصرفات النساء في عهد سيدنا نوح، وهو فعل محرم وتوثم من تفعله مع امرأة مثلها، ولا جدال في ذلك على ما أظن. وعملية السحق أو الحك هذه ليس بالضرورة أن تمارسها المرأة مع امرأة أخرى، بل يمكن أن تمارسها ذاتياً، فيما يعرف بالعادة السرية، وهي التركيز على حك البظر بالإصبع أو بأي أداة أخرى، أو تقوم بنفس عملية السحق بأي منطقة مناسبة من جسد زوجها أثناء الجماع أو بدون الجماع، في حالة لم يتوفر انتصاب لدى الزوج نتيجة لقذفه المبكر مثلاً، وعادة ما تكون تلك المنطقة التي تسحق فيها الزوجة أعضاءها التناسلية هي منطقة العانة حول قاعدة القضيب، وصولاً للمتعة وهذا أيضاً فعل سحق للأعضاء الجنسية والبظر، وفي هذه الحالة لا يمكن وصف المرأة بأنها سحاقيه بالمعنى المذموم، لأن هذا الفعل يدخل من ضمن فنون الجنس الذي تجيده المرأة أو الزوجة، وهو من صميم العملية الجنسية بالنسبة لكثير من النساء، إذ لا يعتمد

على حركة القضيب فقط دخولا وخروجا، بل أن كثيرات لا يجدن في ذلك تمام اللذة كما للرجل الذي يقذف بسرعة إذا ركز على ذلك، وإذا لم يتزامن هذا بالنسبة للمرأة مع عملية السحق للأعضاء الخارجية أو حكها إذا جاز التعبير، وبدرجات متفاوتة من الرقة والقوة والتركيز والبطء والسرعة، والتي تتم بطرق فنية متعددة منها الحركة شبه الدوران التي تشبه حركة دوران جحري الرحي، أو التحرك من الأمام إلى الخلف مع الإبقاء على القضيب داخل المهبل ودون القيام بحركة الإيلاج والإخراج. وقد تحدث عن عملية السحق الفنية هذه العرب قديماً من ضمن أدبياتهم من ضمن ذكر مزايا النساء اللاتي يجدن فنون الوصال الجنسي مع أزواجهن. وكما هو معروف إن معظم النساء يصلن إلى المتعة الجنسية بالتركيز على البظر أكثر من الاكتفاء بالإيلاج فقط بحركة إيلاج وإخراج القضيب التقليدية، وفي اعتقادي أن أعضاء المرأة مثل البظر والاشفار خلقت من ضمن ما خلقت له لهذا، ولا تصل الغالبية العظمى من النساء إلى تمام المتعة إلا إذا تكاملت العمليتان معا أي الإيلاج والإخراج تارة والسحاق لفترات طويلة تارة أخرى، ولذة المهبل تتم بالإيلاج عن طريق النهايات العصبية الحساسة في المهبل وعلى رأسها منطقة الجي سبوت، ولذة السحاق بالتركيز على سحق البظر وأجزاء الفرج الخارجية الأخرى أثناء العملية الجنسية، طبعاً بالإضافة إلى إثارة مناطق الإثارة الأخرى في جسد الزوجة بمساعدة زوجها.

والشاهد أن كثير من الزوجات يركزن على سحق أعضائهن التناسلية الخارجية وخصوصاً ابظارهن بعانة الزوج أو بقضيبه عندما تكون في وضعية راكبة الفرس التي تتيح لها تولي زمام الأمور والتحكم في العملية الممتعة بالنسبة لكليهما، وفي هذه الحالة تمارس الزوجة فعل السحاق تماماً إذا لم يكن هناك إيلاج، وتمارس سحاقاً مع إيلاج في حالة وجود انتصاب في الجماع التقليدي، وهذه التكاملية تعتبر بالنسبة لمعظم النساء من الأساليب الهامة لحصولهن على المتعة الكاملة، خصوصاً إذا كانت بظرية، وتصبح المرأة بظرية عندما تعود نفسها على الاستمتاع عن طريق التركيز على البظر، أما من تكتفي بالاتصال الجنسي عن طريق المهبل غالباً ما تكون مهبلية، ونجد هذا النوع من النساء ينحصر في الزوجة حديثة عهد بالجماع أو في النساء الغير طبيعيات المستصلات جنسياً، أي المختونات واللاتي فقدن معظم أعضائهن الجنسية التي تخضع لعملية الاستئصال بما فيها البظر والاشفار، وتدل كثير من الدراسات أن الختان أول من فرضه على النساء هم الفراعنة الرجال على نسائهم، وذلك ليحدوا من شهوتهن الجنسية ولكي يضمنوا عدم مطالبة المرأة لزوجها بممارسة الجنس بإلحاح فوق طاقته.

وفي هذه الحالة الغير طبيعية تتركز متعة الزوجة في الاتصال الجنسي عن طريق المهبل، وعملية استئصال الأعضاء الجنسية هذه للأسف متفشية في ملايين النساء في مصر والسودان والصومال واليمن وفي مناطق معينة في دول الخليج مثل بعض المناطق الجنوبية في السعودية،

وكذلك في بعض الدول الآسيوية مثل اندونيسيا ومعظم الدول الإفريقية. إذن ما دام الأمر كذلك وان الزوجة تمارس السحاق في مرحلة ما من مراحل الجماع مع زوجها، يجب أن لا يُذم السحاق على المطلق، وان يتم التفريق بين السحاق الذي تمارسه الزوجة مع زوجها، وبين السحاق الذي تمارسه الشاذة جنسيا مع أنثى مثلها، وفي هذه الحالة يجب أن يطلق عليه اسم آخر غير السحاق، ولو لم يكن السحاق ضروريا لأي زوجة طبيعية لما وجد بظر واشفار أساسا، واقترح أن يكتفي الناس بتسمية سحاق المرأة المرضي مع امرأة مثلها مع كرهها للرجال بالشذوذ الجنسي أو أي اسم آخر مناسب.

وحسب علمنا أن هناك كثير من الزوجات يشكين من تحفظ أزواجهن وعدم السماح لهن بممارسة السحاق معهم واستنكار ذلك عليهن، وكثير من الأزواج يعتبرون ذلك عيبا أو خلاا ونوع من الثقلت لدى الزوجة، وانه أمر غير مستحب، فيكتفي الرجل بالاتصال الجنسي التقليدي وهو دائما ما يسيطر على زمام الأمور تماما إلى أن يقذف سريعا في اقل من دقيقتين، ويترك زوجته دون أن تقضي وطرها، وربما يضطرها عدم الإشباع هذا للجوء للعادة السرية لاحقا وبعضهن قد يكون هذا دافعا لخيانتهن، وهذه السلوكيات متفشية للأسف في جميع أنحاء العالم، وخصوصا في منطقتنا العربية، وهو ليس نتيجة لجهل الأزواج أو لدواعي دينية فقد ولى زمن الخلط في هذه الأمور، ولكن في تقديري ربما يعود ذلك لأنانية الزوج أو شعوره بالإرهاق أو رغبته في إنهاء العملية بأسرع ما يمكن ليتفرغ لأمر أخرى خصوصا بعد انقضاء سنوات الاهتمام الأولى بالجنس لدرجة الجنون بين أي زوجين.

ونصيحتنا للأزواج أن يبعدون عن أنفسهم هذا الشعور بالأنانية وان يتفهم الزوج حاجة الزوجة وأهمية تركيزها على سحق بظرها ولوقت طويل جدا، وان يعاونها ويصبر عليها حتى تأخذ الوقت الكافي وتمارس عملية السحاق معه والتي غالبا ما تتحكم فيها هي عندما تكون في وضعية راكبة الفرس، أي الزوج مضطجع على ظهره وهي راكبة من فوقه والتي يعتبرها بعض الرجال للأسف نوعا من الاهانة لرجولتهم وتشعرهم بالدونية، كون الزوجة تكون هي فوقه وهي المسيطرة وهو خاضع لها، وفي هذا الوضع تقوم الزوجة بتحريك نفسها إلى الأمام والخلف فقط بينما تحتضن القضيب بعضلات مهبلها تارة، ثم ترخيه في شكل انقباضات متواصلة تارة أخرى وفي هذا لذة ما بعدها لذة للزوجين معا، وتظل في هذا الوضع لأطول مدة ممكنة حتى تصل إلى كامل متعتها، ومن حسنات هذه الوضعية أنها في نفس الوقت تجنب زوجها القذف المبكر وفي وقت غير مناسب بالنسبة لها، خصوصا إذا كان الزوج يعاني من سرعة القذف، أما إذا كان يعاني من سرعة القذف بشكل مزمن، فيمكن للزوجة أن تؤجل عملية إيلاج القضيب في فرجها وتكتفي بعملية السحاق على عانة الزوج، وإذا كانت الزوجة لا تعاني من أي التهابات أو إفرازات وتتوخى النظافة يمكنهما اللجوء للجنس الشفهي معا وانسب وضعية هي 69 بالأرقام العربية أي تكون

المرأة فوق الرجل ولكن كل منهما وجهه عند أعضاء الآخر لممارسة الجنس الشفهي، حتى تأخذ الزوجة وقتها الكافي ثم بعد ذلك تقوم بالإيلاج عندما تشعر أنها على وشك بلوغ مرحلة النشوة لكي يصلا معا إلى الذروة في ما يشبه الالتحام الكامل لجسديهما وروحيهما، وكما هو معروف أيضا أن الزوجة تحتاج إلى زمن أطول حتى تصل إلى اللاورجازم.

وختاما ما وددت الوصول إليه هنا، هو أن لا تخجل الزوجة عن التعبير عن مشاعرها واحتياجاتها لزوجها وتشرح له الطريقة المثلى التي تفضلها والتي تمكنها من إشباع نفسها جنسيا، لأن عدم تعبير كثير من الزوجات عن احتياجاتهن ورغباتهن قد يكون سببا لحرمانهن من الحصول على متعتهم كاملة غير منقوصة، نظرا لأن بعض الأزواج يجهلون هذه الأمور، ومعظم الأزواج سيفهمون رغبات زوجاتهم ولن يمانعوا في تلبية رغباتهن إذا شرحت لهم الزوجات هذه الاحتياجات بطريقة مناسبة، وكما هو معروف أيضا أن الله سبحانه وتعالى أجمل ذلك كله في كلمات قليلة إذ قال جل جلاله: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ... ﴾ (البقرة: الآية 223) ويقول المفسرون أن هذا يعني أن كل شيء مباح في الجماع بين الزوج والزوجة برضاها طبعاً، طالما يتجنبان الإيلاج في الدبر والجماع أثناء العادة الشهرية كما أجاز ذلك كثير من المفسرين، والله اعلم.

خامسا - السحاق حسب رأي علماء النفس

قام عبد الله السبيعي استشاري الطب النفسي بكلية الطب بجامعة الملك سعود بالرياض بوصف ظاهرة الشذوذ الجنسي للفتيات بأنها في تزايد مستمر في ظل وجود العوامل المثيرة للرغبات الجنسية كالقنوات الفضائية والانترنت والهاتف الجوال الذي أصبح الآن للعلاقات غير المشروعة. وقال السبيعي في تصريح لجريدة "الرياض" أن هذه الظاهرة غالباً تحدث بين الشابات في الأماكن المكتظة بهن كالمدارس مشيراً إلى أن هذه الممارسات تبرز بشكل أكثر في الجامعات لعدم قوة ضبط وهيبة الإدارة مقارنة بالمدارس .

وأكد السبيعي أن أغلب الفتيات اللاتي وقعن في هذه الممارسات السيئة ضحايا للشذوذ أكثر بقدر ما هن شاذات، موضحاً أن الفتيات الشاذات دائماً تتم مهاجمتهن للفتاة الانطوائية والخجول والتي ليس لديها القدرة على تأكيد ذاتها مشيراً إلى أن هذه الظاهرة تبرز في الجامعة بشكل واضح. إذ تقوم بعض البنات المسترجلات في الجامعات والمدارس بالتشبه بالرجال في قصة الشعر والمشى وبإحاطة الصوت وكل واحدة من هؤلاء المسترجلات اتخذت لها بنت أخرى بمثابة الخليفة وتعاملها مثل (الهير فرند Hear Friend) وتضيف أستاذة في إحدى الجامعات العربية التي أرسلت مقالا لأحدى الصحف ببلدها وكتبته على استحياء على حد قولها أنها حزينة جدا لما يحصل في ممرات الجامعة وداخل أروقتها، وبحكم عملها في مراقبة الطالبات فهي تشاهد هذه

المآسي يوميا ، حيث أنها تخرج أثناء الاستراحة لمراقبة ما يحدث ودائما تشاهد طالبات يقبل بعضهن بعض بطريقة مشمئزة خاصة بعد نهاية الإجازة الأسبوعية حيث يكون التقبيل مصحوبا بشهوة حيوانية وفي مكان غير مألوف (التقبيل بالشفة) وعندما يقف بعضهن بجوار بعض تضع أحدهن يدها على يد الأخرى أو على كتفها وكأنها تهمزها أو تدلكها وهناك ممن يستغلن الزحمة التي تحدث عند البوفيه ويقومن بحركات تخدش الحياء) ، وتطالب المسؤولين بالتدخل لتكثيف المحاضرات الدينية والإرشادية للتخفيف من وطأة الجهل والانحراف المستشري بين بنات الجامعات.

وبين السببي أن الشذوذ في الفتيات على نوعين:

النوع الأول: ناتج من منشأ الطفولة واضطراب الهوية الجنسية لديهن وهذا النوع قليل وهو من أصعب الحالات علاجاً .

النوع الثاني، وهو الغالبية حيث تتعرض الفتاة لتجربة سابقة مع سائق أو خادم أو حتى تعرضها لتحرش جنسي منذ طفولتها .

وكشف استشاري الطب النفسي عن أن أكثر من (70%) في الفتيات الشاذات جنسياً لا يرغبن في تعديل وعلاج سلوكهن خاصة اللاتي مارسن هذه الظاهرة بشكل كبير لاقتناعهن بأنهن لا يحسن غير هذا النوع من الممارسة للحصول على الشهوة الجنسية ولا يجدن الإثارة في الرجل. وثمة انحرافات جنسية عديدة بدأت الحضارة الغربية بتصديرها إلينا خلال وسائل الإعلام وأدوات الثقافة والأفلام وعشرات الجسور الأخرى. وما لم نزود أطفالنا وشبابنا في الوطن العربي بتنشئة دينية سليمة فإن العاقبة وخيمة .

ويؤكد معظم علماء التحليل النفسي بأن الانحرافات الجنسية عند الكبار ما هي إلا الجنسية الطفلية مضخمة ومفككة إلى عناصرها ومكوناتها الجزئية، فالشخص الكبير المنحرف شخص ظل موضوعه الجنسي طفلياً .

بينما يرى السلوكيون بأن الانحرافات الجنسية هي سلوك متعلم من البيئة والمجتمع والأسرة والمدرسة والمحيط ، ولو أحسن المربون عمليات التنشئة تربية دينية تقوم على حب الله وإتباع تعاليمه واجتتاب نواهيه لكان بإمكانهم أن يتداركوا هذه النوعيات من التصدع والزلل والانزلاق في مهاوي الرذيلة الأخلاقية .

ويرى علماء آخرون أن الانحراف الجنسي يأخذ طابع التثبيت في الشخصية (Fixation) الذي ينجم عن أحد أمرين وهما :

1-الإشباع الشديد للغريزة في مرحلة الطفولة ،إشباعاً فمويماً (Through The Mouth) يجعل الطفل يجد صعوبة في التخلي عنها أو يجعله يحن إلى العودة إليها حين يكبر.

2- ويضيف علماء النفس الفيزيولوجي عامل الاضطراب الهرموني في الغدد أو الأعصاب .
ومهما تكن الأسباب فإن الانحرافات الجنسية بما يحيك بها من مخاوف وبما تحتويه من
صراعات لا شعورية إنما تعتبر من أخطر مشكلات الحضارة الحديثة .

سادسا- الأضرار المترتبة عن السحاق

السحاق بطبيعة الحال هو ملامسة والتقاء مباشر للأعضاء التناسلية لطرفين من الإناث ،
ومعلوم أن هناك كثيرا من الأمراض التناسلية كالهريس والسيلان والزهري والأيدز وكذلك
الأمراض الجلدية الكثيرة مثل النقرحات والطفيليات وغيرها تنتقل عن طريق ملامسة أو التقاء
الأعضاء التناسلية لأنثيين مع بعضهما . وقد حصلت حالات حمل لنساء لم يكن متزوجات
بسبب السحاق مع آخر متزوجات أو من البغاة ، وهذا مرده أن تكون أحدهن قد باشرت مهمة
الجماع مع زوجها ومن ثم ارتكبت عملية السحاق مع الضحية.

سابعا- الحكم الشرعي عن السحاق

1. حرمة السحاق: السحاق حرام ، وقد شبهه النبي ﷺ بالزنا فقال : (السحاق زنى النساء بينهن)
(والسحاق انحراف جنسي مخالف لفطرة الله عز وجل الذي شرع الزواج بين الذكر والأنثى
تحقيقاً لقيام الأسرة ودوام النوع البشري ، والسحاق لا يقل خطورة عن اللواط وبقية الانحرافات
والممارسات الجنسية الشاذة والمحرمة ، فهو مصدر خطير من مصادر العدوى بالأمراض
الجنسية (Transmitted Diseases STDs Sexual) لأن النسوة اللواتي يمارسن
السحاق غالباً ما يكن مصابات بهذه الأمراض ، وما دمن يمارسن فاحشة السحاق بلا وازع
من دين ولا خلق فإنهن لا يتورعن عن مخادنة الرجال والنساء ممن هب ودب ، وفي غمرة
هذا الوسط الموبوء يمسين مرتعاً موبوءاً بتلك الأمراض الخطيرة التي تؤدي إلى العقم
والنشوهات والعاهات والموت.

فضلا من الأثر النفسي المدمر الذي يخلفه السحاق في نفس المرأة ، فهو يجعلها
تعزف عن الزواج ، ويحرمها من الذرية، ويجعلها تحس بالعقم ، ويدخلها في دوامة الإحباط
والقلق والخوف من المستقبل ، وهو إحساس مرير قد يدفع بها إذا ما استحکم إلى الانتحار
أو الجريمة .

2- تماس عورتي المرأتين : يحرم تلاصق امرأتين بالغنتين بعورتيهما بغير حائل ، سواء
قصدا اللذة أم لا ، ويحرم التلاصق أيضاً ولو بحائل أن كان بقصد اللذة ، ويكره إن لم
يقصد اللذة وذهب الفقهاء إلى عدم جواز نوم المرأتين في فراش واحد درءاً للفتنة التي قد
تنتج عن تماس العورتين ، وإذا حصل إنزال بالسحاق (على حرمة) فقد وجب الغسل .

وزهد الحنفية إلى أن تماس الفرجين من جهة القبل أو الدبر ينقض الوضوء ، وهو ما يفهم من مذهب المالكية أيضاً الذين قالوا إن لمس المرأة لامرأة أخرى بشهوة ينقض الوضوء ، أما مذهب الحنابلة والشافعية فإن مَس قُبُلِ امرأةٍ لقبل امرأةٍ أخرى أو دبرها لا ينقض الوضوء .

3- السحاق في الصوم : السحاق يُفسد الصوم إذا أنزلت المرأة وعليها القضاء ، وعند المالكية تجب عليها الكفارة أيضاً (صيام شهرين متتابعين ، أو إطعام ستين مسكيناً) لأنه جماع في نهار رمضان ! أما خروج المذني بلمس أو قبلة أو مُباشرةٍ فإنه يفسد الصوم عند المالكية والحنابلة ، ويجب فيه القضاء دون الكفارة .

4- الحد في السحاق : اتفق الفقهاء على أنه لا حد في السحاق ، وإنما يجب التعزير .

5- الشهادة في السحاق : ذهب كثير من الفقهاء إلى أن شهادة النساء اللواتي يمارسن السحاق مردودة ، لأن السحاق مسقطٌ للعدالة

6- يذهب بعض العلماء مبدئياً بأن عقوبته أشد من عقوبة الزنا التي حددها الشرع سواء للمحصن أو غير المحصن؛ لأن الشذوذ الجنسي خلاف الفطرة التي فطر الله الخلق عليها ، وبالنسبة للقبلات واللمسات والأحضان بين فتاتين فهي طبعاً محرمة؛ لأنها تؤدي إلى محرم وهو السحاق، وإن كانت ليست بحرمة الفعل الكامل؛ فالشيطان ليس غيباً لكي يأمر بالفاحشة كلها فوراً، ولكنه يزينها للنفس، وإن قاومت النفس فلن يكف عن التزيين والإغواء حتى تزل قدم بعد ثبوتها، ويقع الإنسان في الخطيئة المحرمة ما لم يقطع على الشيطان الطريق من أوله؛ وذلك بأن يبتعد عما يرغبه في الخطيئة، ويمتنع عن الإصغاء إلى وساوس النفس والشيطان، ويلغيها من أساسها بذكر الله، وبعض النساء زين لهن الشيطان هذه الفعلة فإذا هن من الضاللات الخاسرات في الدنيا والآخرة، ولكل من سقطت في ذلك تنفع التوبة من البداية، ولكن إذا تكرر الفعل فيصعب تركه، خاصة إذا كان الطرف الآخر يهون المعصية ويقول بأنها مجرد قبلات لا تضر ولا تنفع، حب في الله .

ثامنا-الوقاية والعلاج

- 1- رقابة الوالدين بنتهم ومعرفة من تصاحب
- 2 - الحرص على الرفقة الصالحة
- 3- الابتعاد عن المشاهد الإباحية والشاذة التي تنتشر الرذيلة
- 4- الزواج فهو الطريق السليم والسوي وبه تستمر دورة الحياة والحفاظ على النسل وتنقيس الشهوة بالحلال.

المبحث الرابع - الزنا

بلغ المجتمع الغربي المعاصر درجة كبيرة من الحضارة المادية ، ومع هذا فقد تمزقت أوصاله الاجتماعية ، وانهارت دعائمه الأسرية ، فاجتاحته الفوضى وعمته البلوى ، ويرجع هذا إلى العديد من الأسباب ، على رأسها انتشار ظاهرة الزنا في ذلك المجتمع رغم تحريم هذه الظاهرة في جميع الكتب السماوية المنزلة بما فيها الديانة النصرانية . ومن المؤسف حقاً أن يمتد هذا

الانهيار الاجتماعي إلى العديد من الدول الإسلامية التي لم تمتثل لكتاب الله تعالى ، ولم تستجب لسنة رسوله ﷺ ، فخرست دنياها وستخرس آخرتها.

أولاً- تعريف الزنا

هو مصطلح ديني يصف العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة (خارج نطاق الزواج)، وفي الديانات بشكل عام، يعتبر الزنا من الكبائر ومن أعظم الخطايا.

ثانياً- أضرار الزنا

1- يجمع خلاله الشر كله من : قلة الدين ، وذهاب الورع ، وفساد المروءة ، وقلة الغيرة ، ووأد الفضيلة⁽¹²⁾.

2- يقتل الحياء ويلبس وجه صاحبه رقعة من الصفاقة والوقاحة.

3- سواد الوجه وظلمته ، وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو للناظرين .

4- ظلمة القلب ، وطمس نوره.

5- الفقر اللازم لمرتكبيه ، وفي الأثر يقول ﷺ : ((أما مهلك الطغاة ، ومفقر الزناة)).

6- أنه يذهب حرمة فاعله ، ويسقطه من عين ربه وأعين عباده ، ويسلب صاحبه اسم البر ، والعفيف ، والعدل ، ويعطيه اسم الفاجر ، والفاسق ، والزاني ، والخائن .

7- الوحشة التي يضعها الله في قلب الزاني ، وهي نظير الوحشة التي تعلق وجهه؛ فالعفيف على وجهه حلاوة ، وفي قلبه أنس ، ومن جالسه استأنس به ، والزاني بالعكس من ذلك تماماً.

8- الناس ينظرون إلى الزاني بعين الريبة والخيانة ، ولا يأمنه أحد على حرمة وأولاده.

9-ومن أضراره الرائحة التي تفوح من الزاني ، يشمها كل ذي قلب سليم ، تفوح من فيه ، ومن جسده .

10- ضيقة الصدر وحرجه ؛ فإن الزناة يعاملون بصد قسودهم ؛ فإن من طلب لذة العيش وطيبه بمعصية الله عاقبه الله بنقيض قصده ؛ فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته ، ولم يجعل الله معصيته سبباً إلى خير قط .

11- الزاني يعرض نفسه لفوات الاستمتاع بالحوار العين في المساكن الطيبة في جنات عدن.

12- الزنا يجرئ على قطيعة الرحم وعقوق الوالدين ، وكسب الحرام ، وظلم الخلق ، وإضاعة الأهل والعيال وربما قاد إلى سفك الدم الحرام ، وربما استعان عليه بالسكر والشرك وهو يدري أو لا يدري ؛ فهذه المعصية لا تتم إلا بأنواع من المعاصي قبلها ومعها ، ويتولد عنها أنواع أخرى من المعاصي بعدها ؛ فهي محفوفة بجند من المعاصي قبلها وجند من المعاصي بعدها ، وهي أجلب شيء لشر الدنيا والآخرة ، وأمنع شيء لخير الدنيا والآخرة .

- 13- الزنا يذهب بكرامة الفتاة ويكسوها عاراً لا يقف عندها ، بل يتعدها إلى أسرتها ؛ حيث تدخل العار على أهلها، وزوجها ، وأقاربها ، وتتكس به رؤوسهم بين الخلائق.
- 14- أن العار الذي يلحق من قذف بالزنا أعلق من العار الذي ينجر إلى من رمي بالكفر وأبقى ؛ إلا إن التوبة من الكفر على صدق القاذف تذهب رجسه شرعاً ، وتغسل عاره عادة ، ولا تبقي له في قلوب الناس حطة تنزل به عن رتبة أمثاله ممن ولدوا في الإسلام، بخلاف الزنا ؛ فإن التوبة من ارتكاب فاحشته . وإن طهرت صاحبها تطهيراً ، ورفعت عنه المؤاخذة بها في الآخرة . يبقى لها أثر في النفوس ، ينقص بقدره عن منزلة أمثاله ممن ثبت لهم العفاف من أول نشأتهم .
- وانظر إلى المرأة ينسب إليها الزنا كيف يتجنب الأزواج نكاحها وإن ظهرت توبتها ؛ مراعاة للوصمة التي ألصقت بعرضها سالفاً ، ويرغبون أن ينكحوا المشتركة إذا أسلمت رغبتهم في نكاح الناشئة في الإسلام .
- 15- إذا حملت المرأة من الزنا ، فقتلت ولدها جمعت بين الزنا والقتل ، وإذا حملته على الزوج أدخلت على أهلها وأهله أجنياً ليس منهم ، فورثهم ورآهم وخلا بهم ، وانتسب إليهم وهو ليس منهم إلى غير ذلك من مفاصد زناها .
- 16- أن الزنا جناية على الولد ؛ فإن الزاني يبذر نطفته على وجه يجعل النسمة المخلقة منها مقطوعة عن النسب إلى الآباء ، والنسب معدود من الروابط الداعية إلى التعاون والتعاقد؛ فكان الزنا سبباً لوجود الولد عارياً من العواطف التي تربطه بأدنى قربي يأخذون بساعده إذا زلت به فعله، ويتقوى به اعتصابهم عند الحاجة إليه ، كذلك فيه جناية عليه ، وتعرض به ؛ لأنه يعيش وضيعاً في الأمة ، مدحوراً من كل جانب ؛ فإن الناس يستخفون بولد الزنا ، وتتكبر طبائعهم ، ولا يرون له من الهيئة الاجتماعية اعتباراً ؛ فما ذنب هذا المسكين ؟ وأي قلب يحتمل أن يتسبب في هذا المصير؟!
- 17- زنا الرجل فيه إفساد المرأة المصونة وتعرضها للفساد والتلف.
- 18- الزنا يهيج العداوات ، ويزكي نار الانتقام بين أهل المرأة وبين الزاني ، ذلك أن الغيرة التي طبع عليها الإنسان على محارمه تملأ صدره عند مزاحمته على موطوءه ، فيكون ذلك مظنة لوقوع المقاتلات وانتشار المحاربات ؛ لما يجلبه هتك الحرمة للزوج وذوي القرابة من العار والفضيحة الكبرى ، ولو بلغ الرجل أن امرأته أو إحدى محارمه قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت .
- قال سعد بن عباد (لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح)
فبلغ ذلك رسول الله فقال ﷺ (أتعجبون من غيرة سعد ! والله لأنا أغير منه ، والله أغير مني ؛ ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن) أخرجه البخاري ومسلم .

- 19- للزنا أثر على محارم الزاني ، فشعور محارمه بتعاطيه هذه الفاحشة يسقط جانباً من مهابتهم . كما مر . ويسهل عليهن بذل أعراضهن . إن لم يكن ثوب عفافهن منسوجاً من تربية دينية صادقة بخلاف من ينكر الزنا ويتجنبه ، ولا يرضاه لغيره ؛ فإن هذه السيرة تكسبه مهابة في قلوب محارمه ، وتساعد على أن يكون بيته طاهراً عفيفاً.
- 20- للزنا أضرار جسيمة على الصحة يصعب علاجها والسيطرة عليها ، بل ربما أودت بحياة الزاني ، كالإيدز ، والهرس ، والزهري ، والسيلان ، ونحوها.
- 21- الزنا سبب لدمار الأمة ؛ فقد جرت سنة الله في خلقه أنه عند ظهور الزنا يغضب الله . عز وجل . ويشتد غضبه ، فلا بد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة. قال ابن مسعود: (ما ظهر الربا والزنا في قرية إلا أذن الله بإهلاكها).

ثالثاً- عقوبة الزنا في الشرع

الزنا من أعظم الحرام وأكبر الكبائر ، وقد توعده الله المشركين والقتلة بغير حق والزناة بمضاعفة العذاب يوم القيامة والخلود فيه صاغرين مهانين لعظم جريمتهم وقبح فعلهم ومما يدل على عظم شأن الزنا أن الله . سبحانه . خص حده من بين الحدود بخصائص ، قال ابن القيم :

الأول:المسلم غير المتزوج (غير المحصن) يُجلد مئة جلدة مع التغريب سنة ،وكذلك المسلمة كما جاء في قوله تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ (النور : الآية 2) وكذلك المرأة ،أما المسلم المحصن أي المتزوج يقتل بالرجم حتى الموت ،وكذلك المتزوجة عقوبتها الرجم بالحجارة حتى الموت.

الثاني : أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رافة في دينه ؛ بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم ، فإنه سبحانه من رافته بهم شرع هذه العقوبة ؛ فهو أرحم منكم بهم ، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة ؛ فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرافة من إقامة أمره .

قال البيهوتي : قد ثبت أن النبي رجم بقوله وفعله في أخبار تشبه التواتر . وقد أنزله الله تعالى في كتابه ، ثم نسخ رسمه وبقي حكمه ، لما ورد عن عمر بن الخطاب أنه قال : " إن الله بعث محمد بالحق وأنزل عليه الكتاب . فكان مما أنزل الله آية عقوبة الزنا فقرناها وعقلناها ووعيناها ، رجم رسول الله ورجمنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف .

أما شروط تطبيق العقوبة فهي أربعة شهود رجال عدول ثقات يشهدون بدخول القضيب بالفرج (غياب حشفة الذكر على الأقل) رأي العين المباشر، أو اعتراف الزاني أو الزانية نفسه بما فعل

باختيار شخصي. و يظهر من هذا صعوبة إقامة الحد، وهذا حتى لا يصير اتهام الناس بالزنا سهلاً.

وإذا اتهم أحد المسلمين آخرًا بالزنا، ثم لم يستطع أن يأتي بأربعة شهداء عدول (موثوقين حسب شروط محددة)، فإنه يجلد ثمانين جلدة عقوبة الافك، ولا تقبل شهادته بعد ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: الآية 4) وقد وضع الإسلام عقوبات دنيوية وحدد علاقات الزاني والزانية بعد فعل الزنا. مثال ذلك تحريم الزواج بين الزاني والزانية. قال تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: الآية 3).

رابعاً- زنا المحارم

أجريت دراسة في مصر العربية من قبل الدكتور احمد المجدوب عن زنا المحارم⁽¹³⁾، وجاءت نتائج الدراسة محددة لملاح الشخصيات التي ترتكب هذه الجريمة، وهي أن غالبية الضحايا من الإناث من المتزوجات، أو من الأراامل والمطلقات، في حين أن الجناة الذكور غالبيتهم من غير المتزوجين، وأشارت الدراسة إلى أن مرتكبي زنا المحارم يعيشون في مساكن ضيقة، تعوق خصوصية الأفراد داخلها، كما أنهم من ذوي التعليم المنخفض، ويميلون لعدم التدين. اجتهد المجدوب حتى يتمكن من تحديد ملامح هذه الظاهرة في مصر، فقد اجتهد حتى حصل على عينة عشوائية من الجرائم التي تم الإبلاغ عنها على مدى خمس سنوات، فوصل عدد الحالات إلى 200 حالة شملت كل حالات أشكال العلاقة سواء بين الأب وابنته، أو الأم وابنها... الخ.

وبدأ المجدوب ببيان النسبة المئوية في كل نمط من الأنماط الثمانية عشر كالتالي: بلغت نسبة نمط القرابة (أخ - أخته) 25% يليه نمط (الأب - البنت) بنسبة 12%، فنمط (زوج الأم - ابنة الزوجة) بنسبة 9%، ثم نمط (الابن - زوجة الأب) بنسبة 6%، ومثله نمط (زوج الأخت - أخت الزوجة) أما نمط (ابن الأخت - خالته) فقد بلغت نسبته 5%، تليه نمط (الأم - الابن)، ونمط (ابن الأخ - العم) و(الخال - ابنة الأخت) و(الأب - زوجة الابن) انخفضت لنسبة 4%، وانخفضت لنسبة 3% لنمطي (العم - ابنة الأخ)، و(ابن الأخت - زوجة الخال). فيما وصلت أنماط (ابن الأخ - زوجة العم) و(الأخ - زوجة أخيه) إلى 2% وفي تعليقه على هذه النتائج قال الدكتور المجدوب: "نلاحظ أنه كلما ابتعدت القرابة انخفضت نسبة جرائم زنا المحارم، فيما عدا زنا (الأم - الابن) التي هي بطبيعتها قليلة ليس في مصر وحدها، بل في كل الدول عدا اليابان التي لاحظ المراقبون الغربيون أن الأمهات اليابانيات ما زلن حتى اليوم

يستمنين لأبنائهم الشبان خلال النهار في العراء، وفي الليل في فراش الأسرة، عسى أن يحول دون وقوع الأسرة في حالة من الفوضى التي تصيب النظام في البيت.!

الحالة الزوجية

وحول الحالة الزوجية لضحايا زنا المحارم يقول الدكتور المجدوب: تبين أن نسبة اللاتي لم يسبق لهن الزواج من ضحايا زنا المحارم نسبتهن (47.5%)، تليهن المتزوجات ونسبتهن (26%)، فالمطلقات ونسبتهن (18%)، وأخيراً الأرامل وبلغت نسبتهن (8.5%) إلى العدد الإجمالي للعينة.

ويقول المجدوب ليس من شك في أن الإقامة معاً تُعدّ عاملاً مهماً في وقوع الزنا بالمحارم، وهو ما لاحظناه في زنا الإخوة بالأخوات والآباء بالبنات، وأزواج الأمهات ببنات الزوجات والذي يمثل (76%) من حالات زنا المحارم، حيث يرى الجناة الإناث بانتظام وهن يتصرفن على سجيتهن، ويرتدين ثياباً قليلة، ويتحركن هنا وهناك بلا تكلف أو حذر. وقد ترتفع النسبة إذا أضفنا من الأنماط الأخرى الحالات التي كانت الضحية تقيم فيها مع الجاني في مسكن واحد مثل الخال الذي يقيم مع الأخت وبناتها، والبنات المتزوجة وتقيم هي وزوجها مع أسرتها، بما في ذلك إختها.

ويتابع المجدوب: وفيما يتعلق بزنا الإخوة بالأخوات لم توجد بينهن متزوجات بينهن، وإنما وجدت أرامل بنسبة (4%)، ومطلقات بنسبة (16%) من المجموع الكلي للأخوات اللاتي زني بهن إختهن، وهناك احتمالان: الأول أن تكون النساء قد عدن للإقامة مع أسرهن بعد ترملهن أو طلاقهن، والاحتمال الثاني أن يكون الإخوة الزناة قد انتقلوا للإقامة معهن فحدث ما حدث.

وفيما يتعلق بزنا الأبناء بالأمهات تبين أنه لم تكن بين الأمهات متزوجات، وإنما مطلقات بنسبة (62.5%)، وأرامل بنسبة (37.5%) من المجموع الكلي للأمهات، وهذا يُعدّ مؤشراً إلى أن عدم وجود زوج يؤدي دوراً في وقوع الزنا، خاصة إذا كانت الأم قد حصرت عواطفها في ابنها، فتركته ينام معها في فراش واحد، حتى بعد أن بلغ وأصبح مراهقاً، بالإضافة إلى ضعف الوازع الديني لديها.

وفيما يتعلق بالحالة الزوجية للجناة فقد تبين أن نسبة الجناة غير المتزوجين تبلغ (49.5%) إلى العدد الإجمالي لهم، يليهم المتزوجون بنسبة (36.5%)، ثم المطلقون بنسبة (9.5%)، وأخيراً الأرامل ونسبتهم (4.5%) وبالمقارنة بين نسب الجناة وما يقابلها لدى الضحايا نلاحظ ارتفاع نسبة الذين لم يسبق لهم الزواج من الجناة عن نظرائهم من الضحايا (49.5% مقابل 47.5%)، وكذلك ارتفاع نسبة المتزوجين من الجناة على نسبة المتزوجات من الضحايا (18% مقابل 9.5%) وفيما يتعلق بارتفاع نسبة الجناة الذين لم يسبق لهم الزواج على نسبة الضحايا يقول المجدوب إنه يتفق وما أعلنه الجهاز المركزي المصري للتعبيئة العامة

والإحصاء⁽¹⁴⁾، من أن عدد العزاب في مصر ممن تتراوح أعمارهم بين العشرين والخامسة والثلاثين بلغ ثمانية ملايين و(962 ألفاً و213) شخصاً، منهم خمسة ملايين و(233) ألفاً ذكوراً، وثلاثة ملايين و728 ألفاً و407 من الإناث، وهو ما يفسر لنا ارتفاع نسبة الجناة الذين لم يسبق لهم الزواج على نسبة الضحايا اللاتي لم يسبق لهن الزواج.

درجة التعليم

يقول الدكتور المجدوب في توزيعه للضحايا حسب التعليم: نهدف من هذا الأمر التعرف على ما إذا كانت توجد علاقة بين المستوى التعليمي لهن، وبين ترديهن في حماة الزنا مع محارمهن، وهل حصول المرأة على شهادة أعلى يجعلها أكثر استعصاء على العوامل التي تؤدي إلى زنا المحارم. وتبين من الدراسة أن اللاتي لا يقرأن ولا يكتبن من الضحايا نسبتهن (26.5%)، في حين بلغت نسبة اللاتي يقرأن ويكتبن (28%) انخفضت إلى (15%) فيمن يحملن الشهادة الابتدائية، ثم إلى (13.5%) لمن يحملن الشهادة الإعدادية، وإلى (13%) للناجيات على الشهادة الثانوية، في حين لم تزد نسبة الناجيات على شهادة جامعية على (0.4%) ومن المقارنة بين الضحايا والجناة يتبين الارتفاع الملحوظ في نسبة من لا يقرأن ولا يكتبن عن مثيلتها لدى الجناة (26.5% مقابل 15%)، وكذلك ارتفاع نسبة من يقرأن ويكتبن عن مثيلتها لدى الجناة (28% مقابل 21%).

عدد غرف السكن

وأوضحت الدراسة أن نسبة الضحايا اللاتي يقمن في غرفة واحدة بلغت (20%)، في حين ارتفعت نسبة اللاتي يقمن في غرفتين إلى (31%)، تليها نسبة من يقمن في ثلاث غرف وهي (28%)، فاللاتي يقمن في خمس غرف فأكثر وبلغت نسبتهن (5.5%) ويقول المجدوب في تعليقه على هذه النتائج: "عادة ما يستخدم عدد الغرف في المسكن للتعرف على المستوى (الاقتصادي - الاجتماعي) الذي ينعكس عادة على السلوك والعلاقات وطريقة الحياة، وهو ما يطلق عليه وصف الثقافة ويضيف: لاحظنا أنه في نمط القرابة (الأخ - الأخت) الذين ارتكبوا زنا المحارم بلغت نسبة من يقيمون منهم في غرفة واحدة (30%) إلى العدد الإجمالي للإخوة والأخوات الذين مارسوا هذه العلاقة الآثمة. وتتفق النسبة مع ما أسفر عنه الإحصاء العام للسكان الذي أجري في عام 1996 الذي أفاد بأن (30%) من الأسر في مصر يقيمون في غرفة واحدة بمتوسط سبعة أفراد.

أما الإخوة والأخوات الذين يقيمون في غرفتين بلغت نسبتهن 40% يليهم الذين يقيمون في ثلاث غرف، وبلغت نسبتهن 20%، فالذين يقيمون في أربع غرف ونسبتهن 10%. وهكذا يكون الازدحام في غرفتين له نفس الأثر الذي للازدحام في غرفة واحدة، وربما أكثر بالنظر إلى أن

الأبناء غالبًا ما ينامون متلاصقين على سريرين لا أكثر، حيث قد لا تتسع الغرفة لأكثر من ذلك، كما أن ضيق الشقة غالبًا ما يحول دون أن تكون لأعضائها خصوصية، وهو من أهم العوامل التي تؤدي إلى زنا المحارم.

غير متدينين

وحول توزيع الضحايا حسب درجة تدينهن أشارت الدراسة إلى أنه بالنسبة للصلاة تبين أن اللاتي أجبن أنهن يصلين بانتظام بلغت نسبتهن (2.5%) فقط، أما اللاتي يصلين أحيانًا فبلغت نسبتهن (31%)، في حين بلغت نسبة اللاتي لا يصلين بالمرة (66.5%). ويعلق المجدوب على هذه النتائج بالقول: وهكذا تتسق إجابات الضحايا مع سلوكهن المشين، فغالبيةهن لا يصلين بالمرة، وحوالي ثلثهن يصلين أحيانًا مما يفسر لنا لماذا ارتكبن الجريمة البشعة، فلو كان لديهن وازع ديني قوي لامتنعن عنها، وبالذات كبيرات السن منهن كالأمهات والعمات والخالات وغيرهن.

وحول فريضة الصيام تقول الدراسة إن الضحايا اللاتي أجبن أنهن يصمن بانتظام بلغت نسبتهن (30%)، أما اللاتي يصمن بغير انتظام فقد بلغت نسبتهن (37.5%)، وانخفضت إلى (32.5%) لمن أجبن أنهن لا يصمن بالمرة.

ويعلق الدكتور المجدوب على هذه النتائج بالقول: "هكذا نلاحظ ميلًا واضحًا نحو عدم التدين لدى ضحايا زنا المحارم، وهو الذي يضعف الوازع الديني لديهن، بل يعدمه فيصبح إقدامهن على ارتكاب الجريمة سهلاً، إذا توافرت العوامل الأخرى التي تتفاعل فتؤدي إليه؛ فالمعروف عن الجريمة أن الجريمة بصفة عامة تقع إذا تغلبت الدوافع على الموانع.

خامسا- الأمراض الناتجة عن الزنا

تعتبر الأمراض الجنسية من أكثر الأمراض صعوبة في العلاج، كما تؤكد المراجع الطبية على أن هذه الأمراض المعدية هي الأكثر انتشاراً في العالم، فلا غرابة إذا علمنا أنه كل عام يُصاب بمرض السيلان أكثر من ربع مليار إنسان في العالم!

من الأمراض الخطيرة التي تسببها العلاقات الجنسية المحرمة مرض الهربس الذي يعد من أخطر الأمراض الجنسية من حيث سرعة العدوى به، فهو ينتقل عن طريق الاحتكاك المباشر بالمرضى واستعمال أدواته الخاصة، وبنتيجة تفشي الفواحش والإعلان بها تفتت أمراض جديدة لم نسمع بها من قبل، مثل الورم القنبيطي المؤتف، والمليساء الرخوية السارية وغير ذلك كثير.

وصدق الله سبحانه وتعالى عندما حدثنا عن عواقب الزنا ومساوئه فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: الآية 32). وصدق حبيب الرحمن ﷺ عندما قال: (ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت) [رواه الطبراني]. والسؤال: لو كان الرسول ﷺ يقول

أشياء من عند نفسه، إذن كيف عرف بأنه ستظهر أمراض تؤدي للموت مثل الإيدز؟ فيروس نقص المناعة المكتسب - الإيدز - هذا الفيروس الذي لا يكاد يُرى حتى بأضخم المجاهر الإلكترونية فقطره يبلغ واحد على عشرة آلاف من المليمتر، وعلى الرغم من صغره فقد سبب موت ملايين البشر في سنوات قليلة بسبب الفاحشة وما نتج عنها، فهل نعتبر نحن المسلمون، ونعتز بتعاليم ديننا الذي حمانا من هذا الوباء المهلك؟

تعريف مرض الايدز

هو أخطر الأمراض المنقولة جنسياً أو يمكن القول أيضاً أنه من أخطر الأمراض التي عرفتها البشرية على الإطلاق و الاسم الكامل للمرض هو " متلازمة نقص المناعة المكتسبة" - (الإيدز

(AIDS – Acquired Immune Deficiency Syndrome

و المرض يسببه فيروس يطلق عليه: "فيروس نقص المناعة البشرية" (The Human

HIV – Immunodeficiency Virus

عندما يصاب الإنسان بالفيروس يحاول الجسم محاربه بتصنيع أجسام مضادة، هذه الأجسام المضادة عبارة عن جزيئات خاصة تحارب الفيروس. يجري اختبار الإصابة بالمرض من خلال اكتشاف هذه الأجسام المضادة، فوجودها في الدم يدل على الإصابة، و يسمى هذا الشخص: " إيجابي للأجسام المضادة للفيروس" -- HIV- و الشخص الذي لديه هذه الأجسام المضادة لا يعني بعده عن الإصابة بمرض الإيدز. فالمصاب يظل لمدة طويلة قد تصل إلى 10 سنوات قبل أن تظهر عليه أعراض المرض. و مع استمرار الإصابة لمدة طويلة يبدأ جهاز المناعة في الضعف و التآكل. هذا الضعف في المناعة و الحماية يجعل بعض مسببات الأمراض الضعيفة تهاجم الجسم منتهزة فرصة الضعف في المناعة، لهذا تسمى مثل هذه العدوي " العدوي الإنتهازية". **positive**

وتحدث تقارير الأمم المتحدة بأن هنالك في العالم 14 ألف شخص يُصابون بالإيدز وذلك كل يوم! ونصف هذا العدد من النساء، ومن هؤلاء 2000 طفل وطفلة! ونحن نقول كل يوم، فتأمل هذه الأعداد الضخمة، إن الخسارات التي سببها هذا المرض في عام 2008 هي 22 بليون دولار! لقد حصد الإيدز حتى اليوم (منذ 1980 وحتى نهاية 2005) أكثر من 27 مليون إنسان منهم رجال ونساء وأطفال، وفي عام 2005 فقط فقد أكثر من 3 ملايين شخص حياتهم، وهنالك أكثر من 40 مليون شخص يعيشون مع هذا الفيروس وسوف يموتون عاجلاً أم آجلاً. تلك الأرقام تمثل نسب توزع المصابين بالإيدز لعام (2005) في العالم تبعاً للأمم المتحدة، كيف يصل الفيروس للجسم؟ إن السبب المباشر هو الاتصال الجنسي أو الشذوذ الجنسي، ويمكن أن يدخل هذا الفيروس من شخص مصاب به إلى آخر عن طريق اللعاب من خلال التقبيل، أو عن طريق الدم في الجروح في الجلد أو عن طريق الأغشية المخاطية في الأنف

مثلاً. كما بينت الدراسات الجديدة أن الإيدز ينتشر من خلال دموع العين، أما البول والبراز والعرق فلا تحوي هذا الفيروس. حتى إن الأم المصابة بالفيروس سوف تنتقل الإصابة إلى طفلها الرضيع من خلال الحليب.

كيف ينتشر فيروس (HIV) ؟

ينتشر هذا الفيروس عن طريق سوائل الجسم المختلفة: الدم، السائل المنوي، الإفرازات المهبلية ولبن الأم، أما بالنسبة (للعب، الدموع والعرق) فلا يوجد دليل محدد أن الفيروس ينتشر عن طريقهم. يدخل فيروس (HIV) جسم الإنسان عن طريق الأغشية المخاطية (جدار المستقيم، جدار المهبل أو المناطق الداخلية في الفم والحلق) أو من خلال الاتصال المباشر بالدم الملوث. هذا الفيروس لا يستطيع اختراق الجلد، إلا في حالة وجود جرح في الجلد وحدث احتكاك بدم شخص آخر ملوث. ولا يمكن أيضاً انتشار الفيروس عن طريق الهواء من خلال العطس أو السعال. لذلك لا يوجد خطورة في التعامل الطبيعي بين الشخص المصاب والأشخاص الآخرين.

كيف تحدث الإصابة بفيروس (HIV) ؟

هناك بعض الأشخاص يضعون أنفسهم في قائمة الأشخاص المعرضين للإصابة بالفيروس، لذلك ما فعله هو الذي يجعلك عرضة للإصابة أو لا، السلوك الذي يضعك في القائمة هو :

- الاتصال الجنسي مع شخص حامل للفيروس دون وجود حماية كافية، الحماية هنا تعني دون استخدام واقي ذكري أيا كانت طريقة الاتصال أو اختلاف وضع الذكر والأنثى، كل أشكال الاتصال الجنسي بدون حماية كافية تؤدي إلى انتشار الفيروس. الاتصال الجنسي مع الشخص الحامل للفيروس هو أكثر الطرق التي تؤدي إلى انتشار المرض
- استخدام الإبر بين الشخص المصاب وشخص آخر يؤدي إلى انتشار الفيروس، أو الأشخاص الذين يتناولون أي نوع من المخدرات عن طريق الإبر يمكن أن يحدث لهم إصابة عن طريق الاتصال الجنسي .
- أيضاً نقل الدم من الوسائل التي تنقل الفيروس، هناك طرق حديثة للكشف عن وجود الدم المصاب بالفيروس عن طريق الأشعة بدلاً من أخذ عينة من الدم.
- أما الطريقة الأخيرة التي يمكن أن تصاب بالفيروس عن طريقها هي أن تولد به. حيث يمكن إصابة الطفل قبل أو بعد الولادة عن طريق الأم المصابة بالفيروس، أو عن طريق الرضاعة. لا يمكن الإصابة بالفيروس عن طريق العلاقة العادية بين الأفراد، مثل اللمس أو استخدام المناديل الورقية أو التليفون، أو المشاركة في طعام واحد .
- مشاركة الحياة مع مصابي الإيدز لا تؤدي إلى حدوث عدوى إلا في حالة الاتصال الجنسي أو استخدام إبر أو حقن مشتركة معهم.

أعراض الإصابة بفيروس (HIV):

حوالي من 50% - 90% من المصابين الجدد بفيروس (HIV) يشعرون بأعراض مشابهة لأعراض الأنفلونزا، تضخم في الغدة الدرقية أو طفح جلدي، حيث يقوم الجسم بمحاولة محاربة هجوم الفيروس عليه. هذه الأزمة الصحية الصغيرة يمكن أن تكون فرصة كبيرة لمحاولة منع الخلل الذي يحدث بعد ذلك في جهاز المناعة بالجسم .

الأشخاص المصابون بفيروس (HIV) يترددون لسنوات لأخذ خطوة العلاج. ولكن إذا كنت تعتقد أنك مصاب بفيروس (HIV) في الأسابيع الأولى من الإصابة فهناك أسباب عديدة تجعلك تسارع في محاولة العلاج. حيث أن العلاج في بداية الإصابة يمكن أن يغير مسار المرض .

ولكن بدون العلاج في البداية فإن حالة الفيروس تتقدم بسرعة كبيرة جداً في خلال الشهور الأولى حيث يدخل الفيروس الجسم ويتكاثر بشكل كبير في خلاياه .

يصل فيروس (HIV) لأقصى درجاته في خلال الشهور الأولى من المرض .

وكما مر الوقت أصبحت فرص العلاج أضعف وأقل. حيث أن العمل على تقوية جهاز المناعة منذ بداية المرض في الأسابيع الأولى يمكن أن يجعل الفيروس غير قادر علي التمكن من جهاز المناعة لدرجة أكبر.

تجربة علاج فيروس (HIV) حديثة، ومجموعة المرضى الذين خضعوا لتجربة العلاج هذه صغيرة جداً ولكنهم تمكنوا من بقاء نسبة الفيروس منخفضة في الجسم لسنوات، ولكن غير معروف حتى الآن إلي متي سيظل تأثير العلاج علي الفيروس وهل هو علاج أم يعطى فرصة للمريض أن يحيى بضعة سنوات أخرى .

ولكن إذا كان هناك فرد يشعر أنه لديه أعراض فيروس (HIV) فعليه باللجوء إلى الطبيب فوراً.

مصادر ومراجع الفصل السادس

- 1-مالك أبو خير،مجلة الثرى، العدد 255 تاريخ 23-10-2010 السنة السادسة.
- 2- من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة
- 3-عولمة الشذوذ د. أحمد خيرى العمري .
- 4-انظر كتاب Desitig Arabs للكاتب جوزيف مسعد2007 ، وما كتبه عن مافيا الشذوذ الجنسي .

- 5- صحيح الجامع الصغير، قال الألباني : حديث صحيح، وقد رواه الإمام أحمد والحاكم عن عبد الله بن عباس، وفي رواية أخرى عن الحاكم عن محمد بن عبد الله بن جحش أن النبي قال : " غطّ فخذك فإن الفخذ عورة "
- 6- رواه الإمام مسلم في صحيحه، والإمام أحمد والترمذي .
- 7- انظر النص الديني: اللقاح قبل العلاج دائماً د. أحمد خيرى العمري.
-8<http://www.farfesh.com/display.x?cid=21&sid=36&id=10620>
- 9- المصدر السابق.
- 10- عبدالله الجزيري، مسألة اللواط.. إحدى أخطر المشاكل الاجتماعية، الطبعة: الأولى، بيروت، دار المحجة البيضاء، 2010، ص.56
- 11- المصدر نفسه، ص.62
- 12- منتديات شباب ليبيا ، قسم المنبر الإسلامي العام.
- 13- أحمد المجدوب، زنا المحارم .. الشيطان في بيوتنا، مطبعة المشرق، القاهرة، 2003، ص26-34.
- 14- هذا التقرير نشرته جريدة الجمهورية المصرية في 12 آذار/مارس، 2003.

الفصل السابع

الانتحار Suicide

لم تخلُ امة من الأمم السابقة والحاضرة من مشكلات اجتماعية معقدة ومتداخلة مع عوامل اقتصادية وسلوكية (أخلاقية) وتفاعلها مع بعضها البعض أدت في بعض الأحيان إلى أقدام أبنائها على الانتحار ووضع حد لحياتهم، ومن ثم معاناتهم التي عاشوا معها، سواء لمدد طويلة أرقتهم وقضت مضجعهم ولازمتهم، أو كانت طارئة ومفاجئة بالنسبة لهم دفعتهم إلى هذا السلوك الدموي والمأساوي باتخاذهم قرار الانتحار بشتى الوسائل والطرق .

وقبل الدخول في تفاصيل الموضوع لابد من الإشارة إلى أهم أسباب الانحراف السلوكي عند الإنسان والتي يمكن إدراجها بالشكل الآتي:

1-انحراف التربية

فقد اختلت التربية وانحرفت عن مسارها وبدت تسلك منحى آخر حيث ركزت فيه على الماديات وهمشت الروحانيات، وأصبح الأبناء يفكران في مآكل الطفل وملبسه وتهيئة الظروف لتحقيق كل رغباته الآنية والمستقبلية، فركّزوا على التعليم أكثر من التربية وإعطاءه الحرية التامة دون أن يعطى حصانة ومناعة من تلك الأمراض الخلقية والنفسية، فكان كل همهما أن يكون ولدا متميزا من الظاهر حتى ولو كان له خواء روحيا أو انحرافا سلوكيا من الداخل.

2-غياب الوازع الديني

حافظ أبائنا على القيم الدينية واعتبروها ثابتة لا يمكن تجاوزها فتكونت لديهم حصانة ذاتية تمنعهم من ارتكاب المعاصي ، ولو أن أحدا ارتكب ذنبا ما فإن صوت الضمير ومحاكمته سوف ترده إلى الخط السوي والطريق الحق فيكون بعده تائبا منيبا ، أما الآن فقد مات عند البعض بل الأغلب الضمير وتبدل الحس كما إن الحصانة الدينية فقدت سيطرتها على الذات بسبب عدم تبني تلك المبادئ أو ربما عدم تقبلها متجسدة في أرض الواقع.

3-غياب الرقابة الاجتماعية

المجتمع له أثره وتأثيره على الفرد لأن الإنسان اجتماعي بطبعه ولذلك فهو يحترم الأعراف والتقاليد حتى صارت لها الأولوية وقد أغفل المجتمع فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأصبح ينظر إلى هذه الظاهرة بنظرة القبول والتقبل أو انه يلتبس لها الأعذار وأخذ البعض يتفاخر أمام الآخرين بمغامراته وعلاقاته.

4-دور وسائل الإعلام

شكلت وسائل الإعلام ثقافة خاصة تسعى بأن تجرد الإنسان من كل ثوابته لتنطمس ويكون تبعا للآخر حيث يتقمص شخصيته ويتبنى أفكاره ويتقبل آراءه وحلوله ومقترحاته دون قيد أو شرط، ولا شك إنه لا يخفى على أحد ما يشكله الأعلام المنفتح من خطر على أي مجتمع محافظ

وخاصة إذا كان أعداء هذا المجتمع هم من يديروا ذلك الأعلام ويكرسوه لتحقيق رغباتهم وتطلعاتهم وهم مؤمنون كل الإيمان بصراع الحضارات وعولمة الحضارة الغربية ، والوسائل الإعلامية تحمل شيء من الثقافة إلا إن أغلبها من الثقافة المستهلكة والموبوءة وهي بالتالي سلاح ذو حدين يحمل في طياته الخير والشر .

5- الفراغ والضياع

يشكل الفراغ خطراً كبيراً على الإنسان إذا لم يستغله في تحقيق ذاته وخدمة مجتمعه ، فالفراغ يجعل من الإنسان العوبة فيتبنى أي فكرة تخطر في باله حتى يملي بها وقته ويتخلص من فراغه القاتل وبالخصوص إذا كانت هذه الفكرة تحقق متعه حتى ولو كانت هذه المتعة آنية ربما تجر بعدها الويلات ، ووسائل الترفيه المستوردة في أغلبها لا تبني الإنسان ولا تنمي مواهبه كما إنها لا تخدم المجتمع، أما القسم الآخر منها فإننا لا نستخدمه الاستخدام الأمثل بل يغلب على استخداماتنا - لهذا النوع - العبث بحيث يكون المردود سلبي على الفرد والمجتمع ومما يتجلى في هذا المضمار استخدامنا للشبكة العنكبوتية (الانترنت) ووسائل الاتصال والأماكن الترفيهية.

6- عزوف الشباب عن الزواج

تتبلور الأفكار مع مرور الزمن ومن هذه الأفكار فكرة تأجيل الزواج أو العزوف عنه وهذا يرجع إلى أسباب كثيرة أبرزها غلاء المهور وتوابع الزواج والرغبة في عدم تحمل المسؤولية والبحث عن الحرية والاستمتاع و إكمال الدراسة و البحث عن عمل.

7- أصدقاء السوء

كثيراً ما يقع الإنسان في فخ الصداقة الزائفة إذا لم يجيد اختيار الأصدقاء ويكشف عن معدنهم وطبيعتهم وخاصة إذا عرفنا أن أصدقاء السوء يسلكون كل مسلك لاستقطاب كل من حولهم إلى بؤرة الفساد وموطن الرذيلة.

الانتحار (Suicide) هو واحداً من الانحرافات السلوكية لدى الإنسان وهو التصرف المتعمد من قبل شخص ما لإنهاء حياته، ويرى آخرون أنه قتل النفس تخلصاً من الحياة، وقد اختلفت الآراء حول الانتحار هل يعكس شجاعة الشخص المنتحر أم جبنه وانعكاس لفشله وعدم الحاجة لاستمرار حياته. أن إقدام الفرد على إزهاق روحه و التخلص من حياته بإرادته ، يعتبر من أغرب أنواع السلوك الإنساني ، و أصعبه على الفهم و التفسير فالتخلص من الذات (الانتحار) أصبحت من ضمن أسباب الموت البشري في هذا العصر و الذي أطلق عليه عصر القلق ، وخصوصاً في المجتمعات الغربية و النسبة تقل و بكثير في البلاد الإسلامية لوجود الرادع الإيماني ألا أنه و مع هذا فإنها تظل محلاً للدراسة والعناية من قبل المختصين و الدارسين في

مجال العلوم الإنسانية، وهناك عدة طرق للانتحار وأكثر الطرق شيوعاً هي الشنق ثم القتل بالأسلحة النارية.

ومن المؤسف جداً أن يكون وقود هذه الظاهرة شباب في ربيع العمر لم يجدوا حضاناً دافئاً يرتمون إليه في لحظة يأس، فكان الانتحار ملاذهم الوحيد انتقاماً من أنفسهم ومجتمعهم وهروباً نحو الضعف والعجز الذي لا يحل المشكلة بل يفاقمها ويزيدها تعقيداً وذلك في ظل غياب واضح للرادع الديني والقانوني والأسري والتربوي.

أولاً- تحليل دوافع وأسباب الانتحار

تتعدد دوافع و غايات الانتحار ذلك لأن الإنسان الواحد هو عالم خاص فريد بذاته له فلسفته الخاصة في الحياة ، فالكراهية الطاغية للحياة عند الفرد ، كما هو الحال عند مرضى الاكتئاب الشديد ومرضى فصام الشخصية الذين ينتحرون بطريقة اندفاعية كاستجابة لهلوس سمعية أو وجود ضلالات اضطهادية.

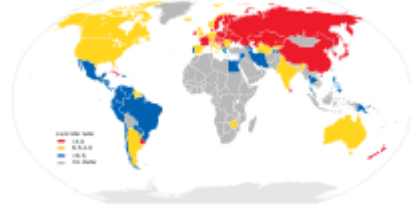
كذلك الأمراض الخبيثة المستعصية و المؤلمة كالسرطان و الإيدز قد تدفع بعض المصابين بتلك الأمراض إلى الانتحار كراهية لاستمرار حياتهم على هذا الحال، و هناك من يقدم على الانتحار للتخلص من العار أو بسبب اليأس و الإحباط ، أو عند شعور الفرد بشدة الإثم أو الجرم الذي أقدم عليه فينتحر كمعاقبة لذات بالموت. و الانتحار حقيقة إنها عملية حسابية شخصيه لا واعية يجريها الشخص مع ذاته فيعطي للموت قيمة أكبر و أفضل من الحياة في وضع يتصوره هو أنه يستحيل العيش فيه مع القنوط و فقدان الأمل في التخلص من ما يعانيه من أزمات و ضغوط و استحالة التغيير إلى الأحسن . كما يتصور- وهناك من يقدم على الانتحار لعدم النضج بفعل عوامل التربية الخاطئة وضعف الإيمان و يصاحبها اضطرابات مزاجية حادة ، إضافة إلى نظريته السوداوية للحياة .

ولدوافع الانتحار تفسيرات أخرى منها العامل النفسي حيث حلل فرويد الانتحار بأنه "عدوان تجاه الداخل " ، ثم قام عالم آخر بتعريف ثلاث أبعاد للانتحار هي رغبة في القتل ثم رغبة في الموت ثم رغبة في أن يتم قتله، وعالم آخر وضع بان الانتحار يختلط به عدد من الأحاسيس منها الانعزال واليأس والاكتئاب والشعور بألم انفعالي لا يطاق ولا يوجد حل سوى الانتحار من وجهة نظر المنتحر، وعلى العموم فإنه يمكن إدراج كل تلك الحالات بعاملين هما⁽¹⁾ :

1- إن حوالي 35% من حالات الانتحار ترجع إلى أمراض نفسية وعقلية كالاكتئاب والفصام والإدمان.

2- و65% يرجع إلى عوامل متعددة مثل التربية وثقافة المجتمع والمشاكل الأسرية أو العاطفية والفشل الدراسي والآلام والأمراض الجسمية أو تجنب العار أو الإيمان بفكرة أو مبدأ كالقيام بالعمليات الانتحارية. وتوضح الخريطة رقم 3 نسبة الانتحار على مستوى العالم.

خريطة 3: الخريطة العالمية لنسبة الانتحار المقدرة لكل 100000 نسمة.



المصدر : Country reports and charts available, World Health Organization

أما المدرسة المعرفية فقد رأت الانتحار برؤيا النفق أو التفكير غير المرن حيث أن الحياة مربعة ولا يوجد حل سوى الانتحار، والبعض رأى الانتحار أنه تعبير عن البكاء الرمزي أو للفت الانتباه.

ومن حيث المنظور الحضاري والاجتماعي للانتحار يعدّ عالم الاجتماع الفرنسي دوركهايم (Durkheim 1897) ، أحد أوائل الذين درسوا الانتحار بصورة علمية . فقد نظر إلى الانتحار على أنه ليس فعل فردٍ منعزل ، إنما فعل فرد في مجتمع ، وطبقاً لوجهة نظره فأن الفرد سواء ارتكب الانتحار أو لم يرتكبه ، فأن ما يحدد ذلك ، إلى درجة كبيرة هو تكيف الفرد للمجتمع، ما إذا كان متوافقاً معه ، أو فيه أحداث تضغط عليه ليغادره بقتل نفسه . ولقد صنف دوركهايم الانتحار إلى ثلاثة أصناف رئيسة هي :

الانتحار الفوضوي (Anomic) ، والأناني (Egoistic) ، والايثاري (Altruistic) . ويحدث الانتحار الفوضوي عندما يمر المجتمع باضطرابات حادة وأزمات مفاجئة ، كما حصل ، على سبيل المثال ، في الأزمة الاقتصادية التي حدثت للمجتمع الأمريكي في عام 1929، وفي النمسا بعد الحرب العالمية الثانية ، ربما بسبب الضغوط النفسية لخسارتها في الحرب واحتلالها من قبل القوات الأجنبية .

أما الانتحار الأناني فهو نوع مختلف يحدث بسبب عدم توحيد أو اندماج الفرد بمجتمعه ، حيث لم تعد هناك روابط قوية تشده إلى مجتمعه أو عائلته ، بسبب وطأة عوامل قاسية ومحن وظروف غير مريحة في الأسرة أو الحلقة الاجتماعية الخاصة به ، فتغدو فصم أو شاج التعاطف الاجتماعي لديه أيسر من التقيد بها .

ومقابل الانتحار الأناني هناك الانتحار الايثاري ، حين ينغمر الفرد كلياً بالنظام القيمي لحضارته ، حيث تعلمه تلك القيم من أن هناك ظروفًا خاصة يكون فيها الانتحار ضرورة ونيل شرف عظيم . ويتجسد ذلك في حالات الاستشهاد والتضحية والفداء في الحروب ، التي تكثر في الحضارات الشرقية ، كانتحار الهاميكازي الذي نفذه الطيارون اليابانيون في الحرب العالمية الثانية ، وانتحار الكابتن " سمث " قبطان الباخرة " نيتانك " في سنة 1912 ، عندما غرقت بعد ارتطامها بجبل جليدي عائم ، أو الانتحار بطريقة " الهاراكيري " نيلاً لشرف. ولعل المثال الأكثر درامية الذي حدث في السنوات الأخيرة ، هو انتحار المئات من إتباع جم جونز في غويانا في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1978 . وبالرغم من أن عدداً منهم ربما كان قد أرغم على الانتحار ، إلا أن الكثيرين منهم لبوا دعوة زعيمهم جونز للانتحار ، مصدقين ما قاله بأن انتحارهم هذا هو " انتحار ثوري ! " .

ومن حيث المنظور السلوكي طبقاً إلى أولمان وكراسنر (Krasner & Ullman 1975) فإن تدمير الذات ما هي إلا نتيجة انتقالية محددة في النمط الشخصي للتعزيزات . فالخاصية الجوهرية لهذا النمط " الانتحاري " الجديد هو أن تقدير أو تثمين الشخص للموقف الحياتي الحاضر لا يشكل مصدراً يفي بالمراد من التعزيزات . وهذا يعني أن الانتحار ينجم من فقدان فعلي أو متوقع ، أو متصور (متخيل) ، لمعززات ذات قيمة عالية مثل : عمل ، وظيفة ، صحة ، أصدقاء ، عائلة، وما إلى ذلك .

وفي الوقت نفسه ، فإن مثل هؤلاء الأشخاص لا يتوقعون الحصول على تعزيزات أخرى من بقائهم في الحياة ، ولهذا قد يجدون في التفكير بالموت تعزيزاً إيجابياً ، إذ أن انتحارهم يجعل الأشخاص الذين يتركونهم وراءهم يشعرون بالأسف من أجلهم ، ويظل الأشخاص الذين سببوا لهم الألم يعانون من تعذيب الضمير طوال حياتهم ، وبعبارة أخرى فإن هؤلاء الأشخاص قد يرون الموت في أنه يجلب لهم عدداً من الأشياء التي يحبونها ممثلة في : الانتباه ، الشفقة ، الرثاء ، والانتقام . وبهذا المعنى تكون المحاولة الانتحارية ، على وفق ما يرى السلوكيون ، شبيهة بالكآبة ، أو معظم أنواع السلوك الأخرى ، من حيث أنها تتضمن حركة تبتعد عن مواقف لا يوجد فيها تعزيز ، وتنتج نحو مواقف تعززية . والحل المنطقي هو تغيير نمط التعزيز ، وبهذا

يكون العلاج السلوكي للذين يحاولون الانتحار، شبيهاً بالحالات الأكتئابية، بأن تزداد الخبرات السارة وخفض الخبرات غير السارة ، على وفق برامج معينة يسهم فيها أصدقاؤهم وأفراد أسرهم .
ويضع الإنسانيون والوجوديون توكيدهم الأكبر في تفسير الانتحار على مواجهة الفرد لحقيقة الموت ، إذ يفترض مي (May , 1958) بأن الموت هو الذي يمنح الحياة الحقيقية المطلقة ، ويذكر هذا المعالج النفسي تعليقاً لطيفاً لأحد مرضاه الذي قال : " أنا أعرف شيئاً فقط : الأول هو أنني سأموت يوماً ما ، والثاني أنني الآن لست بميت ، والسؤال الوحيد هو : ماذا أفعل في الفترة بينهما ! " هذا يعني أن معرفتنا بحتمية الموت تدعونا إلى أن نأخذ الحياة بجديّة تامة ، وأن نستثمرها في تحقيق إمكاناتنا العظيمة ، وبهذا يصبح الانتحار ، على وفق هذه النظرة ، انهزامية وإهداراً لإمكانات الفرد التي كان ينبغي عليه أن يحققها .

ويدعي بوس (Boss , 1976) بأن جميع حالات الانتحار تكون مسبقة " بانتحار جزئي وجودي " ، هو الانعزال عن الآخرين والتخلي عن المسؤولية ، والامتناع عن متابعة القيم الأصلية في الحياة ، وبهذا يكون الانتحار العقلي ليس أكثر من ذروة أو نهاية سلسلة من الاختيارات غير الأصلية ، ولهذا يركز العلاج الإنساني الوجودي للانتحار على جعل الفرد يدرك بشكل تام وجوده الحاضر ، على أمل أن يجد فيه ما يكفي من المعنى لأن يبدأ حياته من جديد بإيقاع أصيل ، وأن يحاول المعالج أيضاً أن يجلب انتباه المريض إلى إمكاناته وقدراته ليدرك قيمتها من أجل مواصلة الحياة .

ولعل هذا التفكير هو الذي قاد إلى تأسيس هواتف تعمل لأربع وعشرين ساعة في اليوم في خدمة الأشخاص الذين يفكرون بالانتحار لمساعدتهم في الامتناع عن قتل أنفسهم ، وقد أطلق على هذه الهواتف " الخطوط الساخنة Hot lines " يمكن لمن يريد الإقدام على الانتحار أن يتحدث عبر هذا الخط مع شخص يتعاطف معه أو صوت صديق يسمعه، عادة ما يكون متطوعاً لهذا العمل ، ويتناقش معه حول همومه ومتاعبه ، فيقوم الشخص على الطرف الآخر من الخط الساخن بالتعاطف الوجداني معه ، وتشجيعه على التمسك بالحياة (2).

ويوجد للانتحار أسباب عضوية منها الوراثة أو نقص السيروتونين وهناك أسباب اجتماعية فسرهما عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم حيث فسّر الانتحار بسبب تكسر الروابط الاجتماعية والانعزال، وقد تؤثر عوامل الضغوط النفسية وعدم القدرة على كبحها وخاصة الفقر والبطالة.

وقد تكون هناك أسباب أخرى مثل ضعف الضمير وعدم القدرة على التكيف مع المجتمع، وهنا تظهر فكرة إريك فروم حول الانتحار حيث الصراع بين الداخل والخارج وعدم الالتفات للعوامل الحضارية الاجتماعية، وقد تباينت الردود على الانتحار ففي الهند واليابان يكون الانتحار مصدر

شرف عندما تحترق الزوجة بجانب زوجها الميت أو مثل طياري الكاميكازي الانتحاريين، وبعض المجتمعات تجعل الانتحار جريمة وخطيئة لا تغتفر، وعادة ما يشعر أقرباء المنتحر بالذنب والعار والهجر.

عموماً يمكن إدراج العوامل الاجتماعية والنفسية التي قد تدفع بالإنسان الجاهل إلى الانتحار ومنها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي :

1- ضعف الوازع الديني عند الإنسان ، وعدم إدراك خطورة هذا الفعل الشنيع والجريمة الكبرى التي يترتب عليها حرمان النفس من حقها في الحياة ؛ إضافةً إلى التعرض للوعيد الشديد والعقاب الأليم في الدار الآخرة.

2- عدم اكتمال المعنى الإيماني في النفس البشرية إذ إن الإيمان الكامل الصحيح يفرض على الإنسان الرضا بقضاء الله تعالى وقدره ، وعدم الاعتراض على ذلك القدر مهما بدأ للإنسان أنه سيء أو غير مرضي . ولا شك أن الانتحار لا يخرج عن كونه اعتراضاً على واقع الحال ودليلاً على عدم الرضا به.

3- غلبة الظن الخاطيء عند المنتحر أنه سيضع بانتحاره وإزهاقه لنفسه حداً لما يعيشه أو يُعانيه من مشكلاتٍ أو ضغوطٍ أو ظروف سيئة ، وهذا مفهومٌ خاطيءٌ ومغلوطٌ وبعيدٌ كل البعد عن الحقيقة .

4- الجهل والجزع وعدم الصبر ، والاستسلام لليأس والقنوط وما يؤدي إلى ذلك من الهواجس والأفكار والوسوس.

أما لماذا لم يعرف مجتمعنا هذه الظاهرة إلا مؤخراً ؛ فيرجع ذلك إلى أسبابٍ منها:

1- الانفتاح الإعلامي والثقافي غير المنضبط الذي نعيشه في مجتمعنا المعاصر ، الأمر الذي دعا إلى تقليد الآخرين والتأثر بهم في كل شأنٍ من شؤونهم ، وهو أمرٌ غير محمودٍ لما فيه من ضياع الهوية واستلابها .

2- كثرة المشكلات الأسرية التي أصبح مجتمعنا يعانيها ؛ والتي ترتب على انتشارها نتائج مؤسفة مثل التفكك الأسري ، وانتشار بعض الظواهر الاجتماعية السلبية التي يأتي من أبرزها جريمة الانتحار .

3- التأثير الشديد ولاسيما عند صغار السن ومحدودي الثقافة بما تبثه القنوات الفضائية من أفكارٍ وأطروحاتٍ وموضوعاتٍ تحت بصيرةٍ مباشرةٍ أو غير مباشرةٍ على الانتحار ، وتجعل منه حلاً عاجلاً وسريعاً لكثيرٍ من المشكلات النفسية والاجتماعية التي يعاني منها بعض الناس.

ثانياً-أسباب الانتحار لدى المراهقين

تجمع الدراسات في تحليل أسباب الانتحار لدى المراهقين، على وجود أسباب كثيرة ومتنوعة تختلف باختلاف الأفراد واختلاف البيئة الاجتماعية والظروف التي يعيش فيها الفرد. ويتبين من هذه الدراسات أن أهم الأسباب التي تدفع المراهقين إلى الانتحار أو محاولة الانتحار هي:

أ- أسباب ظرفية: يمكن ربطها بالأحداث التي يعيشها المراهق، انطلاقاً من الأحداث البسيطة إلى الأحداث الأشد خطورة، وهي تتعلق في أكثرها بنظام العلاقات القائمة بين المراهق وأهله من جهة، وعلاقاته بالآخرين من جهة ثانية. ويمكن تحديد هذه الأحداث بالشكل الآتي: المنع المفروض على المراهق في البقاء خارج المنزل لوقت متأخر، رفض الأهل تحقيق بعض من متطلباته، قصور الأهل المادي لشراء ما يرغب به، المشاحنات مع الرفاق، الفشل الدراسي، علاقة فاشلة مع الجنس الآخر، إدخاله في مدرسة داخلية، انهيار وضع الأسرة الاجتماعي _ الاقتصادي، فقدان شخص عزيز، وخصوصاً الأب أو أحد المقربين.

ب- أسباب اجتماعية: يمكن تصنيفها بنوعين:

1- أسباب عائلية:

- التفكك العائلي

- انعدام الأمن والعاطفة نتيجة عوامل مختلفة أهمها: تعاطي الأب أو الأم الكحول.

- المشاحنات بين الزوجين - غياب أحد الوالدين - موت الوالدين أو أحدهم _ مرض الأهل الطويل.

ولقد استأثر الاهتمام في دراسة الأسباب العائلية بمشكلة غياب الأب انطلاقاً من فكرة أن سلطة الأب وعاطفة الأم هما الركنان الأساسيان في توازن العلاقات الأسرية، فالسلطة ليست قمعاً دائماً، بل هي أيضاً سند ودعم عاطفي، فالأب الذي لا يعرف إلا القساوة، ولا يستطيع تأكيد ذاته إلا من خلال الصراخ والعقاب الجسدي، لا يمكنه أن يفرض السلطة العادلة والثابتة، فينشأ الأبناء على فكرة السلطة القاسية والقمعية، وعندما يصلون إلى مرحلة المراهقة فإنهم يستجيبون بطريقة عدوانية مماثلة.

اعتبر التحليل (الفر ويدي) إن وظيفة الأب ذات أهمية كبيرة في مرحلة المراهقة، أولاً للخروج نهائياً من "الأوديب" ثم ثانياً من أجل تكامل الاستقلالية وإعادة تنظيم الواقع الذاتي. والخلل في الصور العائلية في مجموعها، في الوقت الذي يحصل فيه انبعاث جديد للشحنات السابقة، يمكن أن يكون له التأثير الكبير على مصير الميل الاندثاري القومي في هذه المرحلة.

2- مستوى الأسرة الاجتماعي -الاقتصادي -الثقافي :تظهر الدراسات على أن مستوى الأسرة الاجتماعي _ الاقتصادي والمستوى الثقافي ليس لهما تأثير كبير في دوافع الانتحار لدى

المراهقين. فلقد تبين من هذه الدراسات أن المراهقين الذين ينتحرون أو يحاولون الانتحار ينتمون إلى جميع الطبقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بشكل متعادل، وكذلك عامل السكن الذي يؤثر فقط في حال شكل انعكاساً لمآزر عاطفية.

فالسبب الاجتماعي الأكثر تأثيراً يرجع إلى الفشل المدرسي الذي يعيشه المراهق كجرح نرجسي عميق، ومما يزيد في خطورة هذا العامل، موقف الأهل الذين يسقطون الآمال على أبنائهم ويأملون تحقيق ما لم يتمكنوا من تحقيقه من خلالهم. فيلجأون إلى استعمال القمع والقوة للوصول إلى ما يبتغون. وهكذا، فإن الفشل المدرسي يشكل نقطة التقاء ظروف سلبية وبشكل خاص من التوظيف والتأثير القمعيين.

ج- الانتماء إلى جماعات الرفاق

إن عجز المراهق عن الانخراط في مجموعة ما، أو بمعنى آخر، عزلة المراهق الاجتماعية، هي ظاهرة ترجع في الواقع إلى مرحلة الطفولة، وهذا العزل الاجتماعي يتخذ أشكالاً مختلفة:

- العزل نتيجة لشعور المراهق بضعفه وعجزه عن تحمل المنافسة ضمن المجموعة.
- العزل نتيجة للنظر إلى المجموعة على أنها ليست بذى فائدة، وإن الانتماء إليها لا يعود عليه بأي نفع.

- وأحياناً يكون العزل نتيجة لشعور المراهق بأنه لا يملك الحق في ترك أهله لأنه يشعر بالارتياح معهم.

فاستمرار العلاقة الطفولية السابقة بين المراهق وأمه، وظهور الأب كأول غريب في علاقة الأم/الطفل، واستحالة تخطي العلاقة الثلاثية، تشكل جميعها العوامل التي تفسر عدم إمكانية التنشئة الاجتماعية.

من المعلوم اليوم أن الانتماء إلى عُصب الأحداث، له نتائج ايجابية بالنسبة إلى المراهق:

- ينزع عن المراهق الميل إلى الاندثار الذاتي من خلال تفريغ العدوانية في تصرفات جماعية.

- يعزز ويقوي الميول "الليبيدية"، وبالتالي يعزز الأوليات الدفاعية ضد شحنات الاندثار والموت.
- اتحاد الطاقات يقوي مشاعر الحماية ضد اتحاد الأخطار الخارجية المتأنتية من عالم الراشدين.

هكذا فإن العزل الاجتماعي يعيق تشكل الأوليات الدفاعية ضد الميول الاندثارية.

د- أسباب نفسية

إن بعض الخصائص النفسية تظهر بشكل ثابت، وتبين خاصية مزدوجة:

1- خصائص المزاج: التي أساسها ليس الخور بل شكل من أشكال الكآبة وعدم الرضا المستمرين والعميقين اللذين يسترهما نشاط زائد ظاهري، واستجابات الخيبة والخجل هي أكثر شيوعاً من مشاعر الذنب. إن هذه الخصائص جميعها ذات علاقة بقلق منتشر من

نمط سلفي لا يشبه مطلقاً قلق الخصاء بسبب خاصيته الكثيفة التي لا لبس فيها ولا بروز، إن المراهق الذي لا يعرف إلا قانون "الكل أو لا شيء" يمكن أن يكشف عن مزاج ضعيف.

2- اضطراب الارصان: الذي هو في الأساس اضطراب ناتج عن عجز في التفكير والتعبير اللفظي للمعاش العاطفي والانفعالي، وبشكل عام فإن هذا الاضطراب شبيه بالاضطرابات التي تلاحظ عند الجانحين وفي بعض الاضطرابات النفس بدنية ، ويؤلف حلقة من الحلقات التي تربط هذين النمطين من السلوك، والانتحار يتعلق بهذين النمطين، أولاً كفعل وثانياً كتدمير ذاتي.

إن اعتماد المراهق العقلنة لا يمنع وجود هذا الاضطراب. فالعقلنة عادة، وبفعل وظيفتها الدفاعية والنمائية، هي مرحلة من مراحل النمو الارصاني، وهي مشحونة بالعاطفة ولها تأثير في تنظيم الانفعال، ولكنها هنا، على العكس، تبنى على فراغ، والكلمات لا تحمل أي شحنة عاطفية.

3- تنظيم مثال الأنا: يظهر أيضاً خصائص نفسية، فالأمر يتعلق بمثال "أنا" سلفي وعصامي مع خصائصه الطبيعية: مطلب المطلق _ غياب أو عدم كفاية في التغيير، ويمكن الإشارة هنا إلى العجز عن التكامل الزمني، إذ إن الزمن المعاش بالنسبة للمراهقين الذين يقدمون على الانتحار لا يحتوي لا على فكرة الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل، وفي الوقت نفسه، سلوك الانتظار الذي ينظم الفعل، والذي يشكل سلوكاً مؤجلاً يصبح سلوكاً لا يحتمل. إن هذه الاضطرابات ليست بالضرورة اضطرابات مكثفة، ويمكن أن تظل خفية، ولكنها في الواقع متجذرة بعمق. وهي تُصاحب بعدم إمكانية تحمل الصدّ، وشدة الإحباط تترجم درجة العذاب والألم أمام العجز في إمكانية التأثير على الواقع للتوصل إلى إشباع الرغبات، وأحياناً الاحباطات المتلاحقة يمكن أن تأخذ شكل النقد الذاتي الذي يخفي متطلبات على مستوى مثال الأنا.

ولا شك إن الميل المطلق والمتطلبات تجاه الذات نجدها لدى جميع المراهقين، ولكن المراهقين الذين يحاولون الانتحار يتميزون بأن مثال "الأنا" السلفي لديهم يظهر قبل البلوغ، وأثناء المراهقة يلاحظ من خلال تثبيته وصلابته وعدم تأثيره التدريجي بواسطة اختيار الواقع، فكل مجابهة مع الواقع ليست عامل تطور، بل جرح وتعزيز لوضعيات سلفية.

ح- عدم كفاية الأوليات الدفاعية الطبيعية

إن هذه الخاصية هي إحدى السمات الأكثر ثباتاً لدى جميع الأحداث الذين يقدمون على الانتحار، فالمرهق يملك وسائله الدفاعية ضد جروحه النرجسية وما يتعرض له مثال "الأنا" وفقدان الموضوع.

ومن أهم هذه الوسائل أوليتان ولكنهما غير كافيتين:

1- حركية التوظيفات: إننا نجد لدى جميع المراهقين الذين يقدمون على الانتحار العجز في رفع التوظيف عن الموضوع المخيب أو الضائع، وبالرغم من العذاب الذي يشعر به المراهق فإنه يبقى على توظيفاته ويكرر تصرفاته ويجتر خيبته ويغلق ذاته عن كل ما هو آخر، بتثبيت خاص يشكل انحرافاً في عملية المراهقة الطبيعية.

2- أولية الإسقاط: تجاه هذا التباعد الذي يشعر به ما بين رغباته وطموحاته المثالية من جهة والإمكانيات المتواضعة المتوفرة له من جهة ثانية يستجيب المراهق عادة، بواسطة أولية دفاعية إسقاطية. وبحسب مستوى طموحه فإنه يبني مشاريع وأنظمة نظرية تهدف إلى جعل الواقع، لاحقاً، يتوافق مع الصورة المثالية التي كونها عن هذا الواقع، أو أنه يستجيب من خلال المحاولة في تعديل الواقع مباشرة بواسطة الانتقال إلى الفعل الذي يمكن أن ينتهي بالجنوح.

إن هذه الأولية لدى المراهق الذي يقدم على الانتحار، تكون معطلة أو غير كافية أو لا وجود لها على الإطلاق، فأما أن يوجه عندئذ عدوانيته مباشرة تجاه ذاته، وأما أن يحاول التأثير على الواقع في مرحلة أولى من خلال الانتقال إلى الفعل، ولكن أمام الإحباط الذي يصيبه فإنه يتخلى عن ذلك ويوجه إلى ذاته الفعل العدواني.

وبلغت حالات الانتحار بين الشبان في بريطانيا درجة الأزمة إذ ارتفعت نسبة المنتحرين من الشبان إلى 72% ، وبينما كان المنتحرون في السابق يفضلون تسميم أنفسهم، أصبح الشنق الوسيلة المفضلة للقضاء على الحياة بين الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والتاسعة عشرة، هذا ما جاءت به دراسة نشرت في مجلة علم النفس البريطانية⁽³⁾.

فقد ارتفع عدد المنتحرين بين الذكور الشباب من خمسة وخمسين في المليون عام 1970 إلى مئة في المليون عام 1990، ويقول الدكتور مارك ماكلور، أخصائي علم النفس الذي أجرى الدراسة إن الإحصائيات المتوفرة في هذا المجال تخفي المستوى الخطير الذي بلغته المشكلة، لأن المحققين في الغالب يصنفون حالات الوفيات التي لا يجدون لها تفسيراً بأنها حوادث مجهولة الأسباب عند وجود أي شك في كونها انتحارا.

ويضيف الدكتور ماكلور أن الوضع قد بلغ درجة الأزمة بين الشباب الذكور، وأن من الخطأ البحث عن سبب واحد للانتحار، وقد يكون السبب هو وجود أزمة ثقة بين الشباب تدفعهم نحو إنهاء حياتهم.

وتحدث حالات الأزمة في الثقة لأسباب عدة، بينها الاختلالات النفسية، والمشاكل العائلية أو الزوجية، والبطالة والتورط في الجرائم التي تقود إلى التعامل مع النظام القضائي. وتلقي الدراسة باللائمة على انتشار المخدرات والكحول وتراكم الديون بين الشباب والتي تدفعهم إلى التخلي عن التفكير واللجوء إلى الانتحار عندما تشتد عليهم مشاكل الحياة.

وتشير الإحصائيات إلى أن نسبة الانتحار بين الفتيات في نفس الفئة العمرية المذكورة قد تضاعفت قليلا عن السابق وارتفعت نسبة الانتحار بين الشباب فوق 50% خلال الأعوام 1990-2004، ورد ذلك في تقرير جديد نشر في جريدة (غارديان) وأصدرته جمعية معنية بالتخفيف من أسباب الانتحار، ومساعدة الذين يتعرضون لضغوط نفسية قد تدفعهم إلى الانتحار، وعلت ارتفاع نسبة الانتحار بين الشباب لأنهم أكثر قابلية لأسبابه التي منها : تزايد الضغوط الاجتماعية، والإخفاق في الحصول على إنجازات أكبر في المدرسة، والصعوبات الاقتصادية خلال العقد الأول من الألفية الثالثة.

ثالثا- العمليات الانتحارية

من أسباب الانتحار أيضا إحداث خسائر بشرية ومادية بالخصم، فيقوم شخص أو أكثر باستعمال سلاح (متفجرات في معظم الأحيان) وقد يستعمل وسيلة نقل لتسهيل المهمة (كالسيارات المفخخة) لدخول منطقة الخصم وحتى يأتي الوقت والمكان المناسبين، قد توصف من قبل البعض بأعمال إرهابية غير أن بعض الأطراف الدينية والتحريرية يصفون عليها صبغة شرعية بصفتها من أجل تحرير الوطن أو من أجل الانتقام لشخصية مهمة، وتستدل الجماعات المسلحة بأدلة على جواز العمليات الانتحارية، ومن هذه الأدلة هذا الحديث: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال أي الشهداء أفضل؟ قال: (الذين إن يلقون القوم في الصف لا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا، أولئك ينطلقون في الغرف العلى من الجنة، ويضحك إليهم ربهم، وإذا ضحك ربك إلى عبدٍ فلا حساب عليه). رواه الإمام أحمد (4). وغالبا يقوم بالانتحار الشخصيات الانهزامية واليائسة أو يقوم به بعض من يملكون الشجاعة وذلك بهدف معين .

ومن جانب آخر فلا يجوز الإقدام على قتل النفس . الانتحار. لأي سبب من الأسباب ومهما كانت نية صاحبه حتى وان كانت طاعة لله، لقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (النساء: الآية 29). وهذا يعني أن الحديث السابق لرسول الله ﷺ قد يكون ضعيفا. إذن قتل المرء نفسه كبيرة من أعظم الكبائر، وجريمة من أعظم الجرائم وأنه سبب

للخلود في نار جهنم . والعياذ بالله تعالى . ولا يمكن أن تكون طاعة إلا للشيطان . ورضا الله تعالى لا يطلب بمعصيته ومخالفة شرعه .

رابعاً-ملاحظات على الانتحار

- الذين يحاولون الانتحار ثلاثة أضعاف المنتحرين فعلاً .
- المنتحرون ثلاثة أضعاف القتلة .
- محاولات الانتحار عند الذكور أكثر من الإناث .
- الانتحار الفعلي أكثر بين الذكور .
- أكثر وسائل الانتحار استخداماً عند الإناث الأدوية والحرق وعند الذكور الأسلحة النارية .
- نقل نسبة الانتحار بين المتزوجين ومن لهم أطفال .
- أعلى نسبة انتحار في العالم توجد في الصين والهند .⁽⁵⁾
- خمس المنتحرين يتركون رسائل وعلامات تشير إلى انتحارهم .
- نقل نسب الانتحار في الحروب والأزمات العامة .

خامساً-الانتحار في رأي الديانات

1- في الإسلام

الانتحار من كبائر الذنوب ، وقد بيّن النبي (صلى الله عليه واله وسلم) أن المنتحر يعاقب بمثل ما قتل نفسه به . وهو محرم في الإسلام لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (النساء: الآية 29)، فالنفس ملك لله وليس لأحد أن يقتل نفسه ولو زعم أن ذلك في سبيل الله⁽⁶⁾.

روي عن أبو هريرة في صحيح مسلم: من قتل نفسه بحديده فحديده في يده يتوكأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلداً فيها أبداً، ومن شرب سما فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدا مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً .

وقد أفتى الأزهر بحرمة إزهاق الأرواح، موضحاً أن الإسلام وفقاً للقاعدة الشرعية العامة حرم الانتحار تحريماً قطعياً لأي سبب كان، وأنه ليس من حق الإنسان أن يزهق روحه كتعبير عن ضيق أو احتجاج أو غضب .

يأتي ذلك بعد تعدد محاولات الانتحار حرقاً في مصر والجزائر وموريتانيا، على طريقة الشاب التونسي محمد البوعزيزي الذي أضرم النار في نفسه في ديسمبر من العام 2010 مفضراً احتجاجات شعبية عارمة في أنحاء تونس أدت إلى الإطاحة بحكم الرئيس زين العابدين بن علي . وقال المتحدث الرسمي باسم الأزهر، السفير محمد رفاعة الطهطاوي، إن "القاعدة الشرعية العامة

تؤكد أن الإسلام يحرم الانتحار تحريماً قطعياً لأي سبب كان ولا يبيح للإنسان أن يزهق روحه كتعبير عن ضيق أو احتجاج أو غضب".

لكن الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي رئيس "الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين" قال إن محاولات الانتحار كما في حالة الشاب التونسي محمد البوعزيزي جاءت نتيجة الشعور بالظلم، ورأى معها بالتالي أن الحكام يتحملون المسؤولية عما دفع بهؤلاء الشباب إلى الانتحار والتخلص من حياتهم. جاء ذلك في رده على سؤال مشاهد لبرنامج "الشريعة والحياة" على فضائية "الجزيرة" حول ما إذا كانت حالة محمد بو عزيزي وغيره التي أدت إلى ثورة تونس وسيلة استثنائية من وسائل جهاد الظلم أم انه نوع من أنواع الانتحار.

وقال القرضاوي إن "من ينظر إلى الأمر برمته وبملاساته سيجد أن هناك عذراً لهذا الشاب وأمثاله، فالحكام جعلوا الشعب يعيش في أزمة نفسية"، معتبراً أنه "لم يكن حراً حينما اتخذ هذا القرار وكان يغلي داخلياً من أنه حصل على شهادة ولا يجد عملاً ويجد أنه يحتاج إلى القوت ولا يجد قوت يومه". ودلل على ذلك بما ذكره الصحابي أبو ذر الغفاري حين قال "عجبت بمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه"، معتبراً أن بوعزيزي الذي فجر انتحاره انتفاضة شعبية في تونس كان غير مالك لإرادته وفي غير وعيه . قرأت في كتاب النصيحة في الأدعية الصحيحة، عن ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل: اللهم أحييني ما دامت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم، والسؤال: هل يعني هذا الدعاء عدولاً عن الانتحار؟، نعم وفي أي وقت من الصلاة يمكن أن يستجاب مثل هذا الدعاء⁽⁶⁾.

2- الانتحار في الديانة المسيحية

في أغلب المذاهب المسيحية يعتبر الانتحار ذنباً استناداً إلى كتابات المفكرين المسيحيين المؤثرين من العصور الوسطى مثل القديس أوغسطينوس والقديس توما الأكويني، ولم يعتبر الانتحار ذنب تحت الرمز البيزنطي المسيحي لجستنيان الأول. حيث يحرم الإنجيل الانتحار.

سادساً- توزيع وتحليل حالات الانتحار في العالم

تزايد عدد المنتحرين في العالم بصورة غير طبيعية حيث بلغ عددهم نحو مليون منتحر سنوياً، و نجد أكبر نسبة للمنتحرين في العالم في دول البلطيق " لتوانيا ، أستونيا ، لاتفيا " بجانب السويد وسويسرا.

وإذا كان عدد المنتحرين بلغ حاليا نحو المليون شخص في العام؛ فمعنى ذلك أن شخصا ينتحر في كل 30 ثانية وهذا ما جاء في مجلة " ذي لا نست" البريطانية. تتصدر دول البلطيق وهي الأعلى عالميا في نسب الانتحار، وهي عبارة عن دول صغيرة تقع بالقرب من المحيط المتجمد الشمالي، ويعاني سكانها من البرودة الشديدة بجانب الفقر الشديد، مما يتسبب في إصابتهم بالأمراض الفتاكة: مثل السل، وأمراض الجهاز التنفسي، ولذا نجد إن أعدادهم في ازدياد وقد بلغ عددهم نحو 30 منتحرا بين كل مئة ألف شخص. ولكننا نجد على العكس من هذا في السويد وسويسرا وهما من الدول الغنية والتي يمتاز شبابها بالثقافة والعلم، ففي سويسرا تبلغ نسبة التعليم 100% تقريبا، و تعتبر من أعلى عشرة دول دخلا للفرد بالعالم، ويمتاز اقتصادها بالثراء لا سيما وأنها تعتمد على التكنولوجيا في الصناعة. ولكن على الرغم من ثراء الدولة، و ثراء شعبها يقدم الكثير من شبابها على الانتحار وقد اجتمع بعض الساسة وعلماء النفس بمدينة جنيف في عام 2007 في مؤتمر لبحث هذا الموضوع، وجاء في التقرير:

إن معظم المنتحرين من فئة الشباب، وهم الذين يقبلون على جريمة الانتحار، ومعظمهم مرضى بأمراض، أهمها: الشذوذ الجنسي، وأمراض الاضطرابات النفسية، ويعاني معظمهم من الضياع، وعدم الترابط الاجتماعي في حياتهم، هذا إلى جانب الخواء النفسي، حيث يشعر الشباب بالخواء الروحي، وهو من أهم الأشياء التي تكوّن شخصية الفرد، ولا سيما أن الشباب في أوربا هجروا الدين، وأصبح الشاب المتدين في قاموسهم إنسانا شاذًا! حتى أن الكنائس أصبحت شبه مهجورة ولا يرتادها سوى بعض العجزة والأسر الفقيرة. وفي بلجيكا تشير الإحصائيات إلى أن الرجال يقبلون على الانتحار، أكثر من النساء، وقد بلغ عدد المنتحرين في عام 1997 نحو "1120" شخص، وهي نسبة كبير جدا في ذلك العام وفي سنة 2007 ازدادت لتصل لنحو 2061 شخصا الجدول (7).

وفي بريطانيا تبلغ نسبة المنتحرين من المراهقين نحو 4% من كل مئة ألف مراهق، وترتفع لتصل لنحو 47% من كل مئة ألف لدى الذين تعدوا سن الخامسة والخمسين عاما، وترتفع لتصل لنحو 57% للذين فاقت أعمارهم سن الخامسة والسبعين عاما⁽⁷⁾.

أما في ألمانيا فترتفع نسب الانتحار خصوصا لدى أفراد الجيش الألماني حيث تبلغ ضعف النسبة الخاصة بعامة الشعب، في الماضي خاضت ألمانيا حروبا عالمية كبرى، وعانى أفراد جيشها الأمرين من فظائع تلك الحروب! مما حدا بالكثير من جنودها إلى اللجوء للانتحار نسبة لمعاناتهم القاسية إبان تلك الحروب، ولقد بلغت نسبة الانتحار في عام 2004 نحو 13 % من كل مئة ألف نسمة، وحتى قائدهم النازي " أدولف هتلر " قد أقدم على الانتحار عقب هزيمته من قبل جيش الحلفاء.

جدول 7: ترتيب دول العالم من حيث عدد حالات الانتحار لكل 100000 نسمة .

الانتحار لكل 100000 نسمة					
الترتيب	الدولة	ذكر	أنثى	المجموع	السنة
1	ليتوانيا	70.1	14.0	40.2	2004
2	روسيا البيضاء	63.3	10.3	35.1	2003
3	روسيا	61.6	10.7	34.3	2004
4	كازاخستان	51.0	8.9	29.2	2003
5	المجر	44.9	12.0	27.7	2003
6	غويانا	42.5	12.1	27.2	2003
7	سلوفينيا	37.9	13.9	25.6	2004
8	لاتفيا	42.9	8.5	24.3	2004
9	اليابان	35.6	12.8	24.0	2004
10	كوريا الجنوبية	32.5	15.0	23.8	2004
11	أوكرانيا	43.0	7.3	23.8	2004
12	الصين	20.4	24.7	22.5	1999
13	سريلانكا	N/A	N/A	21.6	1996
14	بلجيكا	31.2	11.4	21.1	1997
15	إستونيا	35.5	7.3	20.3	2005
16	فنلندا	31.7	9.4	20.3	2004
17	كرواتيا	30.2	9.8	19.6	2004
—	صربيا والجبل الأسود	28.8	10.4	19.3	2002
—	هونغ كونغ	25.2	12.4	18.6	2004
18	فرنسا	27.5	9.1	18.0	2003
19	سويسرا	23.7	11.3	17.4	2004

2005	16.9	8.2	26.1	النمسا	20
2004	16.7	5.2	29.3	مولدافيا	21
2004	15.9	4.6	27.9	بولندا	22
2004	15.5	5.7	25.9	التشيك	23
2001	15.1	6.4	24.5	الأوروغواي	24
2004	14.6	7.4	21.9	لوكسمبورغ	25
1999	13.9	14.8	13.0	الصين	26
2001	13.6	8.1	19.2	الدنمارك	27
2004	13.5	6.6	20.3	كوبا	28
2002	13.3	3.6	23.6	سلوفاكيا	29
1998	13.2	N/A	N/A	سيشيل	30
2002	13.2	7.1	19.5	السويد	31
2004	13.0	6.7	19.7	بلغاريا	32
2004	13.0	6.6	19.7	ألمانيا	33
2000	12.8	4.9	20.9	ترينيداد وتوباغو	34
2004	12.5	4.0	21.5	رومانيا	35
2000	12.1	6.4	17.8	سورينام	36
2004	12.0	6.2	17.7	أيسلندا	37
2000	11.9	4.2	19.8	نيوزيلندا	38
1991	11.8	3.3	20. 3	البوسنة والهرسك	39
2002	11.6	5.0	18.3	كندا	40
2004	11.5	7.3	15.8	النرويج	41
2003	11.0	4.9	17.5	البرتغال	42
2002	11.0	4.2	17.9	الولايات المتحدة	43
2003	10.8	4.7	17.1	أستراليا	44
2002	10.5	8.0	12.8	الهند	45

2003	10.4	3.1	17.8	تشيلي	46
2003	10.1	7.6	12.5	سنغافورة	47
2005	9.7	3.2	16.3	جمهورية أيرلندا	48
2004	9.3	6.0	12.7	هولندا	49
2004	8.9	3.0	15.0	قيرغيزستان	50
2003	8.7	3.5	14.1	الأرجنتين	51
1998	8.6	3.5	13.8	تركمستان	52
2004	8.2	3.9	12.6	إسبانيا	53
2003	8.1	4.2	12.2	إسلفادور	54
2004	8.1	3.6	12.7	موريشيوس	55
1990	7.9	5.2	10.6	زيمبابوي	56
2002	7.8	3.8	12.0	تايلند	57
2002	7.7	5.0	10.4	سانت لوسيا	58
2001	7.6	1.6	13.4	بليز	59
2003	7.3	3.7	11.0	نيكاراغوا	60
2002	7.1	3.1	11.4	إيطاليا	61
2004	7.0	3.3	10.8	المملكة المتحدة	62
2004	6.9	1.6	12.1	كوستاريكا	63
2003	6.8	4.0	9.5	مقدونيا	64
2003	6.3	1.4	11.1	بنما	66
2003	6.2	2.1	10.4	إسرائيل	67
2002	6.2	1.8	10.9	بورتو ريكو	—
2004	6.1	3.7	8.6	إكوادور	68
2004	6.0	4.9	7.0	مالطا	69
2003	5.5	3.0	8.1	أوزبكستان	70
1999	5.3	2.4	8.2	كولومبيا	71

2002	5.1	1.8	8.4	فنزويلا	72
2002	4.3	1.9	6.8	البرازيل	73
2003	4.0	3.3	4.7	ألبانيا	74
2003	4.0	1.3	6.7	المكسيك	75
2000	3.6	1.3	6.0	البهاما	76
2003	3.4	0.0	6.8	سانت فنسنت والجرينادينز	77
2004	3.2	1.2	5.2	يونان	78
1988	3.1	0.5	4.9	البحرين	79
2003	3.1	1.6	4.5	باراغواي	80
2001	2.6	2.3	2.9	طاجيكستان	81
2001	2.2	1.1	3.4	جورجيا	82
2003	2.1	0.9	3.4	غواتيمالا	83
1993	2.1	1.7	2.5	فلبين	84
2002	2.0	1.4	2.5	الكويت	85
2003	1.8	0.5	3.2	أرمينيا	86
2001	1.8	0.6	2.9	جمهورية الدومنيكان	87
2002	1.1	0.5	1.8	أذربيجان	88
2000	0.9	0.6	1.1	بيرو	89
1987	0.9	1.8	0.0	ساو تومي وبرينسيبي	90
2001	0.7	0.0	1.4	بربادوس	91
1991	0.2	0.1	0.3	إيران	92
1990	0.1	0.0	0.3	جاميكا	93
1995	0.0	0.0	0.0	أنتيغا وبرودا	94
1987	0.0	0.0	0.1	مصر	95
2003	0.0	0.0	0.0	هايتي	96

المصدر: ويكيديا الموسوعة الحرة

ولا يختلف الأمر كثيرا عن المعاناة التي يعيشها أفراد الجيش الأمريكي، و التي أصابت الكثير منهم بأمراض نفسية خطيرة، وحدث بالكثير منهم إلى الإقبال على الانتحار هربا من جحيم الحرب المستعرة في العراق. ومن المعلوم أن أمريكا قد أرسلت نحو مئة ألف جندي للعراق، ومكثوا هنالك عدة أعوام، بعضهم يعول أسرته وبعضهم قطع دراسته الجامعية وجاء للعراق. وكان أغلبهم يعانون من ضغوط نفسية هائلة؛ مما حدا بالكثير منهم إلى الركون للانتحار. ولقد بلغت نسبة الانتحار في أوساط الجنود نحو 17,3% من كل مئة ألف جندي، بينما عانى نحو 478 جنديا من أمراض نفسية خطيرة يصعب شفاؤها. أما الجيش الإسرائيلي، فقد أكدت الدراسات والأبحاث النفسية الخارجية من جهود المؤسسات الصهيونية أن الانتحار هو السبب الأول لموت جنودهم في العام 2005، و بحسب تقرير ما تسمى "دائرة القوى البشرية في الجيش"⁽⁸⁾ فإن معدلات الانتحار في صفوف الجيش الصهيوني سجلت 30 حالة انتحار منذ بداية عام 2005 أي ما يعادل 3 حالات انتحار في الشهر الواحد؛ وهذا ما دعا قائد أركان الجيش الصهيوني دان حالوتس ولأول مرة لاتخاذ إجراءات سريعة؛ للحد من هذه الظاهرة التي تنتشر ليس فقط في صفوف الجنود، بل في كافة أفراد المجتمع اليهودي الذي حاصرته الظروف الاقتصادية والأمنية المتردية، وجعلته ينظر بعين القلق والأرق لمستقبل إسرائيل القادم، وذهب التقرير إلى الإشارة لعدد الجنود المنتحرين منذ عام 1992 فأكد أنهم تجاوزوا 479 حالة انتحار، كما ألمح التقرير الصادر عن دائرة القوى البشرية في الجيش الصهيوني إلى أن نسبة الذكور المنتحرين بلغت 94% فيما لم تتجاوز نسبة الإناث 6% من إجمالي عدد المنتحرين.

ولفت التقرير إلى الأسباب التي تدعو الصهاينة إلى الإقدام على الانتحار بصورة كبيرة تتمثل في: الضائقة المالية والاجتماعية والضغط داخل الأسرة، وتعاطي المخدرات، والميول الجنسية. وأشار إلى أن بعضاً من الدراسات الصهيونية التي حاولت تفسير ظاهرة الانتحار وربطها بالضائقة المالية مؤكدة أن الضائقة المالية التي تعاني منها خدمات الصحة النفسية تنذر بعدم وجود حل لظاهرة الانتحار في الأفق القريب. وأوضح البروفيسور ايلان أفتير معد الدراسة أن نسبة الانتحار في العام 1995 كانت بين الفتيان الصهاينة 5 حالات انتحار لكل مئة ألف مراهق. أما في 2009 فقد تضاعفت إلى 14 حالة انتحار من كل مئة ألف، لافتاً إلى محاولات الانتحار الفاشلة التي تتراوح بين 40-200 حالة انتحار (خريطة 4).

وأضاف بحسب الدراسة التي أجريت في جامعة بار إيلان مؤخراً فإن 13% من أبناء الشبيبة في دولة الاحتلال فكروا بالانتحار وأن 5% حاولوا الانتحار فعلاً. ومن أشهر الذين أقدموا على اقتراح جريمة الانتحار الكاتب والمؤلف العالمي والذي حاز على جائزة نوبل للأدب بجانب جائزة بولترز للأدب، الكاتب الأمريكي "أرنست همنغواي" والذي أحدثت مؤلفاته الأدبية طفرة في عالم الكتابة الروائية وكان ذلك في عام 1961، وكما يُقبل المشاهير ونجوم السينما والمسرح في العالم الغربي على الانتحار نظراً لحياتهم الصاخبة والداعرة، ومنهم على سبيل المثال: الممثل الأمريكي بنجامين هندركسون، ودنجلتون سند. ومن الجرائم الانتحارية الحديثة التي اهتز لها العالم أجمع "جريمة انتحار اللاعب الدولي وحارس مرمي المنتخب الألماني اللاعب "أنكه" والذي أقدم على الانتحار، وهو والد لطفلة بالتبني بعد وفاة طفله الصغيرة في حادث غير معروف، أقدم على إلقاء جسمه على طريق القطار السريع مما أحال جسمه إلى فتات في الحال ومات بصورة فاجعة، الأمر الذي أصاب علماء النفس والاجتماع بالحيرة! لماذا أقدم هذا اللاعب الشهير ومحبوب الجماهير الألمانية والأوربية لقتل نفسه بهذه الطريقة البشعة؟ ومعروف لدى علماء النفس بأن المشاهير وخصوصاً الرياضيين يقبلون على الحياة بكل شغف وحب نظراً لما يجدونه من تقدير الجماهير وحبهم، بجانب صحة أجسامهم والتي بالتأكيد تنعكس على العقل إيجاباً؛ لذلك فإنهم يعتبرون إقدام أنكه على الانتحار شاذاً على المعقول والمعمول به في حالات الانتحار؛ إذ إن معظم الذين ينتحرون يعانون من التهميش وعدم معرفتهم بالناس ومعرفة الناس بهم.

خريطة 4: نسبة الانتحار المقدرة لكل 100000 نسمة على مستوى دول العالم



المصدر: بالاعتماد على بيانات الجدول 7.

وفي مشفيين سوريين فقط هما مشفيي دمشق (المجتهد) والمواساة فان أرقام المنتحرين رغم أنها مرتفعة نسبياً إلا أنها لا تعبر عن حجم المأساة الحقيقي، كونها إحصائية عن اثنين من المشافي العامة في دمشق، ولعلنا ندرك مدى خطورة هذه الظاهرة (ظاهرة الانتحار) إذا ضربنا هذه الأرقام بعدد مشافي هذا البلد العامة والخاصة، مع العلم أن هذه الأرقام قليلة أمام الأرقام الموجودة في المشافي الخاصة التي يلجأ إليها الكثير خوفاً من الفضيحة.

فقد بينت الإحصائية الخاصة في مشفى المجتهد أن عدد المقدمين على الانتحار لعام 2005 بلغ 555 شخصاً منهم 221 من الذكور و 364 من الإناث وتتراوح فئاتهم العمرية بين 10 أعوام إلى 30 عاماً حيث لوحظ أن الفئة العمرية التي كانت أكثر عدداً هم بين 20-30 عاماً. أما في عام 2006 فقد بلغ عدد المقدمين على الانتحار 631 شخصاً بينهم 210 من الذكور و 421 من الإناث ولوحظ أن أكثرهم عدداً من الفئة العمرية من 10-20 حيث بلغ عددهم 311 شخصاً.

أما في عام 2007 فقد كان إجمالي عدد حالات الانتحار 509 معظمهم من الإناث حيث بلغ عدد المقدمات على الانتحار 346 حالة وعدد المقدمين على الانتحار من الذكور 163 حالة. أما في مشفى المواساة فقد بينت الإحصائية أن عدد حالات الانتحار في عام 2007 هو 204 حالات فقط أغلبهم من الإناث حيث بلغت 132 حالة و 72 من الذكور. وأن أغلب حالات الانتحار ناتجة عن تناول الكاويات الدوائية والمشتقات النفطية والمنظفات والمبيدات الحشرية وأكثرها ناتجة عن الإدمان على المسكنات المركزية المشابهة للأفيون التي تباع في الصيدليات بشكل مخالف دون وصفة طبية.

وأن نسبة النجاة بين المقدمين على الانتحار بين (95-100%) كما أن أعمار المنتحرين بين (13-25) سنة والنسبة الأكبر تكون من نصيب الفتيات.

من جهته قال الدكتور مصطفى حبش رئيس قسم الإسعاف بمشفى المواساة: إن حالات الانتحار التي ترد إلى مشفى المواساة تنقسم إلى ثلاثة أقسام⁽⁹⁾:

القسم الأول: يقدم على الانتحار ولا يقصد قتل نفسه وهذا هو القسم الأكبر من محاولات الانتحار ويدخل تحت عنوان (الهستيريا).

القسم الثاني: هو الذي يقصد إيذاء نفسه وإنهاء حياته وهؤلاء على الأغلب لديهم اضطرابات نفسية تصل إلى مرحلة الفصام (شيزوفرنيا) يقدمون على الانتحار بواسطة طلقات نارية أو قطع الشرايين أو تناول مواد دوائية خطيرة جداً.

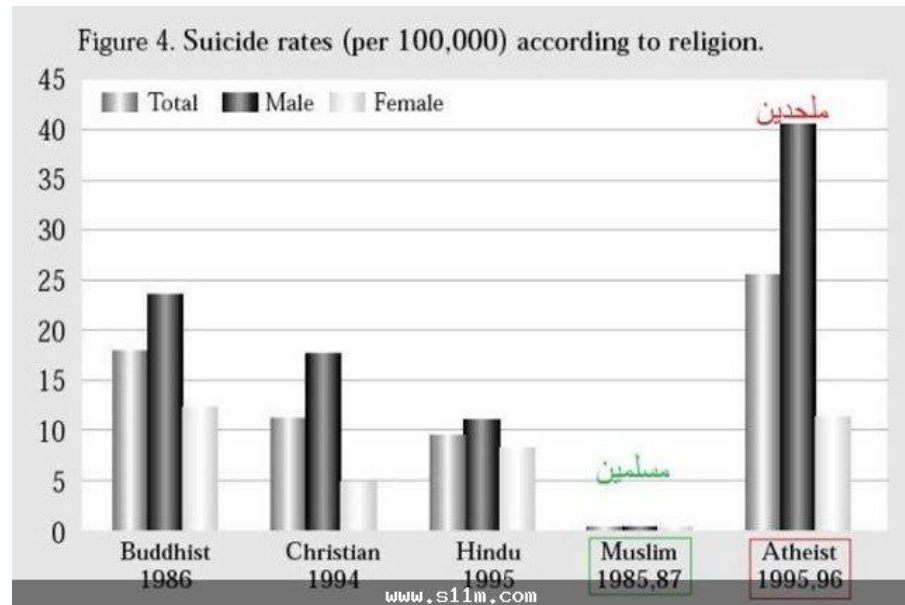
أما القسم الثالث: فهو الذي لا يقصد قتل نفسه ولكنه يموت.

أما في اليابان فان عدد المنتحرين بسبب تراجع فرص العمل في اليابان سجل ارتفاعا بنسبة 20% خلال عام 2010. وذكرت شبكة "سى إن إن" الإخبارية الأمريكية أن التقرير أفاد بأن عدد المنتحرين في اليابان بسبب البطالة قد ارتفع إلى 424 شخصا في عام 2010، بعد أن كان 354 شخصا فقط في 2009 .

يمثل الطلاب النسبة الأكبر من بين المنتحرين، حيث بلغ عدد المنتحرين بينهم 23 شخصا خلال عام 2009، ولكن هذا العدد قفز خلال العام 2008 إلى 53 شخصا أي بزيادة تصل إلى 130%، ومن ناحية أخرى كشف التقرير عن أن نسبة المنتحرين في اليابان بصفة عامة تراجعت إلى 3.5% ليصل عدد من غادروا الحياة إلى 31690 شخصا من إجمالي تعداد سكان اليابان الذي يبلغ نحو 127 مليون نسمة.

تجدر الإشارة إلى أن اليابان تشهد أعلى المعدلات في حوادث الانتحار من بين الدول المتقدمة في العالم، حيث اخترق عددهم حاجز الـ 30 ألف شخص سنويا على مدار الـ 13 عاما الأخيرة، وذلك طبقا لأرقام وزارة الصحة والعمل والرفاهية السكانية اليابانية. أما على مستوى ديانات المنتحرين في العالم يوضحها الشكل (1)

الشكل (1) المنتحرين في العالم على مستوى الديانة التي ينتسب إليها المنتحر .



سابعا- علاج ظاهرة الانتحار

أن علاج هذه الظاهرة لا يمكن أن يتم إلا بالعودة الصادقة إلى الله تعالى والالتزام الصادق بما أمر الله به من أقوالٍ وأوامرٍ ونواهٍ جاءت في مجموعها مُمثلةً لدور التربية الإسلامية ومؤسساتها الاجتماعية المختلفة في تحصين الفرد وحمايته من هذا الانحراف السلوكي الخطير عن طريق الآتي⁽¹⁰⁾:

أ- التمسك بمبادئ وقيم وتعاليم وتوجيهات التربية الإسلامية الصحيحة ، والعمل على تطبيقها في واقعنا المعاصر لما تُقدمه من حلولٍ ناجحةٍ لجميع المشكلات والظواهر السلبية في المجتمع.

ب - زيادة جرعات التوعية اللازمة لأفراد وفئات المجتمع عن طريق مختلف الوسائل الإعلامية والتعليمية ؛ لبيان خطر جريمة الانتحار وبشاعتها وما يترتب عليها من نتائج مؤسفة وعواقب وخيمة سواءً على الفرد أو المجتمع .

ج - مراجعة الله تعالى في مختلف الأعمال والأقوال ، وفي كل شأنٍ من شؤون الحياة عند الإنسان ؛ إذ إن من راقب الله تعالى وخافه واتقاه لن يستحوذ عليه الشيطان ، ولن يلقي بنفسه إلى التهلكة ، لأنه يعلم أنه سيُسأل عن ذلك أمام الله تعالى.

د - محاولة تفهم الظروف والأسباب التي قد تدفع بعض أفراد المجتمع إلى محاولة الانتحار ، ومن ثم العمل على مد يد العون لهم ، ومساعدتهم في حلها، وبذلك يتم القضاء على أسباب هذه الظاهرة ودواعيها بإذن الله.

هـ - إخضاع الظواهر السلبية في المجتمع للدراسة والبحث حتى تُعرف أسبابها ودواعيها ، ومن ثم تبدأ خطوات الوقاية منها ، وإيجاد العلاج المناسب لها.

ثامنا- المخدرات والانتحار Drugs & Suicide

الانتحار هو واحد من أسباب الوفاة الشائعة بين مدمني المخدرات وتتنوع دوافعه وأساليبه بشكل أكبر مما هو عليه في الأمراض النفسية والاضطرابات العقلية، فبالإضافة إلى أن المخدرات مرتبطة بشكل كبير (سببا ونتيجة) مع هذه الأمراض فهناك الكثير من الاختلافات والخصوصية للانتحار المرتبط مع المخدرات فهي تؤدي دوراً مباشراً وآخر غير مباشر في هذه المسألة.

تختلط أسباب الانتحار في أوساط المدمنين مع الأسباب الأخرى وتتداخل فيما بينها، فالكثير من المدمنين ينتحرون بشكل غير مباشر بعدة أساليب ومنها أسلوب الحياة الخطر في التعامل مع المجرمين والمروجين والمهربين، والتعامل مع مواد ملوثة بالجراثيم القاتلة كفيروس الايدز والالتهاب الكبدي وحوادث السيارات والجرعات الزائدة من المواد المخدرة نفسها. تبلغ نسبة حالات الانتحار بين المدمنين حوالي 15% منهم، وفي دراسات أخرى حديثة يتضح

أن النسبة أكبر بكثير مما ذكر في دراسات أخرى قديمة، فالخمر لوحده يسبب ما بين 25 - 45% من حالات الانتحار عموماً، كما أن نسبة المنتحرين بين مدمني الخمر تبلغ أيضاً 15%. المخدرات تزيد نسبة حالات الانتحار لأكثر من 10 أضعاف مما هي عليه الإحصائيات العامة للانتحار، وهذه الأرقام تختص فقط بحالات الإدمان التي تعالج في العيادات الخارجية لمصحات الإدمان.

التفكير في الانتحار بين المدمنين قد يكون اندفاعياً أي دون تخطيط أو تفكير مزمن متصاعد، فالمخدرات تنقل المدمن من مرحلة التفكير إلى التخطيط ثم التنفيذ لخطة الانتحار وهذا يتجلى أكثر في الحالات المرتبطة بالتدهور المزمن والمستمر في صحة المريض ووضعه الاجتماعي. تكمن الخطورة في هذا المجال بصعوبة مهمة المعالجين في التحكم ومنع مشكلة الانتحار لدى المدمنين في أن غالبيتهم وبالذات في صغار السن يخبرون فقط أصدقائهم عن نيتهم بقتل أنفسهم وليس لأفراد الأسرة أو الطبيب المعالج. وأحد أهم الصعوبات أيضاً هو أن لا أحد يأخذ تهديدات المدمن بالانتحار على محمل الجد حتى تقدم له المساعدة اللازمة. هناك عوامل تزيد من خطورة الانتحار في أوساط المدمنين ومنها:

1- التأثير المباشر للمخدر

أثناء التسمم بالمخدر (وهو ما ينشده المدمن)، تزداد لديه الميول العدوانية التي قد يوجهها لنفسه وتقترب هذه العدوانية بعدم القدرة على الحكم على الأمور بشكل صحيح ومرتزن، فالخمر والكوكايين يرتبطان كثيراً بحالات محاولة الانتحار الاندفاعية التي لا يسبقها تفكير أو تخطيط وتزداد الخطورة كلما زادت الكمية التي تعاطاها المدمن، ينكر الكثير من المدمنين عند علاجهم في أقسام الطوارئ من آثار محاولات الانتحار أي نية لقتل النفس كما أنهم ينفون عادة أنهم تناولوا المخدر بالرغم من النتائج المخبرية القاطعة.

الجرعات العالية هي أسلوب يسمى (الانتحار الطارئ Accidental Suicide) كون المدمن يعلم ما هي النتيجة الشبه حتمية لهذا العمل ولكنه يقدم عليه وبشكل متكرر بالرغم من العلامات التي تشير لقرب الوفاة أثناء التعاطي مثل ألم الصدر وضيق التنفس والدوخة وتشوش الرؤية. لوحظ أيضاً أن العديد من ضحايا جرائم القتل يحملون في دمهم تركيزاً عالياً من المواد المخدرة مما يشير إلى أن العدوانية التي تتجه للآخرين أثناء التسمم بالمخدر قد تنتج عنها هذه الجرائم وقد يلجأ بعض المدمنين لهذه الطريقة من الانتحار الغير مباشر عن طريق افتعال مشاكل مع أشخاص مجرمين.

2- ترافق الإدمان مع الاكتئاب

الترافق بين المخدرات والإصابة بالاكتئاب يعتبر خلطة قاتلة بالنسبة للمدمن، حيث يتضاعف معدل حالات الانتحار عما هو عليه في المرضى كلاً على حده والتعافي من الإدمان يقلل من

خطورة الانتحار كثيراً. الاكتئاب يرافق إدمان الخمر بما نسبته 25% في الرجال و حوالي 50% من النساء، أما مع الكوكايين والهيروين، فتبلغ النسبة حوالي 10 إلى 30%.

3- ترافق الإدمان مع اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع

اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع منتشر بين مدمني المخدرات والبعض يعتبر أن سلوك التعاطي والإدمان من التصرفات العدوانية التي لا توجه نحو الذات فقط بل عدوانية موجهة للآخرين كالأُسرة والمجتمع، ومن سمات هذه الشخصية هو السلوك الاندفاعي الذي يزيد بالتالي من خطورة الانتحار.

4- ضغوط نفسية أو ظروف حياتية طارئة

يترافق الإدمان مع طيف واسع من المشاكل الأسرية والاجتماعية والوظيفية والمادية... الخ. ففسارة المدمن لوظيفته أو لأحد أفراد أسرته أو أصدقاءه أو أي مشكلة مادية أو اجتماعية طارئة قد تؤدي به إلى التفكير بالانتحار مباشرة دون اللجوء لمحاولة حل المشكلة أو التعامل معها أو مع نتائجها. تظهر الدراسات أن ما نسبته الثلث من المرضى المدمنين الذين انتحروا عانوا من مشاكل طارئة خلال الستة أشهر التي سبقت الانتحار.

5- العمر

تزداد النسبة كلما زاد عمر الشخص ولا يعرف هل هو عامل السن أم بسبب أن مرحلة الإدمان قد دخلت في مرحلة التدهور مع زيادة مدة المشكلة، حوالي 80 - 90% في الأعمار ما بين 15 إلى 25 سنة، تبلغ نسبة من يتعاطون المخدرات والخمور من المنتحرين منهم حوالي الثلث.

6- الجنس

الرجال أكثر من النساء في حالات الانتحار المصاحبة للإدمان حيث تبلغ نسبتهم 80 إلى 90% من هذه الحالات.

7- تاريخ سابق لمحاولة الانتحار

وهو من عوامل الخطورة المهمة وتزداد أهميته كمؤشر إذا كان المدمن قد استخدم أسلوب الجرعة الزائدة من المخدر في محاولاته السابقة، كذلك الطرق العنيفة الأخرى مثل السلاح الناري أو القفز أمام سيارة مسرعة أو محاولة شنق نفسه تعتبر مؤشراً قوياً أيضاً.

كيفية التعامل مع هذه المشكلة

هناك الكثير مما يمكن عمله من جانب الأسرة والمحيطين بالمدمن، وهذا لا يعني منع المشكلة كلية بل للتخفيف من نسبة حدوثها:

- 1- علاج الإدمان: فالبقاء لمدة أطول من الزمن دون تعاطي المخدرات يقلل من نسبة حدوث الانتحار أو حتى مجرد التفكير فيه، لذا ينبغي للأسرة وللأشخاص المحيطين بالمدمن تشجيعه على الدخول في برنامج علاجي وعدم اليأس من ذلك وتكرار المحاولة كلما حصلت انتكاسة.
- 2- في حال طلب خدمة العلاج للمرة الأولى أو عند وجود أي من عوامل الخطورة للانتحار فينبغي إخطار الطبيب بذلك، وعند الشعور بالخجل منها كوجود تاريخ أسري لمرض نفسي أو للانتحار مثلا.
- 3- توفير الدعم النفسي للمدمن حال تعرضه لمشكلة كبيرة طارئة في حياته مع بقاء إشعاره بأن الأسرة تكره الإدمان ولا تكرهه لشخصه.
- 4- عدم إهمال تهديده بالانتحار وأخذه على محمل الجد حتى لو تكرر ذلك منه وبالذات ما يقوله أثناء مروره بحالة من الاكتئاب أو عند حدوث مشكلة ما.
- 5- التهديد المكتوب أو حتى الوصية وبالذات إذا حاول المدمن إخفائها بداية، فهذا يجب أن يؤخذ كذئير خطر مؤكد ويجب التعامل معه كحالة طارئة.
- 6- إذا كان المدمن يتابع علاجه في المصحة أو يتبع برنامج علاجي، فينبغي للأسرة والأصدقاء الاهتمام (أو إظهار الاهتمام على الأقل) بتطور مراحل العلاج وحالة المدمن وسؤاله عما يشعر به وتشجيعه الدائم على الاستمرار في العلاج.
- 7- ظهور سلوك جديد ومفاجئ على المدمن من الاعتذار لأسرته عما سبب لهم من مشاكل وأنه يشعر بأنه مذنب كثيرا ويجب أن ينال عقابه أو أنه أصبح عبئا على الجميع وأنه إنسان فاشل يعتبر نذير خطر ومؤشر لمشكلة ما أو حالة اكتئاب لديه قد تجعله يفكر في الانتحار.
- 8- إذا لوحظ على المدمن زيادة كبيرة فيما يتعاطاه من المواد المخدرة، فهذا أيضا قد يكون مؤشرا قويا على أفكار انتحارية لديه وينبغي طلب المساعدة عاجلا.
- 9- انتحار شخص مقرب منه كصديق أو ممن يتعاطون المخدرات معه وبالذات لو سمع منه أن هذا المنتحر (محظوظ) وقام بعمل جيد فهذا قد يكون مؤشرا ينبغي التنبيه له من قبل أسرته وأصدقائه.
- 10- الملاحظة للسلوك الانتحاري يجب أن يشمل إبعاد المواد والأسلحة وكذلك مفاتيح سيارته أو أي شيء قد يشكل خطورة على حياته، فيجب إبعادها عنه في كل الأحوال وبالذات عند وجود مؤشر أو تهديد بالانتحار.

تاسعا- الانتحار والاكتئاب Suicide Depression

هناك بعض العلامات التي يستدل بها الأطباء النفسيون على أن بعض مرضى الاكتئاب لديهم دافع قوي على الإقدام على الانتحار ومن هذه العلامات أحساس المريض بالضيق الشديد وبأن صبره قد نفذ ولم يعد لديه القدرة على الاحتمال، وهو في هذه الحالة يبدو مستسلماً ولا يرحب بمناقشة مشكلاته أو البحث عن حلول لها لان الحل بالتخلص من الحياة يبدو إمامه وكأنه الخيار الوحيد والأمثل، في حين يغلق المرض أمامه أية حلول أخرى وقد يتساءل المريض عن أهمية الحياة وقيمتها ويذكر أنه لا سند له في هذه الدنيا وأن الحياة مظلمة ولا أمل في المستقبل، ويفسر علماء النفس الانتحار انه نوع من العدوان الداخلي الذي يتردد إلى النفس بدلاً من الخروج إلى المحيطين لدى الشخص. ورغم أن بعض الأشخاص يقدمون على الانتحار دون أن يعرف عنهم الإصابة بالاكتئاب قبل ذلك إلا أن الفحص ومراجعة حالات الانتحار تؤكد أن نسبة كبيرة منهم يعانون من حالات الاكتئاب النفسي الشديد في الوقت الذي أقدموا على ارتكاب فعل الانتحار، وعلى العكس من الفكرة السائدة حول ارتباط الانتحار بحالات مصحوبة بالبطء الحركي الشديد وهبوط الإرادة قد تسبب عجز المريض عن الإقدام على تنفيذ الانتحار رغم أن الفكرة تدور في رأسه، وقد لاحظ الأطباء النفسيون أن الإقدام على الانتحار يحدث في هؤلاء المرضى بعد أن يتلقوا العلاج حيث يبدأ المريض في التحسن الحركي قبل أن تزول أعراض الاكتئاب في بداية الشفاء وهنا يمكن تنفيذ عملية الانتحار. و في الحالات المبكرة من الاكتئاب قد يقوم المريض بإيذاء نفسه حين يلاحظ أن هناك تغير هائلاً قد أصابه ولم يعد يستطيع التحكم في حالته النفسية، ويقوم مرضى الاكتئاب بتنفيذ محاولات الانتحار عادة في ساعات الصباح الأولى وهو الوقت الذي تكون مشاعر الاكتئاب في قمته، وقد لاحظت دوائر الشرطة في بعض الدول الأوروبية أن حالات الانتحار تقع دائماً في عطلة نهاية الأسبوع وفي أيام الأعياد، وتفسير ذلك هو أن إحساس الاكتئاب يزداد عمقاً لدى الكثير من الأشخاص في مثل هذه المناسبات التي يفترض أن تكون فرصة للبهجة والاستمتاع بالحياة، ولوحظ أيضاً زيادة نسبة الانتحار تكون في المدن مقارنة بالمناطق الريفية والسبب هو انعدام الروابط الإنسانية في المدن المزدهمة مما يزيد من شعور الفرد بالعزلة رغم أنه وسط زحام من الناس⁽¹¹⁾.

عاشرا-الاكتئاب Depression

عبارة عن مصطلح يستخدم لوصف خليط من الحالات المرضية أو غير المرضية في الإنسان والتي يتغلب عليها طابع الحزن، هناك أنواع متعددة من الاكتئاب قسمت حسب طول مدة الحزن وعمما إذا كان الحزن قد اثر على الحياة الاجتماعية والمهنية للفرد وعمما إذا كان الحزن مصحوبا بنوبات من الابتهاج إضافة إلى نوبات الكآبة. لا يعتبر الإنسان المخلوق الوحيد الذي يمكن أن

يصاب بالاكتئاب حيث يصاب فصيلة الثدييات قاطبة بالكآبة وقد تم الاستدلال على هذه الحقيقة من خلال إجراء تجارب مختبرية على الفأر والقرد. في الإنسان يصاب عادة 20% من الإناث و 12% من الذكور بنوبة من الكآبة في حياتهم على اقل تقدير وهناك نسبة تكاد تكون ثابتة في مختلف المجاميع البشرية مفاده انه (5% - 10%) من الإناث و 3% من الذكور مصابون بما يسمى نوبة الاكتئاب الكبرى وهذه نسبة عالية جدا مما يجعل نوبة الاكتئاب الكبرى من أكثر الأمراض النفسية شيوعاً⁽¹²⁾.

1-انتشار الاكتئاب

إن أعراض الاكتئاب تنتشر في المجتمع بمعدل يتراوح ما بين 13-20% من السكان، ومن هؤلاء هناك 7% يعانون من حالات اكتئاب شديدة، وهذه الدراسات شملت العديد من الدول في العالم ويبدو من بعض الدراسات أن الدول قد تتراوح في معدلات الاكتئاب ولكن بكل المقاييس تبقى هذه النسب مرتفعة وقد يكون المعدل في العالم العربي على الحد الأدنى لأنه يقع في مناطق أكثر تعرضاً لأشعة الشمس ولا زال فيه من الروابط الاجتماعية والإيمان والتقاليد ما يعطي بعض الحماية للناس، ومع أنه يصيب كل الأعمار لكنة أكثر ظهوراً في العقد الثالث والرابع من العمر، وهي قمة سنوات العطاء عند الفرد، ومعروف أن الاكتئاب أكثر انتشاراً بين النساء منها بين الرجال بثلاثة أضعاف على الأقل، كما أن غير المتزوجين والأرامل والمطلقين أكثر عرضة من المتزوجين خصوصاً من الرجال، أما بين النساء فيبدو الزواج يزيد من فرص الاكتئاب، كما أن هنالك ميلاً لفئات معينة من الناس للاكتئاب أكثر من غيرها، مثل الأشخاص ذوي الشخصيات المتطرفة، ومن يعانون أمراض مزمنة أو أمراض خطيرة، وممن يتعاطون الكحول والمخدرات، كما ترفع معدلات الاكتئاب في نزلاء السجون أما بالنسبة للطبقات الاجتماعية والثقافية فمن الواضح أن جميع الطبقات تصاب بالاكتئاب، مع أن هناك بعض المؤشرات تفيد أن الطبقات المتوسطة أقل تعرضاً للاكتئاب والانتحار من الطبقات الأقل حظاً والعالية، أي الطبقات الواقعة على طرف السلم الاجتماعي والاقتصادي.

2-أسباب الاكتئاب

أ- الوراثة : تعتبر سبب من أسباب الإصابة بالمرض ولا يعرف لحد الآن الأسلوب الدقيق لنقل المورثة المسؤولة عن الكآبة ويعتقد أنها قد تنتقل بواسطة مورثات جسمية مهيمنة أو مورثات جنسية محمولة على الكروموسوم X.

ب-الخلل في توازن الناقلات العصبية Neurotransmitters : وهي المسؤولة عن تنظيم الأيعازات العصبية في خلايا الدماغ ،ومن أهم الناقلات العصبية التي إن نقصت فستؤدي

إلى ظهور أعراض وعلامات الكآبة هي مادة السيروتونين التي تم التركيز عليها مؤخرا حيث تعتبر الأدوية التي تساهم في رفع نسبة مادة السيروتونين من أكثر الأدوية انتشارا في العالم حاليا لعلاج الكآبة.

ج-عوامل توتر خارجية: ومن أهمها فقدان شخص عزيز وفقدان مستوى اجتماعي أو اقتصادي معين والشعور بالذنب نتيجة للإحساس بخرق ضوابط اجتماعية أو دينية والانفصال من علاقة عاطفية والقيام بوظيفة معينة تكون أما تحت أو فوق قدرات الشخص والعيش مع شخص كئيب آخر. لا تؤدي هذه العوامل الخارجية في جميع الأحيان إلى الإصابة بما يسمى نوبة الاكتئاب الكبرى وإنما تؤثر فقط على الأشخاص الذين يملكون عاملي الوراثة والخلل في توازن الناقلات العصبية.

د- الكحول وبعض الأدوية: ويعتبر تناول المشروبات الروحية عاملا مهما في الكآبة ومن الأخطاء الشائعة التي يرتكبها الإنسان ذو عوامل توتر خارجية هو اللجوء إلى المشروبات الكحولية للتخلص من حزنه، ويساعد الكحول بصورة أولية للوصول إلى نوع من حالة الابتهاج أو نسيان المشاكل إلا أن سلسلة من العمليات الكيماوية بعد ساعات من تناول الكحول تحدث في الكبد وتؤدي إلى تكوين مواد تسبب الكآبة، وهناك مجموعة من الأدوية التي تسبب الكآبة بالإضافة إلى الكحول.

هـ- جنس الإناث: قد يتصور البعض إن الإناث أكثر عرضة للإصابة بالاكتئاب من الذكور ولكن هذا التصور خاطئ، ولكن ربما كانت العبارة التالية أدق في وصف علاقة الجنس أو النوع بانتشار المرض مع التحفظ "تمكن طبيعة المرأة وميلها للتحدث عن مشاعرها بطلاقة أكثر من الرجال بشيوع التشخيص بمرض الاكتئاب بين الإناث عنه بين الرجال وقد تحاول المرأة إيذاء نفسها إيذاء جسديا بمعدلات أعلى مما بين الرجال ولكن من ينجح في الانتحار بين الرجال يبلغ ثلاثة أضعاف ما بين الإناث"

و-مدة ما بعد الولادة في الأمهات: نتيجة للاضطرابات التي تحصل لمستويات الهرمونات في جسم المرأة الحاملة بعد الولادة يصاب عادة 10% من النساء بإعراض الكآبة في هذه المدة.

ز- أمراض وعاهات جسمية: هناك قائمة طويلة من الأمراض الجسمية التي تؤدي إلى الكآبة أما نتيجة للطبيعة المزمدة للمرض أو الطبيعة الحرجة للمرض أو نتيجة لاستعمال أدوية معينة في العلاج تؤدي بصورة غير مباشرة إلى ظهور أعراض الكآبة.

ح- الحنين والشوق: ويسببه فراغ في الذات بحيث يمكن تحليله منطقيا وهو العادة على ممارسة بعض النشاطات أو لقاء بعض الأشخاص ومن ثم فقدان هذه العادة يؤثر على الشعور

الداخلي بالرغبة في المتابعة ولكن تعتبر هذه من النوع المؤقت بحيث يزول بزوال هذه الرغبة والعادة على النشاطات الجديدة.

حادي عشر - طرق علاج الاكتئاب

- من المهم جدا أن نتذكر أنه ليس هناك في الحياة حلول فورية للمشاكل.
- حل المشاكل يستغرق وقتا وطاقة وجهدا وصبرا.
- في العلاج لا ينبغي أن ننظر إلى العقل والنفس والبدن كوحدات منفصلة بعضها عن الآخر ، بل ينبغي أن ننظر لها كوحدة واحدة . فلا يمكن معالجة العقل بعيدا عن معالجة - الروح - النفس ، ومن العبث أن نسعى في إصلاح الجسد والروح خاوية خربة .! لقد توصل الطب الحديث (والحمد لله) إلى علاج أكثر من 80% من حالات الاكتئاب، وهناك أكثر من طريقة لعلاج الاكتئاب، منها أنواع عديدة من الإرشاد والعلاج النفسي، وكذلك أنواع من العلاجات الدوائية، تسمى تلك الأدوية بمضادات الاكتئاب، التي تعمل على تصحيح بعض المواد الكيميائية في مخ الإنسان .

1- العلاج الذاتي

وهو علاج ذاتي يطبقه من يشكو من مثل هذه الأعراض بإلحاح ، وأنجح ما يكون هذا

العلاج حين تكون الإرادة القوية ، والهمة العالية ، والعزم والتصميم مرافقا لها.

أ - تقوية الإيمان والصلة بالله جل وتعالى .

- الصبر والاحتساب .

- الأذكار والتحصينات الشرعية .

- قراءة القرآن .

- البعد عن الفواحش والآثام .

- المجاهدة .

ب - الابتسامه .

أثبتت إحدى البحوث العلمية مؤخراً أن الابتسامه تؤثر على الشرايين التي تغذي المخ بالدم فيزداد تدفق الدم إليه مما يبعث في النفس الهدوء والإحساس بالبهجة والسرور (13).

ج - التفاؤل .

تفاعلوا بالخير تجدوه (حديث صحيح) يذكر من باب المزحة: أن أحدهم سقط من الطابق العاشر ، وفي أثناء سقوطه قابله رجل في على شرفة النافذة في الدور الرابع

فسأله : كيف أنت؟! فأجاب الساقط : لا زلت بخير حتى الآن !!

- د - المواجهة وعدم التهرب (تحمل المسؤوليات) .
- هـ - عدم التطلع إلى ما عند الآخرين .
- و - تغيير الروتين (السفر - تغيير المنزل - تغيير العمل -التجديد في الزيارات) .
- ز - هجر العوائد وقطع العلائق .
- ح - الترفيه المباح .
- ط - إذا لم تستطع شيئاً فدعه .

يذكر أن الأصمعي ، لازم الخليل بن أحمد الفراهيدي ليتعلم منه العروض ، ومع شدة ملازمته للفراهيدي إلا أنه عجز عن أن يتعلم العروض . . فأصابه من ذلك اكتئاب شديد!! فكتب إليه الخليل بن أحمد ينصحه ويُسلي عنه ويلطفه بأدب : إذا لم تستطع شيئاً فدعه ، وجاوزه إلى ما تستطيع !! فترك الأصمعي تعلم العروض وانخرط في اللغة فصار إماماً من أئمة اللغة !!

ي - الانخراط في أنشطة بدنية جسدية : أظهرت الدراسات أن رياضة الجري تعادل في فاعليتها فاعلية العلاج النفسي في معالجة حالات الاكتئاب البسيطة والمتوسطة.

ك - عدم الاسترسال مع الأفكار السلبية : الاكتئاب له صفة واحدة رئيسة وهي أنك يجب أن تكون على حذر عندما تفكر فيما يمكن عمله لهزيمته، فالأكتئاب بإمكانه أن يغذي نفسه.

ل - الخطة والمجاسة

أظهرت إحدى الدراسات التي نشرت مؤخراً في مجلة "سينشالز" البريطانية أن الصداقة تحميك من الاكتئاب، كما إن الأصدقاء يساعدون أيضاً في التقليل من خطر الإصابة بأمراض القلب ويعملون على تعزيز نظام المناعة ، فالأصدقاء يشكلون حماية من الإجهاد والاكتئاب ، فخالط من يذكرك بالله ويعينك في ضيقك ويفرح لفرحك ويحزن لحزنك ، جالس كل من يقربك إلى الله لأن القرب من الله يزل الهم والغم والبعد عنه يزيد ذلك.

2- العلاج الاجتماعي

وهو علاج تشترك فيه البيئة المحيطة بالمكتئب من والدين وإخوة ومربين وموجهين ومن أهل الاختصاص وهو يتطلب تجاوباً ذاتياً ممن يعاني من تسلط هذه الأعراض عليه .

أ - الحوار - الاستشارة النفسية

التكلم مع شخص ما مدرب على فن الاستماع، الأمر الذي يسمح للمريض بالتعبير عن مشاعره. فالحديث والاستماع من قبل - شخص ما- يظهر التفهم والقبول قد يعين المريض على اكتشاف الأمور التي تزعجه.

ب- العقاقير

إنها لا تعالج الاكتئاب، لكنها بلا شك تخفف من الأعراض لتتمكن من القيام بشيء ما للتعامل مع الاكتئاب بنفسك، مضادات الاكتئاب لا تنجح مع كل شخص وتسبب أعراض جانبية غير مرغوبة، عادة ما يستغرق الأمر بين أسبوعين إلى أربعة قبل أن يأخذ الدواء مفعوله، بعض مضادات الاكتئاب قد تكون خطيرة عند استعمالها مع عقاقير أخرى، وقد تعاني من آثار انسحاب العقار عندما تتوقف عن تعاطيها.

مصادر ومراجع الفصل السابع

1. India, China have highest suicide rates in the world.
- 2- قاسم حسين صالح، الحوار المتمدن ، العدد: 1945 ، 13 / 6 / 2007.
- 3- شبكة النبا المعلوماتية،الخميس 22 شباط/2007 -4/صفر/1428.
- 4- المصدر نفسه.
- 5-نقلاً عن شبكة المشكاة الإسلامية.
- 6-صحيفة الهند اليوم الصادرة بتاريخ، 11 أكتوبر، 2008 ،اقتبست من شبكة المعلومات العالمية مترجمة .
- 7--صالح بن علي أبو عزّاد، جريمة الانتحار (الأسباب والعلاج) ،أسناذ التربية الإسلامية بكلية المعلمين في أبها ومدير مركز البحوث التربوية بالكلية،بحث غير منشور،شبكة المعلومات الدولية.
- 8-3 <http://www.binbaz.org.sa/audio/noor/003306.mp3>
- 9- [www. admin@thawra.com](http://www.admin@thawra.com)
- 10- ويكيديا الموسوعة الحرة.
- 11- سرحان الخطيب حباشنة ، الاكتئاب، عمان، دار مجدلاوي ، 2001،ص.27.
- 12- لطفي الشربيني،الاكتئاب -الأسباب والمرض والعلاج-، بيروت، دار النهضة ،2001،ص.88.
- 13-- مجلة الصّدِّيق العدد 5 ، 2001 ،صفر 1423 هـ .



نبذة عن المؤلف:

*الأستاذ الدكتور محمد صالح ربيع العجيلي

*تولد: 1960 محافظة ديالى.

*شهادة البكالوريوس من كلية الآداب جامعة بغداد عام 1983.

* شهادة الماجستير من كلية الآداب جامعة بغداد عام 1989.

* شهادة الدكتوراه من كلية التربية جامعة المستنصرية عام 1995 .

*حصل على لقب الأستاذية عام 2006.

*نشر للمؤلف الكتب الآتية:

1-دولة الإمارات العربية المتحدة دراسة في الجغرافية السياسية، مركز الدراسات الإستراتيجية

، أبو ظبي، 2000

2-مدن الموانئ العربية تحليل جيواستراتيجي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001.

3-ظاهرة الفقر في الوطن العربي الواقع والأسباب والنتائج، دار الشؤون الثقافية العامة، 2007.

4-طرائق التفكير العلمي ، دار الكتاب، بغداد، 2009.

5-جغرافية المدن (كتاب منهجي) ، دار الكتاب، بغداد، 2010 .

6-معجم المصطلحات والمفاهيم الجغرافية(الجزء الأول) دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان

، 2012.

7- معجم المصطلحات والمفاهيم الجغرافية(الجزء الثاني) دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان

، 2012.

8- التعليم العالي في الوطن العربي -الواقع والاستراتيجيات- دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان

، 2012.

9- مثلث الرعب العالمي -الجزء الأول- الجريمة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2013.

10- مثلث الرعب العالمي -الجزء الثاني- الجريمة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2013.

11- مثلث الرعب العالمي -الجزء الثاني- الجريمة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2013.

*كتب 47 بحثاً منشوراً ضمن اختصاصه في الجغرافية منها 17 بحثاً في مجلات عربية .

*شارك في 19 مؤتمراً علمياً وندوة علمية داخل العراق وخارجه .

*أشرف وناقش العشرات من اطاريح الدكتوراه ورسائل الماجستير.

*عضواً في العديد من اللجان العلمية والامتحانية في كلية التربية ومستشاراً علمياً في لجنة تسمية

شوارع مدينة بغداد.

*عضواً في الجمعية الجغرافية العراقية .

*عضواً فخرياً في جامعة لاهاي الدولية -أمستردام- هولندا.

* رئيس قسم الدراسات الجغرافية في مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية للمدة

1997- 2000.

*أستاذاً في جامعة درنة-ليبيا-للعام الدراسي 1999-2000.

